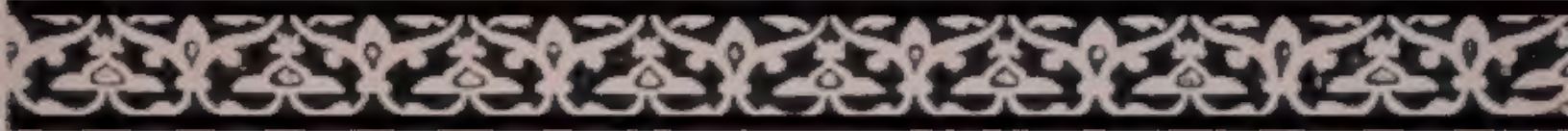


الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا



الدكتور / حسن أحمد محمود

دار الفكر العربي

الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا

تأليف

الدكتور حسن أحمد محمود

أستاذ التاريخ الإسلامى - جامعة القاهرة

مكتبة الطبع والنشر
دار الفكر العربى
١١ شارع مرادى - القاهرة
٧٥٠١٦٧ - ٧٦٠٥٢٣ - ١٣٠٤١٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثالثة

اشتركت في بعثة طوفت بإفريقية ، ترانا بالصومال وأقنا زمناً ، بمدينة نيروبي عاصمة كينيا ، ثم انطلقنا إلى غرب إفريقية عبر أعلى النيل ومنطقة بحيرة شاد ، ونزلنا بمدينة لاجوس عاصمة نيجيريا ، ثم انتهينا إلى مدينة كانو عاصمة نيجيريا الشمالية . في كل هذه البلاد التي زرناها رأينا حياة إسلامية ناهضة . وشعوباً مسلمة متمسكة بدينها إلى أبعد الحدود ، وثقافة إسلامية مزدهرة ، غابت ثقافة الغرب فغلبها . ولم تكن الصورة تخالف في كل بلد من هذه البلاد : شعور بالأخوة الإسلامية بعيد الغور ، وإحساس بزعامة مصر الفكرية عميق الجذور ، وتلهف على تراث العروبة ، وتنسم لأخبار المسلمين .

وقد عدت وفي ذهني صورة واقعية لا زيف فيها عن هذه الأخوة الأصيلة ، وهذه الروابط الثقافية التي غابت الزمن لم تنفصم عراها ولم تن قوتها ، فأخذت على نفسي أن أؤرخ للإسلام في إفريقية كلها ، وأن أكشف ما استطعت عن هذه القوة الروحية الخفية التي تجمع بين العرب والمغاربة والسودانيين والأحباش والصوماليين والزنجاريين وأهل كينيا ومسلمي غرب إفريقية في هذا الرباط الروحي ، وأن أهيب للمكتبة العربية كتاباً يعالج هذا الموضوع . واعزمت أن أنتج تاريخ الإسلام في هذه القارة منذ البداية الأولى حتى العصر الحاضر ، ورأيت أن تكون معالجة هذا الموضوع في كتاب واحد .

يعرض الكتاب لتاريخ الإسلام والثقافة العربية في إفريقية منذ الفتح العربي حتى القرن التاسع عشر حين خضع المسلمون في أرجاء هذه القارة للاستعمار الغربي . وقد خصصت الباب الأول من هذا الكتاب لدراسة التطورات العامة التي

مرت بها الثقافة الإسلامية في هذه الفترة والقوانين الطبيعية التي خضعت لها . فعرضت لأهمية إفريقية للعالم الإسلامي ، وأشرت إلى أن انتشار الإسلام كان في الحقيقة انتشار لظواهر ثلاث : الثقافة العربية ، الدين الإسلامي ، اللغة العربية .

وعرضت للتطورات العامة التي مرت بها كل ظاهرة منها ، وأشرت إلى وسائل انتشار الإسلام ثم لطبيعة القارة وأثرها في هذا الانتشار ، ثم طبقت ما انتهت إليه من أسس في دراسة انتشار الإسلام في الأوطان الإفريقية وطناً وطناً .

أفردت الباب الثاني لانتشار الإسلام في مصر وبلاد المغرب على هدى ما انتهت إليه في الباب الأول ، مع العناية بوجه خاص بأثر كل من مصر والمغرب في انتشار الإسلام في بقية أجزاء القارة .

أما الباب الثالث فقد خصصته لدراسة انتشار الإسلام في غرب إفريقية . أما انتشار الإسلام في السودان وادي النيل فقد عالجت في الباب الرابع ، وقصرت الباب الخامس على دراسة انتشار الإسلام في بلاد الحبشة وشرق إفريقيا .

ولست بحاجة إلى أن أشير إلى الوقت والجهد الذي أنفقته في جمع شتات هذا الموضوع الغامض ، والإحاطة بنواحيه المختلفة والتأريخ للإسلام في نحو اثني عشر قرناً ، ولعل قد حققت الغاية التي ظلت أعمل من أجلها طيلة أعوام حافلة بالعناء ، وحسبي أني كشفت معالم الطريق لمزيد من البحث والدرس والعناية بمستقبل هذه القارة التي انجابت ظلماتها بمشرق شمس الحرية من وادي النيل . هذا وقد نفذت الطبعة الثانية وها هي الطبعة الثالثة بين يدي القارئ الكريم .

وأرجو أن يلقى هذا الجهد نفس القبول من جمهوره القراء وليرغفروا لي إذا كنت قد أخطأت أو نسيت . وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

حسن أحمد محمود

يوليو ١٩٨٦

الباب الأول



طبيعته انتشار الإسلام
والثقافة العربية في أفريقيا



11-2-102

11-2-102

فيلعب العالم الإسلامي دوراً هاماً في التنمية الاقتصادية العالمية ، حيث أن مساحته تبلغ ١٤٠ مليون كم^٢ ، وسكانها ١٠ مليارات نسمة ، وإنتاجها ١٠ مليارات دولار ، وهي بذلك تحتل المرتبة الأولى من حيث المساحة ، والثانية من حيث السكان ، والثالثة من حيث الإنتاج .

أهمية إفريقية للعالم الاسلامي :

قد يكون من القول المعاد أن تبين المكانة العظيمة التي تحتلها أفريقيا من العالم من حيث مساحتها ، وعدد سكانها ، وثرواتها الدفينة ، وإمكاناتها الاقتصادية وموقعها الاستراتيجي .

إذ أن مساحتها ١١٢٦٢٠٠ ميل مربع ، فهي إذن خمس مساحة الكرة الأرضية كلها ، يعيش بها نحواً من ١٩٨ مليون نسمة ، منهم خمسة ملايين من المستعمرين البيض ، فسكانها إذن ٨٪ من سكان الكرة الأرضية جميعهم . وإمكاناتها الاقتصادية تفوق الوصف ، من حيث تنوع الموارد الاقتصادية بتنوع اليشات ، واختلاف الموقع والمناخ .

فالبلاد الواقعة شمال الصحراء الكبرى تنتمي اقتصاديا وجغرافيا لمنطقة البحر الأبيض المتوسط ، على حين نجد البلاد الواقعة جنوب الصحراء تضم خليطاً عجيباً من الأجناس والمعالم الجغرافية والموارد الاقتصادية .

فإفريقية الوسطى اقتصادها استوائي محض ، يعتمد على الزراعة الطبيعية وتصدير بعض السلع المعدنية والزراعية والغاية ، على حين في شرق إفريقيا تزرع الحاصلات الاستوائية والدفينة مثل القطن والبن والطباق .

واتحاد جنوب إفريقيا أكثر هذه البلاد تطوراً في الناحية الاقتصادية ، فهنا الإقليم لم تتطور موارده الزراعية والمعدنية فحسب ، بل قطع خطوات لا بأس بها في سبيل الاقتصاد الصناعي المتنوع ، وقد أنشئت بها صناعة للصلب تنتج ١,٢ مليوناً من الأطنان سنوياً ، وبها صناعة للأسمت إنتاجها ٢,٣ مليون طن في السنة ، بالإضافة إلى صناعة المتفجرات والبكباتيات والزيت والآلات الكهربائية والنسيج وغيرها من الصناعات الهامة .

وساهمت هذه القارة بنصيب وافر في الإنتاج العالمي ، في ميدان السلع العالمية ، فهي مثلاً تنتج نحو ٩٨٪ من ماس العالم ، و ٥٥٪ من ذهبه و ٢٢٪ من نحاسه عدا المنجنيز والكروم واليورانيوم ، وهي فوق هذا تنتج نحو ثلثي محصول الكاكاو العالمي : ونحو ثلاثة أخماس إنتاج زيت النخيل ، هذا عدا إمكاناتها العظيمة في القوى المائية .

إذن هذه القارة مورد اقتصادي عظيم في المعادن والزراعة والمواد الخام الغاية والرغوية .

وقد أدركت الولايات المتحدة هذه الحقائق المذهلة في السنين الأخيرة فاهتمت باقتصاديات القارة اهتماماً بالغاً ، حرصاً منها على استغلال ما لم يستغل من ترابها البكر ، واحتفاظاً بأسواقها العظيمة وبما تنتجه من مواد استراتيجية هامة ، ومحاولة للإبقاء على هذا الثراء العريض في يد الغرب فلا ينافس فيه منافس ولا يتسرب إليه طامع ، في الوقت الذي أصبحت فيه دول أوروبا ذات الماضي الاستعماري العريق عاجزة عن الاضطلاع بهذه المسؤوليات .

ظهر هذا الاهتمام الأمريكي في الناحية الاقتصادية في مضاعفة رأس المال الموظف في هذه القارة . كان رأس المال هذا سنة ١٩٤٣ نحو ١١٣ مليون دولار وأصبح في سنة ١٩٥٠ ٣١٢ مليوناً ، وإذا به في سنة ١٩٥٢ يبلغ ٤٥٨ مليوناً ، فبالآلة في سنة ١٩٦٢ ٩٩٩ . نحو ٥٢٪ من هذا المال موظف في الصناعات البترولية للتسويق والتوزيع . أو الاستخراج ونحو ٣٠،٥٪ من المناجم ونحو ١٥٪ في الصناعات الأخرى ٧٥٪ من هذا المال متركز في ليبيا وستة وستون مليوناً من الدولارات في جنوب إفريقيا ، و ١٥٪ من رأس المال في إفريقيا البرتغالية و ٣٦ مليوناً في المستعمرات الفرنسية و ١٢ مليوناً في الكونغو (١) .

وأبلغ دلالة على ما ذكرت هذا الجدول الذي يبين تطور توظيف رأس المال الأمريكي بين عامي ١٩٤٣ و ١٩٥٠

(١) Bernard Blankenhimer : Private Enterprise in Africa : Africa to day, p. 453.

٨ - تبياناً لاهمية هذه الميادين الاقتصادية في حياة القارة -

النسبة المئوية	عام ١٩٥٢	النسبة المئوية	عام ١٩٤٢	نوع الإنتاج
٣٠,٤%	١٤ مليون دولار	٢٠,٤%	٣٣ مليون دولار	التعدين
٥١,٩%	١٦٢	٣٢,٧%	٣٧	السياحة
١٥,١%	٤٧	٩,٧%	١١	الصناعات
٦,٧%	٢١	١٥,٩%	١٨	التجارة
٤,٣%	١٣	١٧,٧%	٢٠	الزراعة

بل هذا الاهتمام تجاوز الميادين الاقتصادية إلى الميدان الاستراتيجي . هذه الأهمية الاستراتيجية ألقى عليها مزيداً من الضوء الأميرال ريتشارد كانولي (١) في مقال له في مجموعة المقالات المسماة بإفريقية اليوم " Africa to day " التي أشرف على تحريرها الأستاذ جروف هينز Grove Haines ، هذه المواقع الاستراتيجية على هذا النحو :

- ١ - طنجة وجبل طارق .
- ٢ - قاعدة مراکش الجوية وقاعدة الدار البيضاء البحرية .
- ٣ - شمال غرب إفريقية .
- ٤ - ليبيا .
- ٥ - أريتريا - الحبشة - الصومال ومواني مصر - جيبوتي - مقدشو .
- ٦ - جزيرة مدغشقر وأهميتها في حماية مسالك المحيط الهندي .
- ٧ - رأس الرجاء الصالح خصمراً قاعدة سيمونز تاون البحرية .

(١) Admiral Richard Canolly : Africa's strategic significance : Africa to day p. 55.

٨ - قاعدة دكار التي تحرس طرق المواصلات في غرب إفريقيا :

إذا كانت هذه الاعتبارات كلها قد حفزت الولايات المتحدة الأمريكية على مضاعفة الاهتمام بإفريقية ، بأحوالها ومستقبلها ، وانطبعت هذه العناية في ما يكتبه الكتاب الأمريكيون وما تنتجه المطابع الأمريكية من إنتاج أدى خصب زادت خصوصيته في السنوات الأخيرة ، فإنه من الأولى أن لا يكون اهتمامنا نحن معشر العرب في مصر بصفة خاصة، ونحن المسلمين بصفة عامة أقل من الاهتمام الأمريكي بل المنطق يقضي بأن يكون اهتمامنا بإفريقية أضعاف الاهتمام الأمريكي ، لسبب واضح هو أن إفريقية بها نحو من مئتين مليوناً من المسلمين وفق الإحصاءات التي ذكرها مسنيون في كتابه *Annuaire du monde Musulman* (١) .

توزيعهم كما يلي :

٢٢ مليوناً	مصر
	ليبيا
٨,٠٠٠,٠٠٠	طرابلس
٣,٣٠٠,٠٠٠	برقة
٤٥,٠٠٠	فزان
٣,٥٠٠,٠٠٠	تونس
٧,٧٢٠,٠٠٠	الجزائر
٩,١٦٦,٠٠٠	المغرب الأقصى
٦٠,٠٥٠	أفريقيا الغربية الأسبانية
٥٠٠,٠٠٠	موريتانيا
١,٥٠٠,٠٠٠	النيجر
١,٤٠٠,٠٠٠	السنغال
١,٩٠٠,٠٠٠	السودان الفرنسي

١,٣٨٠,٠٠٠
 ٥٠٠,٠٠٠
 ٣٠٠,٠٠٠
 ١٠٥,٠٠٠
 ١٣٠,٠٠٠
 ٣٠٠,٠٠٠
 ٩٣٠,٠٠٠
 ٣٠٠,٠٠٠
 ١٣٠,٠٠٠
 ٣٠,٠٠٠
 ١٤,٠٠٠,٠٠٠
 ٥٠٠,٠٠٠
 ٣٠,٠٠٠
 ٩٧٠,٠٠٠
 ٧٠,٠٠٠
 ٤,٩٠٠
 ١٥٠,٠٠٠
 ٧٩,٠٠٠
 ٨٧٠,٦٦٨
 ٦٤,٠٠٠
 ٣٠٠
 ٦٤,١٦٢
 ١,٠٠٠,٠٠٠
 ١٥٠,٠٠٠
 ١,٠٠٠,٠٠٠
 ١,٧٥٦,٠٠٠
 ٣٥٩,٠٠٠
 ١,٧٤٥,٠٠٠
 ٦,٠٠٠,٠٠٠

ضيانا الفرنسية (غينيا)
 القوتنا العليا
 ساحل العاج
 داهومي
 جمبيا البريطانية
 جيانا البرتغالية
 سيراليون
 ليبيريا
 ساحل العاج
 توجو
 نيجيريا
 الكاميرون الفرنسية
 أوبانجي شاري
 منطقة بحيرة شاد
 الكونغو
 روديسيا
 نياسالاند
 جنوب إفريقيا
 مدغشقر
 موريتيوس
 ميشل
 زنجبار
 تنجانيقا
 أوغنده
 كينيا
 الصومال
 أريتريا
 الحبشة
 السودان

من هذا التوزيع قديماً لنا حقائق هامة عن الإسلام في إفريقيا ، تكمن مسحة انتشاره إلى أبعد الحدود ، فقد اخترق نطاق الغابات في غرب إفريقيا ، كما انتشر على طول الساحل الغربي ، ودخل مع بعض المهاجرين إلى الكونغو وكذلك الحال في الشرق ، نفذ جنوب السودان وهضبة البحيرات ، وتدفق إلى قلب الهضبة الحبشية وتخطى ساحل شرق إفريقيا إلى المناطق الداخلية ، إلى كينيا وتنجانيقا ، ودخل جنوب إفريقيا مع المهاجرين المسلمين من سكان شبه القارة الهندية ، ولا زال ينتشر حتى اليوم إلى آفاق جديدة (١) .

وفي الجولة التي قمنا بها في صيف ١٩٥٦ موفدين من قبل المؤتمر الإسلامي للقيام بدراسة شاملة لأحوال المسلمين في إفريقيا لمسنا نهضة شاملة نفشت بين مسلمي القارة من جميع النواحي . فقد ترك المسلمون سياستهم السلبية القديمة ، وأخذوا بأسباب انحصار الغربية ، وأصبحوا في غرب إفريقيا مثلاً عنصراً فعالاً في بعث الوعي القومي . وشاركوا في الحركات التحريرية وتولوا أعظم المناصب ، ولم ينسوا تقاليدهم الإسلامية أو ثقافتهم الإسلامية بل حرصوا على التعلم الديني حرصهم على الحياة ، وتجاوبوا مع جماهير المسلمين في كافة أنحاء العالم الإسلامي .

وكذلك الحال في شرق إفريقيا ، نفس الشعور ونفس الاتجاه . ففي الصومال مثلاً استطاع الإسلام أن يصمد لإضطهاد دام أكثر من ثمانين سنة ، خرج منه صلباً قوياً ، وإحساس أهل الصومال بالشعور الإسلامي وتطلعهم إلى الوحدة الإسلامية وتمسكهم بتعاليم الإسلام لا يقل عن تمسك أهل غرب إفريقيا ، وكذلك نفس الحال في كينيا وزنجبار .

الإسلام إذن قوة كبرى في هذه القارة ليس من حيث العدد ، بل من حيث أثر المسلمين البالغ في الحركات التحررية ، وفي النشاط الثقافي والاقتصادي والاجتماعي . فالإسلام هو القوة التي يهرب الاستعمار جانبها ، ويعمل لها كل حساب .

هذه القوة الماثلة يجمعها شعور مشترك ، وثقافة مشتركة ومثل مشتركة ، فلو قلر لهذه الوحدة أن تتوطد دعائمها للعبت دوراً عظيماً في تشكيل مستقبل هذه القارة .

التي لم تدل على حد كبير إنجود جواتو. وكان للعبارة المتفجرة تخطيط من عالم الدين المظلم إلى نور الحضارة (١) ، وبدأت تحتاجها حركات تحررية منبعثة من إقليم مصر منذ ثورته في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، ونشرت فوق صفحة القارة كلها .
لهذه الاعتبارات كلها كان لزاماً أن نؤرخ للإسلام في إفريقيا. لتلفت النظر إلى الدور الخطير الذي يقوم به في تشكيل مستقبل القارة وتقرير مصيرها .
ولفهم تاريخ الإسلام في إفريقيا فهما صحيحاً ، لابد أن نوضح بعض الأمور الهامة التي تساعد على فهم التطورات التي مر بها والظروف التي خضع لها .
وأول ما يجب أن نلفت إليه الأنظار أن انتشار الإسلام في الحقيقة انتشار لظواهر ثلاثة :

١ - انتشار الثقافة العربية الإسلامية .

٢ - انتشار الدين الإسلامي والشريعة الإسلامية .

٣ - انتشار اللغة العربية نفسها باعتبارها لغة للحديث والتخاطب .

ولا يفهم من ذكر هذه الظواهر على هذه الصورة أن كل ظاهرة منها كانت منفصلة عن الأخرى تماماً إنما كانت محتلطة متشابكة تسير جنباً إلى جنب وتتفاعل كلها في وقت واحد ، وتخضع جميعها لمؤثرات تكاد أن تكون واحدة .

انتشار الثقافة العربية في إفريقيا :

أما عن الناحية الأولى وهي انتشار الثقافة العربية الإسلامية في إفريقيا فالواضح أنها فصل من قصة الحضارة الإسلامية عامة ، وأنها خضعت لنفس الظروف والأحوال التي خضعت لها الحضارة الإسلامية ، ومرت بنفس التطورات . وهي بذلك خليفة بأن تدرس في ضوء القوانين العامة التي تدرس الحضارة الإسلامية في ضوءها .

فقد جابهت الثقافة الإسلامية في إفريقيا نفس المشكلة العامة التي جابهتها الثقافة الإسلامية في العصور الوسطى ، وهي مشكلة أو ظاهرة الالتقاء الثقافي بل هي

المشكلة التي تواجهها الحضارات الإنسانية عموماً حينما تلتقي وتخطط وتبادل
التأثيرات المتبادلة بين الحضارات المختلفة.

هذه الظاهرة درسها الدارسون وعرض لها فلاسفة التاريخ، ووضعوا لها القواعد
والأصول، ومن عرض لهذا الموضوع المؤرخ توينبي، الذي انتهى لقوانين معينة
لهذا الالتقاء الثقافي وهي :

- ١ - الخصائص الفردية للثقافة الأجنبية أكثر قبولاً من الثقافة في مجموعها ،
ومعنى هذا القول أن الثقافة قد لا تقبل ككل إنما قد تقبل بعض أجزائها .
- ٢ - قوة النفاذ لأي إشعاع تكون على نسبة عكسية للقيمة الثقافية لذلك
الإشعاع .

معنى هذا أن أتمة الجوانب الثقافية أعظمها نفاذاً وأعمقها أقلها نفاذاً .

- ٣ - قبول عنصر من ثقافة أجنبية سيجبر وراءه سائرهما .

فالمسلمون أقبلوا أول الأمر على الصناعات وعلى ألوان الحياة الاجتماعية ثم
مالبتوا أن تعمقوا في هذه الثقافات وفي فهمها ،

- ٤ - هذا العنصر المفرد أكثر إزعاجاً للمدنية المستعيرة مما لو تبنت الثقافة
الأجنبية كلها . بمعنى أن أخذ عنصر من عناصر أي ثقافة دون فهم كنه الثقافة
كلها قد لا يستطاع هضمه ، ومن ثم يصبح عامل إزعاج .

والثقافة الإسلامية في إفريقيا في الفترة الممتدة من القرن السابع الميلادي حتى
خضوع المسلمين للثقافة الغربية في ظل الاستعمار الأوروبي واجهت هذه المشكلة أو
تعرضت لهذه الظاهرة . ففي مصر التقت الثقافة الإسلامية الوافدة بثقافات إفريقية نابعة
من جامعة الإسكندرية ذات التقاليد الحضارية العريقة كما التقت بثقافة مصرية قديمة ،
والتقت النظم الإسلامية بنظم بيزنطية ، ومن هذا الالتقاء ظهر طراز من الحضارة
إسلامية الصورة متأثر في طابعه بهذه الثقافات القديمة ، أعني أن الإسلام أخذ وأعطى ،
ومن هنا أخذ وهذا العطاء ظهرت الحضارة الإسلامية في مصر .

وفي بلاد المغرب حدث نفس الشيء ، الالتقاء بثقافات إفريقية أحياناً ولاينية
أحياناً أخرى ، بل وفينيقية أيضاً ، وبالتقابل ونظم درجت عليها شعوب البربر منذ

ما فيها السخيق ، وحينما تمت الحضارة الإسلامية في المغرب واكتمل نموها حتى بلغ
الغاية في العهد الموحدين مثلا وضحت فيها هذه الصورة الإسلامية العامة مخططة
بتأثيرات وتقاليد مغربية عتيقة .

والوطني الزنجي الصنم شهد هذه الظاهرة حينما دخل إليه الإسلام وفي ركابه
الثقافة العربية الإسلامية ، فأهل البلاد حينما أسلموا وتشرّبوا الثقافة الإسلامية لم يهملوا
تقاليدهم القديمة ، إنما قاموا بنوع من الملازمة بين تقاليدهم المحلية الموروثة وثقافتهم
الإسلامية المكتسبة .

وحدث هنا ما حدث في مصر والمغرب ، ونشأت بعد فترة من التطور
حضارة إسلامية الشكل ونجبة الطابع ، تتضح لك هذه الحقيقة بدراسة ما كتبه
القلقشندي في صبح الأعشى الجزء الخامس ، وابن بطرطة في رحلته عن بعض مظاهر
الحياة في السلطنات الإسلامية التي قامت في غرب إفريقيا ، أو وسطها ، مثل سلطنة
مالي وغيرها .

فتظهر التأثيرات الزنجية واضحة في طريقة جلوس السلطان للمظالم ، وفي لباسه
وفي المحيطين به واستخدامهم الطبول المصنوعة من القصب والقرع ، وطريقة الجلوس ،
والتمرغ في التراب بين يدي الملك لإظهار الخضوع (١) .

يضاف إلى هذا ما ذكره ابن بطرطة من وصف للتصوّر والحياة السلطان وإشارته
لبعض المناصب والمصطلحات الإدارية مثل : نائب السلطان والقرارية (الأمراء)
والترجمة (٢) .

ونجد نفس هذه الظواهر في السودان وادي النيل ، في السلطنات الإسلامية التي
ظهرت في القرن السادس عشر الميلادي ، فيما يسوقه نعم شقير (٣) في كتاب تاريخ
السودان عن نظم الحكم في دارفور ويظهر فيه هذا الخليط الظاهر بين التأثيرات
الإسلامية والتأثيرات المحلية في عادات السلاطين وأخلاقهم ، وفي ملكية الأرض

(١) القلقشندي : صبح الأعشى - ص ٥٠٠ .

(٢) ابن بطرطة - ص ١٨٨-١٨٩ .

(٣) نعم شقير : تاريخ السودان - ص ١٢٧ - ١٢٩ .

وفي الإلقاب والنظم والرسوم ، فحاشاكم بالأقليم يسمى مقلد وفأري وأبو شيخ هو كبير
الخصيان ، وملك النجاشة ، وملك الحنابدين ، وملك داديات السلطان ، وإكل سلطان
وكيل يسمى الكامنة .

وظهر هذا الاختلاط حتى في ميدان القضاء فهناك القانون العرفي الذي جمع في
كتاب واحد عرف بقانون دالي إلى جانب الشريعة الإسلامية ، ونجد نفس الشيء
فيما يذكر عن ملوك القونج وتقاليدهم ورسومهم وتتجلى نفس الصورة فيما أورده
ابن بطوطة عن سلطنات مقدشو وكلوة في شرق إفريقية (١) .

وتاريخ الثقافة الإسلامية عامة وفي إفريقية خاصة في الحقبة التي حددناها يمكن
أن يقسم إلى مراحل أو إلى فترات متميزة ، فقد حاول M. Abel على مدى قوانين
توينبي أن يقسمه إلى ما يلي :

١ - مرحلة الفتح والتشرب ، من دخول الإسلام حتى اكتمال التأثير الإسلامي .
٢ - رد الفعل واستبعاد النواحي المدنية ، وقد استمرت هذه المرحلة من
اكتمال التأثير الإسلامي حتى بداية العصور الحديثة .

ولكن هذا التقسيم لا يستقيم مع لفهم الصحيح لتاريخ الثقافة العربية ويمكننا
أن نقسم مراحل هذا التطور تقسيماً أفضل على النحو الآتي :

١ - مرحلة ازدواج الثقافات : الثقافة الإسلامية بطابعها المعروف والثقافات
الحالية لتقنيان وتعيش كل منفصلة عن الأخرى إلى حين .

٢ - بداية الاندماج : في العصر الأموي مثلاً حينما احتاج العرب إلى الصناعات
والمهندسين من أهل الذمة لبناء القصور والمساجد ، ونشأ علم التفسير وبدأ يواجه
أموراً وردت في القرآن مجملة ، فاحتاج المفسرون إلى مزيد من القصص والأخبار
النسبت عند أصحاب العلم الأول ، واقتربت المسافة بين التيارين في هذا العصر اقتراباً
شدداً وبدأت المحاولات الأولى لتعلم هذه المعرفة القديمة ، وظهرت طلائع حركة
الترجمة .

(١) ابن بطوطة ج ٤ ص ١٥٣-١٥٤ .

بأنه نفيس هذه المرحلة يمكن التعرف عليها في الوطن العربي حينما يتم إسلام الملوك وذوي النفوذ ويتم جمعون بين ثقافتهم الإسلامية والقديمة بمرور الزمن .

٣ - مرحلة الاندماج الكامل في العصر العباسي الكثيرة عدد الدخائل في الإسلام من أهل الذمة وتعلمهم العربية ، واشتداد جرعة الترجمة ودخول الثقافات القديمة إلى الحياة العربية . هذه المرحلة تتضح في موطن الزنجي باكمال الإسلام وقيام السلطات الإسلامية : ملوك مسلمون ورعية مسلمة .

إذن نشأت في إفريقية بيئات حضارية محلية لكل بيئة مقوماتها الخاصة وإنجازاتها الخاصة ، ولكن تجمعها في إطار واحد صفات إسلامية مشتركة من وحدة اللغة والدين والمثل .

والثقافة الإسلامية في الشرق الأدنى وفي إفريقية بوجه خاص بدأت مع ميلاد العصر الحديث تجابه مشكلة من نوع المشكلة التي جابهتها طوابع العصور الوسطى . فلتبحث أسباب هذا الالتقاء ومظاهره ونتائجه في مستقبل الثقافة الإسلامية في إفريقية .

المعروف أن العالم الإسلامي بلغ أوج قوته في الناحية الثقافية في القرن الخامس عشر الميلادي ، فسقوط بغداد في يد المغول وامتداد عدواهم إلى بلاد الشام جعل هذه الثقافة تركز في مصر المملوكية التي أصبحت بحق زعيمة الإسلام في هذه الناحية والمقرنيزي ومعاصروه واللاحقون به يمثلون أحسن ما وصل إليه تطور الفكر الإسلامي في القرن الخامس عشر .

وتركزت الثقافة الإسلامية في المغرب الأقصى في تطور مشابه فقد طرد المسلمون من الأندلس وفر كثيرون إلى المغرب الأقصى بفهم وعلمهم وثقافتهم ، وكانت الثقافة الإسلامية قبل ذلك قد زحفت إلى قاصية المغرب في أعقاب غارات الحلالية (١) .

وشهدت إيران نهضة مماثلة فقد أفاق من آثار غزو المغول ونهضت نهضة موفقة في عهد الصفويين ، وعهدهم عهد زاهر في تاريخ إيران وبقيت لهم آثار معمارية عظيمة في أصفهان (٢) .

(١) نجلاء عز الدين : العالم العربي ص ١٢ .

(٢) بارثولد : الحضارة الإسلامية ص ١١٨ .

وأصبحت اسنول نفسها في ظل العثمانيين إحدى مراكز الحضارة الكبرى للعالم الإسلامي . ولم يكتف الترك بمجرد التعريف بالتراث البقي عن الماضي بل أبرزوا أسلوباً جديداً في فن العمارة يخالف العمارة الإيرانية (١) .

وطلت الدولة المغولية في الهند إمبراطورية قوية حتى القرن السابع عشر والآثار المعمارية التي خلفتها الدولة المغولية من ذلك العهد عظيمة . لوفورنت بالآثار الأوربية المعاصرة

وفي عرب إفريقية أصبحت مدينة تنككت طوال القرن الخامس عشر والسادس عشر من مراكز النهضة العلمية ، وعلمائها بارون علماء المدارس الإسلامية الأخرى في الفترة والإنتاج . وامتدت هذه النهضة إلى سنار وإلى مرمر ومقدشو وكلوة وزنجبار وغيرها من مراكز الإسلام في إفريقية (٢) .

كل هذا يدرك على أن القول بأن العالم الإسلامي في ذلك العصر كان في نوم عميق قول مبالغ فيه ينتقص من قوة الحضارة الإسلامية وأصالتها .

ومن الإسراف في القول أن يرى العثمانيون بأنهم سر تأخر العالم الإسلامي وسر ما أصاب الحضارة الإسلامية من ركود وجسود .

والثقافة في ظل الحكم التركي لم تقل كثيراً في مستواها عن العصور السابقة . ونريد أن نسأل من امتد النفوذ العثماني إلى المغرب الأقصى ؟ . طبعاً لم يمتد نفوذ العثمانيين إلى هذا الأفق ومع ذلك لم تنهض مدارس المغرب في ميدان الدراسات الإسلامية نهضة تتفوق نهضة الشرق ومدارسه ، وبقي الصفويون بمعزل عن النفوذ العثماني وكذلك المغول في الهند .

فمن الظلم أن يرى العثمانيون بأنهم سر تأخر المسلمين ، بل من الإنصاف أن يقال أن العثمانيين صاوموا تراث الإسلام ودافعوا عن دار الإسلام ، وأخروا الزحف الأوربي إلى الشرق فترة طويلة .

(١) رافورت ص ١٧ .

(٢) اسنول ترجمه سودا ٢٨ و - بعدها .

وامتداد النفوذ العثماني إلى شمال إفريقيا صان هذه البلاد من حدودان قراصنة أوروبا ، وكان بمثابة الدفاع عن الخط الأمامي لإفريقية ، وامتداد النفوذ العثماني إلى البحر الأحمر كان له أثر واضح في وقف الخطر البرتغالي (١) .

إنما تفسير ما حدث أن أوروبا بدأت تسير في طريق النهضة السريعة من القرن الخامس عشر فصاعداً ، وكان هذا التقدم واضحاً في جميع النواحي الثقافية والعسكرية وكانت جهود الأمسان والبرتغاليين في الكشف الجغرافي طلبية الزحف الأوربي ، وعنواناً للقوة الأوربية المتفجرة الناهضة . فبدأت الحضارة الإسلامية التي كانت قد قطعت آحر الشوط الذي بدأته منذ القرن السابع الميلادي متحلفة عن الركب إذا قيس بما تفجرت به ينابيع أوروبا . كان الغرب يسرف في تقدمه فيبدو الشرق مسرفاً في تأخره وحموده ورجعيته .

وبدأ المسلمون المعاصرون يشعرون بمحطورة ما تنمخض عنه أوروبا من تطورات وبدأوا يسلحون أنفسهم بأسلحة الغرب انتماساً للقوة ، فقد أدركت تركيا فعلاً مسخ تفوق الأوربيين في البحر ، فرأت وجوب إنشاء أسطول كأسطول أوروبا : وظل هذا الأسطول التركي منافساً قوياً لأساطيل أوروبا ، كما تسلموا بالأسلحة النارية. ولكن أوروبا كانت تسابق الزمن ، وكانت انطلاقها انطلاقاً عنيفة ، فتخلف المسلمون عن الركب وأفلت الزمام وانتقلت الأستاذية إلى أوروبا في جميع الميادين (٢) .

وانتهى هذا التطور إلى غايته ، فاحتلت فرنسا مصر ، ثم جلت عنها واحتلت الجزائر وفرضت الحماية على تونس ومراكش ، واحتلت بريطانيا مصر والسودان ، وانتشر نفوذها في شرق إفريقيا وغربها . كما توطن الاحتلال الفرنسي في السنغال والنيجر ومنطقة بحيرة شاد . ووقع الإسلام في إفريقيا في قبضة الدول الأوروبية الاستعمارية (٣) .

Trimingham : Islam in Ethiopia. pp. 78, 83, 100. (١)

Coupland : East Africa and its invaders p. 58.

(٢) بارثولد : ص ١٢٣ .

Haines : Africa to day p. 118—119. (٣)

والاستعمار الغربى الطامع فى الأسواق وموارد الثروة جلب معه ثقافة غربية ذات طابع خاص ، وبدأت هذه الثقافة الوليدة تلتقى بالثقافة الإسلامية .

وهو اللقاء يشبه الالتقاء القديم من بعض الوجوه ، ويختلف عنه من بعض الوجوه المسلمون فى العصور الوسطى التقوا بالثقافات المعاصرة وهم سادة العالم ، ملكوا زمام أنفسهم ، وأخذوا من هذه الثقافات مالا هم دينهم وما اتفق مع حاجاتهم .

أما فى القرن التاسع عشر فقد التقوا بثقافة الغرب فى وقت غلبوا فيه على أمرهم وضعفت وحدتهم السياسية ، التقت العرب بالثقافات القديمة وأخذوا منها مختارين . والتقى المسلمون فى القرن التاسع عشر بالثقافة الوافدة مكرهين .

كانت ثقافة العرب فى القرون الوسطى الثقافة الغالبة التى تأخذ من الثقافات المغلوبة إذا العكس صحيح فى المشكلات الحديثة . كانت الثقافة الغربية الوافدة ثقافة فنية متحررة من نير التقاليد العتيقة البالية تفتق فى كل جيل عن كشف جديد لمواطن القوة فى الطبيعة ، والثقافة الإسلامية تعيش على الماضى وترسف فى أغلاله .

والأستاذ جرنيسوم يصور هذا الفرق بين الثقافتين تصويراً واضحاً ويرده إلى أسبابه المعتولة بقوله : إن سبب تموق أوروبا على الشرق أن أوروبا اعتمدت فى نهضتها على الأفلاطونية وما تمتاز به من تحرر على حين وضع المسلمون أنفسهم فى قوالب جامدة من الأرستطاليسية المحاطة . اكتشف الغرب آفاقاً جديدة ، وعاش العرب فى تراثهم القديم (١) .

وكان لابد للعالم الإسلامى فى إفريقية أن يواجه هذه التطورات الجديدة التى وفدت على الحياة الإسلامية وراحت تهددها تهديداً خطيراً ، وهذه التأثيرات الغربية التى بدأت تزحف إلى محيط الثقافة الإسلامية فى جميع أرجاء إفريقية .

وكانت النطقة الواعية فى العالم الإسلامى فى موقفها من هذه المشكلة الثقافية فريقيين : فريق الأول أحس بحدوث الثقافة الغربية من خير قد يفيد جمهور المسلمين فسعوا إلى الإصلاح عن طريق التقريب بين الهوية القائمة بين الثقافة الإسلامية القديمة والثقافة العربية الوافدة . تحتفظ الثقافة القديمة بخبر ما فيها وتأخذ من ثقافة الغرب خير ما فيها .

هذه الفريق من المصلحين يسمي قرويين الجدد، وهم كانوا يهدفون إلى تحقيق أمور ثلاثة:

- ١ - محاربة البدع والعادات الضارة التي شاعت في حياة الناس .
- ٢ - محاربة الطرق الصوفية ، وما تشيعه بين العامة من إيمان بخوارق ومعجزات .
- ٣ - محاربة بقايا السحر والكهانة وتقليد الأولياء ، وإقامة الموالد ، والأخذ من عادات الغرب التي لا تسيء إلى الإسلام .

والأمر الثاني : إصلاح التعليم العالي وتطعيمه بالأفكار الجديدة والملاءمة بين الشريعة وبين الفكر الحديث ، ففي زعمهم أنه لا إصلاح بغير علم وقد اتخذت هذه الحركة في مصر صفة إصلاح الأزهر وإدخال العلوم الحديثة فيه .

حركة التجديد إذن هي مجرد اتجاه فكري بين طبقة المتعلمين والمفكرين ويرى الأستاذ جب أن الصوفية كانت حرباً على هذه الدنيوية Secularism التي شاعت بين أوساط المتعلمين ، فلما أضعف العلماء الصوفية لم يملأوا الفراغ الذي تركته في حياة الناس ، فلما جاءت المدنية الغربية بزعمها الدنيوية وجدت الباب مفتوحاً والطريق مهيناً .

والأمر الثالث : هو الدفاع عن الإسلام في وجه التأثيرات الأوروبية والهجمات المسيحية ، وذلك بدراسة الأفكار الغربية والرد عليها ، ثم المناذاة بإحداث ثورة في طريقة إدراك المعرفة بمحاربة الوسائل القديمة في اكتساب هذه المعرفة .

فالمعرفة عند الإسلاميين ليست إدراك المجهول إنما هي عملية آلية لجمع المعلوم ، وهذا المعلوم لا يتغير إليه على أنه تطور وتغير ولكنه على أنه خالد ، الأمر الذي ترتب عليه أن المعرفة عندهم لم تعد عنصراً ديناميكياً متحركاً ، إنما هي كم جامد غير متحرك ، وبأنوا يرون أنه لا يعتبر من المعرفة صحيحاً إلا ما يتمشى مع ما هو متفق عليه بإجماع ، كما أن طريقة تحصيل العلم ليست بالتحليل والاستنباط والتجربة بل بجمع ما هو موجود أو باستخدام المنطق الشائع .

لهذا نادى المحددون بضرورة تحرير الإسلام من جموده والقضاء على القيود التي يفرضها الفقهاء على المعرفة ، وكانت الجهود التي بذلها المحددون في إدخال الطريقة التحليلية في الفكر الإسلامي محدودة النجاح (١) .

وقد تجاوزت آراء المحدثين هذه الآفاق إلى أفق جديد هو أفق الخلافة ونظامها. فقد تغيرت نظرتهم إليها بتأثرهم بالمبادئ والأفكار الغربية. فهم لا يستطيعون أن ينكروا أن الإسلام يجمع بين الدين والدولة في شخص الخليفة، ولكنهم يرون أنهم لا يعترفون بالخليفة إلا إذا كان مثقلاً وممثلاً لشرعية الله، فلما ساءت حالة الخلافة العثمانية وتردت فيها تردت فيه من أخطاء فقدت هذا الولاء. وأخذ المسلمون يفكرون في وسائل جديدة تسد هذا الفراغ (١).

وامتدت آفاق المحدثين إلى ميدان الشريعة الإسلامية ومحاولة الملازمة بين الأحوال الشخصية عند المسلمين وبين الآراء الحديثة (٢)، بل كانوا يهدفون إلى خلق نرعة رومانتيكية تحريرية تهدف إلى تخليص الخيال من الآراء المفروضة ودراسة التراث الإسلامي دراسة نقدية تحليلية متحررة (٣).

تتمثل حركة التجديد هذه في مصر في الشيخ محمد عبده وبرنامجه في الإصلاح الذي كان يرى إلى تطهير الإسلام مما تسرب إليه من بدع، وإصلاح التعليم العالي والملازمة بين الشريعة وروح العصر، ثم الدفاع عن الإسلام ضد التيارات الأوروبية (٤).

وامتدت حركات المحدثين فشملت العالم الإسلامي كله، مثلها في الهند الشاعر الفيلسوف إقبال، كما امتدت إلى تركيا.

وانتخدت في بلاد المغرب التي خصصت للاحتلال الفرنسي المباشر صوراً أخرى فقد بدأ التجديد من أعلا، الطبقة العليا تقلد الحاكمن الفرنسيين والطبقة الوسطى تقلد العليا ثم ينتقل هذا التقليد إلى الطبقات الأقل شأنًا.

بل حدث أمر آخر عجيب وهو أن الهوة بين أهل الجديد والقديم لم تكن تتجه إلى الاقتراب أو الاندماج كما حدث في مصر، إنما كانت تتجه إلى العنف أو العمق،

Gibb : op. cit. p. 111.

(١)

Ibid : p. 90.

(٢)

Ibid : p. 11.

(٣)

Gibb : p. 33.

(٤)

فالتمسكون بالتقاليد القديمة ازدادوا تمسكاً بها واعتقاداً أنهم ليسوا أقل مستوى من الحاكين ،، واشتدت مطالبهم بالعودة إلى القديم مهما كان شأنه .

وأخذ التعليم الديني لا يتأله ما ناله في مصر إنما اتجه نحو التوسيع ، فالتعليم الديني في مراکش مثلاً بلغ ثلاثة أضعافه في ثلاثين سنة ، وأجامع الزيتونة في تونس بلغ عدد طلابه خمسة عشر ألفاً . سنة ١٩٤٥ ، وكانت جماعة نهضة العلماء في الجزائر تتجه نحو هذا الاتجاه .

ومن ناحية أخرى نرى طبقة أخرى من المجتمع يدفعها مركب النقص إلى استخدام أدوات أوربا ووسائلها والتشبّه بالأوروبيين في كل شيء واستخدام اللغة الأوربية في المعاملة والمخاطب وإهمال اللغة العربية إلى حد بعيد (١) .

والفريق الثاني من المسلمين رأى أنه لا معصم له من آراء الغرب وأفكاره وشروبه ومفاسده ، ولا منجاة من الضعف والتخاذل الذي شاع في الحياة الإسلامية في ظل الخلافة العثمانية المتداعية إلا بالحركات السلفية والعودة إلى ماضي الإسلام المشرق وأن هذا هو السبيل الوحيد لإنقاذ الإسلام وتطهيره .

وقد اتخذ هذا الاتجاه صورة علمية هادئة تقوم على الدراسة والوعظ والتعليم وتبني لباس إلى ما في الإسلام من خير ، وما في حضارة الغرب من شر . تتمثل هذه النزعة في مدرسة الشيخ محمد رشيد رضا وجماعة المنار ، وما عمدت إليه من تقليد الحنابلة وابن تيمية ، والتي تتشبه مع الوهابية الجديدة التي خفت حدتها في عهد الملك عبد العزيز آل سعود .

وقد وجد هؤلاء استجابة لحركاتهم في العالم الإسلامي كله ، في شمال إفريقيا وفي الهند وأندونيسيا . فقامت في الجزائر جمعية العلماء لمحاربة الصوفية ونشر تعاليم القرآن وأحرزت نجاحاً عظيماً في عهد ابن باديس واستند أثرها إلى تونس ومراكش والهند .

ومن هؤلاء قوم رأوا أنه لا يصلح الحال إلا بالسيف وإعلان الجهاد لتطهير الإسلام من البدع ، وردّه إلى نقائه الأول ، وتجنيد المسلمين لإنقاذ الإسلام مما أصابه على أيدي العثمانيين الضعفاء والاستعمار الغربي الوافد .

فقامت الحركة الوهابية في جزيرة العرب ، فكانت حركة جنتلية ، مثل حركة ابن تيمية وغيرها من الحركات التي ظهرت في الجزائر والعراق وفلسطين في العصور الوسطى ، وأعلنت مبدأ الثورة على الحكومات الباغية وانتشرت دعوتها في البلاد التي خضعت للاحتلال العربي (١) .

ومما يدل على مشاركة مسلمي إفريقيا للعالم الإسلامي في اتجاهاته وانفعالاته ومحتته أن الوهابية لقيت استجابة سريعة في القارة الإفريقية فأثرت في السنوسية التي ظهرت في طرابلس وشمال إفريقيا ، وامتد أثرها نحو بلاد السودان .

ورغم أن السنوسية طريقة صوفية إلا أنها استلهمت تعاليم الدعوة الوهابية في مناهضتها للاستعمار وثقافته ومحازبتها للبدع . وقد استمد السنوسي مؤسس الطريقة هذه التأثيرات أثناء إقامته بمكة يطلب العلم وقت استيلاء الوهابية عليها ، فعاشرهم وتعلم على علمائهم وتأثر بمذهبهم (٢) .

وأمن أثر الوهابية فاختار في نطاق الصحراء الكبرى إلى غرب إفريقيا فقد كان الداعية الوهابي عثمان بن فودي (دنديو) أحد أفراد قبيلة الفولاني في الحج بمكة والتقى بالوهابية ، واعتنق مبادئهم ، وعاد إلى بلاده ، وأخذ يحارب البدع السائدة بين عشيرته وينشر تعاليم الدين الصحيحة ، ويذيع مبادئ ابن عبد الوهاب .

فاستطاع أولاً أن يجمع قبيلته في وحدة متماسكة ، وأعلن الجهاد ضد قبائل (الحوصة) ، وقضى على إمارة غوبر .

وفي سنة ١٨٠٤ أقام سلطنة (سكت) في شمال نيجيريا على أساس الدعوة الوهابية ، ومدت هذه الدولة روافقها على جميع الأقطار الواقعة بين تنبكت وبحيرة شاد ، واحتفظت باستقلالها نحو من قرن (٣) .

Gibb : op. cit. pp. 26—27.

(١)

نجلاء عز الدين ص ٩٥ - ٩٦ .

(٢) أنورالدين : الدعوة في الإسلام ص ٢٧٠ - ٢٧٢ . محمد حبيب ص ٦٢ .

Dubois : Tombouctou pp. 151—152.

(٣)

Page : Wes(Africa p. 35, Hogben pp. 58—61.

Meek, vol. 1, pp. 98—100.

عمود كمت : الفاش

نسبت إلى المهدي . فكان هو الآخر يحس بما رمى به الإسلام المعاصر وبما يجول في أفكار المعاصرين من رغبة ملحة في الإصلاح .

وقد نشر مارسيل ديبوا بعض الرسائل المنسوبة إليه في كتابه عن تمبكتو وقد توفي سنة ١٨٤٤ بعد أن أعلن الحرب على البدع وحرم الخمر والميسر وخلفه أحمدو شيخو . وتابع رسالته في الإصلاح .

وشهد الصومال حركة مماثلة قام بها محمد بن عبد الله حسان ، وهي تشبه من وجوه كثيرة مهدية السودان . فقد كان محمد أحمد الدنقلاوى سامانيا وكان الصومالي صالحيا . وانتهى به الأمر إلى المناداة بنفسه مهديا وأعلن الجهاد على المشركين والأجانب والصوماليين الذين رفضوا الإذعان له

وطل في جهاده يناضل البريطانيون حتى توفي سنة ١٩٢٠ . فكانت دعوة وطنية دينية مخلصه ترمى إلى توحيد القبائل تحت لواء الإسلام ونشر الثقافة الإسلامية وطرد العدو الأجنبي (١) .

وامتدت حركات الإصلاح إلى الطرق الصوفية فقد عمتها نهضة شاملة فعادت الطرق الصوفية القديمة إلى الانتشار ، ونشأت فرق صوفية جديدة ، وراد نشاط التيجانية والقادرية وتمشت الميرغنية في شرق إفريقيا .

وانحدت أهداف المصلحين مع أهداف الصوفية بسبب التقائهما في مقاومة الحضارة العربية والنهوض الأوربي والنزعة المادية والتبشير المسيحي (٢) .

واتخذ بعضها طابعاً تبشيراً صرفاً مثل القادرية والسنوسية ، واتخذ بعضها الآخر طابعاً حربياً مثل التيجانية . وقد خلصت هذه النهضة الدعوة الإسلامية من ركود القرن السابع عشر والثامن عشر (٣) .

وطهر أثر هذه النهضة الصوفية في إفريقية أيضاً ممثلاً في نشاط الميرغنية وغيرها من الطرق كما طهر في الدور الذي قامت به السنوسية ، لكنه ظهرت حركات

(١) عابدين . تاريخ الحبش ص ٢٤٨ - ٢٤٩

Gibb ; op. cit. pp. 29—32.

(٢)

(٣) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٦٠

تيجانية ذات طابع عسكري في غرب إفريقية على يد الحاج عمر في بلاد فوتا جنوب السنغال الأدنى ، وكان قد ذهب حاجا إلى مكة سنة ١٨١٠ ، وانضوي تحت لواء التيجانية ، وأصبح مقدمها في غرب إفريقية ونجول في مصر وبلاد برنو وسكت ، وأنشأ رباطا في فوتا جالون تشبها بعبد الله بن ياسين البنتوني ، ثم جمع الأنصار وأعلن الجهاد سنة ١٨٤٨ ، ولم يوقف نشاطه إلا الاجتلال الفرنسي (١) سنة ١٨٧٠ .

وقامت حركة من هذا النوع في جنوب سنغامبيا على يد أحد الماندينجو يدعى صمدو الذي أنجه أنجها مماثلا لانجاء الحاج عمر ، وبلغت حركته أوجها سنة ١٨٨١ وقضى الفرنسيون عليها وأسروه سنة ١٨٩٨ (٢) .

وامتدت حركة الإصلاح الصوفي إلى بلاد السنغال وقامت طائفة المريدية أسسها أمادو باما الذي تنلمذ على الشيخ سيديا سنة ١٩٢١ ، وأنشأ طريقة جديدة اسمها المريدية ، وهي أصلا من القادرية ، ولكنها تتجه إلى الخضوع المطلق لشيخ الطريقة ، وهي تجسم من قيمة العمل اليدوي . وقد انتشرت هذه الطريقة في السنغال واستطاعت أن تجتذب الكثير من الأنصار ، أصبح أنصارها سنة ١٩٥٢ نحو ٣٥٠ ألف مريد (٣) .

وانتهت انتفاضات القرن التاسع عشر وحركاته الإصلاحية ولم تستطع أن تنفذ العالم الإسلامي من المصير المحتوم .

واستسلم المسلمون ونشر الاستعمار نفوذه في القارة الإفريقية في شمالها وغربها ووسطها وشرقها وخضعت الثقافة الإسلامية منذ مطلع القرن العشرين للتأثيرات الغربية على نطاق واسع ، واختلفت مناهج المستعمرين وأساليبهم في معالجة أمور أمور المسلمين في إفريقية والنظر إلى حضارتهم وثقافتهم .

Dubois ; Toumbetou pp. 152-162.

(١)

L'Islam noir p. 60, Fage pp. 147-148.

(٢) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٣٨٦ - ٣٩٦ .

Massignon ; Annuaire du monde musulman p. 914.

(٣)

فالفرنسيون رأوا في الإسلام وحضارته وتعاليمه وروحه التي توحد بين المسلمين على اختلاف طبقاتهم خطراً أخطره بالخطر الإسلامي Le Peril de l'Islam فعملوا على محاربته والحيلولة دون توسعه وانتشاره والإبقاء على المجتمعات الوثنية، فلم تستطع هذه الأساليب أن تنال من روح المسلمين، وعمدوا إلى إقامة نوع من التوازن بين الإسلام والوثنية (١) وذلك بالمحافظة على النظم المحلية والإبقاء على نفوذ الزعماء وتضييق نطاق العادات القبلية .

ولم تأت هذه السياسة بالنتيجة المتوقعة إذ ليس من المعقول أن تنافس التقاليد الوثنية النظم الإسلامية ، و اضطرت فرنسا إلى أن تعدل هذه السياسة أخيراً .

والبريطانيون كانت لهم أيضاً سياستهم الخاصة فعملوا إلى تفتيت القوى الإسلامية في كل قطر دأب لحكمهم . فعلوا هذا في مصر وشرق إفريقيا ، وفي نيجيريا فصلوا أهل الشمال عن الجنوب ، وأثاروا بين صفوفهم الحن والعداوات ، وأثاروا حرب الطبقات وصرخوا على الأوطان الإسلامية نطاقاً يحول بينها وبين أن تتصل وأن تتعاون وأن تتبادل التأثير . ٩

إلى جانب هذا نشروا التعليم الغربي على نطاق واسع . فرض الفرنسيون لغتهم وثقافتهم في البلاد التي دخلوها في شمال إفريقيا وفي غربها وشرقها . وفعل البريطانيون نفس الشيء ، وانتشرت المدارس والجامعات البريطانية في أكرا بساحل الذهب ، (وإبيدان بنيجيريا) ، وفي كيبالا بأوغندا وفي كينيا وتنجانيقا وزنجبار . وقام المبشرون المسيحيون بنشاط ملحوظ في هذا الميدان الثقافي (٢) .

ولم تفلح هذه الجهود في قهر الروح الإسلامية أو النيل من ثقافة الإسلام ، بل من الغريب أن هذه السياسة قد شدت أزر الإسلام من حيث لا يريدون . فقد كان هذا الإسراف سبباً في نمو روح المقاومة وحافزاً للمسلمين للمحافظة على بقائهم والتشبث بثقافتهم الموروثة بكل ما يملكون من قوة (٣) .

Anderson , Islamic law in Africa p, 1. (١)

Trimingham : Christian Church pp. 4-6. (٢)

Turner : Impact of Western education, Africa 10 day p. 147 (٣)

... يظهر هذا كله بصورة واضحة في المناطق التي خضعت للفرنسيين، ظهرت هذه الروح المحافظة في بلاد المغرب، في تونس والجزائر ومراكش، بل ظهرت في المناطق الإسلامية في غرب إفريقيا. وظهرت هذه الروح أيضاً في المناطق التي خضعت للبريطانيين خصوصاً بين مسلمي نيجيريا الشمالية وهم لازالوا حتى اليوم شديدو التحسك بهذه التقاليد.

ولم يجد الغربيون بداً من مهادنة هذه القوى الإسلامية. فاعترفوا بالإسلام رسمياً، وطبقوا الشريعة الإسلامية، ومنحوا المسلمين مزيجاً من الحريات المدنية والدينية.

ظهر هذا كله في المناطق التي خضعت لعمود بريطانيا، بل ظهر أيضاً في المناطق التي خضعت لنفوذ فرنسا، إذ غير الفرنسيون سياسة محاربة القوى الإسلامية إلى مهادنتها والإفادة منها (١).

ولم يحل هذا النضال دون تسرب بعض المؤثرات الغربية إلى أوساط المسلمين خصوصاً في التعليم المدني وفي تطبيق لقانون الغربي في بعض النواحي وتطبيق النظم الغربية.

كما بدأ المسلمون في السنين الأخيرة يخرجون عن سلبتهم القديمة ويقبلون على التعليم الغربي مع عدم إهمال ثقافتهم الإسلامية، وبرز كثيرون منهم في ميدان الحياة السياسية والاجتماعية (٢).

ثم بدأت طلائع النهضة الحديثة والحركات التحررية في النصف الثاني من القرن العشرين تغذي المسلمين بقوى جديدة وتشد أزهرهم في كفاحهم مع الاستعمار وثقافته الغربية.

ووجد رواد النهضة في مصر وفي غيرها من البلدان الإسلامية المتحررة، كما يقول الأستاذ Harold Smith أن الحضارة الإسلامية التي رماها أعداؤها بالجمود ذات قابلية غربية للنهوض إلى مستوى الغربيين.

Trimingham : Christian Church pp. 4-6

(١)

Unity and varieiy pp. 335-348.

(٢)

فهذه الحصاره ذات أساس متين يمكن من الإصلاح في ميدان السياسة الاجتماعية فإن ما في نظام الإسلام الأساسى من مساواة وديمقراطية يصلح أن تنبع منه أية حركة اجتماعية ترمى إلى التخفيف من الحرمان والفقر اللذين تعانيهما أية طائفة .

والمسلمون يستطيعون أن يعتمدوا على المبادئ الأخلاقية الأساسية في الإسلام في المطالبة بإصدار تشريع يكون من شأنه رفع مستوى معيشة الطبقات الفقيرة ، ومنح طبقات المجتمع كلها فرصا متكافئة في التعليم .

وفي الميدان القانونى يستطيع المجتمع الإسلامى أن يدرك أن وراء جميع القوانين الإنسابة قانوناً إلهياً ثابتاً ، وليست القوانين الإنسانية في أحسن صورها إلا تقريبا للقانون الإلهى . وهذا من شأنه أن يشعر المشرعين بالحرية في أن يلائموا بين قوانينهم وبين لأحوال المتغيرة في العالم الحديث .

وفي الميدان السياسى يستطيع العالم الإسلامى أن ينمى فلسفته الخاصة المميزة دون تقليد للأشكال الغربية ، فالإسلام يعترف بالقيمة الذاتية للفرد باعتباره مدينا بوجوده لله ولا يمكن أن يقبل ما يقضى على الفردية ولا يمكن أن يقبل الرأسمالية الطاغية التى تسود أسمى الغرب .

فدأت النهضة الحديثة تعود إلى هذه الأصول الإسلامية القديمة وتلائم بينها وبين خبر ما ورد في النهضة الغربية الجديدة . وبدأت مقدمات الثقافة العربية الحديثة الجامعة بين هذين المؤثرين تنضج وتنتشر من مدارس مصر وجامعاتها الى أرجاء العالم كله .

وبدأ المسلمون في إفريقيا الذين كانوا حتى أول هذا القرن يقفون من هذه الثقافة الغربية وقفة الخدر الخائف يتعلمون في مصر أصول هذه النهضة الجديدة ، أو بمعنى آخر بدأ العالم الإسلامى في ميدان النهضة الفكرية يقف على قدميه في مواجهة الغرب ، وقد غدت هذه النهضة الحركات التحريرية التى انبعثت من مصر وامتدت إلى آسيا وإفريقية .

انتشار العقيدة الإسلامية :

والظاهرة الثانية هي إنتشار العقيدة الإسلامية وقد خضع انتشارها للظروف التي خضعت لها الثقافة الإسلامية ، وواجهت نفس المشاكل تقريباً .

فكما التقت الثقافة العربية بالثقافات القديمة كذلك التقى الإسلام بديانات قديمة توطدت أقدامها في القارة قبل ظهور الإسلام بوقت كبير .

فاليهودية مثلاً كانت بعض جذورها قد استقرت بمدينة الاسكندرية ، وكانت قد نفذت أيضاً إلى بعض مدن شمال إفريقية ، بل وصلت إلى المغرب الأقصى (١) .

وكانت المسيحية قد استقرت في وادي النيل وانتشرت على نطاق واسع اعتباراً من القرن الرابع الميلادي ، وامتدت إلى شمال إفريقية ، فانتشرت في المدن الساحلية وفي نطاق السهل الساحلي ، ونفذت تأثيراتها إلى المغرب الأقصى والمناطق الداخلية .

ولم يقف التيار المسيحي عند هذا الحد فقد دخلت المسيحية بلاد النوبة على يد المبشرين المصريين وانتشرت بمضى الوقت في بلاد النوبة كلها . ومضت في طريقها جنوباً ، فامتدت إلى سنار وكانت الكنائس والأديرة منتشرة على جانبي النيل في جزيرة مروي وعلى جانبي النيل الأزرق .

وقد عاشت المسيحية في السودان نحواً من تسعة قرون حتى قضى عليها الإسلام (٢) كما انتشرت بين شعوب المنطقة الواقعة بين النيل والبحر الأحمر بين البلميين (Blémyes) وهم الذين يطلق عليهم كثير من المؤرخين اسم البجاة وهم الذين يتكئون في العصر الحاضر من البشاريين وبنى عامر والمهندنوة وغيرهم .

واعتق كثيرون منهم المسيحية في القرن السادس الميلادي ووصلت المسيحية إلى أوج انتشارها حول منتصف القرن الثاني عشر (٣) .

(١) Palmer ; The Bornu, Sahara and Sudan p. 61, 204, 276.

(٢) عبد المزيذ عبد المجيد : التربية في السودان - ١ ص ١٥ .

(٣) المصدر السابق - ١ ص ١٣ .

وكانت المسيحية قد نفذت إلى الهضبة الحبشية على أحد رجال الدين الإسكندرانيين ويدعى فروميتيوس حوالي سنة ٣٣٠ ، أى فى حكم «غيرانا» الذى كان أول ملوك الأحباش اعتناقاً للمسيحية (١).

وقد انتشرت التأثيرات المسيحية من الحبشة وأمتدت حتى ساحل لبحر الأحمر . ولم تقف المسيحية عند حدود السودان وادى النيل ، بل نفذت من المسالك الموصلة بين بلاد النوبة وغرب إفريقيا .

ويرى بالمر أنها انتشرت فى منطقة بحيرة شاد ووصلت إلى برنو وغوبير منحدرة من بلاد النوبة فى القرن الثالث عشر (٢) . ومن المغرب نفذت بعض التأثيرات المسيحية جنوباً حتى أدركت دولة غانة ، ويرى ميبك أن دين غانة القديم خليط بين المسيحية والوثنية (٣) .

وقد دخل الإسلام مصر فى ركاب الفتح العربى ثم دخل المغرب مع الفتح العربى أيضاً ، ثم انتشر الإسلام فى مصر انتشاراً عظيماً إعتباراً من القرن الثالث الهجرى وبقيت معالم من الكنيسة المصرية .

وفى بلاد المغرب اختفت المسيحية تماماً منذ القرن الرابع الهجرى ، واتخذ المغرب صبغة إسلامية بحتة .

ولا نريد أن نشايح ما انتهى إليه أرنولد (٤) فى كتابه الدعوة إلى الإسلام من تحليل لانتشار الإسلام فى هذه المنطق بسبب ما أصاب الكنيسة المسيحية من ضعف أو بسبب فساد رجال الدين ، فنحن لا نشك فى أن الناس دخلوا فى الإسلام غير مكرهين ، تدفعهم إلى ذلك ظروف كثيرة منها مغريات الدين نفسه ، وما يعقب اعتناقه من تغيرات اجتماعية أو سياسية وربما مادية . وكان للدعوة السلمية إلى الدين أثرها الواضح فى دفع التيار الإسلامى إلى الأمام .

(١) عابدين . الحبشة ص ٢٧ - ٢٨ .

(٢) Palmer ; Op. cit. p. 61, 204, 276.

(٣) Meek ; Northern Nigeria, Vol. 1. p. 72.

(٤) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٦ - ٢٢٩ .

« وبدأ الإسلام ينفذ إلى بلاد النوبة بعد فتح مصر، ثم انتشر في هذه البلاد على يد القبائل العربية التي بدأت تغزو مصر وتطلق نحو الجنوب، وقد استمر الصراع بين الإسلام والمسيحية في بلاد النوبة حتى انهيار تلك النوبة المسيحية وانفاس الحجاز أمام الهجرات العربية التي في طريقها إلى الجنوب» .

ثم اندفع التيار الإسلامي نحو الغرب إلى كردفان ودارفور، فوهمها إلى ما حاورها غربا، كما اندفعت التأثيرات الإسلامية عبر المسالك الموصلة بين المغرب والنطاق الشمالي من السودان الغربي آتية على التأثيرات المسيحية التي دخلت البلاد ثم غلبت الصبغة الإسلامية على هذه الجهات آخر الأمر .

وفي شرق إفريقيا نفذ الإسلام إلى أرض البجاة ، وانتشر في المناطق الساحلية وأخذ يغزو الهضبة الحبشية نفسها .

ولم يكتب للإسلام أن يتفوق على هذا النحو إلا بعد نضال وبعده مقاومة عيفة من جانب المسيحية نفسها، فقد ظلت المسيحية في النوبة تقاوم نحواً من تسعة قرون (١) وظلت الحبشة تقاوم حتى مستهل القرن العشرين ، واستطاعت أن تحسر التيار الإسلامي الذي بلغ الغاية في حركة أحمد بن إبراهيم في القرن السادس عشر واحتفظت المسيحية بهضبة الحبشة ولا زالت محتفظة بها حتى اليوم .

بعد هذا التوسع العظيم الذي بلغته القوى الإسلامية بدأت القوى المسيحية تلتقط أنفاسها وتقوم بهجوم مصاد سيكون له أكبر الأثر في تاريخ المضال بين الإسلام والمسيحية في إفريقيا .

ويجب ألا نعتقد أن التوسع العظيم للمسيحية أو بمعنى آخر بداية الهجوم المضاد للمسيحية إلى القرن التاسع عشر فقط ، القرن الذي وصل فيه النفوذ الاستعماري إلى أوج قوته وسلطانه ، إنما كان التطور الذي شهده القرن التاسع عشر ربما خاتمة الحلقات المتصلات التي ترجع إلى القرن الثاني عشر الميلادي، بل إلى ما قبله بكثير . ترجع إلى نمو حركة الاسترداد في اسبانيا بعد سقوط الخلافة الأموية ونمو القوى النصرانية

(١) Carpenter The Role of Christianity and Islam in Contemporary Africa to day, pp. 90-113.

ولإحداقها بالمسلمين في الأندلس ، ثم استيلاء النورمان على صقلية والمهدية ، وإحرازهم النصر في معركة السيادة في البحر الأبيض المتوسط ، ثم قيام المد الصليبي المعروف الذي استولى على بيت المقدس وهدد قلب العالم الإسلامي الخائف .

وإذا كان مسلمون قد دافعوا الصليبيين وطردوهم من الشام واستردوا مدينة المهدية ، إلا أن النورمان بقوا في صقلية ، ومضت القوى المسيحية في أسبانيا في تقدمها حتى انتهى الأمر بطرد المسلمين من الأندلس نهائياً .

ثم تامت القوى المسيحية هذا النصر في القرن الخامس عشر ، حينما بدأ البرتغاليون بدورهم حول إفريقيا ليصلوا إلى أسواق الشرق الأقصى أو ليتصلوا بالمسيحية في حبشة لتقيم عهد مشترك لمهاجمة المسلمين من الخلف .

وكان بخير من المسلمين والحبشة قد اتخذ طابعاً صليبياً منذ بداية العصر المملوكي ، واشترك المسلمون في هذه المعركة الدائرة الرحي في شرق إفريقيا (١) .

ووصل المد الإسلامي إلى غايته في عهد أحمد القرين في الوقت الذي ظهر فيه البرتغاليون على مسرح الأحداث في شرق إفريقيا . فقد انتهى عهد الكشف التي أسهلها هري الملاح (٢) باكتشاف الطريق إلى الشرق ، وفتح البرتغاليون صمعة جديدة في ربح إفريقيا وفي سنة ١٤٩٣ ضرب فاسكو داجاما ميناء مقدشو بالقنابل ، و ستون سنة ١٥٠٧ على جزيرة سوقطري في مدخل البحر الأحمر . وقد اجتمع المسلمون الوافدة أراضيهم حول البحر نسحق الخطر البرتغالي ولكنهم فشلوا (٣) .

وذكر الأحباش أهمية هذه القوة الجديدة التي ظهرت في سماء شرق إفريقيا ، فكتبوا في مد يداهم للبرتغاليين والامتناع بهم على مدافعة المسلمين .

وسمح هذا التمكن في عهد الامبراطورة هيلانة ، وكان هذا الاتجاه قد خطر على يد Pedro de Oovalha والملك جون الثاني ملك البرتغال سنة ١٤٧٨ ، حينما علم لأول مرة بوجود دولة مسيحية في إفريقيا .

(١) التقريرى الإسلام ص ٧-٨ .

Fage : West Afric pp. 43-44.

(٢)

Trimingham : Islam in Ethiopia pp. 31-75.

(٣)

وقد وصل بندرو إلى الحبشة سنة ١٤٩٤ ، واقترح إنشاء تحالف بين الحبشة والبرتغال . وقد اشترك البرتغاليون - فعلا في هذه المعركة الضيحية حين تدخلوا في الصراع القائم بين أحمد القرين وبين الإحباش ، فنزلوا في مصوع واشتركوا في القتال سنة ١٥٤٣ (١) .

وهزم أحمد القرين هزيمة أضاعت هيئته في نفوس أنصاره . ولم تقو انتصاراته اللاحقة على رد هذا الاعتبار المفقود .

ثم دخل الأتراك العثمانيون ميدان هذا الصراع بين الإسلام والمسيحية ، ففي الربع الأول من القرن السادس عشر بدأ العثمانيون بغزو البلاد الإسلامية ، فتحوا الشام ومصر وبعض مدن المغرب ، وسواحل بلاد العرب بين سنتي ١٥١٢ و ١٥١٧ .

ولم يستطع العثمانيون أن يعمدوا من هذه الظروف ، فثلا لم يفتحوا المغرب الأقصى ليقتلوا الطريق الدائر حول إفريقيا . كما أنهم لما وصلوا إلى البحر الأحمر والطريق الموصل للهند ، وجدوا البرتغاليين قد استولوا على مواقع هامة ، إذ سيطروا على المحيط الهندي ، وبقى النفوذ العثماني قاصرا على البحر الأحمر .

ثم طرد تقدم القوى المسيحية في الوقت الذي بدأ فيه العثمانيون الذين تزعموا حركة الدفاع عن الإسلام بمصون حثيثاً نحو الضعف . وكان معنى ضعفهم من ناحية وقوة الأوروبيين من ناحية أخرى ، وقوع إفريقيا فريسة سهلة في يد القوى الغربية النامية (٢) .

وكما واجهت الثقافة العربية مشكلة الحضارة الغربية الوافدة في ظل الاستعمار ، كذلك واجه الإسلام مشكلة مماثلة ، فقد واجه نشاطا فائضا للتبشير بالمسيحية ، وشهد منافسة كبرى بينه وبين الغربيين الوافدين على اكتساب الوثنيين .

Trimingham ; Islam in Ethiopia pp. 67-68.

(١)

Trimingham ; op. cit. pp. 97-98.

(٢)

وقد بدأ انتشار المسيحية في ظل الاستعمار ببداية التوسع الاستعماري نفسه . فبعد أن أتم البرتغاليون استكشاف سواحل إفريقية أنشأوا مراكز للتبشير في ساحل الذهب ومصب نهر الكونغو ، وفي عام ١٤٩١ اعتنق ملك الكونغو الدين المسيحي .

ولكن هذه الجهود لم تأت بالثمار المرجوة . وفي سنة ١٦١٠ أسس البرتغاليون أسقفية مسيحية بمستعمرة أنجولا ولكنهم لم ينجحوا في نشر المسيحية في داخل البلاد .

وامتد نشاط البرتغاليين إلى الساحل الشرقي لأفريقية . فقد اعتنق الملك مونوتابا المسيحية في سنة ١٥٦١ ، واستقر الآباء اليسوعيون والدومينيكان في حوض نهر زمبيزي . وفي عام ١٦٣٠ اعتنق زعيم ممبسة المسيحية . ولم تثمر هذه الجهود الثمار المرجوة أيضاً ، فلم يبق في أوائل القرن الثامن عشر من الذين اعتنقوا المسيحية إلا نزر قليل .

ثم دخل الإسبان ميدان التبشير ، وأرسلوا عدة بعثات بشيرية خصوصاً في مملكة داهومي ، وقام الفرنسيون بجهود مماثلة ، إلا أن الحروب في القارة الأوربية قضت على كل هذه المحاولات ، ولم تبق إلا نواة صغيرة من الكاثوليك في مدينة سانت لويس (١) . وأدلى البروتستانت بدلوهم في الدلاء ، وفي سنة ١٦٦٥ نزل إلى مستعمرة الرأس أول قسيس بروتستنتي .

على كل حال في بداية القرن التاسع عشر لم تكن للمسيحية قدم ثابتة في أي مكان من افريقيا السوداء إذا استثنينا فئات قليلة على الساحل .

ثم بدأ النشاط المسيحي يسترد قوته في القرن التاسع عشر ويسير سيراً مطرداً ، فعاودت المسيحية انتشارها في شرق إفريقية بعد أن سيطر الإنجليز على زنجبار في سنة ١٨٤٠ ، واستطاع أحد المبشرين أن يستقر في ممبسة وأن يترجم الكتاب المقدس إلى السواحلية . وأخذ نفوذهم يمتد إلى الداخل .

وفي عام ١٨٦٠ أسست بعثة كاثوليكية للتبشير في مدينة على الساحل المواجه لجزيرة دحمار . وبدأت المسيحية تنفذ إلى الداخل بعد اكتشاف منطقة البحيرات

العظمى ، فقد استقر المبشرون في تنجانيقا ، وفي كينيا ، وتطرقوا إلى أوغنده عام ١٨٧٤ .

ويرجع الفضل في انتشار المسيحية في أوغنده إلى وجود بعض المبشرين بهم في الغالب من أصل فرنسي . أما الكونغو الباجيكي فقد أرسل إليه الملك ليوبولد الثاني بعثات تبشيرية بلجيكية ، وأرسل البروتستنت الإنجليز والأمريكان بعوثاً مماثلة .

وامتد هذا النشاط إلى غرب إفريقية في نفس الوقت تقريباً ، فمد عام ١٨١٥ عقب تحريم تجارة الرقيق نزلت بعوث تبشيرية بروتستنتية في كل من ليبيريا وسيراليون ونزلت البعثة السويسرية إلى ساحل الذهب وتمكنت من نشر المسيحية بين قبائل الفاني . ثم أسست كنيسة محلية خاصة بالزنوج في ساحل العاج . وعملت عدة بعثات لنشر المسيحية على ساحل جنوب نيجيريا ، كما عملت بعوث أخرى في شمالها (١) .

إذن شرت في نشر المسيحية في إفريقية أكثر الأمم المسيحية : الأمم الكاثوليكية والأمم البروتستنتية على حد سواء (٢) .

وقد كان من أهم العوامل التي ساعدت على نشر المسيحية في القرن التاسع عشر تعبر بطرة المبشرين إلى العجرات الوثنية ، فقد كان هؤلاء أول الأمر ينظرون إلى هذه الديانات نظرة احتقار ، وانصرفت جهودهم الأولى إلى محوها من نفوس الزوج . غير أن المبشرين بدأوا يستمعون بعلم الأجناس ويفرضون على أعضاء البعث التبشيرية قبل أن يقصدوا تلك الجهات اتباع خطة مرسومة تقضى بدراسة الآيات دراسة شاملة وفهم نظمها الاجتماعية ولغاتها .

وعمد المبشرون إلى الاختلاط بالسكان والتعاون معهم في كل مناسبة ، وترجمت الكتب المقدسة إلى اللغات المحلية وفرضت على هؤلاء المبشرين مهام اجتماعية وثقافية .

وبدأت الكنائس المحلية ، تعين قساوسة من الإفريقيين حتى يترك الزنوج أن الكنيسة ليست احتكاراً للجنس الأبيض .

بدأ هؤلاء المبشرون يتوسلون بوسيلتين بالغتي الخطورة : أولاها الخدمة الطبية بإنشاء المستشفيات ، أنشئت مئات المستشفيات والعيادات فعملت على تنمية العلاقات بين المبشرين وأهل البلاد .

ثانيهما : إنشاء المدارس المسيحية ، أنشأ المبشرون في أفريقيا الزنجة المدارس قبل أن تبدأ الحكومات ، بل اضطرت بعض الحكومات إلى أن تعهد للمبشرين بمهمة التعليم . وقد التحق بهذه المدارس مئات الألوف ، بل أصبح نحواً من ٨٥ ٪ من المدارس الأولية في المناطق غير الإسلامية في يد المؤسسات التبشيرية ، خصوصاً في الكونغو .

وفي الحق كانت حركات المبشرين ، الطليعة الأولى في ميدان نشر الثقافة الغربية في إفريقية إذ قامت بنشاط عظيم في ميدان التعليم ، ولا تزال هذه الجماعات تراول هذا النشاط حتى اليوم .

غير أن الحكومات المعنية لم تجد مفعراً في أغلب جهات إفريقية من أن تشرف على التعليم بنفسها ، وأن تشد أزر الجمعيات الدينية ، وأن تجعل هذا التعليم أداة للتقريب بينها وبين الشعوب المحكومة ، كما وجدت في تشجيع هذا التعليم ونشره منافسة لتوسع الإسلامى الذى ينمى العلم ويبث المعرفة .

وقد قطع التعليم الغربى شوطاً بعيداً نحو التقدم في غرب إفريقية خصوصاً في نيجيريا وساحل الذهب ، ففي نيجيريا في السنوات الأخيرة أعد مشروع العشر سنوات للنهوض بجميع أنواع التعليم ، وتشجع الحكومة البريطانية هذا التعليم باللغات المحلية .

وقامت بريطانيا بنشاط مماثل في ساحل الذهب حيث بلغ عدد الأطفال المسجلين في التعليم الابتدائى سنة ١٩٥٠ نحواً من ٢١٢ ألفاً ، وامتد هذا النشاط إلى مناطق النفوذ البريطانى في شرق إفريقية : في كنيا وتنجانيقا وزنجبار .

وأنشئت جامعة ماكريوى فى أوغنده وفتحت أمام جميع الأجناس منذ عام ١٩٥٣ ، ويفترح إنشاء جامعة لوسط إفريقيا فى سالسورى بجنوب روديسيا (١) . ولم يغفل المبشرون الفرنسيون ولم تغفل الحكومة الفرنسية أمر التعليم فى الجهات التى تخضع لنفوذها . وهى تهىء نوعين من التعليم ، نوع للأوروبيين والثانى لأهل البلاد الأصليين ، فتنشئ المدارس العامة والفنية والعالية . وفى المناطق الإسلامية تنشئ الحكومة الفرنسية مدارس لأبناء الزعماء تخضع لإشراف الحكومة وتعلم الشريعة الإسلامية والفلسفة إلى جانب اللغة العربية . ودب مثل هذا النشاط فى المناطق البلجيكية والبرتغالية .

وقد بقى لنا أن نسأل هل نجحت الجماعات التبشيرية فى أداء رسالتها التعليمية على الوجه الأكمل ، وهل نجحت الحكومات التى تساعدها وتظهرها فى تحقيق أهدافها العلمية والثقافية ؟

عرض الأستاذ لورنزو ثيرنر Lorenzo Turner (٢) لنتائج هذا التعليم التبشيري الغربى فى الوطن الإفريقى . عدد أدواءه ومساوئه . فذكر أن هذه الحركة التعليمية التى وضعت لخدمة التبشير والاستعمار تركت أسوأ الأثر فى الناحية الاقتصادية . فقد بدأ الأفريقيون يتركون وسائلهم التقليدية لكسب الرزق . ولم يستطع النظام الجديد أن يعوضهم عنها شيئاً ، والمفروض أن التعليم الذى رسمه الأوروبيون لأهل البلاد كاف لجعلهم متطورين مع الحياة الجديدة .

غير أن التعليم فى المناطق البلجيكية والفرنسية يفقد الناس صفهم لإفريقية ، ويجعلهم فرنسيين أو بلجيكيين ، والتعليم فى المناطق البريطانية لا يىء فرص التدريب المهنى إلا لعدد محدود من أهل البلاد

وترك هذا التعليم أثراً أيضاً فى هذه الناحية فقد زلزل إيمانهم بالمسيحية لأن جمهور الإفريقيين الذين اعتنقوا المسيحية رأوا أن مبادئ هذا الدين لا يطبقها الأوروبيون الذين يعيشون بين أظهرهم ، وأن المبشرين لا يحترمون تقاليد البلاد .

Carpenter : The Role of Christianity, Africa to day p. 90. (١)

L.D. Turner : The Impact of Western education on the african way of life, African to day p. 147. (٢)

بل ترك هذا التعليم أثرا أسوأ في الميدان الاجتماعي ، فقد قطع صلة الناس بماضيهم ، وحارب تقاليد اجتماعية جرت في جسامهم بجرى الدم . فقد لوحظ أن أن الإفريقي الذي تعلم على هذا النحو لا يصلح للحياة بين الأوربيين أو الإفريقيين . فاضطربت نظم الأسرة وتعددت مشاكلها الاجتماعية ، كما خلق هذا التعليم هوةً شديدة بين الرجل والمرأة ، وهو يعني بالرجل ويترك المرأة على حالها ، فيقل إقبال المتعلمين على الزواج من الزوجات غير المتعلقات بهن .

والأمر الذي يريد أن سيده هو مدى نجاح حركة التبشير بوسائلها الدينية والتعليمية في الانتشار في إفريقية . ومدى إقبال الشعوب الوثنية على الدين الذي تدعو إليه . وهل استطاعت أن تحارى الإسلام في قوته وسعة انتشاره ، وأيهما أكثر قبولا لدى أهل البلاد ، الإسلام أم المسيحية ، وأيهما أكثر ملاءمة لأحوال الناس وحياتهم وتقاليدهم وعاداتهم ؟ وأيهما أقوى على البقاء وأقدر على المقاومة ؟ ولئن الغلبة في هذا العراك بعيد الأثر في مستقبل إفريقية والإفريقيين ؟ .

والحقيقة أن حركة التبشير بالمسيحية بين أوساط الوثنيين لم تنجح النجاح المنشود بعد جهود استغرقت أكثر من نصف قرن ، فالكنيسة في إفريقية لا تضم أكثر من ٢١ مليوناً من المسيحيين من أهل البلاد بين بروتستانت أو كاثوليك على حين تعداد القارة كلها ١٩٨ مليوناً .

أعني أن النسبة لم تتعد ١٠ ٪ من سكان القارة ، وهو نجاح ضئيل إذا قيس بمقاييس الجهود التي أنفقت ، وهذه ظاهرة في حاجة إلى مزيد من التوضيح ويمكننا أن نحلل ذلك بشببات عديدة .

منها ما نسب إلى الأحوال السياسية للدول الأوروبية المستعمرة ، فبانقضاء القرن التاسع عشر وبزوع شمس القرن العشرين اختل توازن القوى في أوروبا ودخلت الدول الكبرى في صراع من أجل السيادة ، وانتقل هذا الصراع كله إلى القارة الإفريقية فوجد أهل البلاد أن المستعمرين البيض منقسمون على أنفسهم متعادون كما انقسمت دولهم وتعادت ، فلم تستطع دول أوروبا أن تتعاون في جهد مشترك .

ولا نسي ما حارته الحروب العالمية من تغير في حدود مستعمرات إفريقية ، ووضع هذه الحدود قوم من الساسة لا يعرفون الكثير عن الجغرافيا البشرية للقارة ولا عن ظروفها الاقتصادية ، أو بعبارة أخرى أصبحت إفريقية (بلقان) أخرى .

ولم يختلف دول أوروبا متبعية بحركة التبشير سياسياً ، بل اختلفت مذهبياً وانقسم المبشرون إلى بروتستانت وكاثوليك .
وانتقل الصراع التقليدي بين كنائس أوروبا إلى كنائس إفريقية .
ورأى أهل البلاد أنفسهم في حيرة بين الكنائس المتعارضة . بل انقسمت أوروبا ثقافياً وأصبحت لغة التبشير والتعليم تختلف باختلاف الدول ، ففي المناطق الفرنسية تسود الفرنسية ، وفي المناطق الانجليزية تسود الإنجليزية وهكذا .
وكما اضطربت دول أوروبا على هذا النحو اضطربت مناهج المبشرين ووسائلهم والأستاذ وسترمان يرى أن المبشرين في الحقيقة يلتزمون طريقين في التفكير .

فريق منهم يقف من ثقافات إفريقية موقفاً سلبياً لا يستفيدون من أبحاث الأنثروبولوجيين ، عدهم نظم الغربيين وحياتهم هي المثالية ، وأنه يجب أن تفرض هذه المثل فرضاً ، فإذا اختلفت النظم المحلية فهو كفر ومروق . على حين نجد فريقاً آخر يستفيد من أبحاث علماء الأجناس وتجارهم واختلاف الوسيلة يستتبع اختلاف الرأي واختلاف الهدف (١) .

وأهم الأسباب في نظري أن الدول الأوروبية المتبذلة لحركات التبشير تبدو مناقضة بين المثالية والواقع ، مثالية الدعوة المسيحية التي تنادي بالاخاء وواقع التمييز العنصري الواضح .

فالجاليات الأوروبية تكاد تكون متفقة في موقفها من العناصر الوطنية في القارة والإنجليز والفرنسيون مثلاً وإن اختلفوا في الأهداف إلا أنهم يتفقون في أمر واحد هو إعطاء المسائل العنصرية أهمية كبرى . والأستاذ Edwin Munger (٢) يقسم إفريقية إلى ثلاث مناطق . (١) مناطق التمييز العنصري (ب) مناطق الاتحاد العنصري (ج) مناطق بين بين .

فالمسيحية حملت الزنحى على أنها دين الأسياء ، والمسيحية التي يتعلمها نوحى إليه أنه أحط منزلة من معلمه وأكثر حضوراً له . والأدب لمسيحي نفسه يكره الزنوج ويحط من قدرهم (٣) .

Carpenter : op. cit

(١)

Africa to day, pp. cit.

(٢)

Blyden ; Christianity, Islam and the Negro race p. 15.

(٣)

و فوق هذا وذلك ارتبطت المسيحية بالحضارة الأوروبية ، وفرضت على الأوربيين نزعة مادية معينة تناقض سمو المسيحية وروحانياتها (١) .

ودخول الزنوج في المسيحية كان معناه ليس التطور البطيء إنما الطفرة المفاجئة وتعبير أوضاع الزنوج في بيئاتهم ومجتمعاتهم ، حتى إن هذا التطور كثيراً ما يوصف بأنه (الموت الشخصي) ، (أو الاحتضار المعنوي) للدلالة على خطورة هذه القفلة ،

فقد دأب المبشرون على تحريم تعدد الزوجات وعبادة الأسلاف ونحر القرابين والاعتقاد في السحر ، كما كافحوا عدة المهر وحفلات التلقين وحرموا الزنوج من متع الحياة البرية في مجتمعاتهم . فسلخوا كل من اعتنق المسيحية عن قومه وعشيرته وعن مشاعر طفولته المحسة ، فأصبحوا طفلة غريبة عن مجتمعاتهم القديم .

يصرف إلى ذلك ما يتعرض له المتصرون من الزنوج في كل لحظة من هجمات من لا يستطيعون مقاومتهم . إن تحمان الإنسان إلى عادات طفولته ومداركها أيسر عليه كثيراً من أن يتغلب على نفسه ، ويلرمها عادات جديدة ، وخاصة بين الذين يؤهلهم استعدادهم للاستقلال بالرأى والخروج عن صفوف الجماعة .

ويمكن أن يضاف إلى هذا أن كثيرين من زعماء القبائل الذين اعتنقوا المسيحية لم يفعلوا ذلك عن اقتناع ، وإنما دخلوا فيها بغية الانتفاع بتأييد البعوث التبشيرية في تمدين شعوبهم ، وحماية قبائلهم (٢) .

وإذا كانت هذه الظروف قد حدثت من انتشار المسيحية فإن ظروفاً أخرى كتبت للإسلام أن ينتشر بين الأفريقيين على نطاق واسع حتى أصبح الإسلام بحق دين الإفريقيين .

ولاسلام ، مستاء الفورات العسكرية التي حفل بها القرن التاسع عشر لم يفرض على الشعوب الوثنية فرضاً . ولم يفرض في ظل حكم أجنبي استعماري ، وإنما حملة قوم من أهل إفريقيا نفسها ، قوم اتخذوا صفة التجار أو المعلمين ، فليس غريباً أن يلقي قولاً لهم فهو في نظرهم دين إفريقي غير دخيل .

Trimingham ; Christian Church p. 14.

(١)

(٢) ديشور . البيانات في إفريقيا السوداء ص ١٧٤ .

والإسلام لم يستعبد هذه الشعوب إنما أشعرها العزة والكرامة ، وقوى فيها النزعة إلى الحرية والاستقلال .

لم يقض على نظمهم المحلية ، إنما اكتسبت شكلاً جديداً وتلاءمت مع تقاليد الإسلام . ففي المجتمعات الإسلامية في غرب ووسط إفريقيا نجد التعاليم الإسلامية منسجمة مع التقاليد المحلية فهي على حد تعبير بليدن (Healthy Amalgamation) (١) .

يضاف إلى هذا أن الإسلام عقيدة سمحة بسيطة ملائمة لكل عصر وبيئة . والمعروف أن الإسلام يتلاءم مع البيئات التي ينتشر فيها ، ويخلق في كل منها طابعاً محلياً ، بل هو يناسب الجماعات المختلفة أمزجتها وأدواقها .

فبعضها يرى فيه نظاماً سياسياً يناسب تقاليدها ، فتؤمن به لشدة أزرها في نضالها من أجل الاستقلال والتخلص من الاستعمار ، أو للتفوق على جيرانها (٢) .

والبعض الآخر تغريه نواحيه الاجتماعية والاقتصادية ، فكل جماعة تستطيع أن تأخذ منه ما تريد . والعبادة في الإسلام بسيطة غير معقدة لا ترتبط بكنيسة معينة أو رجال دين محرفين (٣) .

ولم يكن الإسلام ديناً فحسب . إنما كان ديناً وثقافة متألفين غير متافرين كالمتافرين بين المسيحية والنزعة المادية للحضارة الغربية .

لذلك ارتبط الإسلام بالعلم ، وكان لهذا الارتباط أثر عظيم في حياة الزوج . فالمرء لا يكاد يسلم حتى يتعلم القراءة والكتابة ، ويرتفع قدره اجتماعياً كلما زادت ثقافته .

وفي كل مكان تسرب إليه الإسلام انتشرت الكنائس وأقبل الأفريقيون عليها لرغبتهم في تعلم القراءة ، وقد أثر في نفوسهم ارتفاع مستوى إخوانهم المسلمين .

والإسلام في نظامه التعليمي لا يجعل الهوة سحيقة بين المعلم والمتعلم . بل هو يوثق الصلة بينهما ، على عكس الحال في النظام التعليمي الذي جلبته المسيحية الغربية . حيث الأوربي المعلم لا يعمل على تقريب الهوة بينه وبين من يتلقى العلم عليه (٤) .

(١) Blyden : op. cit. pp. 13-19. ، Meek, Vol. 2, p. 10.

(٢) Carpenter : op. cit.

(٣) Trimingham : Christian Church p. 32.

(٤) Blyden : op. cit. pp. 13-19.

والتفرقة العنصرية التي باعدت في إفهام الزوج بين الواقعية والمثالية - ليس لها محل في الإسلام ، فهو لا يعرف حواجز الطبقات ، أو الجنس أو اللون - لا يحول بين زيجي مسلم وبين المتمتع بحقوقه السياسية والاجتماعية كاملة . . .

وتاريخ الإسلام في إفريقيا حافل بالأمثلة الكثيرة للسلطات الزنجية الخالصة التي ارتفع قدرها في نظر المعاصرين جميعاً بصرف النظر عن اللون أو الجنس : وتاريخ إفريقيا حافل بالعلماء السودانيين الذين تعلموا ووصلوا الى مرتبة الإمامة والقضاء والفتيا ، وذاعت مؤلفاتهم في العالم الإسلامي كله .

وهناك ملاحظة طريفة أضافها ترمينجهام مبيناً الفرق بين توقف انتشار المسيحية وبين ديوغ الإسلام ، وهي أن رجال الدين المسلمين يمكن إعدادهم بعد تدريب بسيط يحفظ سور من القرآن أو معرفة أصول الدين ، ثم هم لا يختلفون عن أهل البلاد الأصليين في شيء ، ومن الممكن أن نجد في القرية الواحدة أكثر من معلم من هؤلاء الناس ، على حين نجد الكهنوت الغربي برسومه وتقاليده معقدا غاية التعقيد . (١)

والإسلام لا يأخذ المجتمعات الوثنية بالطمرة إنما يأخذها بالرفق والأناة حتى لا تكون اكلة معاجنة .

وقد عدد كل من أندرسون وترمينجهام المراحل التي ينتشر بها الإسلام بين الزوج بقولهما : إنه في المراحل الأولى يقوم التجار أو الفقهاء المسلمون بزيارة البلاد أو يقيمون بها متبركين كما يزورون كهنتهم وترتبط في أذهانهم طقوس المذهب الجبوي ففكرة المسلمين عن الأولياء والجن .

ثم يتقدمون خطوة أبعد من هذه وهي تقليد الصلوات الإسلامية ، ففي الجامبيا وساحل الذهب نجد الوثنيين يحضرون حناظر المسلمين وأعيادهم وصلواتهم ، وفي المراحل الأخيرة يعتقدون الإسلام مباشرة مع الاحتفاظ بقية من تقاليدهم القديمة (٢).

Trimingham : Christian Church p, 14.

(١)

Anderson : Tropical Africa . Infiltration and expanding (٢)
horizonl pp. 266-282

والإسلام في إفريقيا كان دائماً عنصر توحيد ، يقاوم عناصر الفرقة Segregation وله قيمة إيجابية لا تقهر في تقوية الشعور بالجماعة Loyalty Group ، والقضاء على حواجز اللون والجنس .

ولأننى قيمة اللغة العربية كلغة دولية للتعام وكعامل من عوامل التوحيد بين المجتمعات الإسلامية في إفريقيا (١) .

ورغم هذا فإن الأستاذ كارنر ينتقص من هذه الحقائق للواضحة فيزعم أن الإسلام في إفريقيا كان عقبة في سبيل التطور والأخذ من الحضارة الغربية .

فهو في نظره دس محافظ وعبريته الخلاقة التي ظهرت في القرون الأولى حل محلها استسلام ورضا بالقيادة الله

ولعله لا ينسى أن المسلمين وقموا من الحضارة الغربية موقفاً سليماً حين رأوها تفتن بالتبشير المسيحي وكانوا يخشون إذا أقبلوا عليها أن يتمخض هذا الإقبال عن خصوعهم لسلطان المبشرين

وقد انقلبت هذه السلبية إيجابية في السنين الأخيرة خصوصاً بعد مجازح حركات التحرير في مصر وشمال إفريقيا ، وقام في هذه البلاد تعليم إسلامي عربي يأخذ من الحضارة العربية بنصيب مع عدم إهمال الثقافة الإسلامية (٢) .

ويكفي إثبات تفوق الإسلام على المسيحية في إفريقيا أن نورد هذه الإحصاءات .

انتشار اللغة العربية :

وانتشار الإسلام كان معناه أيضاً انتشار اللغة العربية كلغة للحديث المخاطبة والكتابة .

والمعروف أنه قبيل الإسلام كانت الرعاة الثقافية في جزيرة العرب تتنازعها لغتان : اللغة العربية الجنوبية واللغة العربية الشمالية ، وأن هذا التنافس انتهى باضمحلال لغة الجنوب ، بعد أن اضمحلت الدول العربية الجنوبية في ميدان السياسة والاقتصاد .

Carpenter : op. cit.

(١)

Idem.

(٢)

المدد الإجمالي	مسيحيون	النسبة	مسلمون	وثنيون	
٢٣٣٦٠٠٠	١٧٠٠٠	%٥٥	١٨١٠٠٠٠٠	١٨٥٠٥٠٠٠	السودان الفرنسي
٣١١٢٠٠٠	٧٠٠٠٠	%١٧	٥٥٥٠٠٠٠	٢٤٨٨٠٠٠	الفولتا الأعلى
١٢٣١٠٠٠	٢٢٠٠٠	%٦٥	١٣٨١٥١١	٧٢٨٠٠٠	غيانا
٢١١٩٠٠٠	١٦٣٤٠٠	%١٥	٣٢٤٠٠٠	١٦٤٢٠٠٠	ساحل العاج
٣١٢٤٠٠٠	٣٩٢١٠٠٠٠	%٨٥	١٨٠٠٠٠٠٠	٣٢٠٠٠٠	النيجر
١٥٨٠٠٠٠	١٤٣٠٥٠	%١٧	١٧٩٠٠٠	٢١٥٨٠٠٠	داهومي
٢٥٠٠٠٠٠	٩٠٠٠٠	%٧٨	١٩٦٠٠٠٠٠	٤٥٠٠٠٠	السنغال
٢٢٥٢٠٠٠	-	%٧٢	٢٦٢١٥٤٠	٦٣٠٥٠٠	منطقة شد
١٠١٤٠٠٠	١٦٠٠٠٠	%٥	٥٠٠٠	٨٠٤٠٠٠	توجو الفرنسية
٤٠٠٠٠٠	٤٠٠٠٠		٣٠٠٠٠٠	٣٣٠٠٠٠	توغو البريطانية
٣٠٧٢٣٠٠	٦٢٦٠٠٠	%٨٥	٧٥٠٠٠٩٠	٢٣٧٢٩٣٠٠	الكرون
٢٦٠٠٠٠	٥٠٠٠	%٩٠	٢٣٥٠٠٠	٢٠٠٠٠	جيبا
٢٣٢٠٠٠٠٠	٦٠٤٤٠	%١٦	٣٥٠٠٠٠	١٣٧٩٠٠٠٠	ميراليون
٤٣١١٨٥٠٠	٦٥٠٠٠٠	%٣٣٦	١٥٠٠٠٠	٢٣١٨٥٠٠	ساحل الذهب
١٦٨٣٥٠٠٠	٥٥٨٠٠٠	%٦٩	١١١١١٠٠٠	٤٦١٦٠٠٠	شمال نيجيريا
٢٨٠٠٠٠٠	٥٠٠٠	%٢٦	١٠٠٠٠٠٠	٢٧٦٠٠٠	غيانا البرتغالية
١٥٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠٠	%٢٦	١٠٠٠٠٠٠٠	٢٣٠٠٠٠٠٠	ليبيريا
الوثنية	اليهودية		الإسلام	المسيحية	
١٦٥٠٠			٣٥٩٠٠٠	٢٩٠٠٠٠	أرثريا
-	٦٠٠٠٠		٣٠٠٠٠٠٠	٩٥٠٠٠٠٠٠	الحبشة
٨٠٠٠٠٠			٥٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠٠٠	جلاء سنامة
٥٢١٦٦٣			٧٨٠٠٠٠	٢٠٦١٧٠	هرر
-			٥٠٠٠٠	-	للدناقل
٨٠٠٠٠			٧٥٠٠٠	-	الحدود الشمالية الغربية
٤٠٠٠٠			٤٠٠٠٠	٥٠٠٠٠٠	الحدود الجنوبية
١٠٠٠٠			٥٧٠٠٠٠	٢٠٠	الصومال الإيطالي
-			٣٤٥٠٠٠	-	الصومال الفرنسي
			٤٦٣٨١	-	الصومال البريطاني
١٣٧٢٨١١٦٣	٦٠٠٠٠		٢٣٢٤٥٠٣٩١	٣٨٤٦٣٧٠	

وانتقلت زعامة العرب إلى لغة الشمال وقبائل الشمال ، وأن الهوية بين اللغتين في عصر البعثة النبوية كانت غير صحيحة فكان الرسول يفهم لغات الدعاة إلى الإسلام حينما كانوا يفلدون إلى بلاد اليمن يدعون الناس إلى الإسلام .

وانتهى الأمر بأن أصبحت لغة الشمال لغة الأدب والكتابة والخطابة والفكر الراقى ؛ وإن الآثار الباقية لشعراء اليمن في المراحل الأخيرة للعصر الجاهلي كانت تؤلف باللسان العربي وتعلق على أستار الكعبة ليكتب لها الذيرع والانتشار .

وكانت لغة الشمال هي الأخرى قد انقسمت منذ عهد بعيد إلى لهجات فرعية تختلف بعضها عن بعض في بعض المظاهر الصوتية أو اللفظية أو النحوية لأن اللغة الواحدة كما يقول علماء اللغة إذا انتشرت فوق رقعة واسعة من الأرض تنقسم إلى لهجات فرعية صغرى .

وكانت أهم هذه اللهجات هي لهجة قريش صاحبة البيت العتيق ، وكانت اللهجات الفرعية هذه تتنافس بدورها لزعامة الحياة الفكرية في بلاد الشمال ، وانتهى أمرها بانتصار لهجة قريش على لهجات القبائل الشمالية الأخرى بسبب ما توافر لقريش من زعامة دينية وسياسية وتفوق اقتصادي .

وكان اختلاف العرب إلى أسواق مكة في أوقات معلومة مما يشد من أزر هذه اللهجة ويكسبها الغنى اللغوي والشهرة الأدبية ، حتى بعث محمد بن عبد الله ﷺ في قريش ونزل عليه عليه الوحي بلغتها ، فكان نزول القرآن بها مثبثاً لما أحرزته هذه اللغة من تفوق ومتوجا لحركة طويلة من التطور ، وأصبحت هذه اللغة لغة الدولة الإسلامية في الحجاز في عهد الرسول .

ثم حملت إلى الشرق الأدنى مع العرب الفاتحين ، حملت إلى العراق وإيران ثم إلى الشام . ثم دخلت إفريقية مع الفتح العربي لمصر والمغرب ، بل دخلت إلى أسبانيا عبر البحر ، ودخلت إلى غرب إفريقية عن طريق ساحل المحيط الأطلسي .

وما لبثت هذه اللغة أن نافست اللغات السائدة في العالم القديم ، نافست الفارسية في إيران والإفريقية في بلاد الشام والقبطية في مصر والقوطية في بلاد الأندلس ولغات إفريقية أخرى .

نصفها هي اللغات التي نازحت اللغة العربية في إفريقيا بـ ما هو يوزيمها الجغرافي
وما هو نصيبها من التوفيق في هذا الصراع اللغوي الهام. (١) نشأ قديماً شعباً واحداً

يرى بعض الباحثين وعلى رأسهم Tucker (١) أن اللغات في إفريقيا يمكن
حصرها في أربع مجموعات رئيسية: لغة دارفورا، لغة جنوب السودان، لغة

أولاً: مجموعة اللغات السامية وهي في الواقع لغات طارئة مهاجرة من بلاد
العرب موطن الساميين القدماء، منها اللغة الحبشية وهي تنتمي إلى اللغات السامية

الجنوبية، وتقرب كثيراً من لغة النجدي القديمة، وتنتشر هذه اللهجة إلى الحبشة
ومصوع وبعض المناطق في شرق إفريقيا، وبقية قديمة من لهجة الفينيقيين القدماء

الذين وفدوا على بلاد المغرب في عهود صحيحة وأسسوا إمارة قرطاجنة، وبقية
لغتهم السامية من بعدهم يتكلم بها الناس في بعض مدن شمال إفريقيا، وخصوصاً

مدينة قرطاجنة، وهي لغة مختلطة كثيراً بلغات البربر ويسمى العلماء الفرنسيون
ومنهم جوتييه باسم Patois أي اللغة الدارجة.

ثانياً - مجموعة اللغات النيجرية: وتشمل غالبية إفريقية كلها، وينسج وطناً
ليشمل المنطقة الممتدة من المحيط الأطلسي غرباً إلى البحر الأحمر والمحيط الهندي

شرقاً، ومن البحر الأبيض المتوسط شمالاً إلى السنغال والنيجر وجنوب ليبيا وبحر
العرب والصومال جنوباً.

ومن المجموعة النيجرية: اللغة القبطية وكانت منتشرة في وادي النيل حتى الشلال
الأول، ثم اللغة النوبية وهي إحدى اللغات النيجرية في السودان، وهي التي يتكلمها

الآن الكنوز والسكوت والمحس وأهل دنقلة، وهي ليست عريقة في وادي النيل، بل
يرجع ظهورها في هذه البلاد إلى القرن الثالث قبل ميلاد المسيح، ويقال أنها

جاءت من جنوب كردفان، حملها إلى صفاق النيل بعض سكان غرب السودان
المقيمين في جبال النوبة.

وعندما وفدت اللغة النوبية إلى السودان الشمالي وجدت هناك لغة مروي، فعاشت
اللغتان جنباً إلى جنب، وظلت اللغة النوبية لغة الكلام ولغة مروي لغة الدين والدولة

واللغة النوبية لغة الدين والدولة.

حتى المسبوقه بملكية مروي سنة ١٣٣٠م وظلت هاتان اللغتان حتى وفيت القبائل العربية
ثم بدأ النزاع بافرأ بين اللغتين . حيث ان لغات الصحراء الشمالية الغربية
والتي ومن اللغات الحامية في السودان كذلك لغة البدو وهي لغة البجة الذين ينتشرون
في الصحراء الشرقية من مصر إلى كسلا ، ولجاتهم الرئيسية خمس . لهجة العمالية
والحلتقا والإموان والبيشايين والمندنبوة ، وهذه اللغة يفروها الخمس أوسع اللغات
الحامية انتشاراً .
ومن اللغات الحامية أيضاً لغة البربر في شمال إفريقيا وهي تنتشر في مساحات
واسعة من حدود مصر الغربية حتى المحيط الأطلسي ، وهي تتألف من شعبتين :
شعبة ساحلية تسود بين قبائل السهل الساحلي ، وشعبة صحراوية تنتشر بين شعوب
الطوارق في شمال الصحراء الكبرى ، وتمتد هذه اللغة جنوباً بشرق حتى بلاد برنو
وكانم والتبو ، وجنوباً بغرب حتى شمال نيجيريا ، فلهذا الحوضه يقطن أنها تنتمي إلى
لغات البربر .

ومن هذه اللغات الحامية اللغة الكوشية وهي تسود مساحات واسعة من شرق
إفريقيا ، وخصوصاً بلاد الصومال .

ثالثاً : مجموعة اللغات السودانية . وقد حاول العلماء وعلى رأسهم ديلافوس
Delafosse الفرنسي إحصاء هذه اللغات فعدد منها ٤٥٠ لغة سودانية زادها إلى ٥٦٠
ثم قسم هذه اللغات على أساس جغرافي إلى ست عشرة مجموعة .

وبخلافه تكرر في هذا التقسيم ، ويرى أنه من الممكن أن تقسم إلى أربعة
أقسام فقط :

- ١ - السودانية الغربية .
- ٢ - السودانية الوسطى .
- ٣ - قسم اختلطت فيه اللغات السودانية بلغة البنتو .
- ٤ - السودانية الشرقية (١) .

(١) Meek : Northern Nigeria vol. 11 p. 133. 133.

ذكر ميك توزيعاً طياً لهذه اللغات . انظر ص ١٢٧ .

١٩٥٧ ٢٢٤٦١ ٥١١ ١٥٧ ٥١١ ٥١١ (م ٤ - الإسلام في إفريقيا)

ثانياً : مجموعة لغات البنتو (١)، ونحدودها الشمالية بيجيريا فخط تقسيم المياه فالصومال ، ما عدا لغتي البشمن والهوتنتوت .
ويرى بعض الباحثين أن المجموعة الرابعة تتمثل بمزجة غيرها في لغات سكان جبال النوبا .

ومهما يكن من شيء فإن هناك لغات كثيرة في مناطق كردفان ودارفور ودلفر فنج لا تزال في حاجة إلى كشف ودراسة .

ولكن اللغة العربية خرجت على مر الأجيال من هذا الصراع طافرة متغلبة . غلبت اللغة الفارسية والإغريقية والحبشية وأغلب اللغات الأخرى ، وأصبحت لغة الناس ولغة الثقافة والدولة في أغلب جهات الشرق الأوسط وشمال إفريقيا وبعض جهات أخرى من إفريقيا .

فما هي العوامل التي ساعدت على تغلب لغة العرب على هذه اللغات كلها ؟

درس وولر Woolner هذه الظاهرة في كتابه « Languages in History and politics » وردها إلى عدة عوامل منها .

العامل الأول الديني . فقد عمل الدين الإسلامي على انتشار اللغة فحيث انتشر الإسلام واستقرت قواعده انتشرت اللغة العربية .

ولعل ما ساعد على انتشار اللغة العربية على هذا النحو ما أجمع عليه أغلب الأئمة المسلمين من عدم جواز ترجمة القرآن ، فكان لابد لمن يعرف أسرارها أن يقبل على تعلم اللغة العربية ، وكذلك عدم جواز كتابته بغير العربية ، وعدم حواز القراءة بغير العربية في الصلاة ، رغم أن الإمام أبا حنيفة قد أجاز في بعض الحالات القراءة في الصلاة بالفارسية ، إلا أن كل الفقهاء تقريباً نهوا عن ذلك .

فكان كل داخل في الإسلام يتعلم حفظ ما يستطيع أن يقيم به صلاته ثم يمضي إلى تعلم اللغة العربية ليزداد تفهماً في الدين ، ولعل الإحجام عن ترجمة القرآن إلى اللغات الأجنبية من أهم الأسباب التي أبقت على اللسان العربي وصانت التراث العربي .

العامل الثاني : القرابة السامية لأن الدين وحده ليس كافياً في تعجيل سرعة هذا

الانتشار ، لأن انتشار الإسلام كان أسبق من تعلم العربية بعدة قرون . بل يعلل انتشار العربية بالقرابة بينها وبين أخواتها الساميات في كثير من المظاهر الصوتية واللفظية والنحوية .

العامل الثالث القرابة الحامية : فعلماء اللغات يجمعون على التشابه بين اللغات السامية والحامية . مثل ذلك التشابه بين اللغات السامية والقبطية مثلاً في الضمائر وأسماء العدد والتثنية وقواعد الصرف والأصوات الساكنة ، مما دفع بعض الباحثين وعلى رأسهم إرمان الذى يعد حجة في الدراسات المصرية إلى القول بأنها لغة الغزاة من اساميين .

العامل الرابع ، العامل الحصارى : فعلماء اللغة يقولون بأنه إذا التقت لغة ذات تراث حضارى متفوق مع لغة أخرى حظها من ذلك التراث قليل ينتهى الأمر بتغلب اللغة الأولى .

وكانت أغلب اللغات الإفريقية قليلة الحظ من الحصار ، فلم تستطع أن تصمد طويلاً أمام لغة العرب وثقافتهم ودينهم ، فحصدت هذه المؤثرات خصوصاً تاماً .

فما هى مظاهر انتشار اللغة العربية في إفريقية أو مدى تأثير اللغات الإفريقية باللغة العربية ؟

إن ظاهرة انتشار اللغة العربية في إفريقية تختلف من قطر إلى قطر سعة مدى في الانتشار وعمقاً في التأثير .

وهي مثلاً كانت في مصر أسرع انتشاراً منها في أى قطر إفريقى آخر . كانت الوثائق الإسلامية الأولى من أوراق البردى تكتب بالإفريقية ثم بدأت تكتب باللغتين العربية والإفريقية وبعد تعريب الدواوين في عهد عبد الملك بدأت هذه الوثائق تكتب بالعربية فقط ، بل امتد التعريب إلى الكتب الدينية نفسها ، فعربت الأناجيل بل دخلت العربية إلى ميدان الكنيسة المصرية . وما كادت نحل سنة ٣١٧ هـ إلا واللغة العربية شائعة في مصر ، بل إن المسيحيين أنفسهم اعتبروا من القوم الرابع الهجرى كتبوا باللغة العربية مثل ساويرس بن المقفع وغيره .

وكان انتشار اللغة العربية في شتات إفريقيا أبداً منه في مصر، والسبب في ذلك راجع إلى الفرق الواضح بين طبيعة البلدين . فالطبيعة الجبلية التي غلبت على المغرب مكنت قبائل البربر من أن تحتفظ بلغاتها الأولى مدة أطول ، حتى كان القرن الخامس الهجري وغزو الملالية لبلاد المغرب فكان هذا الغزو العربي الثاني من أهم العوامل التي ساعدت على إتمام انتصار اللغة العربية .

بل يمكننا أن نربط بين حركة انتشار اللغة العربية ونمو الثقافة الإسلامية في بلاد المغرب، فإن هذه الثقافة بلغت الذروة في القرنين الرابع والخامس الهجري حين بدأ علماء من البربر يبرزون في ميدان الدراسات الإسلامية ويتصلعون في فهم العربية والكتابة بها .

وقد أخذ انتشار اللغة العربية مظاهر أخرى في بقية القارة الإفريقية ويمكننا أن نصرب لذلك بعض الأمثلة .

١ - أن يتكلم الشعب اللغة العربية وأن يحتفظ بها إلى جانب لغته الأصلية كما حدث في بلاد النوبة حيث يتكلم الناس بلغتين (١) . وكذلك القلاتة في دارفور وبعض القبائل الأخرى التي تقطن هذه البلاد ، أو مثل سكان المناطق الجبلية في شمال إفريقيا حيث يتكلمون العربية والبربرية في وقت واحد

٢ - أن تكتسب اللغة نسبة من الألفاظ العربية تنوقف على مقدار التأثير الذي خضعت له مثل اللغة النوبية ، حيث أن ٣٠٪ من مجموع ألفاظها مستمد من العربية . واللغة الشداوية واللغة السواحلية في شرق إفريقيا والصومالية والحوصة في بيجيريا .

٣ - إذا اتخذ الشعب اللغة العربية لغة له يحتفظ ببقية من اللغات القديمة مثل بعض الكلمات الإفريقية الدخيلة الكثيرة في اللهجات السودانية أو المغربية أو حتى المصرية .

٤ - أن تتأثر اللهجات العربية المحلية باللهجات اللغة التي كانت تسود البلاد من قبل ، وهذا يصدق على لهجة السودان العربية فهي أربع لهجات :

(أ) بعضها يرجع إلى تغيير الحروف مثل إحلال الهمزة محل العين .

- (ب) بعضها يرجع إلى تغيير الحركات كالضمة والفتحة والكسرة .
 (ج) حذف بعض الأصوات مثل الحذف اللام في ولد .
 (د) تغيير مدلول الكلمة .
 وهذه الظاهرة موجودة في مضر وفي بلاد المغرب .
 هـ - كتابة اللغات بحروف غريبة مثل لغات : البربر والنوبة والصوماليين
 والسواحيلية ولغة الخوصة (١) وقد حاول أهل هذه الكتابة الأهمرية بحروف
 عربية (٢) .



عرفنا طبيعة انتشار الإسلام في إفريقيا بظواهره الثلاث ، وعرضنا للتطورات
 التي مرت بها كل ظاهرة منها في المدى الفسح الذي شملته الدعوة الإسلامية منذ القرن
 السابع عشر الميلادي حتى العصر الحاضر ، ولكني تكمل في أذهاننا هذه الصورة ونلقى
 مزيداً من الضوء على تاريخ الإسلام في هذه القارة لابد من أن ندين الوسائل التي
 انتشرت بها هذه العقيدة وهذه الثقافة .

وسائل انتشار الإسلام في إفريقية :

لا يريد أن نعرض لحركات الفتح والتوسع والجهاد التي حفل بها تاريخ الإسلام
 في القارة في هذه الفترة الطويلة ، وإن هذه الحركات كانت ذات أثر ضئيل في نشر
 الإسلام . فحركات الفتح العربي الأول لمصر والمغرب لم ينتشر الإسلام إلا بعد تمامها
 بعدة قرون ، الأمر الذي يدل على الأقل على أنها لم تكن سبباً مباشراً في نشر
 الإسلام .

وحركات الجهاد التي حفل بها تاريخ الإسلام في غرب إفريقيا مثل حركات
 عبد الله بن ياسين في حوض السنغال ، ثم في صحراء المغرب . وحركات سلاطين
 مالي وسنغلي والحركات التي أعقبها ، وكذلك الحركات التي امتلأ بها تاريخ الإسلام
 في شرق إفريقيا كلها لم تنمخض عن انتشار الإسلام على نطاق واسع :

Palmer ١ pp 5, 78, 273-4.

(١)

(٢) عابدين : الحبشة ص ٢٧٧ .

بل من الغريب أن الإسلام بدأ ينتشر في إفريقيا على نطاق واسع بعد انتهاء هذه الحركات في القرن العشرين ، وذلك في ظل الاستعمار الذي بسط نفوذه على إفريقيا . في ظل هذا الاستعمار قطع الإسلام أشواطاً نحو الذبوع والانتشار بالطرق السلمية ، هذه الطرق السلمية وحدها هي التي تعيننا هنا .

ولقد لعب الأفراد المسلمون دوراً عظيماً في تاريخ انتشار الإسلام في إفريقيا ، لأن افتقار الدعوة الإسلامية إلى طليقة كهنوت تقوم على نشر العقيدة قد صاعف من مسؤولية الفرد المسلم ، فعليه وحده يقع هذا العبء ، وعليه وحده أن يؤدي هذا الواجب .

وأعظم نشاط قام به الأفراد في ميدان الدعوة الدور الذي قام به أفراد ، كتبوا حظاً من التعليم الديني أو حجوا إلى مكة ، وهم يختلف ألقابهم باختلاف الجهات التي يعيشون فيها ، فبعضهم يسمى المرابط أو « ألفا » أو المعلم أو الفقيه . هؤلاء الناس يصغرون بنصيب كبير من الاحترام في المجتمعات التي يعيشون فيها . وهم أبنا دهبوا بعاماؤن بأعظم مظاهر الاحترام ، وفي استطاعتهم التنقل في حرية مطلقة من قرية لأخرى ، أو من إمارة لأخرى ، ويصادفون الرعاية والتشجيع أينما حلوا ، وهم ينشئون مدارس ومحفظون القرآن ويعلمون الأطفال المسلمين والوثنيين على حد سواء . وقد تعلم أكثرهم في مدارس المغرب أو في مصر ، وقاموا بنشاط ملحوظ في نشر الإسلام (١) .

ولم يتفرد الرجال بهذا الأمر إنما شاركهم فيه النساء . فكثيرات منهن قمن بنصيب موفور في نشر الإسلام . والسيرة توماس آرنولد (٢) يذكر أنه يرجع الفضل في إسلام كثير من أمراء المغول إلى تأثير زوجة مسلمة ، ولا يبعد أن يكون مثل هذا التأثير سبباً في إسلام كثير من الأتراك الوثنيين عندما كانوا يغفرون على البلاد الإسلامية .

وقد أحس السنوسيون بأهمية المرأة في هذا الشأن : وأنشأوا المدارس لتعليم البنات واستغلوا ما كانت تتركه النساء من نفوذ قوى بين القبائل .

(١) آرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٣٩١ - ٣٩٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٤٥٠ - ٤٥١ .

وقد لعبت النساء دوراً كبيراً في شرق إفريقية ، فكثر من الوثنيين الذين رحلوا إلى هذه البلاد للعمل في الزراعة اضطروا إلى الإقامة الدائمة وأسلموا بعد أن تزوجوا من نساء مسلمات
وقد قيل أن انتشار الإسلام في الحبشة خلال النصف الأول من القرن الماضي كان راجعاً إلى حد كبير إلى ما بذلته النساء المسلمات من جهود وخاصة نساء الأمراء المسيحيين ، وكن مسلمات يتظاهرن باعتناق المسيحية وينشئن أبناءهن نشأة إسلامية (١) .

وفي ميدان هذه الجهود الفردية في نشر الإسلام لعب التجار الدور الأول في نشر الدعوة ، فقد كانت الطرق التجارية الموصلة بين المراكز الإسلامية في شمال القارة والبلاد الواقعة فيما وراء الصحراء المسالك الحقيقية التي تسرب الإسلام عبرها إلى قلب إفريقية . وقد انتشر الإسلام دائماً على طول هذه الطرق التجارية

ويعتقد ترمسجهام أن الإسلام والتجارة يرتبطان إلى حد كبير بطرق التجارة الموصلة بين بلاد المغرب وبلاد السودان عبر الصحراء الكبرى أو على طول ساحل المحيط الأطلسي قامت هذه الطرق بدور جليل الشأن في نشر الإسلام في بلاد السعال وأعالي النيجر ومطقة بحيرة شاد .

هذا التأثير المغربي لم ينقطع أبداً طوال العهد بالإسلام ، وكانت المجتمعات الإسلامية الجديدة انبثت تنشأ في شمال السودان تقوم بدورها في نشر الإسلام في المناطق الواقعة إلى الجنوب عن طريق التجارة والطرق التجارية .

وفي غرب إفريقية على وجه الخصوص كان لتجار القولاني والحوصة والتكرور الدور الأكبر في انتشار الإسلام .

كان هؤلاء التجار ينزلون في الأسواق الكبرى أو المراكز التجارية . ثم يحتكون بالزواج عن طريق التجارة ، ويؤثرون فيهم بنظافتهم وأمانتهم وسلوكهم الشخصي ، وغالباً ما ينتهي هذا الاحتكاك بدخول كثير من هؤلاء الزنوج في الإسلام .

لذلك كاد الإسلام أن يتركز في المراكز التجارية الهامة وفي المدن الكبرى .
وبعض هؤلاء التجار كان يجمع بين التجارة والتعليم ، فإذا ما استقر بهم المقام أنشأوا
مدارس لتعليم القرآن أو أنشأوا مسجدا ، وأقاموا في نفس الوقت بمزاولة النشاط
التعليمي والاقتصادي (١) .

وكما لعبت طرق التجارة دورا كبيرا في نشر الإسلام من مراكزه في شمال
إفريقية وإشاعة المؤثرات الإسلامية في غرب القارة ، كذلك كان شأن الطرق التجارية
التي تصل وادي النيل بشرق إفريقية . كان لها مثل هذا الأثر في نشر الإسلام من
مصر إلى بلاد السودان وشرق إفريقية .

فعاهدة البقط مثلا التي عقدت بين بلاد النوبة ومصر الإسلامية كان يقصد بها
قبل كل شيء تنظيم العلاقات الاقتصادية والتجارية بين القطرين ، وعلى أثر عقد هذا
الاتفاق أخذ التجار المسلمون يتجولون في بلاد النوبة ، وإليهم يرجع الفضل الأول
في نشر الإسلام في هذه البلاد (٢) .

وقد نشأت بوادي النيل مراكز للتجارة كان لها شأن عظيم في نشر الإسلام في
شرق إفريقية على الخصوص .

المركز الأول مدينة عيذاب (٣) التي نشأت نتيجة لاستقرار بعض الجماعات
العربية في إقليم العتباى واستغلال مناجم العلاقي ، والنشاط الاقتصادي في هذه المنطقة
أدى إلى ظهور مدينة عيذاب . وداعت شهرتها على الخصوص ابتداء من القرن الثاني
عشر بعد تحول قوافل الحاج من مصر وبلاد المغرب من سيناء إلى الصعيد بسبب
الحركات الصليبية على سواحل الشام وفلسطين .

وغدت عيذاب ميناء مصر الرئيسي على البحر الأحمر منذ أواخر العصر الفاطمي ،
وظلت كذلك حتى أوائل دولة المماليك الثانية . وبلغ من أهميتها أن أشرفت عليها
إدارة مصرية ، وكانت الدولة المملوكية تعين إلى جانب واليها الحدرى واليا مصرية (٤)

(١) أرنولد : ص ٣٧١ ، ٣٧٦ ، ٣٨٢ .

(٢) Trimingham : Islam in Ethiopia p. 20.

(٣) مصطفى مسعد : دولة النوبة المسيحية ص ١٥١ .

(٤) كانت تقع في المكان المعروف الآن برأس وودية . انظر نعيم شقير ج ٢ ص ٦٨ - ٧٠ .

ومن هذه المراكز الهامة مدينة قوص، التي أصبحت مرفأً تجارياً هاماً ترد إليه منتجات إفريقيا الوسطى والمغرب واليمن والهند والحشة، حيث نشأت طائفة من التجار المسلمين تسمى بالكائمية، اتخذت هذا الاسم على الخصوص اعتباراً من العصر الأيوبي، وقد اتسعت هذه التسمية فأطلقت على عامة التجار الذين اشتغلوا بتجارة التوابل، وأصبح لهم نفوذ كبير وشهرة عظيمة.

وقد وصل هؤلاء التجار إلى الحشة ووجدوا ترحيباً عظيماً من زعمائها نظراً لما قاموا به من تصريف منتجاتهم وتسويقها بأسعار مجزية.

وكان هؤلاء التجار يقيمون في بلاد الحشة في مواسم التجارة ويوطدون صلهم بالزعماء، ويعملون في نفس الوقت على نشر الإسلام، وكان هؤلاء الناس يحتكرون تجارة الحشة خصراً والأحباش قوم محاربون أو زراعيون يحتكرون التجارة أو بأنفوسها. فتركوا هذا الميدان لتجار المسلمين، فبرعوا فيه إلى أبعد الحدود. واحتكروا هذه التجارة وركزوا الشئون الاقتصادية في أيديهم (١).

وحير ما يدل على أثر المراكز التجارية في نشر الإسلام ما كان من استقرار بعض المهاجرين من غرب جنوب الجزيرة على شاطئ شرق إفريقيا، وإنشائهم مديناً ساحلية مثل سواكن وباضع وزيلع وبربرة ومقدشو وكلوا.

وأصبحت هذه المدن مراكز تجارية هامة تقوم بحمل متاجر إفريقيا إلى أسواق آسيا وحمل متاجر آسيا إلى إفريقيا، وتشغل على الخصوص بتجارة التوابل أو تجارة الرقيق.

هذه المدن الساحلية أصبحت مراكز هامة لنشر الإسلام، إذ قام أثرياء التجار بفتح المدارس وإرسال الطلاب المتفوقين إلى البحرين أو القاهرة أو دمشق لإتمام تعليمهم.

ومن هذه المدن الساحلية كان التجار يندفعون إلى داخل الإقليم لشراء المنتجات أو تصريف البضاعة ولما كانت الإبل لا تستطيع أن تصل إلى المناطق الداخلية في موسم الأمطار، فقد اعتاد هؤلاء أن يتخذوا لهم مأوى في المناطق الداخلية ويقيمون الشهر أو الشهور يتاجرون ثم يعودون من حيث أتوا.

وعلى هذه الطرق نشأت بعض المستعمرات الداخلية . هؤلاء التجار المنحدرون من المدن الساحلية كان لهم شأن في نشر الإسلام بين الصوماليين والجلالا ، وغيرهم من الشعوب النازلة في هذا الإقليم (١) .

ويرى ترمينجهام (٢) أن تجارة الرقيق كان لها شأن عظيم في نشر الإسلام بين القبائل الوثنية : ولا يقصد بالطبع اعتناق هؤلاء الرقيق للإسلام إذا ما ابتاعهم سادة مسلحون . إنما يهدف إلى القول بأن هذه التجارة عملت في سودان وادي النيل على الخصوص على تدمير مراكز الحياة الوثنية بالقضاء على كثير من القبائل الوثنية الأمر الذي ساعد على نشر الإسلام . أن يحتاج هذه القبائل المتفرقة في الجنوب الغربي من بحر الغزال ، وقد أدت تجارة الرقيق إلى انقضاء على قبائل بأسرها فضعفت مقاومة المجتمعات الوثنية

وقد أدى وقوع إفريقيا في قبضة الاستعمار في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين إلى زيادة نشاط هؤلاء التجار وبالتالي إلى ازدياد الإسلام سعة في الإثارة (٣)

فقد فتحت أمام هؤلاء المغامرين ميادين جديدة للعمل . إذ استطاعوا في ظل الاستعمار حفر في مناطق الغابات ، واستطاعوا التوغل مسافات بعيدة بعد إنشاء الطرق وسكك الحديدية .

بل سلكوا سلا أخرى لم تظهر إلا بظهور الاستعمار ، وتوغلوا نحو المناطق النائية ليس عن طريق البر فحسب ، بل عبر الطريق البحري الذي يدور حول إفريقيا . لذلك ظهرت جماعات إسلامية على طول الساحل الغربي (٤) .

وأصبحت المدن الممتازة من مصب السنغال حتى مدينة لاجوس ببجيريا تضم حائيات إسلامية وفيرة العدد ، إمامن المهاجرين أو ممن أسلموا على يد التجار الوافدين .

Coupland : East Africa and its Invaders p. 31. (١)

Trimingham : Islam in the Sudan pp. 242-247. (٢)

André : L'Islam Noir p. 25. (٣)

(٤) ديشان : البيانات في إفريقيا ص ١٢٩ .

وقد لعبت تحركات القبائل وهجراتها دوراً عظيماً في نشر الإسلام في إفريقيا .
ومن الغريب أن أغلب القبائل والشعوب التي اعتنقت الإسلام ثم عملت على
نشره كانت شعوباً بدوية غير مستقرة تنتقل من أوطانها انتقالاتاً فصلياً أو تهجر هذه
الأوطان لأسباب اقتصادية .

بل كانت هذه التحركات القبلية تكمن وراء الحركات التوسعية التي تمت في
غرب إفريقيا وفي شرقها : تحركات الفولاني - أو الصومالي أو الدناقل والجلالا
وتحركات القبائل العربية في السودان .

وأهم الهجرات التي كان لها شأنها في نشر الإسلام في إفريقيا هجرات القبائل
العربية التي دخلت مصر في أعقاب الفتح العربي لهذه البلاد واستقرت في وادي النيل ،
ثم دخلت المغرب في أعقاب الفتح العربي ، وبلغت في تحركها غرباً ساحل البحر .
هذه القبائل منذ القرن الثالث الهجري ومنذ اختلاطها بالشعوب أضحت عاملاً
هاماً في نشر اللغة العربية والدين الإسلامي .

وقد لعبت القبائل العربية المهاجرة من مصر دوراً عظيماً جداً في نشر الإسلام في
بلاد النوبة والسودان .

وأصبحت بلاد النوبة منذ القرن الرابع عشر ليست وطن النوبيين فحسب ، وإنما
شاركهم فيه قبائل عربية كثيرة من غير بني كنز ، ولم يعد الشلال الثاني حاجزاً يمنع
تدفق القبائل العربية نحو الجنوب (١) .

وكان أنبيار مملكة مقرة المسيحية مما فتح الباب أمام هذه القبائل العربية لتمضي
في توغلها نحو الجنوب ، مضت جنوباً حتى منطقة النيل الأزرق ، بل مضى عرب
جذام غرباً ، واجتاحوا مملكة الزغاوة وسيطروا على دارفور واتخذوا من هذه
المنطقة قاعدة لشن غاراتهم على مجاورها من أقاليم ، ووصل بهم تجوالهم حتى مملكة
برنو ، بدليل ما جاء من شكوى سلطان برنو إلى المالك سنة ٧٩٤ هـ من هؤلاء
الأعراب (٢) .

(١) مصطفى حسد : الممالك المسيحية في النوبة من ١٨٣٠ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٨ ص ١١٦ .

تليكن الهجرات الغربية التي ارتوت، إلّا وأضحى في حياة المغرب معنى هجرات
الهلالين وأحلافهم منذ القرن الحادي عشر فصاعداً. هذه الهجرات
هذه الهجرات كانت لها الفضل في نشر الدم العربي واللسان العربي في المغرب
ونشر الإسلام كذلك (١).

واستطاعت هذه القبائل العربية أن تعبر بجنوب مراكنش وأن تفتح منطقة أدرار
وتصل إلى السنغال الأدنى في نهاية القرن السادس عشر الميلادي مثل بني حسن ثم
استداروا نحو الشرق (٢).

ومن أدلة انتشار النفوذ العربي أنه قل أن تجد بيتاً حاكماً في غرب إفريقيا إلا
ويتسبب بعض حكامه إلى أصل عربي. بعضهم يدعى سباً علويّاً أو أمويّاً أو عسماً
أو فاطميّاً وبعضهم يدعى سباً محنياً (٣).

ولم يتسرب الدم العربي أو الهجرات العربية إلى إفريقيا عبر مصر أو المغرب
فحسب. بل عبر بعضها البحر الأحمر إلى شرق إفريقيا مباشرة.

وفي نهاية القرن السابع الميلادي عبرت جماعات من عرب هوازن البحر الأحمر
واستقرت في أرض البجة حيث عرفوا باسم الحلائقة، ثم انتقلوا إلى مركز تাকে.
ويبدو أن هؤلاء الحلائقة كانوا أول من استقر من العرب في أرض البجة (٤).

ويقال إن جماعات من الأمويين لجأت إلى بلاد البجة في منتصف القرن الثامن
الميلادي، والأبحاث الأثرية أثبتت وجود جاليات إسلامية في منطقة
خوربت على مسافة سبعين ميلاً غربي سواكن، إذ عثر على شواهد قور عربية
ترجع إلى سنة ٧٦٠ ميلادية.

وقد ظل العرب من اليمن والحجاز وحضرموت يتسربون إلى سهول السودان
الفسيجة. وبعضهم اختلط بقبائل النوبة والبجة بين النيل والبحر الأحمر. ونتجت
من هذا الاختلاط أرسقراطية حامية تتكلم اللغة العربية (٥).

Meak : Northern Nigerls. 1, p. 61.

(١)

Fage : West Africa p 15.

(٢)

Meek : op. cit. p. 16,

(٣)

Paul : History of Beja tribes, p. 73.

(٤)

Trimingham : Islam in the Sudan pp. 10-16.

(٥)

١٠٠٠ كما انخرجت هجرات عربية من منطقة عمان إلى شرق إفريقيا عام ٦٩٥ ميلادية هاجرت طائفة من الزيدية عام ٧٤٠ وانتشرت حتى ليخط الاستواء . وبعد ذلك بأجيال خرجت هجرات من إقليم الإجشاء عام ٩٢٥ م وانتشرت المستعمرات العربية على طول الساحل الإفريقي وعملت هذه الهجرات على نشر الإسلام في منطقة إفريقية (١) .

وكان للهجرات البربر أثر عظيم جداً في نشر الإسلام في إفريقية خصوصاً في غربها . هذه الهجرات إلى غرب إفريقية هجرات قديمة ولكنها بدأت تلعب دوراً هاماً ابتداء من القرن العاشر الميلادي بعد أن أسلم البربر .

وكانت غارات العرب الهلاليين سبباً في هجرات قبائل كثيرة من البربر إلى منطقة الصحراء ثم توعلها نحو الجنوب إلى منطقة السنغال والنيجر .

ويرى بالمر (٢) أن هوار و لواتة ونفراوة هاجرت نحو الجنوب بعد غارات عرب الهلاليين مباشرة .

وقد كان للطوارق شأن عظيم جداً في نشر الإسلام في منطقة السنغال، والنيجر، وظلت هجراتهم تؤثر في هذه الجهات حتى القرن الثامن عشر (٣) .

وامتدت هجرات البربر إلى بلاد برنو، ويرى بالمر (٤) أن شعب البرنو بربري الأصل ، بل وصلت هجرات البربر شرقاً حتى دارفور ، إذ أن شعب الطنيجور الذي كان له شأن في نشر الإسلام في دارفور يمثل هجرات من هجرات البربر وصلت هذه البلاد بعد غارات بني هلال (٥)

ومن الهجرات الهامة التي كان شأن في غرب إفريقية هجرات القولاني ، ويظن أنها هجرات بربرية وفدت على الحياة في منطقة غرب إفريقية ، وأنهم انحدروا من

Hourani : Arab seafaring . 1

(١)

Palmer : op. cit. p. 9.

(٢)

Dubois : Tombouctou p. 152.

(٣)

Palmer op. cit VII.

(٤)

Trimingham : Sudan p. 89.

(٥)

منطقة أدوار شمال السنغال ، واندفعوا إلى السودان الغربي بعد طرد المسلمين من الأندلس ، ثم تسربوا إلى الحياة هناك يشتغلون بالزراعة أو التجارة ، حتى لم شملهم ووحدهم المجاهد عثمان بن فودي في القرن التاسع عشر ، وكانوا عدته في جهاده ، واستطاع بفضلهم أن يؤسس سلطنة سكت (١) .

وكان لهجرات أخرى غير هجرات العرب والبربر شأن في نشر الإسلام في إفريقيا ، فقد كان لهجرات عيس النوبيين واستقرارهم في منطقة النيل الأزرق أثر واضح في انتشار الإسلام في الصح (٢) .

وكان للمسلمين الدعوة في شرق إفريقيا أثر عظيم في انتشار الإسلام ، فالنضال بين الحبشة والمسلمين في القرن السادس عشر ، كان ينفخ من ورائه حركات توسعية قديمة - أعيدت والمسلمون .

ويبدو أن هذه الحركات قد بدأها الأعداء الذين كانوا ينزلون في واحات أوسا والوديان ، ممتدة من المناطق إلى الشرق من شوا .

كانت هذه الفتن كلها من وراء حركة الجهاد الكبرى التي قام بها أحمد بن إبراهيم الفاري (١٥٠٦ - ١٥٤٣) (٣) .

ومن المحركات التي أثرت في انتشار الإسلام في شرق إفريقيا هجرات الجلا . بدأت هذه الهجرات بعد انتهاء الموجة الأولى واستطاعت في أواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر أن تحتل مناطق كبيرة في هضبة الحبشة ، وفي القرن الثامن عشر اعتنق الجلا الإسلام وعمدوا على نشره في البلاد (٤) .

وقد لعب التكرور دوراً هاماً في انتشار الإسلام في غرب إفريقيا ، فقد استطاعو سنة ١٧٧٦ أن ينشروا الإسلام في منطقة فوتاتور وأن يؤسسوا دولة استمرت حتى سنة ١٨٨٤ (٥) .

Dubois : op. cit. pp. 152-153.

(١)

Trimingham : Sudan p. 182.

(٢)

Trimingham : Ethiopia p. 79.

(٣) عرب نقي ص ٨٠

Trimingham ; Ethiopia p. 79.

(٤)

Islam Nahr p. 31.

(٥)

« وأحدث هذه الهجرات هجرة المسلمين من النودرو واستقروا في شرق إفريقيا
وفي جنوبها (١) .

على أن الجهود الصادقة التي بذلت لنشر تعاليم الإسلام بالطرق السلمية بالتعليم
والدعوة الخالصة قد تمت على يد الطرق الصوفية ، هذه الطرق التي كانت منذ القرن
الرابع عشر قد تقلبت على خلافها مع الفقه ، بل رجحت كفتها على كفة الفقهاء ،
ووجد هؤلاء أنفسهم أمام قوة لا قبل لهم بها ، فقبلوا ما كانوا بالأمس يرفضون
وأصبحت التقاليد الإسلامية منذ ذلك الوقت مصبوغة بالصبغة الصوفية في كل
شيء في العادات والمعاملات (٢) ، وساعدها على هذا الانتصار انتشار العنصر التركي في
البلاد الإسلامية ونقله الإسلام وقبضه على زمام السيادة بين المسلمين .
هذا اتفاق بين الفقه والتصوف وصل إلى أقصاه في القرنين من السابع عشر
والثامن عشر (٣) .

ثم أظلم العالم الإسلامي القرن التاسع عشر فأسدت الطرق الصوفية إلى الإسلام
خدمات عظيمة ، فقد دب إليها ديب النهضة الذي دب في الثقافة الإسلامية عامة
في وقت ضعفت فيه السلطة المركزية في الإسلام بضعف الخلافة العثمانية ،
وفي وقت نهكت فيه وحدة المسلمين وبدأت أوطاهم تخضع للاستعمار .

واستطاع الصوفية هؤلاء أن يحفظوا في الميدان الديني هذه الوحدة التي عرت
في الميدان السياسي . استطاعوا في الميدان الديني أن يقوموا بجهود لم تكن الحكومات
الإسلامية بمقدرة على القيام بها بعد أن أفلت منها الزمام

وقد ظهرت جهود الصوفية في إفريقيا على وجه الخصوص .

هذه النهضة الصوفية كان مظهرها إحياء طرق صوفية وإكسابها لونا من
النشاط الجديد أو إنشاء طرق جديدة تلائم أوضاع العصر وأحوال الناس .

ومن الطرق التي ظهرت في هذا العصر المبرغنية ومؤسسها محمد عثمان المبرغني
الذي أرسل إلى السودان داعية لأحمد بن إدريس سنة ١٨٣٥ ، فقام برحلة إلى

(١) خلف الله : مستقبل أفريقيا السياسي ص ٥ - ٦ .

(٢) عبد العزيز عبد المجيد : التربية في السودان ج ١ ص ٢٢٧ - ٢٢٩ .

(٣) Gibb : op. cit. p. 24.

(٣)

إفريقية لنشر تعاليم الإسلام عبر البحر الأحمر إلى القصير، ونجحت جهوده في بلاد
التوبة ثم انتقل إلى كردفان ومنها إلى سنار فنجحت رسالته نجاحاً عظيماً .

وبعد موته سنة ١٨٥٠ نشأت طريقة جديدة تنسب إليه ، وقد لقيت من الحكم
المصري في السودان تشجيعاً عظيماً وانتشرت دعوتها في المناطق الجديدة التي ضمت
إلى بلاد السودان (١) .

ثم السنوسية التي أسسها محمد بن علي السنوسي الفقيه الجزائري في سنة ١٨٣٧ ،
وهي تهدف إلى إصلاح لإسلام ونشر العقيدة الإسلامية .

ولم يكد لسوسى ينتقل إلى جوار ربه سنة ١٨٥٩ حتى كان قد نجح في تأسيس
دولة دون أن يريق الدماء .

وانتشرت طريقته في شمال إفريقية كلها، وامتدت رواياها من مصر إلى مراکش
بل أوغست في واحات الصحراء وفي السودان وكان مركزها في واحدة
جنوب ، وفيها كان يتعلم مئات الدعاة الذين يرسلون إلى كافة بلاد إفريقية ، وقد
امتد أثرهم إلى أرجاء السودان وسنغامبيا وبلاد الصومال ، واستطاعت هذه الطريقة
أن تدخل في الإسلام الكثير من الدول الوثنية (٢) .

ومن الطرق التي تم إحيائها القادرية التي أسست في القرن الثاني عشر على يد
عبد القادر الجيلاني ، وكان من أشد أولياء المسلمين وأعظمهم هبة .

ودخلت القادرية إفريقية الغربية في القرن الخامس عشر على يد مهاجرين من
توات واتخذوا من ولايته أول مركز لطريقتهم .

وفي مستهل القرن التاسع عشر اندفعت القادرية في طريق النهضة الكبرى ،
ونشر الفقهاء والمريدون من السنغال إلى النيجر ، وأنشئت المراكز لبث الدعوة في
مختلف الجهات ونظمت البعث إلى الأزهر وتونس وطرابلس والقيروان .

(١) أنولا : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٦٤ - ٢٦٥ .

(٢) أنولا : ٣٧٠ - ٣٨٢ رنوم شقير : تاريخ السودان ص ١٢٦ - ١٢٨ .

« والتبشيرية التي كانت قد أثارَت في غربي إفريقيا فلولات الجهاد والتوزيع للظلمة استردت طبيعتها. المسألة في ظل الاحتلال الفرنسي وعملت على نشر الإسلام بالطرق السلمية الخالصة (١) متسلطاً في إفريقيا من خلال مراكزه الدينية والتعليمية. وقد لقيت هذه الطرق نجاحاً عظيماً في إفريقيا الزنجية ، فكما أن المرابطين المثقفين من مشايخ الطرق وحولهم طبقة من متصوفي الدرجة الثانية فرضوا أنفسهم على الناس باسم الدين أو أولي السجور ، وبافسوا الكهنة المتطبعين من الوثنيين في صيانتهم ، فعمل المرابط عمل الركان ، والساحر ، وجمع في يده سلطات روحية مختلفة ، فجلت الطرق الصوفية عمل الجمعيات السرية الوثنية (٢) .

طبيعة القارة وأثرها في انتشار الإسلام :

كان لطبيعة القارة الإفريقية وطبيعة شعوبها أثر واضح في انتشار الإسلام ، بل إن فهم تاريخ الإسلام في إفريقيا فهماً صحيحاً يتوقف على فهم عاملين واضحين ، كان لهما أكبر الأثر في تاريخ انتشار الإسلام في هذه القارة . العامل الأول : طبيعة الشعوب التي قامت بنشر الإسلام وتبليغ رسالته ، ثم طبيعة الأرض التي اتخذها الإسلام موطناً له في إفريقيا (٤) . ومن الغريب أن الشعوب التي قامت بالدور الأول في نشر الإسلام كانت كلها شعوباً بدوية رعوية أو شبه رعوية كما قلنا .

كذلك كان شأن العرب أصحاب الفضل الأول في نشر الإسلام وتبليغ رسالته ، وكذلك كان شأن الشعوب الأخرى غير العربية التي تبنت لإسلام واحضته وأتمت الرسالة وبلغت الإسلام كما بلغه العرب .

فالتوارق الذين نشروا الإسلام في غرب إفريقيا ، كانوا من البدو النازلين في المغرب الأقصى وتمتد ديارهم من جنوبى مراكش حتى حوض السنغال .

والهولاني الذين عملوا على نشر الإسلام في شمال نيجيريا ومنطقة بحيرة شاد كانوا أيضاً من هذا القبيل .

والقبائل التي كانت تنزل في ساحل شرق إفريقية بين الهضبة الحبشية وبين ساحل البحر الأحمر ، مثل قبائل البجة وقبائل الأعفار وقبائل الصومالي وقبائل الجلا كانوا من الدو أيضاً . تأثروا بالعرب الذين استقروا في منطقة الساحل ، وتعلموا منهم الإسلام . ثم عملوا على نشره في موجات متعاقبة ، موجة البجة ، وموجة الأعفار والصومالي . ثم موجة الجلا صاحبة الفصل الأول في نشر الإسلام في ربوع الحبشة نفسها في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على وجه الخصوص .

ونشر الإسلام في بلاد النوبة والسودان الفضل فيه أيضاً للقبائل العربية التي تركت ديارها في مصر وبدأت تبحث لها عن مواطن جديدة في بلاد النوبة والسودان . والدو عادة - والعرب على رأسهم وهم خير من يمثلهم - كانوا أصحاب إبل وأصحب خيل لا يستطيعون التقدم إلا في السهول المكشوفة . ولم تكن لهم خبرة بركوب البحر أول الأمر . ولم تتوفر لهم هذه الخبرة إلا بعد وقت طويل من المران والممارسة .

لذلك كان الفتح العربي يقف وفمه طبيعة إذا اصطدم بعقبات طبيعية كأداء ، فقد وقف الفتح عند جبال طوروس ، ولم ينفذ إلى قلب آسيا الصغرى إلا في زمن متأخر ، ووقف الفتح عند جبال البرز في إيران ولم يتخطاها إلا بعد وقت طويل أيضاً ، ولم يكن هذا حال العرب ، بلى كان تقريباً حال القبائل البدوية الأخرى التي اعتنقت الإسلام وعمت على نشره .

والعامل الثاني (الذي أشرنا إليه) طبيعة الأرض التي انتشر فيها الإسلام وتسربت إليها حموع البدو .

هذا الوطن الإسلامي كان يحيط بالصحراء الكبرى من الشمال والجنوب والشرق . من الشمال في المنطقة الممتدة من مصر غرباً حتى المحيط الأطلسي ، ومن الشرق في وادي النيل بمسح حتى حدود النوبة . وفي الغرب في السهل الساحلي المحيط بالمحيط الأطلسي ، وفي النطاق الرعوي المحيط بهذه الصحراء من الجنوب والممتد من مصب السنغال حتى السودان وادي النيل .

ولم تستطع القبائل البدوية أن تتوغل إلى أبعد من العزوف التي تقتلها الشجيرات القصيرة ، بسبب عدم ملائمة الأرض لزحف البدو ، وبسبب نمو المواصلات ونفشي الأمراض الفتاكة .

ولم يستطع الإسلام أن يتخطى الحواجز الطبيعية الكبرى في هذا الوطن إلا بعد جهد ومشقة . ففي السودان وادي النيل مثلاً بقي واقفاً أمام منطقة الشلالات حتى القرن الرابع عشر أو الخامس عشر ، واصطدم بالجبهة الحبشية ثم انحسر عنها أكثر من مرة ، وفي الجنوب الشرقي وقف عند حضبة البحيرات الكبرى .

هذان العاملان إذن كان لهما أثر واضح في قصة انتشار الإسلام في إفريقية ، ولائحات ذلك نستطيع أن نسوق بعض الأدلة ونضرب بعض الأمثلة .

ففي مصر مثلاً تجنب الفاتحون العرب الطريق الساحلي الممتد مباشرة إلى الإسكندرية بسبب افتقارهم إلى الخبرة البحرية وفضلوا الطريق البري القديم الممتد من القرما إلى بابلون ، وهاجموا الإسكندرية براً من الخلف .

ولم يستقر لهم الأمر في مصر إلا بعد البدء في بناء البحرية المصرية الإسلامية في عهد الوالي عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، إذ أصبح في استطاعتهم أن يدافعوا عن السواحل المكشوفة ويحموا البلاد من غارات الأسطول البيزنطي .

والتوغل من مصر جنوباً لم يتم إلا بعد تمام الفتح بوقت طويل ، في عهد عبد الله ابن سعد ، حينما عقد مع أهل النوبة معاهدة البقط المشهورة .

ووقف الإسلام عند الحدود الطبيعية في منطقة الشلالات لا يتخطاها إلا بعد وقت طويل ، والإسلام لم يستطع أن يتغذى من الصحراء الشرقية أو يتصل بشعب البجة إلا في وقت متأخر نوعاً ما .

وقد حدث في بلاد المغرب مثلاً ما حدث في مصر ، فالغزاة العرب الأوائل تجنبوا الطريق الساحلي المباشر كما تجنبوه في مصر .

ولم يستطيعوا تماماً فتح المغرب إلا بعد نمو البحرية الإسلامية وقدرتها على هزيمة البحرية البيزنطية .

ب. واقتصر النفوذ الإسلامي أول الأمر على المنطقة الساحلية التي تمتد من البحر حتى المحيط الأطلسي.
ولم يتوغل الإسلام في المناطق الهضبية بطريق الفتح ، بل بالتسرب السلمي ،
حينما أسلمت قبائل البربر بعد الفتح بزمان طويل ، وبدأت تنشر الإسلام في المناطق
التي خلفها .
بل لم يتقد الإسلام إلى قلب الجزائر ومراكش إلا بعد الفتح بنحو قرنين
أو أكثر .

وتوقف الإسلام توقفاً طبعياً عند الحدود الشمالية للصحراء الكبرى ، ولم
يستطع أن يدخل إلى إفريقية عن هذا الطريق إلا على نطاق ضيق وفي ركاب التجارة
المتبادلة عبر هذه الصحراء .

هذا عن مصر والمغرب ، أما انتشار الإسلام في غرب إفريقية فتجد فيه أثر
العاملين السابقين . فكانت الطلائع الأولى التي دخلت غرب إفريقية هي طلائع المرابطين
وهم بدؤوا المغرب الأقصى ، دخلوا عن طريق النهاية القصوى لسهل المحيط الأطلسي
ثم انحدروا جنوباً حتى حوص السنغال ، ثم توقفوا عند نهاية منطقة الشجيرات القصيرة
وحدود المنطقة الاستوائية .

ولم يستطع الإسلام أن ينفذ جنوب هذا النطاق على صورة واسعة . بسبب
مقاومة السكان الوثنيين في نطاق الغابات خصوصاً شعوب البدارا (١) والموسى .

ولكنه بدأ يتجه شرقاً بحجوب منتشراً أيضاً على الحافة الشمالية لمنطقة الاستبس
أو المنطقة الرعوية . مسجد مثلامدن تسكت وأدوغشت وهي المراكز الإسلامية الأولى
في غرب إفريقية كانت واقعة في هذه المنطقة .

ولم يتوغل الإسلام في نيجيريا جنوباً إلا إلى منطقة كانوا أو مدينة كادونا العاصمة
الحالية للدولة الشمالية .

(١) ديشان : الديانات في إفريقيا السوداء ص ١٢٧ .
Carpeater : The Role of Christianity and Islam, Africa, o dad.

وهو لم يتخطه الإسلام نطاق الغابات إلا بعد أن دخل الإسلام في التلخف شرقاً. ينتج هذا النطاق الشالي أيضاً وينفذ إلى بحيرة شاد. ومنطقة برنوكايم ولا متوغلا نحو الجنوب نحو المناطق الوعرة ، ولا متوغلا صوب الشمال صوب الصحراء .

ويمكننا أن نجد لا انتشار الإسلام نحو غرب إفريقية طريقين لاثالث لهما :-

أولاً :- الطريق الساحلي عبر حوض السنغال وهو الطريق الذي سلكته جموع المرابطين ، ثم انحدر هذا الطريق صوب الشرق ساحلاً لمنطقة الشجيرات القصيرة .

ثانياً :- تسرب الإسلام من مدن إفريقية الشالية إلى بعض المراكز القائمة على حافة الصحراء عن طريق التجارة .

وتعد لعب هذا الطريق التجاري درراً كبيراً في تسرب الإسلام إلى هذه المنطقة من إفريقية . وكانت أهم السلع التي تحملها القوافل الشالية المالح الجلي الذي كان يستخرج من صحراء المغرب من ثلاثة مواضع .

وطل أهل شمال إفريقية يسيطرون عليها طيلة ألف عام . إلى جانب هذا المعدن النفيس كان المغاربة بصدرون النحاس والصدف والمنسوجات . وفي مقابل ذلك يستوردون العبد والذهب وبعض المحصولات لاستوائية . وكان المغاربة فوق ذلك يقدمون رأس المال وينظمون القوافل التي تحرق الصحراء (١) .

هذه الطرق التجارية تسير من شمال إفريقية عبر الواحات الصحراوية إلى المدن الكبرى التي أسست في شمال السودان قرب حافة الصحراء

وقد أصبحت هذه المدن بمثابة موانئ للتصدير في غرب إفريقية ، تستقبل القوافل المنحدرة من مدن الشمال عبر الواحات ، كما تقدم للمساافرين الطعام والماء والمأوى . وأهم المراكز التجارية في إفريقية . غانة - مالي - جني - نمبكت - كانو . وفي النهاية الشالية قرب حدود المغربية قامت مدن مغربية مماثلة مثل : القيروان - تونس - طرابلس .

Blyden p. 1 Cooley pp. 1-2

(١)

Fage p. 9 10 Hogben pp. 25-27

Dubois 282 Meek, vol I. p. 62.

هذه التجارة المتبادلة بين الشمال والجنوب كانت تسلك ثلاثة طرق رئيسية هي :

١ - طريق غربي من مراكش إلى منحنى النيجر والمناطق الواقعة غرباً .

٢ - طريق أوسط من تونس إلى المنطقة الواقعة بين نهر النيجر وبحيرة تشاد .

٣ - طريق شرقي من طرابلس إلى المنطقة المحيطة بحيرة شاد (١) .

وانتشار الإسلام في السودان ووادي النيل وشرق إفريقيا تنطبق عليه هذه الظروف التي شرحناها .

ففي المنطقة الممتدة في جنوب الحبشة حتى موزمبيق انتشر الإسلام عن طريق محرات عربية من منطقة مسقط وعمان ، وإمارات الجنوب العربي ، أو نتيجة للعلاقات التجارية بين بلاد العرب وشرق إفريقيا ، وهي علاقات لم تنقطع طوال العصور التاريخية .

وقد انتشرت المستعمرات العربية في منطقة السهل الساحلي ، ونشأت المدن الهامة على الساحل نفسه مثل : مقدشو وكلوا ، وزنجبار . ولم يتسرب الإسلام من هذه المناطق الساحلية إلى الداخل إلا قليلاً .

ولم يفكر العرب الذين استوطنوا هذه البقاع في استعمار هذه المناطق الداخلية أو استغلالها على نحو ما فعلت أوروبا فيما بعد ، إنما كانت علاقتهم بالقبائل الزنجية المجاورة علاقات قائمة على الإغارة لطلب العبيد ، أو قائمة على المبادلات التجارية في سن الميل وغيره من المنتجات الآسيوية . ونستطيع أن نؤكد أن التيار الإسلامي ظل قاصراً على هذه المناطق الساحلية حتى أوائل القرن التاسع عشر .

أما المنطقة التي تشمل الصومال والمناطق الساحلية المحيطة بخليج عدن والبحر الأحمر مثل إرترية وهرر وسواكن ومصوع وزيلع والحبشة فقد نشأت بها أول مجتمعات إسلامية في المنطقة الساحلية التي تحف بخليج عدن .

نشأت المدن الساحلية مثل سواكن ومصوع وزيلع وبربرة ، وقامت هذه المجتمعات بنشر الإسلام بين القبائل الحامية البدوية التي تقيم في المنطقة الممتدة من ساحل البحر حتى الهضبة الحبشية ، مثل قبائل البعاه والأعفار والصومال والجلالا (٢) .

كانت هذه القبائل تتبع الدعوة الإسلامية وتنتشرها بجيل بعد جيل في أقاليمها أولاً بالبحر ثم بالأغفار ثم بالطول ثم بالجلادفة وهذه كلها قبائل بدوية لم تألف سكنى الهضاب المرتفعة . ووقف الإسلام لا يتسرب على نطاق واسع عند حافة الهضبة الحبشية (١) من الشرق أو الشمال أو الجنوب وإن كانت قد تسربت بعض التيارات عن طريق العلاقات التجارية والتسريب السلمي .

و قد حدثت محاولات كثيرة لاختراق هذا النطاق الطبيعي وضرب الهضبة الحبشية في الصميم مثل المحاولة المشهورة في تاريخ الإسلام في شرق إفريقيا في القرن السادس عشر على يد الزعيم المسلم أحمد بن إبراهيم الملقب بالقرين (١٥٠٦ - ١٥٤٣) ، الذي قام بحركة فتح واسعة محاولاً اختراق الهضبة الحبشية والقضاء على المقاومة المسيحية قضاء تاماً .

وقد نجح فيما أراد ، ولكنه كان نجاحاً مؤقتاً بسبب مقاومة العناصر الجبلية من الأمهرين والحراري ، وهم مسيحيون متعصبون . ومحاولات الجلا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر لم تكن على شكل غزوات ، إنما كانت نوعاً من التسرب السلمي البطيء .

أما في السودان وادي النيل فإن التيار الإسلامي قد ظل متوقفاً نوعاً ما طبيعياً عند منطقة الشلالات لا يخرقها صوب الجنوب ، ظل كذلك حتى القرن العاشر الميلادي حين دخل هوذا الإسلام بلاد النوبة وأنشأ المسلمون مسجداً في مدينة سوبة عاصمة المملكة المسيحية ، ولم يتجاوز هذا النطاق حتى النصف الثاني من القرن الرابع عشر بدليل أن ابن بطوطة زار هذه البلاد في ذلك الوقت ووجد أهلها لازالوا على المسيحية .

هذا النفوذ الإسلامي لم يدخل في بلاد النوبة من طريق نهر النيل فلم يكن هذا النهر صالحاً للملاحة في جميع شهور السنة أو في كل أجزائه ، بسبب الجنادل . ولذا قام منذ القديم طريق هام للفوافل يبدأ من أسيوط وينتهي عند القاهر وهو المعروف بدرب الأربعين (٢) .

Trimingham : Ethiopia p. 1,2.

Trimingham : p. 7, 9, 19,

(١)
(٢)

له ولكن النفوذ الإسلامي بالبلد يتعد ذلك أن غزاة منطقة النواحي، ثم وصول المسلمين إلى واصل جنوباً إلى إيتانوا، ووقفوا عند حدود السودان الجنوبي لم يستطع أن يتخطاها، ثم انتشروا غرباً وشمالاً بغرب كى إقليم دارفور وكردفان حتى اتصلوا بالتيار الإسلامي القادم من غزاة إفريقية بحين مدينة كانوا وبحيرة شاذي بشار (١) فبش.

لم يستطع الإسلام دخول المناطق الاستوائية إلا في ظل الاستعمار الأوروبي (٢). بسبب ما قام به الاستعمار من قطع الغابات وإنشاء الطرق والقضاء على معظم الأمراض المتوطنة، وأمكن توطن البيض في تلك الأماكن، فوجد الإسلام يتخطى السهول جنوباً وينفذ إلى ساحل الذهب وليبريا، كما نجده يتخطى منطقة الشجيرات وينفذ إلى غرب نيجيريا وإلى جنوبها، ويعتقه كثيرون من شعب البروبا (٣). كما نجده يتخطى بحيرة شاذ جنوباً إلى الكبرون والكنغو ويتخطى السودان الشمالى وينتشر في جنوبه في ظل الحكم البريطانى، كما يتجاوز سواحل إفريقيا الشرقية، ويدخل كينيا وأوغندا (٣).

قلنا إن الإسلام أخذ ينتشر في إفريقيا منذ القرن السابع الميلادى وأنه لا يزال ينتشر حتى اليوم.

نجد أن القرن التاسع عشر على وجه خاص، يعتبر من أهم القرون في تاريخ الإسلام في هذه القارة.

في هذا القرن كان الأوروبيون قد قطعوا أشواطاً بعيدة في سبيل الكشف عن مجاهل إفريقيا وتمهيد الطريق أمام دول غرب أوربا، لتبسط نفوذها وسلطانها على أجزاء من هذه القارة.

ولم تكن هذه الدول حتى عام ١٨١٥ قد اقتطعت من القارة شيئاً كثيراً. فالأسبان مثلاً كانت لهم مدينة سبتة ومليلة وجرر كنارى وجزيرة فرناندوبو في خليج غانة. أما البرتغاليون فقد كانت لهم غيانة البرتغالية وأنجولا وموزمبيق وجزر ماديرا والرأس الأخضر وأزورس وسانت توماس وبرنسيب. ولم يكن لهولندا غير محطة

L'Islam Noir p. 40.

Meek, vol. II p. 7

Groves : vol I, 10

(١) أرنولد ص ٢٦٤

(٢) أرنولد ص ٢٦٤

(٣)

صغيرة على ساحل الذهب . أما الفرنسيون فكانوا قد استقروا في السنغال ،	واستولوا على بعض المحطات في جزيرة مدغشقر . والإنجليز كانوا قد استقروا في
ساحل الذهب وغينيا ، وبعض أجزاء من سيراليون وفي منطقة الرأس ،	لـ مـ نـ كـ نـ أـ مـ لـ كـ الأـ وـ رـ يـ يـ نـ في إفريقيا تتجاوز مساحتها ٥٠٠ ألف ميل مربع
من مساحة القارة كلها .	٥٠٠ ٥٠٠

وفي النصف الأخير من القرن التاسع عشر أو بمعنى آخر في الفترة الواقعة بين ١٨١٥ ونهاية هذا القرن وصل التوغل الأوروبي إلى أقصاه ، بدأت فرنسا في غزو الجزائر سنة ١٨٣٠ ، وانتهت من فتحها قبل سنة ١٨٤١ وتوغلت في إقليم السنغال وفي سنة ١٨٦٨ تركرت الحماية الفرنسية في برتو نوفو على ساحل داهومي ، وفي سنة ١٨٤٢ وضعت أسس الإمبراطورية الفرنسية في الكونغو ، واشترت فرنسا أوبك على ساحل الصومال سنة ١٨٦٢ ، ولم يكبد القرن التاسع عشر ينهي حتى امتد نفوذها إلى تونس والجامبيا وغينيا وساحل العاج .

وتوسع البريطانيون في سيراليون وساحل الذهب ، وفي سنة ١٨٦٢ حصلت إنجلترا على لاجوس ، ثم توغلت في نيجيريا والجامبيا واحتلت مصر سنة ١٨٨٢ وأعلنت الحماية على الصومال سنة ١٨٨٤ ، وضمت تشوانالاند في جنوب إفريقيا الشرقية ، وتوسعت في سيراليون وساحل الذهب ، وأعلنت الحماية على أوغندا سنة ١٨٩٤ ، واحتلت السودان باسم مصر .

وفي سنة ١٨٨٠ استولت ألمانيا على جنوب غرب إفريقيا والكامرون وتوجز لاس وإفريقيا الشرقية . على حين توسع البرتغاليون في غانة وأنجولا وإفريقيا الشرقية ، كما احتلت إيطاليا الصومال وأرتريا .

إذن نهاية هذا القرن وما تمخضت عنه من أحداث بداية عصر جديد في تاريخ الإسلام في إفريقيا ، عصر الصراع بين الإسلام والاستعمار ، ثم هو من ناحية أخرى نهاية مرحلة من تاريخ الإسلام في إفريقيا ابتدأت منذ القرن السابع الميلادي .

القطر	عدد السكان	المساحة
١ - فرنسا		
مد عشقر	٣٥٣١٥٣٠٠٠	٢٢٦٠٠٠
الصومال	٢٠٠٠٠٠	٤٦٠٠٠
ساحل العاج	١٢١٦٠٠٠	١٢٠٠٠٠
بورنوفو	-	-
الكاميرون	-	-
جزر ناورو	٥٦٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠
تونس	١٨٠٠٠٠	٤٦٠٠٠
السعال	١٣٥٠٠٠	٧٤٠٠٠
غينيا	١٧٧٣٥٠	٩٢٠٠٠
٢ - بريطانيا		
إفريقيا الشرقية	٤٠٠٠٠٠	٢٤٦٠٠٠
البحر الأحمر	٣٠٠٠٠٠	٦٨٠٠٠
الرأس	٢١٦٠٠٠	٢٢٠٠٠٠
ماتال	٢٤٩٠٠٠	٣٥٠٠٠٠
باستراتالاند	٣٥٠٠٠٠	٣٥٠٠٠٠
بنشولاند	٩٩٠٠٠	٥١٠٠٠
ساحل الذهب	٨٥٧٠٠٠	٣٠٠٠٠
لاجوس	-	-
بيجيريا	-	-
مصر	١١٣٠٠٠٠	٤٠٠٠٠٠
غينيا	١٤٦٠٠٠	٤٠٠٠
سيراليون	١٠٠٠٠٠	٤٤٠٠٠

من رابع رابع	القطر	المساحة
إفريقية الشرقية	٧٦٤٥٠٠٠	٣٨٤٠٠٠
جنوب غرب أفريقية	١٢٠٠٠٠	٣٢٢٠٠٠
توجولاند	١٠٠٠٠٠	٣٣٠٠٠
الكمرين	٣٥٠٠٠٠	٢٩٥٠٠٠
الصومال	٣٠٠٠٠٠	١٣١٠٠٠
أرتريا	٢٨٠٠٠٠	٦٠٠٠
أنجولا	٥٠٠٠٠٠	٤٨٠٠٠
إفريقية الشرقية	٣٢٠٠٠٠	٣٠٠٠٠٠
غينيا	٤٠٠٠٠٠	١٤٠٠٠
من رأس بوجادور	٢٠٠٠٠٠	٧٥٠٠٠٠
إلى الرأس الأبيض		

هذه المرحلة السابقة شهدت انتشار الثقافة الإسلامية في إفريقية على نطاق واسع لا ينافسها مناصر ، ولا تحد من تطورها قوة خارجية ، ساد المسلمون في القارة شعور مشترك من الوحدة المكيئة في ظل الإسلام ، خضع المسلمون لمؤثرات مشتركة وخصصوا لطروف مشتركة . وبدأ الإسلام في آخر هذه المرحلة يحل أزماته بنفسه .

وشهد القرن التاسع عشر محاولات للإصلاح والإفادة من التجارب الجديدة التي تمخضت عنها النهضة الأوروبية .

كما شهدت المياد الإسلامية في هذا العصر انتفاضات شملت الأوطان الإسلامية في أودية ليبيا . كانت محاولات مخلص للبهضة والإصلاح .

وكان من الممكن أن تنهض الإسلام ، وأن يحل مشاكله بنفسه دون حاجة إلى تسخير حتى

ومدأ التأثيرات الأوروبية تنسرب إلى مصر ، وبدأت مصر عملية الملازمة بين التقاليد الإسلامية والحصارة الغربية ، ثم أخذت مدارس مصر تشيع هذه المؤثرات في محيط أرحاء إفريقية عن طريق مدارسها ومعاهدها وصلاتها الوثيقة بمختلف أرحاء ندره

يمكن الاستعمار قضى عل هذه المحاولات باستيلائه على الأوطان الإسلامية ، وكأأسس النار على هذه الحقبة الطويلة التي أشرنا إليها .

والصير الإسلامي في إفريقية كلها في هذا العصر الطويل يكاد يكون متوحد الصير . كل قطر بعد إليه الإسلام تتكرر فيه نفس الظواهر التي حدثت في الأقطار الأخرى ،

وفي هذه الدراسة سنقسم الوطن الإسلامي تقسيما جغرافياً ، وسندرس كل قسم من حدة على هدى المتشابه من التطورات :

بسلام في جميع أقطار إفريقية في العصر الذي حددناه مر بالأدوار الآتية :

١ - دور التكوين : شهد دخول المآثرات الإسلامية عن طريق الفتح أو التسريب السلمى ، فانتشرت اللغة العربية وشاعت المآثرات الإسلامية .
٢ - دور الازدهار : يمثل اكتمال التطور الإسلامى ، إذ يتم فيه الاندماج الكامل بين الإسلام وبين المآثرات المحلية الموجودة ، ويظهر الطابع المحلى للثقافة الإسلامية ، وتبدأ شعوب المنطقة التى أسلمت وتشرت الثقافة الإسلامية تؤمن دولا إسلامية يؤسسها أبناء البلاد الأصليون ، هذه الدول تعمل على نشر الإسلام وإشاعة المآثرات الإسلامية ويظهر فى حضارتها وتقاليدها المزيج الجديد المؤلف من الثقافة الإسلامية الوافدة والثقافات المحلية .

يمتد هذا الدور حتى أوائل القرن الثامن عشر ، وسوف يشهد ظهور الأتراك العثمانيين على مسرح الحوادث وقيادتهم معركة الجهاد الإسلامى فى البحر الأبيض والأخضر وأوربا .

٣ - عصر الإصلاح - القرن التاسع عشر .
فى هذا العصر يأخذ الإسلام فى مجابهة المآثرات الغربية الوافدة وفى التلاؤم معها فى البلاد التى وعدت عليها هذه المآثرات .
وفى بعض البلاد الأخرى تظهر الانتفاضات المهدوية أو الوهابية أو الحركات الإسلامية الأخرى هادفة إلى إصلاح الأحوال ، والنهوض بالإسلام والعودة به إلى قوته الأولى .

أو بمعنى آخر ظهور عصر التجديد فى بعض الأقطار ، ثم ظهور الحركات السلفية فى بعض الأقطار الأخرى ، ثم تظهر القوى الأوروبية وتختصم العالم الإسلامى لنفوذها وسيطرتها .

كل البلاد الإسلامية فى إفريقيا مرت بهذه الأدوار الثلاثة : مر بها شمال إفريقيا وغربها ، وسودان وادى النيل وشرق إفريقيا ، والجدول التالى يوضح هذه الحقيقة .

أولا - دور التكوين (التكوين) :

فى مصر والمغرب يبدأ منذ تمام الفتح وينهى ببداية ظهور الإمارات الإسلامية المستقلة .

وفي غرب إفريقيا يمثل ظهور المرابطين ونشرهم الإسلام في دولة غانة وحوض السنغال . وفي السودان وادي النيل الفترة التي تنتهي بسقوط ممالك النوبة المسيحية ثم بداية تدفق القبائل العربية وتسربها إلى بلاد السودان .
وفي شرق إفريقيا استقرار المهاجرين العرب وعملهم على نشر الإسلام بين أهل البلاد الأصليين

ثانيا - دور الازدهار .

في مصر . معرب يشمل تاريخ الدول الإسلامية المستقلة حتى بداية القرن التاسع عشر . وفي غرب إفريقيا يشهد ظهور الدول الإسلامية المستقلة : مالي وسنهي . سلطنت كاميرون

وفي السودان وادي النيل ظهور سلطنات الفنج ودارفور وتقلي وفي شرق إفريقيا ظهور لإمارات المستقلة وصراعها مع القوى المسيحية في البلاد .

ثالثا - عصر الإصلاح :

شهد ظهور حركات التجديد في كل من مصر وشمال إفريقيا، وظهور حركات الجهاد في غرب إفريقيا . حركات ابن فودي والحاج عمر وأحمدو لوبو وشيخو أحمدو

وينمثل في السودان وادي النيل في الفترة الممتدة من الفتح المصري حتى نهاية المهدة . وفي شرق إفريقيا يمثل في الصراع الأخير بين القوى الإسلامية في البلاد وتدخّل المصريين والمهدويين في السودان .



الباب الثاني



انتشار الإسلام والثقافة العربية
في مصر والمغرب

نور

نور

نور

نور

نور

نور

نور

نور

١ - الفتح العربي لمصر والمغرب

فتح العرب لمصر والمغرب فصل من قصة طويلة ، هي قصة امتداد النفوذ الإسلامي خارج جزيرة العرب ، قصة الفتوح الإسلامية الشهيرة ، والتوسع العربي المعروف ، الذي ظل مستمرا منذ خلافة أبي بكر الصديق حتى آخر العهد بالدولة الأموية .

فتح مصر إذن مرحلة من مراحل هذا التوسع من حيث الظروف التي مهدت له ومن حيث الأسباب الدافعة إلى الفتح ، ومن حيث النتائج التي ترتبت عليه .

فقد كانت أحوال مصر في النصف الأول من القرن السابع الميلادي تمهد لنجاح الفتح العربي ، فقد انتشرت المسيحية في مصر وأدى انتشارها على نطاق واسع إلى إحياء القومية المصرية التي خبت منذ سقوط ملك لقراعنة ، فقد ترجم الإنجيل إلى اللغة القبطية ، ودخلت هذه اللغة إلى الكنائس فأصبحت لغة الصلاة والترنيل ، وقد أدى هذا إلى إحياء اللغة القبطية وارتفاع شأن الأدب القبطي .

وقد تكفل الشعب المصري خالف كنيسته التي كانت إحياء للدولة المصرية القديمة في نظامها وتقاليدها ، وظهر لهذه الكنيسة كيان مستقل ، فقد تأثرت بتعاليم مدرسة الإسكندرية القديمة ، وبمذهب أفلاطون على وجه الخصوص ، ففسرت طبيعة المسيح على أنها طبيعة واحدة بدمج فيها الناسوت في اللاهوت في أقنوم واحد ، وبذلك استقلت في الرأي وفي العقيدة عن كنيسة الدولة البيزنطية الحاكمة .

ثم اتسعت الهوة وانقلب هذا الاستقلال إلى حركة اضطهاد ديني ضخمة ، اضطهاد الكنيسة المصرية والعقيدة المصرية . هذا الاضطهاد بلغ مداه في عهد الامبراطور هرقل (١) ، عزل القسوسة المصرية وصودرت أموال الكنيسة المصرية ، وأسيء إليها إساءة بالغة .

والمصريون الذين امنهت مقدماتهم على هذا النحو أصبحوا أحرص الناس على

(١) بتل : فتح العرب لمصر ص ٦ وما بعدها .

الخلاص من هذه العبودية المذهبية بأية وسيلة . لم يجدوا بدا من تأييد الفاتحين العرب ، متأثرين بتصرفات العرب وتسامحهم الديني مع المسيحية في بلاد الشام .

والبطارقة يعقوبيون ونحصر بالدير ميخائيل الأكبر يرى في فتح العرب وفي انتصاراتهم المتلاحقة يد العدالة الإلهية التي بعثت لنثار لما نال كنيسهم من تعذيب واضطهاد (٢) . وسيندفع أهل مصر إلى مساعدة العرب في فتح البلاد والقضاء على الحبروت الملكاني الذي أذلهم .

ومن مظاهر الضعف الأخرى : ضعف النظم العسكرية البيزنطية بوجه عام وضعف التنظيمات العسكرية في مصر بوجه خاص .

ويمكننا أن نتلمس مظاهر هذا الضعف في تقسيم مصر إلى قيادات مفصلة غير متعاونة للحملات دون ثورة الحامية المصرية على اللولة الحاكمة ، ولكن البيزنطيين لم يكونوا يقدرّون أن هذه القسمة ستسهل من مهمة العرب كثيراً .

يضاف إلى هذا أن الجيش البيزنطي نفسه قد تسربت إليه طوائف من المجندين المصريين وأن هؤلاء لم يكونوا مخلصين للقضية البيزنطية ، وأنهم كانوا يلهون السلاح عند أول لقاء لهم بالعرب .

وكان الخطم الذي وضعه البيزنطيون للدفاع عن مصر يعتمد إلى حد كبير على خط دفاع أقيم على الحدود الشرقية ، وهو يتألف من قسمين : حصون فرعية من الفراما إلى ليس ، ثم قاعدة عسكرية كبرى عند حصن بابليون تتحكم في الدلتا والصعيد في وقت واحد ، ، ومثل هذا الخط لم يكن كفيلاً بحماية البلاد ، إذ بمجرد أن اخترقه العرب تمكنوا من وادي النيل .

ونضاف إلى هذه المظاهر مساوئ أخرى كثيرة اقتصادية وجماعية وسياسية قصّصت كلها على أن تمهد للنصر الذي حققه العرب . وتمكن لهم من وادي النيل .

ولانريد أن نخوض كثيراً في مآثر حول الفتوح العربية والظروف الدافعة إليها ،

(١) أرنولد الدرة إلى إسلام ص ٢٢

Maspero : Organisation Militaire,

(٢)

وما نادى به المؤرخون المحدثون من أسباب اقتصادية أو اجتماعية أو عسكرية ، إنما يكفى أن نقول إن فتح مصر كان شأنه شأن الفتوح الأخرى ، تذكیه أولاً وقبل كل شيء رغبة دينية جامعة ، هي نشر الدين الإسلامی .

وكانت الدولة الإسلامية في ذلك الوقت ترى أن الخطوة الأولى في سبيل نشر الدين الجديد هي أن تفرق بين لشعوب السامية في الشرق الأدنى وبين الحكومة البيزنطية . وكانت الهوة سحيقة جداً بين الحاكين والمحكومين ، هوة في الدين وفي المقومات وفي الثقافة أيضاً .

لذلك انصرف الفاتحون العرب إلى ضرب القوة البيزنطية في الصميم ، هزموها في الرموك ، ونعقوها في بلاد الشام ، وطردوها من هذه البلاد ، وأعادوا الاتصال المباشر بينهم وبين الشعوب السامية في الشام .

وكان عليهم بعد هذا أن يعتقروا هذه القوة البيزنطية في بقية معانقها وحصونها ، وكانت مصر من أمتع هذه المعانق بسبب قاعدة الإسكندرية أعظم القواعد البحرية في البحر الأبيض وبسبب مواردها الهائلة ، وبسبب الإمبراطورية المترامية الأطراف الممتدة حتى المحيط الأطلسي . وأجندات الاستراتيجية تحتم على العرب حماية الشام بفتح مصر ثم حماية مصر بفتح المغرب .

ولم يكن فتح هذا المعقل المنيع مجرد حملة لايزيد عسدد جنودها عن أربعة آلاف على رأسهم قائد معامر ، إنما كانت عملاً عسكرياً دبر بعناية وإحكام لتسديد ضربة محكمة إلى المقاومة البيزنطية .

فقد اتفق على خطة الفتح في مؤتمر للقواد العسكريين عقد في مدينة الجاية ، وأعدت لهذا الفتح فرق من الجنود النجدة لها خبرة خاصة بقتل الحصون واختطاط المدن وبالزراعة والصناعة .

كما اتصل العرب بالقبائل البدوية العربية التي كانت تقيم على حدود فلسطين ومصر وتمتد بطونها في مديرية الشرقية خصوصاً قبائل لحم وراشدة . وقد انحاز هؤلاء العرب إلى بني عمومهم (١) ، فكان جند عمرو (٢) ، هم القوة الضاربة

(١) شكرى فيصل : المجمعات الإسلامية في القرن الأول من ١٣٤ وما بعدها .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر من ٥٩ . هذه القوة ٣٥٠٠ وثلاثهم من غائق .

وخلفهم جموع من عرب فلسطين ، ونصروهم مؤخرتهم ، وتدخلهم على مسالك البلاد .

ومن قبيل هذا الاستعداد أن العرب قبيل الفتح كانوا يتجسسون على أحوال مصر وأرسلوا كتية استطلاعية لتأليب المصريين والنمهيذ للفتح (١) .

وقد عمد العرب إلى تنفيذ الخطة الفارسية القديمة التي استخدمت في فتح مصر مدلل أن العرب استعانوا ببعض الجنود الفرص الذين اشتركوا في الحملة السابقة ليدلوهم على وسيلة التنفيذ (٢) .

كانت الخطة الفارسية القديمة تقوم على أساس مهاجمة قاعدة بابلون التي تسيطر على الدلتا والصعيد عند نقطة تفرع النيل ، وبذلك يشطرون الودى إلى شطرين ويشغلون قوات الصعيد فلا تتصل بقوات الدلتا ، ثم مهاجمة الاسكندرية من الخلف متبعين فرع النيل الغربى .

كانت الخطة العربية هي تطبيق دقيق لنفس هذه الخطة الفارسية القديمة تقدم العرب من حدود مصر الشرقية ، ثم تقدموا حتى دخلوا بلبس ، ثم هاجموا القاعدة الكبرى قاعدة بابلون . وقد دافعت الحامية البيزنطية عن هذه القاعدة دفاع الأبطال ثم أخلت واستولى عليها العرب ، فإن البيزنطيين كانوا يركزون الدفاع كله حول الاسكندرية لتعاون القوات البرية والبحرية معا في دفع العرب عن البلاد .

وقد تقدم العرب بعد بابلون في نفس الطريق الفارسى وضربوا الحصار على مدينة الاسكندرية من الخلف ، وقاومت المدينة بحماية الأسطول البيزنطى مقاومة جبارة ، ولم تستسلم إلا بعد تغير الأحوال السياسية في الدولة البيزنطية بعد وفاة هرقل ، إذ رأى خليفته بعد ضياع هيبة البيزنطيين في الشام ومصر أن ينصرف إلى الدفاع عن الحدود الشمالية البلقانية ، وأن ينسحب من مصر ويستسلم للعرب على أن يعاود الكرة فيما بعد .

وهذا هو ما أدى إلى تسليم الاسكندرية للعرب وعقد معاهدة الفتح المشهورة

(١) انظر ما ورد في الواقدي من روايات في هذا الصدد .

Wiet : L'Egypte Arabe, tome IV.

(٢)

فكانت، إن شاء الله، للمقاومة البيزنطية في مصر، وإبنايانا بانتصار العرب وبداية عهد جديد في تاريخ البلاد، كانت بداية مصر الإسلامية (١).

لكن الفتح الحقيقي للبلاد لن يتم إلا ببناء البحرية المصرية الإسلامية، فقد كان للبيزنطيون لا يزالون يحفظون بالسيادة البحرية في البحر الأبيض وكانوا قادرين على معاودة الكرة ومواصلة العدوان. وفعلاً استعادوا الإسكندرية سنة ٢٥ هـ. وبدأوا يتقدمون منها في إقام الدلتا، وكان نجاح العرب في صددهم واستعادة الاسكندرية بداية الفتح الحقيقي للبلاد. فقد ظهرت في شواطئ مصر النواة الأولى للبحرية الإسلامية، ثم اشتد عود هذه البحرية الناهضة، وانتزعت زمام المبادأة من البيزنطيين أنفسهم وخاضت معركة ذات الصواري، وقد دفع البيزنطيون في هذه المعركة قوتهم كلها، غير أن العرب هزمهم وانتزعوا منهم أول نصر بحري. وانتصار ذات الصواري يشبه من حيث النتائج إنتصار اليرموك: النصر الأول أمسى المقاومة البرية، والنصر الثاني كتب للمسلمين السيادة البحرية (٢).

بعد أن تمكن النفوذ الإسلامي من مصر بدأ يتجاوز حدود البلاد الغربية منطلقاً إلى بلاد المغرب، ومن الغريب أن يحدث هذا بعد فتح مصر مباشرة وبعد الجهود المتواصلة التي بذلت لفهر البيزنطيين في مصر.

فبدأ عمرو بن العاص بعد تسليم الإسكندرية مباشرة يتوغل بقواته صوب العرب متعقباً القوات البيزنطية المتقهقرة واخترق برقة وطرابلس، وما كاد يقترب من حدود تونس وتبلغه أنباء تجمعات الروم حتى عاد أدراجه (٣).

ثم أعاد المسلمون الكرة باستعداد أتم في عهد عبد الله بن سعد، فقد جند الخليفة عثمان عشرين ألفاً من العرب. فتوغل بهم حتى بلغ تونس مرة أخرى، ثم هزم تجمعات البيزنطيين.

ورغم هذا النصر عاد المسلمون إلى مصر مرة أخرى، مما يدل على أن هذه المحاولات لم تكن رغبة حقيقية في المضي في الفتح إلى غابته، إنما هي مجرد تأمين للحدود

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص ٨.

(٢) : : : ص ٨٨ - ٩٠.

(٣) مؤنس: فتوح العرب للمغرب ص ٦٨.

مصر الغربية وإرهاب للبيزنطيين ، فلا يفكرون في الاغارة على مصر من ناحية العرب

ثم حاول خليفة عمرو ، عبد الله بن سعد أن يعبد الكرة باستعداد أوفر وقوة أتم . فكتب إلى عثمان الخليفة يستأذنه في الفتح ، ويحدد عثمان عشرين ألفاً من العرب يقردهم أعلاء الصحابة لاستئناف الجهاد في هذا الميدان الجديد .

وعاود العرب التقدم مرة أخرى ودخلوا إفريقية هذه المرة ، وهزموا تجمعات الروم في معركة سبيللة (١) . ولكن العرب ارتدوا مرة أخرى رغم هذا النصر ، وهذا الارتداد ... إلى التمتة الإسلامية الكبرى في عهد عثمان ، وبداية تزعزع مكانة حربية في قلوب المسلمين .

و ... لم يبقوا السلاح ولم يكن من المعقول أن ينزلوا عن هذه الآفاق الجديدة التي تمكن أن تمتد إليها الدعوة الإسلامية ، فما كادت الدولة الإسلامية تفيق من مداعبة ... الدولة الأموية حتى كان الخليفة معاوية أسرع الناس إلى معاودة النضال ييكسب خلافته الناشئة تأييد كافة المسلمين بسبب إحياء الجهاد في سبيل الله والعقيدة . ومن ثم كانت محاولة معاوية بن خديج غزو إفريقية ، وقد أحنقت محاولة ... حقيقاً ... لم تحقق لمحاولات السابقة (٢) .

وكان على العرب إن أرادوا معاودة الكرة وثقين من الفوز والنصر أن يغيروا حصنهم في الحرب من أساسها ، فقد كان عدوهم يعتمد في معركة المغرب على ثلاثة عناصر قوية . أولاً أسطول بحري ضخم بقواعده واسعة في صقلية ، وموانئ إفريقية وسلسلة عظمى من الحصون الساحلية القديمة ممتدة من حدود إفريقية حتى المحيط الأندلسي تدور كلها في صد المغيرين وردهم على أعقابهم . وثالثاً تأييد القبائل المغربية المتفانية . سهول الساحلية والتي كانت قد اعتنقت المسيحية وتشربت الثقافة الرومانية .

وفعلاً ساد حرب إلى المعركة مرة أخرى سنة ٥٠ (٣) م بخطة جديدة لمواجهة تكديس العدو وحصنه .

(١) مؤنس - فتح العرب للمغرب ص ٨٥ وما بعدها .

(٢) ابن عبد الحكم - فتح مصر ص ١٩٣ - ١٩٤ .

(٣) ابن عدي - البيان المغرب ج ١ ص ١١ - ١٢ .

وقد عازى عقبه بن نافع الفهري فاتح المغرب وفي ذهنه أمور ثلاثة لإخسار النصر في هذه المعركة الحاسمة . أولاً : تجنب الطونيق الساحلى بأية وسيلة منع محاولة التقرب من أهل البلاد الأصليين من البدو الذين يكرهون الثقافة الرومانية والحكم البيزنطى وبذلك يطوق الثغور الساحلية من أسفل ، ويتجنب خطر الأسطول البيزنطى . ثانياً : إنشاء قاعدة للغزو الإسلامى لهذه البلاد تكون بعيدة عن البحر بالقدر الذى يجنبها خطر الأسول قريبة من المنطقة التى تقع عند نهاية السهل الساحلى وبداية المناطق الرعوية الواقعة من خلفها ، يتجمع فيها المقاتلة من مصر وغيرها من البلاد الإسلامية وتحشد فيها المؤن والدحائر وتتخذ قاعدة تسرب إلى بلاد المغرب كله .

وكان إنشاء القيروان من أهم الأحداث في تاريخ الفتح الإسلامى لهذه البلاد من ناحية ، وفي تاريخ انتشار الإسلام والثقافة العربية .

فقد كان إنشاء القيروان معناه أن معالم ولاية إفريقية أخذت تتضح منذ إنشاء هذه المدينة ، إذ بدأت تصبح مقراً للولاة والعمال وغيرهم من ذوى السلطان ، وأصبحت الإقامة بالقيروان أول ما توجه إليه أبصار الوالى الجديد بعد أن كان أول الأمر يتطلع إلى مصر ويتمجل العودة إليها .

وكان إنشاء القيروان مؤدباً بدء عهد جديد في تاريخ البلاد ، ذلك أن مدينة القيروان ستصبح قبلة المغرب وكعبة الحضارة ومقل الإسلام ، فقد وفد إليها كثيرون من الصحابة وأقاموا بها يعقثون الناس في شئون دينهم . كما دفن بها كثيرون ممن استشهد منهم ، لذلك نحد الرواة والكتاب يخلعون عليها ثوباً من القدسية ويحيطون تأسيسها بكثير من الخرافات .

ويعتبر إشاؤها بدء تاريخ الحضارة الإسلامية المغربية ، فإلى جانب الجيوش والبعوث التى تخرج منها للغزو والفتح كان الفقهاء يخرجون منها لينتشروا في البلاد يعلمون العربية وينشرون الإسلام . بل إن الدور الذى لعبته مدرسة القيروان في إدخال البربر في حظيرة الإسلام لا يزل عن الدور الذى لعبه القواد الفاتحون (١) .

ورغم أنه لم تتح لعقمة الفرصة لإنعام ما بدأ وتنفيذ السياسة الحكيمة التى وضعها

غير أن سياسته هذه أصبحت مستوراً لمن أعقبه من القواد والفاتحين ، لأنها أكثر للسياسات ملاءمة لأحوال إفريقية .

زحف خليفته أبو المهاجر دينار (١) من المناطق الداخلية وطرق باب المغرب الأوسط ، واصطنع سياسة التجنب إلى القبائل المغربية في البلاد ومساكنها ، وترغيبها في الدخول في الإسلام .

كما وضحت الأهمية القصوى لإنشاء قاعدة القيروان العسكرية في عهد زهير بن قيس البلوي حينما ارتد البربر وهبوا يعاونهم البيزنطيون بعد أن تخلصوا من متاعهم كلها وأرادوا أن يوقعوا بالعرب ، ولولا قاعدة القيروان وأهميتها الاستراتيجية لطرده العرب نهائياً من البلاد ، وضاعت الجهود الشاقة التي بذلت من قبل .

كانت هذه المدينة الأساس الهام الذي تفتت منه محاولات عبد الملك بن مروان لإتمام فتح هذه البلاد ، فأرسل إلى أشراف العرب ليحشدوا إليه الحند من الشام . وأقبل الناس على الانخراط في سلك المجاهدين . واستطاع عبد الملك بعد أن فرغ من مشاكله الداخلية كلها أن ينصرف كلية إلى فتح إفريقية ، فأعاد الكرة مرة أخرى سنة ٧٦ هـ بقيادة حسان بن النعمان ، وكانت الخطة التي التزمها هذا الفاتح تدل على تطور هام في تاريخ الحملات العربية في شمال إفريقية (٢) :

فقد انصرف إلى مهاجمة القلاع الساحلية مثل قرطاجنة وهذا يدل على نمو البحرية الإسلامية نموا جعلها تقدم على المخاطرة باقتحام ميدان المغرب ومساعدة القوات البحرية .

ودخول البحرية الإسلامية بلاد المغرب طليعة الجهود الحقيقية التي سبذل لقهر الروم وإتمام فتح البلاد . وكان من نتيجة ذلك أن فتحت مدينة قرطاجنة معقل المقاومة وقاعدة الأسطول البيزنطي بعد مقاومة عنيفة ونصال مستمر ، وهزمت البحرية البيزنطية ، وأحرز الأسطول العربي الناشئ أول نصر له في هذا الميدان . كانت معركة إفريقية معركة البحرية الإسلامية الناشئة ، ونستطيع أن نقول إن فتح إفريقية قد تم بعدها (٣) .

(١) المالكي : رياض النفوس ص ٢٠ .

(٢) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ١١٨ وما بعدها .

(٣) الأديب : معالم الإيمان ج ١ ص ٤٤ .

وأراد حسان أن يثبت أركان هذا النصر ويضع حدار الخوالات الروم البحرية فأنشأ قاعدة للأسطول الإسلامي هي مدينة تونس . وإذا كانت القيروان قد أصبحت حصن البلاد من الداخل ومعسكراً للقوات البرية فقد أصبحت تونس قاعدة الأسطول العربي (١) . وكان حسان موفقاً كل التوفيق حين أهتم بتعمير هذه المدينة وجلب لها بعض الأسر القبطية المشتغلة بصناعة السفن لتدريب العرب وتمكين أهل البلاد من ركوب البحر .

والخطوة الثانية تقرب أهل البلاد من الفاتحين نهائياً بتولية المسلمين منهم في وظائف الولاية الإفريقية ، وتمتعهم بالمساواة الكاملة بالعرب الوافدين لهذه البلاد ، فتبين أهل البلاد الفرق الواضح بين السياسة العربية ، والسياسة البيزنطية القديمة ، فاشتد ساعد الإسلام وأقبل عليه البربر منذ هذا الوقت إقبالا عظيما .

وهذا كله كان بالغ الأثر في تاريخ الثقافة العربية الوافدة إلى إفريقية ، فقد نعمت البلاد بالهدوء والطمأنينة ، وأمنت من الغزو البيزنطي وتم التحسالف الوطيد بين العرب والبربر .

وكان معنى هذا كله استقرار الأمور الداخلية . فأخذت مدرسة القيروان الناشئة ترسخ قدمها ويشتد ساعدها . كثر إقبال الصحابة والتابعين والعلماء الوافدين من مصر ، وأصبح جامع عفة بالقيروان مدرسة إسلامية يؤمها الناس من كافة البلاد وخصوصاً البربر أهل البلاد الأصليين ، الذين أخذوا بعد إسلامهم يتعلمون العربية ويقبلون على الثقافة الإسلامية . وانتشر صيت القيروان حتى عم إفريقية كلها وأصبحت بحق العاصمة الروحية للبلاد .

وبدراسة ما كتبه كل من أبي العرب نعيم في كتابة طبقات فقهاء القيروان والمالكى في كتابه رياض النفوس والديباغ في كتابه معالم الإيمان ، نستطيع أن نتبع تطور هذه المدرسة خلال الفترة التي مضت منذ إنشائها لأول مرة ، فبدأت تختص بدراسة الفقه والحديث والقرآن واللغة والنحو على يد أئمة الدارسين المتخصصين . وكانت مصر بمدارسها المختلفة تشد أزر هذه الحركة وتغذيها .

وكان استئناف الفتح بعد ذلك هو إعلال نفوذ القيروان السياسى والعسكرى ،
ولنفوذها الثقافى والروحى ، فإن فتح المغرب الأقصى سيتم بفضل أهل إفريقية .
فلنرى كيف امتد نفوذ القيروان حتى شمل المغرب الأوسط ثم المغرب الأقصى .
والعامل الحامى فى قصة امتداد النفوذ العربى إلى المغرب الأقصى هو انتشار
الإسلام بين البربر فى إفريقية ، والتقارب بين العرب والبربر والإعتماد على إفريقية
نفسها كقاعدة عسكرية لإنمام فتح البلاد .

وهذه القاعدة العسكرية لا يمكن أن تكون ذات أثر فعال إلا بالتعاون بين الحاكم
والمحكوم ، ثم إن الإعتماد على الامدادات العربية وحدها فى فتح هذه البلاد من
الناحية العسكرية أمر غير مرغوب فيه ، بسبب قلة أعداد العرب بعد تفرقهم فى
الأمصار وطول خطوط المواصلات نفسها ، واستحالة الاحتفاظ بها سليمة دون
أن يصيبها عدوان .

وكانت جهود حسان بن النعمان وسياسته التى أشرنا إليها محققة لهذه الأهداف
كلها فقد مهدت لامتداد الثقافة العربية إلى آفاق جديدة (١) .

ومصادق هذا القول حملة عقبة بن نافع الفهري فى المغرب الأقصى ، التى
كادت أن تكون أسطورة فى تاريخ الفتح الإسلامية من حيث سرعة الرحف وعنق
الهجوم والآفاق التى وصل إليها .

فقد تجاوز إفريقية غرباً وتوغل فى المغرب الأوسط ، ثم سر فى إقليم الساحل
حتى وصل مدينة طنجة الحالية .

ودار حول ساحل المحيط الأطلسى إلى إقليم السوس الأدنى ثم السوس الأقصى ،
حتى وصل إلى الحدود الجنوبية للمغرب الأقصى قرب مدينة مشهورة فى تاريخ
العلاقات بين المغرب والسودان الغربى هى مدينة أنعام .

بل لم يقف عند هذا الحد فتذكر بعض الروايات أنه توغل فى غرب إفريقية ،
ووصل إلى بلاد عانة والتكرور .

والرحالة بارت (١) في كتابه *Travels and discoveries in north and Central Africa* يذكر أن بعض الروايات المحلية تقول أنه كانت بغانة عام ٦٠ هـ جالية إسلامية وأن عقبة بنى فيها بعض المساجد (٢).

وهذا كله من قبيل المغالاة لأن المسلمين في هذه الجهات يهتمون بأن يرجعوا إسلامهم إلى رجل من الصحابة ومن الرعيّل الأول مثل عقبة . ولم يكن من المقبول أن يستطيع عقبة بإمكانياته المحدودة أن يدرك بلاد السودان ومصب السنغال ومنتحى النيجر .

على كل حال نستطيع أن قبل هذه الرواية بشيء من التحفظ إذ عرفنا أن ديار السودان كانت أكثر امتداداً نحو الشمال . وليس بعيداً أن تكون مملكة غانة الزنحية قد امتدت حتى حدود المغرب الأقصى (٣).

ولكن رغم هذه السرعة في الزحف ورغم هذا المدى البعيد الذي وصل إليه هذا القائد العربي فإن جهوده ذهبت هباء . وما كاد يعود أدراجه متجها صوب إفريقية حتى انقضت عليه القبائل المغربية التي كانت قد فرت أمامه معتصمة بالجبال والهضاب فقتل وتفرق شمل جيشه .

وكان الفشل منه أن هذه الحملة لم تكن متحاوية مع السياسة التي نحدثنا عنها ، ولم تكن تعتمد على أهل البلاد أو تسعى إلى تحييدهم في الإسلام أو التقرب بينهم وبين العرب كما فعل حسان بن النعمان في إفريقية فيما بعد .

وطبيعى أنه لن تنجح الجهود العديدة لفتح هذه البلاد وإدخالها في نطاق السيادة العربية إلا باستخدام السياسة التي وضع أساسها حسان بن النعمان ، والتي أثمرت في إفريقية على النحو الذى ذكرناه .

فلما جاء موسى بن نصير إلى المغرب الأقصى يريد أن يرسم خطة عقبة مع تعيينه لمبادئ حسان ، كتب له النجاح والتوفيق في مهمته ، وهو نجاح لم يتوفر لعقبة من قبل .

فقد استقامت الأحوال خلفاء بنى أمية واستطاعوا في عهد عبد الملك بن مروان أن يقضوا على الفتنة الداخلية ، وأتيح لموسى بإذن عبد الملك أن يعاود الفتح مرة أخرى .

(١) Barth : *Travels and discoveries* vol. JV p. 570

(٢) De la Chapelle : *Hesperis*, 1930 T. XI, p. 24

(٣) حسن أحمد محمود : قيام دولة الرابطين ص ٦٤ .

وسلك نفس الطريق الذي سلككم عقبة من قبل حتى وصل إلى الحدود الجنوبية للمغرب الأقصى .

وأترف على حدود غرب إفريقيا من الشمال . لكن موسى كان أبعد نظراً من عقبة ، ولم يكن قائداً فحسب إنما كان مصلحاً وسياسياً في نفس الوقت ، فحرب إليه البربر وحجبتهم في الحكومة الجديدة وولاهم الأعمال وأشركهم مع العرب في إدارة دفة البلاد ، فوجدوا أن انضمامهم للعرب ومخالفتهم يتيح لهم مكاسب مادية كثيرة (١) . فبدعوا يتباون على الإسلام إقبالا عظيما .

وموسى لم يكن يحب أن يكون إسلام البربر خوفاً أو رهبة بل عن حب واقتناع ، فأحمد يعلمهم الدين وينشئ المساجد في البلاد التي فتحها فأشأ مسجداً في مدينة أغمات في أقصى بلاد المغرب ، وبدأت الثقافة الإسلامية تنبت في هذه البيئة الحديثة (٢) .

التزم موسى إذن سياسة حسان بن النعمان سياسة التهذيب وأصبح المغرب الأقصى بشعوبه وقبائله طوعاً وبمينة .

وقد تابع خلفاء موسى هذه السياسة الرشيدة ، فإن اسماعيل بن أبي المهاجر في عهد عمر بن عبد العزيز عمل على نشر الإسلام ، وأمدته الخليفة بطائفة من التابعين انتشروا في البلاد يحضون الناس على الإسلام وينشرون الثقافة الإسلامية .

وكما أن تعريب إفريقيا واستقرار أمورها ودخول أهلها في الإسلام تمهيداً لانتشار الإسلام وثقافة العرب في المغرب الأقصى ، كذلك كان انتشار الإسلام في المغرب الأقصى وانضمام البربر إلى العرب عاملاً حاسماً في اندفاع الإسلام وثقافة العرب إلى بلاد الأندلس .

فقد كان بربر المغرب الأقصى الذين دخلوا في الإسلام حديثاً هم عدة هذا الفتح وهم جنده . وطارق بن زياد المغربي وجهوده وبروزه في قصة الفتح يعتبر دليلاً على نجاح سياسة موسى ، وعلى مدى انتشار العقيدة الإسلامية بين صفوف أهل البلاد الأصليين (٢) .

وبذلك انتشر النفوذ الإسلامي من مصر حتى المحيط الأطلسي .

(١) حس أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٩٤ .

(٢) قيام دولة المرابطين ص ٩٤ - ٩٥ .

٢ - انتشار الإسلام والثقافة الإسلامية في مصر

دور التكوين :

بعد أن عرضنا لفتح كل من مصر والمغرب ، سنعرض للتطورات الهامة التي حدثت في هذه البلاد بعد إتمام الفتح ، والتي كان لها عظيم الأثر في مستقبل الإسلام في إفريقيا .

من هذه التطورات انتشار الإسلام في مصر وتحول هذا الشعب بالتدريج من دينه القديم إلى دينه الجديد . هذا الشعب الذي ظل يقاوم الكنيسة البيزنطية وعقائدها مقاومة عنيدة نحو من أربعة قرون ، استسلم للفاتحين العرب وعتنق دينهم في مدة لا تزيد عن قرنين من الزمان .

وموضوع انتشار الإسلام بين المصريين ، والتاريخ الصحيح لهذه الظاهرة الهامة في تاريخ البلاد لم يعرض لها بالدراسة الكاملة .

لم يعرض لها المستشرق Becker على الرغم من اعتماده على أوراق البردي في كثير من الدراسات الإسلامية التي قام بها ، لأن هذه الأوراق في الحقيقة لا تلي ضوءاً إلا على الأحوال الاقتصادية والاجتماعية وأهملت هذه الناحية الدينية الهامة ،

والمؤرخون المسلمون عامة يجمعون القول ولا يشيرون إلى إحصائيات معينة يمكن الاعتماد عليها ، حتى المقرئ نفسه الذي كتب في القرن الخامس عشر عصر النهضة الإسلامية الشاملة حديثه في هذا الموضوع فيه خلط وتضارب .

والرحالة الأجانب الذين وفدوا على البلاد اتسمت أقوالهم بطابع المبالغة ولا يمكن أن نثق بها كثيراً .

ورغم هذا كله فإننا نستطيع أن نقول أن الإسلام كان يمتد في طريقه نحو الذبوع والانتشار في خطوات سريعة . وذلك اعتماداً على ما تذكره المراجع عن مقادير الجزية المفروضة على القادرين من غير المسلمين . هذه الجزية أخذت تنقص تناقصاً سريعاً مطرداً .

في عهد عثمان بن عفان بلغ خراج مصر ١٢ مليون دينار .

و معاوية . ومحمد بن عبد الله . و

و هارون الرشيد . و . و ٤ . و

في العصر العباسي المتأخر (١) . و ٣ . و

كما نستطيع اعتماداً على كتب التاريخ التي كتبها مصريون مسيحيون ابتداء من القرن الرابع الهجري فصاعداً أن نعرف أنه كانت هنالك موجات كثيرة من التحويل إلى الإسلام في سنة ٧٣٥ و ٨٢٢ و ١١٧١ ميلادية .

وأن سنة ٨٢٣٩/٨٥٣ م (٢) على وجه التحديد تعتبر سنة حاسمة في تاريخ الدعوة إلى الإسلام في مصر ، فقد أصبحت غالبية أهل البلاد من المسلمين ، يدل على هذا أن الثورات القسرية قد اختفت منذ ذلك العهد بانتهاء المقاومة ودخول أغلب الناس في الإسلام .

كما أن الثقات العربية التي قاومت الدولة العباسية منذ قيامها قد استكانت منذ هذا التاريخ لانشارها في ريف البلاد واختلاطها بالمصريين الذين أساموا .

كما بدأت في ذلك العهد ظاهرة تمييز المصريين المسيحيين من غير المسيحيين في الحياة الاجتماعية وفي الرى . وذلك بناء على الرسوم الذي أصدره الخليفة العباسي المتوكل ، والذي حتم فيه على المسيحيين أن يلبسوا زياً خاصاً . والمنطق يقضى بأن تميز الأقلية المسيحية عن الغالبية المسلمة التي دخلت في الإسلام واحتفظت بزيها وعاداتها وتقاليدها القديمة (٣) .

ثم مضت هذه الظاهرة في طريقها المرسوم حتى بعد السنة التي حددناها فحدثت تحولات إلى الإسلام في القرن الثاني عشر والثالث عشر وفي القرن التاسع عشر ، وفي الوقت الذي قبل فيه إن مصر كانت أشد البلاد الإسلامية تسامحاً في الدين لم تخل سنة من السنوات من تحول أقباطها إلى الإسلام (٤) .

(١) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ١٢٤ .

(٢) Masignon : Annuaire du Monde Musulman p, 270, .

(٣) لكسبي : الولاء والقصة ص ٢٩٠ .

(٤) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ١٢٧ .

نحو الأستاذ لويس ماسينيون في كتابه « حوليات العالم الإسلامي » يثبت أن غالبية المسلمين هم من المصريين الذين أسلموا ، وقد وضح نسبة مئوية للدماء المصرية على هذا النحو :

٦٪ من القبائل العربية الخالصة

٢٪ من البربر . (١) نسبة من البربر .

٢٪ من الحاميين .

٨٨٪ مصريون أسلموا .

٢٪ مصريون لم يسلموا (١) .

هذا التطور الخطير في تاريخ مصر كيف نعلله التعليل الصحيح ؟

ليس من شك في أن الإسلام في مصر قد اتخذ السبيل المنطقي المعروف في انتشاره بين الناس ، وهو سبيل المسألة والدعوة الخالصة والاقتناع المنطقي الخالص ، بدليل أن بعض المصريين دخلوا في الإسلام حتى قبل أن يتم للعرب فتح البلاد . بل أسلم بعضهم حتى قبل مجيء عمرو نفسه ، وكان بعض هؤلاء المسلمين الأوائل في طليعة جيش الفتح ، كما يستفاد من رواية الواقدي (٢) .

وأسلم بعضهم بهذه الوسيلة أثناء حصار الإسكندرية ، يستفاد من ذلك مما كتبه المؤرخ يوحنا النقيوسي ، فهو يعجب هؤلاء الناس من إخوانته في الدين الذين أقبلوا على الإسلام ودخلوا فيه .

ومما يؤسف له أنه ليست لدينا معلومات مفصلة عن نشاط الدعوة إلى الإسلام عن طريق الإقناع والمنطق ، فكتب التاريخ الإسلامي أهملت هذا الموضوع عظيم الأهمية في تاريخ الإسلام .

إذ ليس من شك في أن الفقهاء العرب الذين كانوا يقدمون إلى مصر من بلاد العرب ليفقهوا الناس في دينهم كانوا إلى جانب ذلك يعملون على نشر الإسلام والتكبير للثقافة الإسلامية من نفوس الناس :

Measignon : Annuaire p. 271.

(١)

(٢) الواقدي : فتح الشام .

وكانت أعداد هؤلاء الدارسين والمشتغلين بالعلم تتزايد باستمرار . وبدأ هذا النوع من التعليم لا يعود وفقاً على العرب بل أقبل عليه المصريون الذين أسلموا وتكلموا العربية واشتغلوا بالفقه والحديث ، وقاموا في سبيل نشر الإسلام بنفس الذي الدور الذي قام به العرب من قبلهم .

ولعل هؤلاء كانوا أكثر تفهماً للعقلية المصرية والروح المصرية من معلمهم العرب ، وليس من شك في أنهم بذلوا جهوداً مفضية في هذا السبيل ، وعملوا على إدخال الكثيرين من مواطنهم في الإسلام .

ويمكن أن يرتبط بين انتشار الإسلام وانتشار الثقافة العربية في البلاد ، اذ كلما مضت هذه الثقافة في طريقها المرسوم وتغلغلت في نفوس الناس كلما عمل هذا من ناحية أخرى على كثرة الداخلين في الدين الإسلامي .

والمعروف أن الحركة العلمية الإسلامية قد اشتدت في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري . وشرعت مصر في احتلال مكانتها الطبيعية في ميدان الثقافة العربية .

وليس من قبيل الإنعاق أو المصادفة أن نقول أنه في هذا التاريخ بالذات تحولت أغلبية المصريين إلى الدين الجديد ، ووضعت الجهود التي بذلها الدعاة المسلمون منذ الفتح العربي حتى هذا العصر .

ولا نخلو أوراق البردى الإسلامية التي ترجع الى عصر الولاة من إعطاء صورة خاطفة عبر واضحة لهذا التحول الحاصل في تاريخ البلاد .

فأوراق القرن الأول تكثر فيها أسماء المسيحيين في العقود الرسمية وفي المعاملات المالية المختلفة ثم تقل هذه الأسماء بالتدريج ، وتغلب الأسماء العربية ابتداء من القرن الثالث الهجري ، وهو القرن الذي وضعت فيه التأثيرات الإسلامية في البلاد (١) ؟

مهما يكن من شيء فإن هذا الموضوع في حاجة إلى مزيد من العناية والبحث ولا زال من الموضوعات الغامضة في التاريخ الإسلامي ، لأن المؤرخين لم يعنوا عادة إلا بأخبار الفتح أو قيام الدول أو المشاكل السياسية أو الثقافية العامة .

هذا يجزنا إلى سؤال آخر قد تكون الإجابة عليه مفيدة في الكشف عن الأسباب

الخفية في سرعة انتشار الإسلام . وهو هل تبنت الدولة الإسلامية في مصر مسألة نشر الإسلام ؟ ، أو بمعنى آخر هل كانت الدولة تكره الناس على الدخول في الإسلام ؟ والإجابة عن هذا السؤال تتطلب منا ألا نعتمد على ما كتبه المؤرخون العرب وحدهم فقد يخشى أن يكونوا قد سكتوا عن بعض الحقائق أو أخفوها .

بل نعتمد على ما كتبه المؤرخون المسيحيون خصوصاً يوحنا النقيوسي الذي أرخ لحوادث القرن السابع الميلادي . ثم التواريخ التي ظهرت في مصر ابتداء من القرن الرابع الهجري والتي كتبها مصريون باللغة العربية بعد أن تعلموه واتخذوها أداة للتعبير عن آرائهم .

ونستطيع اعتماداً على هذين المصدرين أن نقرر في اطمئنان أن الدولة الإسلامية في مصر لم تكره الناس على الدخول في الإسلام ولم تعرض الدعوة الإسلامية عرضاً . وإذا أردنا أن نثبت هذه الحقيقة فلنستعرض حوادث العصر الإسلامي في مصر في هذه الفترة التي حددناها .

ففي عهد الخلفاء الراشدين تمتع المسيحيون بحريتهم الدينية المطلقة التي لم تنتقص منها أية قيود واستردت الكنيسة أنفاسها بعد ما يزيد عن قرن من الاضطهاد البيزنطي . هذه الحقيقة تثبت كسب التاريخ الإسلامي وكتب التاريخ المسيحي خصوصاً يوحنا النقيوسي .

بل إن بعض الوثائق البردية التي اكتشفت حديثاً تدل على أن العرب في سبيل المحافظة على الأوضاع القائمة أبقوا العملة على حالها وجعلوا الدينار البيزنطي أساساً للمعاملة .

وكانوا يدفعون أثمان مشترياتهم بهذه العملة الذهبية . وأعيدت أملاك الكنيسة كاملة ، وكانت الدولة في مصر مسيحية في حقيقة الأمر ، الموطعون كلهم مسيحيون ماعدا وظائف السلطة العليا (١) .

وانتقال السلطة إلى بني أمية لم يغير من جوهر هذه السياسة على الإطلاق بل ربما مضى الأمويون في تسامحهم الديني إلى أبعد مما ذهب إليه العهد السابق .

(١) أننول : الدعوة إلى الإسلام ص ٣٤ ، سيدة الكاشف : مصر في عصر الإسلام ص ٦٧ .

(م ٧ - الإسلام في إفريقيا)

تولى المسيحيون وظائف الخراج في العهد الأموي ، وتولوا أرفع المناصب وقد استطاع واحد منهم في عهد مروان بن الحكم وإسمه أثناسيوس الرهاوي أن يصل من حيث الصيت والنفوذ إلى ما يحسده عليه المسلمون ، فقد اتخذ لقب الكاتب الأفخم ، وكان له ديوان استخلم فيه عددا كبيرا من الموظفين واستطاع واحد من هؤلاء المصريين في عهد عبد العزيز بن مروان أن يصل إلى مثل هذا النفوذ، فكانت له بطانة تتألف من أربعة آلاف عبد وبلغ راتبه في السنة ستين ألف دينار إلى جانب الضياع الواسعة (١) .

ولكن بدت مظاهر كثيرة من سخط المسيحيين وقلقهم في العهد الأموي ، نلمح هذه الظاهرة في شيء من تفصيل فيما كتبه المؤرخون المسيحيون .

والسخط لم يكن سببه تدخل للدولة في الحريات الدينية ، أو فرضها الإسلام على الناس فرضاً ، إنما كان سببه مالياً إلى حد بعيد .

لأن الدولة الأموية كانت في حاجة ماسة إلى المال لتنفيذ سياستها الداخلية والخارجية . فمضت الضرائب على الرهائن . وزادت مقدار الجزية والخراج . وعمد بعض الأمويين حتى إلى عدم عدم المسلمين من ضريبة الجزية وفقا لتعاليم الإسلام (٢) وعمل بعضهم أيضا على مصانة الجزية على من بقى على دينه .

وقد أدت زيادة الضرائب على هذا النحو إلى ضعف مستوى الإنتاج وانتشار الكساد في ريف مصر

واضطرب كثير من أهل مصر إلى أن يتركوا أراضيهم التي أصبحت عبئا اقتصاديا عليهم . وأن يهاجروا إلى أقاليم أخرى ، أو يعتصموا بالأديرة أو الكنائس . ووجد الأمويون مصر وقد أشرفت على كارثة اقتصادية محققة إن لم توقف الهجرة الجماعية . ومن هنا نشأ الاحتكاك المشهور بين الأمويين والمسيحيين في مصر . وتدخلت الدولة البيزنطية في هذا النزاع ثم بدأت تزيد منه لتجد فيه منفذا إلى العودة إلى البلاد مرة أخرى (٣)

(١) ثرون . أخر الدسة في الإسلام (٢) ابن عبد الحكم ص ١٥٤ .

(٣) سيده كشف : مصر في فجر الإسلام ص ٥٢ .

هذه الثورات لم تكن لأسباب دينية ، وإنما كانت أسبابها مالية بدليل اختفائها بعد انتقال الخلافة إلى العباسيين ، وعملت هذه الخلافة على تهدئة الأحوال والملاءمة بين مقدار الضرائب وبين القدرة على الإنتاج .

وقد أقرت السكينة في البلاد . فهدأت الثورة وعاد المصريون إلى حياتهم الطبيعية وأقبلوا على أراضيهم يزرعونها ويضاعفون من إنتاجها .

والسياسة المالية الأموية بلغت أقصى مداها من العنف ابتداء من عهد عبد الملك ابن مروان ، وصحبها فرض اللغة العربية في دواوين الحكومة واضطرار كثيرين من المواطنين إلى اعتزال الخدمة لجهلهم باللغة العربية ثم اشتراط الخلفاء اللاحقين الإسلام لتولى الوظائف العامة .

وإذا كما قد نفينا عن الدولة الإسلامية مهمة الإكراه في الدين ، فإننا لانستطيع أن ننكر أن الدولة بوسائلها الخاصة المباشرة أو غير المباشرة كانت تشجع الدخول في الإسلام .

فالدخول في الإسلام كان يصحبه تغيير عظيم في وضع الشخص السياسي والاجتماعي والاقتصادي . كان يجعل للمسلم الجديد الحق في تناول العطاء من بيت المال ، وقد استمر هذا العطاء يفرض للمسلمين طوال عهد الراشدين ولم يقطعه الأمويون . إنما قللوا منه ، وميزوا طبقات العرب عن الطبقات الأخرى من المسلمين . ولم ينقطع العطاء إلا في العصر العباسي .

والدخول في الإسلام أيضاً كان سلماً للخدمة في الجيش العامل أو في فرق المطوعة وكانت هذه الخدمة في الجيش سلماً للنجاح في الحياة السياسية والاجتماعية .

والإسلام أيضاً كان معناه تولي الوظائف العامة في الدولة ، وليس من شك في أن الدولة تفضل المسلم الصالح للوظيفة عن الذي الصالح لها إذا تم التساوى في الكفاية المطلوبة .

ولا ننسى أن الإسلام كان معناه الإعفاء من الجزية وإلى حد ما الإعفاء من الخراج . لأن المسلم كان من حقه نظير الإعفاء من الخراج أن يأخذ عطاء من بيت المال .

والإسلام كان يعطى المسلم امتيازات واسعة للسفر في الامبراطورية الإسلامية والتمتع بحق الرعية الإسلامية . وكان هذا يفتح أمامه فرضاً عظيمة للعلم والثقافة في ظل الإسلام ، وتفوقه في هذا العلم أو الثقافة يفتح أمامه آفاقاً من الثراء والجاه لا يمكن تصورهما .

فهذه هي محاسن الدخول في الإسلام وهما هي مساوئ الاحتفاظ بالوضع القديم بما فيه من قيود مالية واجتماعية وسياسية .

ولا شك أن الكثيرين من الناس إلى جانب الاقتناع بالدين كان يغريهم هذا البريق ، خصوصاً الطبقات الدنيا من المجتمع ، ومحصروها الديني والثقافي في أي عصر من العصور ضئيل جداً .

وإنما كانت الدولة تشجع على الدخول في الإسلام لأنها هي التي تمنح المسلم نصيبه المشروع في هذه الحقوق وهذه الامتيازات ، وكانت نهية للمسلم الجديد الفرص المراتية للاستفادة من هذا الوضع الجديد ، فتفرض لهم المعطاء ، أو تدخلهم في الجيش أو تعفيهم من الجزية أو توليهم الوظائف الهامة .

ومن أمثلة تدخل الدولة أن عمر بن عبدالعزيز أمر بأن يعفى المسلمون من الجزية وأن تضاعف الجزية على من بقي على دينه . فكان هذا تشجيعاً للدخول في الإسلام (١) ومشتا لمن أراد القاء على دينه القديم من أهل البلاد .

ومثال آخر من تشجيع الدولة لحركات الدخول في الإسلام ما كان من تعريب الدواوين في مصر ، واشترط تعلم اللغة العربية لتولي الوظائف العامة .

ثم اشترط الإسلام لتولي هذه الوظائف منذ عهد عمر بن عبدالعزيز ، وقد أدى هذا الشرط إلى اعتناق كثيرين من الموظفين للإسلام . كما فتح آفاقاً جديدة أمام من كان ينتظر فرصة العمل المواتية من المسلمين ، وامتدت هذه الحركة حتى شملت الوظائف الصغرى مثل وظائف العمدة .

ومن أمثلة تشجيع الدولة على الدخول في الإسلام ما قامت به الدولة العباسية من

إعفاء من يسلم من متأخرات الضرائب المفروضة وإسقاطها الحواجز الاجتماعية بين العرب وغير العرب .

والدولة لا أقول كفت عن التشجيع إنما قللت منه ابتداء من القرن الثالث الهجري حينما أصبح المسلمون غالبية أهل البلاد ، ودخل الإسلام منهم ملايين والوظائف محدودة والخدمة في الجيش محدودة أيضاً ، ولاستطيع الدولة أن توفر لكل هؤلاء الناس فرصاً متساوية في كل الوظائف أو التواحي المالية .

• • •

إلى جانب انتشار الإسلام كانت مصر منذ الفتح العربي مسرحاً لتطور أخرياس أقل شأنًا ، فقد بدأت القبائل العربية ، تهاجر إلى البلاد بعد الفتح وتستقر فيها ، وتعمل على صوغ البلاد بالصيغة العربية الحقيقية عن طريق التزاوج والاختلاط .

وبدأت مصر أيضاً تصبح بمثابة مستودع كبير لهذه القبائل العربية المهاجرة ، ومن هذا المستودع بدأت هذه القبائل تتجه نحو الجنوب في حركات مستمرة فتطرق بلاد النوبة وأرض السودان وتنشر فيها الإسلام والثقافة العربية .

ظاهرة هجرة القبائل العربية إلى مصر لم تتم في سنة أو بضع سنين إنما استغرقت وقتاً طويلاً ، واستمرت منذ الفتح العربي للبلاد حتى القرن الخامس الهجري

بدأت مع الفتح العربي للبلاد حينما استقر جيش الفتح في مدينة القسطنطين عاصمة البلاد أو في مدينة الاسكندرية ، أو في بعض المناطق الاستراتيجية الأخرى ، وكان كلهم أو أغلبهم من عرب الجنوب ، ثم توافدت بعض القبائل الأخرى (١) ، فزادت أعداد هذه الجالية العربية .

ثم ظلت القبائل لا ينقطع وجودها بعد ذلك إما من تلقاء أنفسهم طلباً للعيش أو بتشجيع من بعض الولاة والعمال .

فقد استقدم أحد ولاة مصر سنة ٤٣ هـ نحو اثني عشر ألفاً من هؤلاء العرب أغلبهم من عرب الشمال ، لأن الدولة الأموية خافت أن يستبد الجنوبيون بأمر البلاد ، فأرادت أن تكثر من الشماليين ما وسعها ذلك ، ولتحقيق هذا الغرض استقدموا

(١) شكرى فيصل : المجتمعات الإسلامية في القرن الأول من ١٤٨ - ١٤٩ .

قبيلة قيس سنة ١٠٩ هجرية (١)، جلبوا نحواً من ثلاثة آلاف أسرة منهم واستقروا في منطقة بلبس ، حتى أصبح عدد الأسرات العربية المقيمة في ديوان العطاء في العصر الأموي نحواً من ٤٠ ألف أسرة ، خدموا في جيش الدولة ، أو اشتغلوا بالتجارة بين مصر والشام ، وبين مصر المغرب .

ولم يتوقف وفود العرب بقيام الدولة العباسية ، ولم يحد من هذه الهجرة تعصب العباسيين للموالي أو غلبة هؤلاء الموالى على شئون الدولة ، فقد هاجرت بطون كثيرة من قبيلة ربيعة في عصر الخليفة المتوكل العباسي ، واستقرت على الخصوص بصعيد مصر .

واستمرت الهجرة بعد العباسيين ، وفي ظل النفوذ الفاطمي في مصر ، فقد هاجرت قبائل من طيء وقبائل من فزارة ، كما وجد الفاطميون أن قبائل هلال وسليم تحالف القرامطة في بلاد العرب وتقطع طريق الحاح ، وتشيع الفتن والاضطرابات في الأراضي المقدسة ، فشجعهم الخليفة العزيز بالله الفاطمي على الهجرة إلى مصر وأنزلهم بصعيد مصر .

أصبحت مصر في آخر العصر الفاطمي تتمثل فيها جميع فروع شجره النسب العربية فمن عرب الجنوب : جذام ، وطيء ، وبلي ، وجهينة ، ومن عرب الشمال : كنانة وقيس ، وفزارة ، وربيعة ، وهوازن ، وهلال . بل يمكن اعتماداً على مذكره المقرئ أن نوزع هذه القبائل توزيعاً جغرافياً .

جذام	:	في منطقة الحوف - شرق الدلتا
طيء	:	الفسطاط - جرجا
جهينة	:	أسيوط - أسوان
كنانة	:	الإسكندرية - دمياط
قيس	:	بلبس
فزارة	:	قليوب
ربيعة	:	أسوان
هلال وسليم	:	الصعيد (٢)

هذه القبائل العربية المهاجرة ظلت طوال عصر الراشدين والأمويين وأوائل العصر العباسي تكون طبقة أرسقراطية حاكمة تتركز الخدمة في الجيش والمناصب الإدارية والعسكرية ، وتنال العطاء من بيت المال ، وإذا زرعت الأرض أبيع لها الملكية مع إعفائها من ضريبة الخراج .

وظلت طوال هذه الفترة تكاد أن تكون معزول في حياتها الاجتماعية ، مستقلة لا تختلط بالمصريين ولا تحالطهم وتكاد أن تكون كلها مجتمعة في المدن الكبرى على مقربة من الحكام والولاة .

لكن طرأ على حياة العرب في مصر ابتداء من النصف الثاني من العصر العباسي تطور هم ترك أثرأ في تاريخ البلاد ، فقد بدأت هذه القبائل تفقد امتيازاتها العسكرية والإدارية والمالية ، ورأت أن حياتها قرب الحكام وذوى الفوذ لا خير فيها فبدأت تنزع إلى ريف مصر .

وفرضت الدولة عليهم الخراج للمرة الأولى في الوقت الذى قطعت عنهم العطاء وكان هذا الاستقرار بداية الاختلاط الحقيقى مع الشعب المصرى الذى بدأت غالبيته تتحول إلى الإسلام .

وقد ظل هؤلاء العرب يحتفظون بأنسابهم العربية مدة قرنين فإن أغلب شواهد القبور الإسلامية التى وجدت في منطقى أسوان والفسطاط نجد فيها اسم المتوفى ينسب إلى عشيرته وقبيلته .

ولكن ابتداء من القرن الثالث الهجرى نجد هذه الألقاب العربية تتعبّر ونجد هؤلاء العرب في شواهد القبور ينسبون إلى وطنهم مصر وإلى مدنها وأقاليمها ، ينسبون إلى أسيوط أو قليوب أو الاسكندرية أو يكتفون بلفظ مصرى (١) ، مثل دى النون المتصوف المعروف الذى سمي نفسه أو سمي في شاهد قبره سنة ٢٤٥ هـ : دى النون المصرى .

ومعنى هذا التطور أن دماء القبائل العربية المهاجرة اختلطت بدماء المصريين ، وكان هذا الاختلاط بداية تكوين شعب مصر الإسلامية ذى الدم العربى والدين الإسلامى واللغة العربية .

ولازالت هذه التأثيرات العربية باقية حتى اليوم تظهر من دراسة أسماء القرى المصرية والمدن المصرية ، فبعضها يسبقها لفظ بنى وبعضها منية أو محلة ، وأنساب المصريين التي لازالت نمثلة في كثير من الحجج الشرعية بوزارة الأوقاف .

وبدأت منذ العصر العباسي أيضا ظاهرة أخرى وهي اتجاه الكثير من القبائل العربية التي لم ترض بالاستقرار ولم ترد أن تترك حياة البداوة إلى المحقرة في حركات مطردة نحو صعيد مصر ، ثم نحو حدود النوبة ثم داخل بلاد النوبة والسودان . وأهم هذه الهجرات التي كان لها شأن عظيم في تاريخ النوبة والسودان .

١ - هجرة قبيلة جهينة النخبة التي استقر بها المقام أول الأمر أو اسط الصعيد ثم نزلت جنوبا إلى أسوان ثم إلى بلاد النوبة (١) .

٢ - بنو كنز وهم ربيعة ، وفدوا إلى مصر في خلافة المتوكل كما قلنا وانتشروا بأعلى الصعيد ، وسكنوا بيوت الشعر في البراري الجنوبية على تخوم بلاد النوبة .

وقد اخلطوا بقبائل البجة وأوادوا كثيرا مما بأرضهم من معدن الذهب وخاصة في منطقة العلاقي مما أدى إلى تضخم ثروتهم

وقد أصبحت رئاسة ربيعة في عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي إلى أبي المكارم هبة الله الذي ساعد هذا الخليفة في إخماد بعض الثورات فنحه لقب كنز الدولة .

وأصبحت القبيلة تسمى بنو كنز ، وقد كونوا أرستوقراطية عربية بمنطقة أسوان وشمال النوبة ، واستمر نفوذهم طوال عصر المماليك .

٣ - إلى جانب هؤلاء نزحت بطون من قبيلة فزارة استقروا بالصعيد ثم أمعنوا نحو الجنوب حتى اقتربوا من حدود النوبة (٢) .



ومن هذه التطورات انتشار اللغة العربية حتى أصبحت لغة الحكومة ولغة الثقافة ولغة التخاطب لسكان مصر جميعاً .

(١) المقرئ : البيان والإعراب ص ٣٧ - ٣٨ .

(٢) أحمد لطفى السيد : قبائل العرب في مصر ص ٥٤ .

واللغة العربية دخلت البلاد مع الفتح العربي . وقد وجدت في مصر لغتين كانت لهما الزعامة الفكرية ، الإغريقية لغة للثقافة الهلينية ، والقبطية لغة للثقافة المصرية .

فلم تستطع القضاء عليهما دفعة واحدة إنما عاشت معهما جنباً إلى جنب طوال عصر الراشدين ، العربية لغة العرب والإغريقية لغة الثقافة والقبطية لغة الكنيسة ، يدل على ذلك أن وثائق البردي من ذلك العصر كتبت كلها باللغة الإغريقية .

لكن اللغة العربية بعد عهد الراشدين خلت خطوه أبعد ، إذ أصبحت في العهد الأموي لغة الحكومة حين عرت الدواوين وكتبت باللغة العربية بعد أن كانت تكتب باللغة الإغريقية .

وهذا التطور الهام لم يتم دفعة واحدة ، إنما استغرق نحواً من ثلاثين عاماً ، ويظهر ذلك من أوراق البردي الإسلامية التي كتبت في ذلك العهد ، وكانت هذه الأوراق أولاً تكتب باللغتين الإغريقية والعربية ، ثم بدأت تكتب باللغة العربية وحدها ابتداء من سنة ٩٠ هـ .

وبذلك شهد العصر الأموي الأخير هذا الانتصار الأول للغة العربية إذ أصبحت اللغة الرسمية للحكومة في مصر (١) ، بل امتد هذا الانتصار إلى نواح أخرى ، فقد أمرت الدولة لأموية بأن يترجم الإنجيل والكتب الدينية إلى اللغة العربية . واقتحمت هذه اللغة ميدان الصناعات والفنون فظهرت قطع السيج وأخرى ابتداء من ذلك العهد تحمل نقوشاً عربية (٢) .

لكن هذا التطور لا يعني أن اللغة العربية أصبحت لغة التخاطب لأغلبية المصريين فقد ظلت القبطية لغة التخاطب في مصر في عهد الخليفة المأمون الذي جاء مصر ، ولم يستطع النقل في أرجائها إلا ومعه المترجمون كواسطة للتفاهم مع أغلب الناس (٣) . وكان مدى انتشار اللغة العربية بين الناس يتوقف على مدى انتشار الإسلام ، ومدى تعمق لمصريين في الثقافة العربية ، لذلك نستطيع أن نقول إن اللغة العربية حققت هذه الخطوة الهامة في أواخر القرن الثالث الهجري ، فأصبحت لغة التخاطب

(١) سيدة كاشف : مصر في فجر الإسلام ص ٢٥٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٢١١ .

(٣) الكنتى : الولاية والقضاء ص ١٩٤ .

لغالبية المسلمة من أهل البلاد ، ولا ننسى أنه في هذا الوقت بالذات أصبح المسلمون أغلبية في البلاد ، كما انتشرت الثقافة العربية على نطاق واسع .

ثم كانت الخطوة التالية في طريق دمجها التطور بعيد المدى . فلم تصبح اللغة العربية لغة الغالبية المسلمة ، إذ أصبحت أيضاً لغة الأقلية غير المسلمة واختفت اللغة القبطية تقريباً ، ومن مظاهر ضعف اللغة القبطية ثم اختفائها أن اللغة العربية دخلت ميدان الكنيسة وأصبحت تتلى بها الصلوات .

هذا التطور الهام يبدو أنه اكتمل تماماً في القرن الرابع الهجري . فقد بدأ المثقفون من المسيحيين في مصر يكتبون تاريخ الكنيسة باللغة العربية ، فرى البطريق المللكنى سعيد بن بطريق يكتب كتابه في التاريخ باللغة العربية وذلك في القرن الرابع الهجري .

وكذلك يرى ساويرس أسقف الأشمونين يؤرخ للبطاركة في أواخر القرن الرابع الهجري باللغة العربية ، ويقوم بجمع الوثائق اليونانية والقبطية وترجمتها ، وإذا بنا نجد ساويرس بن المفتح هذا يقول في مقدمة كتابه « سير الآباء البطاركة » . « فاستعنت بمن أعلم استحقاقهم من الإخوان المسيحيين وسألهم نقل ما وجدناه منها بالقلم القبطي واليوناني إلى القلم العربي الذي هو الآن معروف عند أهل الرمان بإقليم ديار مصر لعدم اللسان القبطي واليوناني » .

في آخر هذا العصر الذي حددناه أصبحت اللغة العربية لغة المصريين جميعاً عرباً أو مسيحيين أو مسلمين ، وأصبحت الطابع المميز للثقافة الإسلامية في مصر .

. . .

والتطور الأخير الذي تم في ذلك العهد هو انتشار الثقافة العربية في البلاد . هذا الانتشار تتمثل فيه جميع مظاهر التطور التي رأينا في انتشار الاسلام أو انتشار اللغة العربية .

فكما تسامح العرب مع الديانات القديمة وأبقوا عليها . وكما حافظ العرب على اللغات القديمة ، كذلك فعلوا بالاتفاقات التي وجدوها بمصر عند الفتح ، لم يتعرض العرب للبقية الباقية من مدرسة الاسكندرية فقد ظلت هذه المدرسة بعد الفتح تستقبل طلاباً من المصريين أو من الأجانب .

ويؤكد بتلر في كتابه فتح العرب لمصر أن الاسكندرية كانت أعظم مراكز الثقافة في العالم زمن الفتح . ومع أن أكثر العلوم التي تدرس بها كانت دينية إلا أننا نجد فيها عناية بالآداب القديمة وبدراسة المسيحية اعتماداً على مذهب الأفلاطونية الحديثة . إلى جانب هذه الثقافة الإغريقية وجد العرب بمصر أدباً قومياً أنتجه المصريون بلغتهم وكان أغلبه دينياً يتعلق بالكنيسة والرهبان وسير الآباء البطارقة والشهداء .

وبجانب هذه الثقافات وجد العرب بمصر آداباً سريانية ، فقد كان نهضة الفرس في القرن السابع الميلادي ، وعزوهم بلاد الشام أثر في وجود هذا الأدب بمصر ، إذ أن كثيرين من علماء السريان وأدبائهم هاجروا إلى مصر خوفاً من الفرس ونقلوا معهم كتبهم .

وكان بالإسكندرية بعض علماء السريان يدرسون الطب بالسريانية ، وقد انتشرت الآداب السريانية خصوصاً بالأديرة . وفي القرن السابع الميلادي قام أحد الأساقفة بترجمة الكتاب المقدس إلى السريانية ، وظلت هذه الترجمة بواحي النطرون حوالى ألف عام (١) .

إلى جانب هذه الثقافات القديمة التي لم يعرض لها العرب بدأت الثقافة العربية الإسلامية تدخل مصر بعد تمام الفتح العربي ، فأكاد العرب يستقرون في البلاد ويقضون على المقاومه البيزنطية وتصبح مصر ولاية عربية ، حتى وجدنا صحابة الرسول يتفرقون في كافة البلاد التي فتحها الجيوش الإسلامية .

فحضر فريق منهم إلى مصر ، منهم عمرو بن العاص نفسه وعبادة بن الصامت وغيره ، بل أخذ فريق آخر منهم يتوافدون على البلاد يعلمون الناس أصول الدين ، وينشرون علوم القرآن والحديث والفقه ، واضعين الأساس الأول للمدرسة الدينية في مصر .

ومن أبرز هؤلاء عبد الله بن عمرو بن العاص (٢) ، فهو بحق مؤسس مدرسة مصر الدينية ، وأهل مصر يروون عنه قرابة مائة حديث من أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام

(١) محمد كاس حنين : أدب مصر في عصر الولاة ص ٥ .

أنظر : تاريخ الأئمة القبطية ص ١٧ . (٢) المقرئ : المخطوط ج ٢ ص ٣٢٢ .

وكانت هذه المدرسة المصرية الناشئة يشتد أزرها بالتدريج كلما أقبل الناس على هذه الثقافة الجديدة وشغفوا بها وارتاحوا إليها . وقد قطعت في العصر الأموي شوطاً بعيداً في طريق التطور بكثرة عدد الوافدين إلى مصر من التابعين وحملة العلم من ناحية ، وبقدر إقبال القسائل العربية النازحة إلى مصر على هذه الثقافة ، وبقدر دخول المصريين في الإسلام وإنقاذهم اللغة العربية ، ثم تلقيهم العلم على يد أساتذتهم الجدد وهضمهم لهذه الثقافات الجديدة .

ويبدو أنه في أواخر العصر الأموي بدت بواكير الإنتاج لمدرسة مصر الإسلامية حين بلغ بعض المصريين في هذه العلوم الدينية الجديدة ، وبلغ نبوغه حداً جعل أولى الأمر في لدولة الأموية يعهدون إليه بالفتيا على قدم المساواة مع العرب دون تمييز بين جنس أو لون .

وكتاب تاريخ مصر الإسلامية في هذه الفترة يتحدثون عن هذا الرجل الذي يسمى يزيد بن حبيب المصري (١) وعن علمه وشيوخه ، وتمكنه من الثقافة الدينية .

وشعر الدارسون في هذه المدرسة الجديدة بالحاجة الماسة إلى مزيد من العلم . وكان العالم الإسلامي قد شهد مولد مدارس إسلامية كثيرة في جميع الأمصار المفتوحة تختلف في ميدان الثقافة من حيث العمق وغزارة الإنتاج .

وبدأ المصريون أساتذة وطلاباً يرحلون إلى المدينة المنورة أو إلى دمشق أو إلى العراق طلباً للمزيد ، ثم يعودون إلى البلاد مرة أخرى لمتابعة حياة الدرس والفقه والتعليم .

كما وفد كثير من أهل المدارس الأخرى إلى مصر لمبادلة أساتذة مصر وطلابها تجاربهم لثقافته ونخبهم الدينية (٢) .

وقد تحققت الحلقة الأولى من حلقات تطور الثقافة الإسلامية في مصر في أواخر العصر الأموي وبرزت مصر في ميدان الحياة الثقافية الإسلامية بطائفة من أعلام أساتذتها ونخبها من إنتاجها الديني والثقافي .

وبرزت في ميدان الفقه والحديث وبدأ يظهر في أنفها قوم ذاع صيتهم في مصر

(١) المقرئ : الخط ج ٢ ص ٣٣٢ .

(٢) أبو المجلس : السعوم الزاهرة ج ١ ص ١٤٣ .

وفي غير مصر ، منهم الفقيه أبو عبد الرحمن عبد الله بن هبة المصري (١) ،
واللبث بن سعد المصري (٢) . وتحدثنا كتب الطبقات أن هذا الرجل الأخير كان
كبير الديار المصرية ورئيسها في ميدان الفقه ، بل كان أكثر تلاميذ الإمام مالك بن
أنس علما وأغزرهم نقها .

ومن آيات تفوق مصر في هذه الخطوة الأولى التي حطتها آتيا نقلت هذا العلم
إلى ما وراء حدود مصر غربا إلى المغرب ، ثم إلى الأندلس

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن مذهب مالك الذي ساد المغرب والأندلس بل
القارة السوداء جميعها ، قد نقل عن تلاميذ مالك المقيمين في مدرسة جامع عمرو
بن العاص في مدينه القسطنطينية ، وأصبحت هذه المدرسة مقصد الدارسين والراغبين
في الاستزادة من فقه مالك .

وإن كانت هذه المدرسة المصرية قد تخلصت قليلا في ميدان الدراسات الأدبية
واللغوية التي ظهر أمرها في مدارس العراق وخصوصاً في مدرستي البصرة والكوفة
اللتين عرفتا بالإنتاج الأدبي واللغوي الغزير .

ثم ظهر هذا الاقتراب بين الثقافتين الأصلية والحديثة والواحدة في نفس الوقت
الذي تفوقت فيه المدرسة الدينية على النحر الذي رأياه ، ونعني في أواخر العصر
الأموي . فروى كتاب الطبقات أنصاراً عن ترجمة كتب العلم القديمة إلى العربية على
يد خالد بن يزيد الأمير الأموي ، وامتداد حركة التعريب إلى كل ناحية تقريباً حتى
إلى المحيط الديني إلى الكتب الدينية المسيحية (٣) .

وساعد على عمق هذا التطور إقبال المصريين على الإسلام وتعلمهم لغة القرآن ،
بل أقبل بعض المصريين غير المسلمين على هذه اللغة ، وامتد هذا الأثر حتى إلى
رجال الدين أنفسهم ، فروى أن القديس شنودة في أواخر العصر الأموي كتب
مؤلفاته باللغة القبطية واللهجة الصعيدية غير أنه اضطر إلى أن يكتبها مرة أخرى باللغة

(١) ابن خلكان . اللوفيات ج ١ ص ٢١٢

(٢) أبو الحسن . النجوم الزاهرة ج ١ ص ٨٢ .

(٣) محمد كامل حسين . أدب مصر الإسلامية ص ٨ .

العربية حتى يتسنى للأقباط أن يقرأوها ، بل إن مراسيم الكنيسة نفسها بدأت منذ ذلك العصر تقرأ بالقبطية وتشرح بالعربية (١) .

ثم جاء العصر العباسي ودفعت هذه الحركة التطورية إلى الأمام مرة أخرى ، فقد كان قيام هذه الدولة نذيرا يتفوق الموالي أو المسلمين من غير العرب في النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية وفوزهم بالمساواة التي حرّموا منها في العصر الأموي . وكان لهذه الأحداث أثر بارز في مصر الإسلامية وفي تاريخ الثقافة العربية ، فقد اشتدت حركة الترجمة واشتدت حاجة العرب في مصر إلى معارف الإسكندرية القديمة وخصوصا في ميدان الطب ، حيث نما الطب العربي متأثرا بالتقاليد الطبية الإغريقية التي وضعت في الإسكندرية منذ القدم .

وازداد إقبال المصريين عن ذي قبل على لإسلام يدخلون فيه في أعداد غفيرة ومايصحب ذلك من ازدياد اللغة العربية سعة في الانتشار وعمقا في التأثير ، وتضاءلت اللغة القبطية تصاؤلا تاما وكادت أن تصبح اللغة العربية في مصر ليست لغة العلم فحسب بل لغة الحديث والتخاطب أيضا .

بل اضطرت القائل العربية التي استقرت في مصر وعاشت حياة أرسقراطية في الثغور والعواصم مبنعة عن أهل البلاد مستعلية عليهم في أغلب الأحيان معتمدة على نصيبها من العطاء الذي بصرف لها من بيت المال أن تنزل من عليائها إلى ريف مصر ، وبدأ هؤلاء العرب يحتلطون بأهل البلاد في ريف مصر بخالطونهم ويتزوجون منهم ، مما ساعد على نشر الدماء العربية في مصر .

وقد مضى هذا التطور في طريقه قدما إلى الأمام ، وما جاء القرن الثالث الهجري حتى نمت مدرسة مصر الإسلامية نموا غريبا ، وبدأت بواكير شخصية مصر الإسلامية في الناحية الثقافية ، وأصبحت مدرسة مصر في مضمار الثقافة العربية الإسلامية لانقول تتفوق على المدارس الإسلامية الأخرى ، بل على الأقل تساويها أو تدانيها (٢) -

واشتد وفود الطلبة إلى مصر من الأمصار الإسلامية المختلفة طلبا للعلم ، وفلوا

(١) محمد كامل حسين : أدب مصر الإسلامية ص ٢٧ - ٢٨ .

(٢) المرجع نفسه .

ليس من إفريقية والمغرب فحسب بل من المشرق أيضا للزود من العلوم الدينية على الخصوص -

وظهر هذا التفوق في ميدان الإنتاج الثقافي كله ففي ميدان الفقه ظهر محمد بن إدريس الشافعي الذي عاش بمصر ودرس في مدارسها وتوفي بها سنة ٢٠٤ هـ وأسس مذهبه المشهور .

بل تفوقت مصر في ميدان قراءة القرآن فظهر رجل مصري كان قبطيا وأسلم هو عثمان بن سعيد المصري الملقب بورش صاحب المذهب المعروف باسمه في قراءة القرآن (١) .

بل ظهرت في مصر بواكير الحركة الصوفية الإسلامية متأثرة بتعاليم الرهبانية المصرية على يد رجل مصري هو دو الون المصري المتصوف المعروف الذي توفي سنة ٢٤٥ هـ . وهو الذي وضع أصول التصوف الإسلامي بتعاليمه المشهورة .

بل شهد القرن الثالث الهجري تدوين الحديث والفقه والتفسير في مصر وقد دون هذا التراث عبد الله بن وهب المصري صاحب كتاب الجامع في الحديث ، وقد عثر على معظم هذا الكتاب حديثا في مدينة إدفو ، ويعد من أقدم المخطوطات العربية في جميع مكاتب ومناحف العالم . وهذه النسخة مكتوبة على ورق البردي الذي عرفت به مصر منذ القدم ويرجع تاريخ كتابتها إلى القرن الثالث الهجري وقد ألفه ابن وهب هذا الذي أشرنا إليه (٢) .

ورغم ذلك ورغم ما وصلت إليه المدرسة المصرية من تفوق على هذه الصورة فلما لم تصل إلى المستوى الذي بلغته مدارس الشام ومدارس الحجاز ومدارس العراق . فمؤرخو الثقافة الإسلامية في مصر يرون أن الحياة العلمية بمصر نقلت إليها من العراق وعاشت مصر على ما أنتجه العراقيون وما أخرجه المصريون تلاميذ العراقيين . كما كان للكتب التي تنقل من العراق إلى مصر قيمة خاصة ، يحدثنا أحد المؤرخين أنه عقب وفاة أحد علماء مصر في القرن الثالث الهجري أمر الرائي في ذلك العهد بالإسنيلاء على صناديق كتبه عساه يجد فيها شيئا من كتب العراق .

(١) محمد كامل حسين : أدب مصر الإسلامية ص ٢٧ - ٢٨ . (٢) نفس المرجع .

دور الازدهار :

في سنة ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م كانت الامبراطورية الاسلامية المترامية الأطراف مهددة بالتفكك والانهيار .

ذلك أنه بعد أن انتشر العرب في الأمصار المفتوحة ، واشتد انتصار الإسلام وبرز الموالي في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ظهر كل إقليم بطابعه الخاص المميز . وأخذت القوميات التي دخلت في نطاق الدولة الاسلامية تظهر من جديد (١) . فوضحت شخصية إيران وشخصية الشام والمغرب والأندلس ، وقامت في هذه البلاد إمارات مستقلة بالشئون الداخلية خاضعة خضوعاً اسمياً للخليفة العباسي المقيم في بغداد .

وقد شهدت مصر هذا التطور السياسي بعيد المدى كما شهدته الأقطار الاسلامية الأخرى حينما استطاع الطولونيون ثم الأخشيديون من بعدهم أن يؤسسوا إمارة وراثية في كنف نفوذ العباسي معتمدين على موارد مصر وعلى جهد أهلها في تثبيت ملكهم وتنفيذ سياستهم .

بل إن خضوعهم الاسمي للخليفة العباسي وذكر اسمه في الخطبة أو كتابة اسمه على العملة لم يحل دون تنفيذ أطماع هذه الأسرات في التوسع ولو على حساب الخلافة نفسها ، فقد قاتل الطولونيون والأخشيديون من بعدهم جنود الخليفة نفسه في سبيل بسط نفوذ مصر في بلاد الشام والجزيرة ، بل فكر أحمد بن طولون في إيواء الخليفة العباسي .

وهذا التطور كان له أثره الواضح إذ ترتب عليه ازدياد نفوذ المسلمين من أهل البلاد في جميع نواحي الحياة السياسية والاجتماعية ، بل أصبح هؤلاء المسلمين أداة الحاكم وعدنه في تنفيذ سياسته الاستقلالية .

واشتد إقبال المصريين على الدخول في الإسلام عن ذي قبل ، وما تبع هذا من انتشار اللغة العربية وتغلغلها في صميم الحياة المصرية والعناية بأحوال مصر الاقتصادية والاجتماعية ، وتنمية مواردها بالقدر الذي يكفل للأمرء تحقيق سيادتهم .

غير أن هذا التطور كانت له نتائج أكثر عمقا في الميدان الثقافي ، فقد تنافست هذه الإمارات المستقلة في الناحية الثقافية ، وعمل كل أمير بقدر ما وسعته لتشجيع العلم واستقدام العلماء ، وإظهار بلاده بمظهر المتفوق في الناحية الثقافية .

وقد أدى هذا إلى تحقيق المرحلة التالية في تاريخ تطور الثقافة العربية في مصر إذ أن مدارسها أصبحت من حيث علمائها ومن حيث إنتاجها الثقافي لا تقل عن مدارس الشام والحجاز والعراق .

وظهر هذا التفوق في الميادين الثقافية كلها فنشأت طائفة من المؤرخين المصريين لا يصفون بتاريخ الاسلام بوجه عام بل يعنون بتاريخ مصر الاقليمي ويتحدثون عن المصريين ، عن حياتهم الاجتماعية والاقتصادية . ومن هؤلاء المؤرخين عبد الرحمن ابن عبد الحكم صاحب كتاب فتوح مصر ، والكندى صاحب كتاب لولاء والقضاة ، وابن الداية مؤرخ ابن طولون وصاحب كتاب المكافأة (١) .

بل ظهر تفرق المدرسة المصرية في الدراسات الأدبية واللغوية وفي الفقه والحديث والتفسير وظهرت طبقة جديدة ليست كبيرة العدد من العلماء ايسوا من العرب الذين استوطنوا مصر إنما من المصريين الذين آتت إليهم الإمامة في كثير من الميادين الثقافية ، أمثال ابن الغطاس وسعيد بن زياد وسعيد بن تليد ويحيى بن بكر وغيرهم (٢) . ورغم هذا المستوى الذي بلغته الثقافة العربية في هذا العصر ، ورغم بلوغها مستوى المدارس الإسلامية الأخرى فإن مدارس مصر الإسلامية في ذلك العهد كانت وثيقة الصلة بالبيئات الثقافية الأخرى في بغداد وغيرها يتبادلون العلماء والطلاب والإنتاج .

ولم تكن حركة نوطن الثقافة العربية في مصر قد رمت أقدامها لأن كثيرين من المشتغلين بالعلم في مصر طوال ذلك العهد كانوا من الوافدين على مصر من البلاد الإسلامية الأخرى ، من العراق أو الشام أو المغرب .

وكانت الخطوة المرتقبة في طريق تطور الثقافة العربية هي رسوخ أقدامها في

(١) محمد كامل حسين : أدب مصر الإسلامية ص ٧٤ - ٨٨ .

(٢) سيدة كاشف : مصر في عهد الإغشيديين ص ٣٠٣ - ٣٢٩ .

مصر وانتشارها على نطاق واسع بين أهل البلاد ، وظهور مدارس مصر الإسلامية وتفوقها على جميع المدارس الإسلامية الأخرى ، فتصبح مصر بحق زعينة العالم الإسلامي في ميدان الثقافة والعلم . هذه الخطوة سيبتحق جانب كبير منها في العصر الفاطمي ، ثم تكتمل في العصرين الأيوبي والمملوكي .

والمتشيعون لعلي بن أبي طالب المؤمنون بأحقيته في إمامة المسلمين وأحقية أبنائه من بعده لم تفر همهم بعد قيام الدولة العباسية واغتصابها للخلافة والحكم ، بل كان قيام هذه الدولة وما صادفوه في ظاهرها من تعذيب واضطهاد حافزاً لهم لمواصلة الجهد والإصرار على تحقيق الهدف المنشود . فدأبوا على نشر الدعوة إلى مذهبهم في جميع الأمصار الإسلامية ، خفية حيناً وجهرأحياناً أخرى .

غير أن هذه الجهود قدر لها أن تثمر في القرن الثالث الهجري ، وفي سنة ٢٩٦ هـ على وجه التحديد ، حينما قامت الدولة الفاطمية في شمال إفريقية ، ووقفت للعباسيين بالمرصاد تريد أن تسترد الحق المغتصب وتحيي الخلافة .

بشت الدعاة في بلاد الأندلس وفي المغرب الأقصى وبلاد اليمن والشام والعراق وإيران . غير أن هذه الدعوة لم تنجح في بلاد الأندلس بسبب يقظة الأمويين ، كما لم تنجح في بلاد المغرب الأقصى بسبب مقاومة أهل السنة بوجه عام والمالكية بوجه خاص يؤيدهم الأمويون بالأندلس وبعض القبائل المغربية التي كانت تعمل بوحى من الأمويين وتوجيههم .

غير أن جهود الفاطميين صادفت قدراً من التوفيق في مصر في أواخر أيام الإخشيديين فنجحت الدعوة الشيعية وكسبت كثيراً من الأنصار ، ونعمد الطريق أمام الدولة الفاطمية لتمد نفوذها إلى مصر ، ففتحت هذه البلاد سنة ٣٥٨ هـ ، وأسست القاهرة وانتقلت الخلافة الجديدة إلى مصر في عهد المعز لدين الله الفاطمي . وكان لهذا الانتقال في تاريخ مصر أثر وأى أثر في تلبس الثقافة العربية الإسلامية .

إذ أنه في ظل الحكم الفاطمي في مصر استجدت عوامل معينة كان لها شأن عظيم . وهي أن العقائد الفاطمية تستند على ركنين هامين . الركن الأول : استخدام الفلسفة الإغريقية بوجه خاص ، والفلسفة الإسلامية بوجه عام ، في تفسير الغريب والشاذ من هذه العقائد وتقريبها إلى جمهور المسلمين .

١٥ : وإذا كان العباسيون الأوائل ، قربوا بين لعقل والنقل ووقفوا بين مذهب السنة ، والحركة الفكرية وليدة الترجمة من المعارف القديمة ، فإن الفاطميين حاولوا أيضاً الملاءمة بين العقيدة الشيعية ومذاهبها وبين المعرفة القديمة والفلسفة الإسلامية .

بل هذه الحركة ، أقرب شياً باستعانة مبشرى المسيحية بالفلسفة الإغريقية لشرح عقيدتهم وتفسير غريبها وبشاذها .

والركن الثاني : الاعتماد في نشر هذه العقائد على دعاية أو على دعوى علمية منظمة إلى أبعد الحدود التي يمكن تصورهما ، وذلك بتدريب طائفة من الدعاة ، تدريباً علمياً دقيقاً وتثقيفهم بجميع الثقافات الممكنة وتدريبهم على المنطق والمناقشة والجدل ليقارعوا أهل السنة بالحجة بالحجة ، ويقهروا الدعاة السنية العباسية (١) .

وكان هؤلاء الدعاة في هذه النواحي لا يبارون ولا يشق لهم غبار في هذا الميدان والسجلات الثقافية في ذلك العصر حافلة بأمثلة كثيرة من هذا الجدل الذي قام بين دعاة الشيعة وبين فقهاء أهل السنة (٢) . وكذلك إنشاء المدارس والمعاهد ودور الكتب لبث الدعوة ومساندة الدعاة فيما يهدفون إليه وتشجيع لحركات العلمية إلى أبعد الحدود .

كما أن الفاطميين حاولوا النهوض بمصر إلى أبعد الحدود وجعلها منافسة للعراق ومتغلبة عليه نكابة في العباسيين ، بل حاولوا اتخاذ مصر قاعدة لامبراطورية إسلامية شيعية ترث العالم الإسلامي كله .

ولا ننسى ما كان من الاعتماد على المصريين إلى أبعد الحدود في النهوض بهذه الأعباء الجسام . حقيقة اعتمدوا على البربر المجلوبين من المغرب أحياناً ، أو على فرق السودانين أحياناً أخرى ، إلا أن اعتمادهم على المصريين كان بعيد الأثر .

كان من أثر دعوة الفاطميين إلى العلم والعمل الاستزادة من جميع العلوم والآداب أن تألق نجم الدعاة الفاطميين في سماء الحركة الثقافية في مصر واستطاعوا أن

(١) محمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطمية ص ٤٢ و ١٠ بعدها .

(٢) أبو العرب تميم . طبقات علماء إفريقية ص ١٧٤ ، ١٧٥ ، ٢٣٦ .

يكاسروا خصومهم بأدلة علمية، وأن يتخذوا من سعة أفقهم وبعثاركهم وثقافتهم مجالاً يبرزون فيه غيرهم .

فلا نعجب إذا كان أحد دعائهم المؤيد في الدين همة الشيوازي يعرف جميع ألوان العلوم التي كانت معروفة في عصره . واستطاع أن يرد على جميع المذاهب والفرق الإسلامية ، وأن يجادل خصومه بأدلة علمية منطقية (١) . ولعل هذا يفسر ما عمد إليه الفاطميون من اتخاذ الجامع الأزهر مركزاً من مراكز دعوتهم ومعهداً تلقى فيه علوم أهل البيت .

ولم يلبث الجامع الأزهر تولى الفاطميين ينون جامع الحاكم ، وجامع راشدة وجامع المنصور . وجامع القرافة ، والجامع الأقمر ، ونقل إليها الفاطميون المصاحف وحلّس فيها الفقهاء والعلماء . فكانت هذه المساجد بمثابة مدارس لتلقي الدعوة الفاطمية

ولعل هذا أيضاً يفسر مدى عناية الفاطميين ، باقتناء الكتب في كل فن وحرصهم على أن تجمع خزائنها الطرائف والفائس من كل علم .

ومكتبات القصر لعبت دوراً هاماً في الدعوة ونشرها . فأنشئت دار العلم في عهد الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥ هـ ، وحمل إليها الكتب من خزائن القصر وأباح ذلك لجميع الناس وأجرى الأرزاق على المترددين عليها (٢) .

ولعل هذا أيضاً يفسر مدى ازدهار الحركة العلمية في جميع مظاهرها في العصر الفاطمي . فهم فوق اهتمامهم بالعلوم الشيعية وتأسيسهم دور العلم وجمعهم الكتب الوافرة في جميع ألوان العلوم والفنون ، إلا أن العلوم الأخرى ، كانت تسير في مصر سيرها الطبيعي ، وتتطور تطورها الطبيعي .

بل شجع الفاطميون علماء النحو واللغة والقراءات والتاريخ بجانب تشجيعهم لغيرهم من علماء الفلك والطب والفلسفة . فلا نعجب إذا كانت الحركة الفكرية قد ازدهرت في هذا العصر ازدهاراً عظيماً

(١) محمد كامل حسين . في أدب مصر الفاطمية ص ٥٩ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٠ .

بأن تحققنا لإجل ما كان يهدف إليه الفاطميون وأصبح جسرهم في رأي مورخى
الحكومة الفكرية. من أزمى عصور مصر الإسلامية في الناحية العلمية .
فقد بلغت الحياة العلمية في مصر الفاطمية ذروة كبيرة من النمو والازدهار
وأصبحت القاهرة المعزية مطمح أنظار العلماء ومحط رجاء الطلاب ، واستطاعت مصر
أن تتفوق على المدارس الإسلامية لأخرى في الحياة العلمية .

وكان من أثر جهود الفاطميين المشار إليها أن اشتد توطن الثقافة العربية في
مصر . كان مظهر ذلك تغلب اللغة العربية نهائياً ، وصيرورتها لغة الثقافة لغير
المسلمين من نصارى وإهود ، بل أصبحت الصلوات في الكنائس والمعابد تنلى
بالعربية . وأصبحت هذه اللغة بالنسبة إلى المثقفين من أهل النمة لغة العلم والثقافة ،

ولعل مما ساعد على إتمام هذا التطور فقدان القبائل العربية في مصر ما كان لها
من تفوق ثقافي واجتماعي واقتصادي وسياسي ، وهجرة أغلبها إلى صعيد مصر ،
وانتقال بعضها إلى بلاد النوبة مما سيكون خطوة أولى نحو دخول الثقافة العربية
إلى السودان عن طريق بلاد النوبة ، بل خرجت بعض القبائل العربية من مصر
مهاجرة إلى بلاد المغرب ، كما خرج الهلاليون .

ومظهر ذلك أيضاً رسوخ قدم المصريين نهائياً في مختلف العلوم والفنون وظهورهم
في علوم اللغة والنحو ، فقد ظهر على بن أحمد المهلبى ، وابن ولاد المصرى ، وفي
رواية الحديث ، أبو بكر محمد العسكري المصرى ، والحافظ النلقى أشهر المحدثين
الذين شهدتهم مصر في أواخر العصر الفاطمى ، وفي التاريخ والسير حين ظهرت طائفة
من المؤرخين من صميم أهل مصر مثل ابن زولاق ، والمسبحى والقضاعى ، لاهتمامهم
فوق كل شيء بأخبار مصر وتاريخها وخواصها وفضائلها (١) .

والمدارس المختلفة لم تعد في هذا العصر قاصرة على حاضرة البلاد ، بل انتشرت
في جميع أرجاء مصر ، في الإسكندرية ، وفي أسيوط ، وقوص ، وأسوان ،
وإدفو . مما سيمهد السبيل أمامها لتخطى حدود مصر الجنوبية ، والنموذ إلى بلاد
السودان .

لا ننكر أن الثقافة العربية في مصر ، تم توطئها إلى حد كبير ، ولا ننسى أن مدارس مصر في هذا العصر زهت وتفتحت على المداوس الأخرى . غير أن مصر في ذلك العهد لم تبلغ الذروة المنشودة من التطور .

لا ننكر أن الفاطميين كما قلنا اجتهدوا في أن تكون مصر متميزة عن غيرها من الأقطار التي كانت تخضع للعباسيين والأمويين بالأندلس .

بل بسطوا سلطان مصر على ما تجاوزها من البلدان واتسعت رفعة أملاك مصر الفاطمية .

كما عمل الدعاة على بث تعاليم الفاطميين في كل البلاد الإسلامية ، واتجهت قلوب الشيعة إلى مصر ، وأصبحت القاهرة كعنتهم .

غير أن صبيح مصر بالصيغة الشيعية حد من هذه الزعامة وجعلها أقرب إلى أن تكون منطقة مغالطة ؛ وحجبت إلى حد كبير عن كثير من بلدان العالم الإسلامي السني . وعملت الدعاية السنية القوية على وقف تسرب العوذ الفاطمي إلى العراق والقضاء عليه آخر الأمر بعد إحفاق ثورة البساسيري في بغداد .

كما ضاع المغرب تماما وخرج عن طاعة الفاطميين منذ سنة ٤٤٣ هـ باستقلال الزبريين بملك المغرب وقتلهم الشيعة واصطهادهم أنصار الفاطميين واحتلال الأمويين في الأندلس للمغرب الأقصى (١) .

وأصبحت مصر وثقافتها العربية رغم هذا النفوذ الباهر في عرلة عن العالم الإسلامي غير أن تحقيق الحلقة الأخيرة من التطور الذي أشرنا إليه سيكون رهينا بتحرير مصر من النفوذ الشيعي وإعادة صلتها بالعالم الإسلامي السني لتصبح زعامتها الثقافية حقيقة واقعة .

وقد تم تحرير مصر من النفوذ الشيعي وإعادة صلتها بالعالم الإسلامي السني على يد الأيوبيين .

فقد كان القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي - من أجلك اليهود

في تاريخ الحياة الإسلامية ، فقد دهم الانقسام العالم الإسلامي وقضى على وحدته وفرق صفوفه :

تفرق شمل المسلمين في الأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية وبقى العالم الإسلامي كله موزعاً بين خلاتين : الخلافة القاطمية في مصر والخلافة العباسية التي هزمت وأصبح نفوذها لا يتجاوز منطقة بغداد .

وفي أثناء هذا الضعف كانت المسيحية في أوربا قد وجدت صفوفها حصول الكنيسة ، وبدأت تتطلع صوب بيت المقدس لتنتزعها من المسلمين ، واضطربت أوروبا بحماس ديني فائر ، وبدأت الحملات الصليبية تتدفق صوب بلاد الشام مستغلة هذا لضعف وهذا الانقسام .

ووجد برنكي أتابكة الشام أن الخطر الصليبي لا تروده إلا أمة إسلامية متجددة ، وأن هذه الوحدة لا تتم والشعبة في مصر يفرقون الصفوف ويدعون إلى الفرقة والانقسام .

كما أحس الصليبيون بأهمية مصر من هذه المعارك الدائرة الرحي في بلاد الشام . وتسابق الطرفان أيهما يفوز بالغنيمة . وكان الأتابكة أسرع إلى العمل واستصاعوا بعد حملات متتابعة أن يفتحوا مصر ، وأن يفوتوا على الصليبيين عرضهم .

غير أن القائد صلاح الدين يوسف بن أيوب استطاع أن يعيد من هذا النصر الذي حققه نور الدين صاحب حلب ، بل استطاع أن يستقل بأمر البلاد . وأن يؤسس دولة ظلت تحكم مصر حتى سنة ٦٤٨ هـ .

والعصر الأيوبي طابع واضح كان له أبلغ الأثر في تاريخ الثقافة العربية في مصر وهو أن مصر تزعمت معركة توحيد أقوى ومعركة الجهاد ومطاردة الصليبيين والدفاع عن العالم الإسلامي (١) هـ

وكان من نتيجة ذلك ، أن مصر كما تزعمت حركة الكفاح الإسلامي تزعمت بحق الحركة الفكرية في العالم الإسلامي كله وعلت كفة مدارسها على مدارس العالم

(١) عبد الحيف حرة : الحركة الفكرية في مصر في العصر الأيوبي والملوكي ص ٨٢ .

الإسلامي ، كما تحققت بذلك الخطوة الهامة في تاريخ الثقافة العربية التي سبق أن أشرنا إليها .

وقد ترتب عن هذه الحقيقة الهامة أن طُبعت الثقافة العربية في مصر منذ هذا العصر بالطابع الديني الصرف النابع من طبيعة العهد واستجابة لحركة الجهاد الإسلامي .

فبينما كان الجنود في الميدان يحاربون الفرنجة ويحاولون حصرهم في شريط ضيق على ساحل البحر ، كان العلماء والفقهاء في داخل القطر يغزون الناس غزوا دينياً ويفتحون البلاد فتحة مذهبياً .

وعمت سلطة رجال الدين بوجه عام وعلماء الأزهر بوجه خاص . ونما نوع من الحكم الروحي قام عليه رجال الدين ، وكان المسلمون من المصريين أطوع لهم من الملوك والسلاطين أو بعبارة أخرى كان رجال الدين ينفقون من الشعب موقف الآباء الروحيين ، ويرجع ذلك :

إلى اشتراك الفقهاء ورجال الدين بأنفسهم في الحروب الصليبية بحمل السلاح أو تحريض الجند على حمل السلاح .

واعتماد الملوك والسلاطين على الفقهاء ورجال الدين في الترويج للحرب خارج الميدان .

ونظروا إلى أنفسهم على أنهم يمثلون سلطان الأمة المشولين عن تقويم الحكام (١) .

كما يمتاز أيضاً بمقاومته الدعوة الشيعية بالعلم ، فأصبحت المدارس الأيوبية جزءاً من خطة صلاح الدين وخلفائه وقصد بها أن تقوم بتعليم الناس المذهب السني وعاربة الشيعة وإثارة الحماس الديني ضد الصليبيين .

وقد أنشأ صلاح الدين خمسا من هذه المدارس . وذكر المقرئ أن الأيوبيين بنوا من هذه المدارس في القاهرة وحدها ٢٥ مدرسة .

ميرس وبفضل هذه السياسة تحول الأزهر من مدرس تعليم فقهاء الشيعة إلى مدرس سنية بل يفوق الأزهر على هذه المدارس كلها ، وبدأت شهرته منذ هذه اللحظة كجامعة إسلامية تزداد نفوذاً كلما رسيخت أقدام مصر في ترعرع الحياة الفكرية والسياسية في الإسلام (١) .

وفي سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م استطاع الفرسان المماليك الذين أكثر الأيوبيون الأواخر من استخدامهم في الجيش والذين أحرزوا لمصر النصر الكامل في معركة المنصورة التي تمخضت عن هزيمة الصليبيين من الفرنسيين أن يرثوا ملكهم وأن يؤسسوا لأنفسهم دولة استمرت تحكم البلاد حتى سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م .

هذا العصر الطويل صمته أحداث هامة كان لها أبلغ الأثر في تطور الثقافة العربية في مصر ، وفي إتمام رعاة مصر الفكرية للعالم الإسلامي كله .

ذلك أن جنكيزخان كان قد تمكن بعد حروب أهلية متصلة من توحيد القبائل المغولية ومن حملها على القيام بحركة فتح واسعة المدى ، ففتحت بلاد ما وراء النهر سنة ١٢٢٠ م .

وبعد فترة من التوقف استأنف هولاكو هذه الحركة التوسعية مرة أخرى ، فغبر نهر جيحون واكتسحت جيوشه فارس وسحقت القوى الاسماعيلية التي كانت عقبة كأداء في سبيل تقدمه .

واقترحوا مدينة بغداد سنة ١٢٥٨ (٢) ، وقتلوا الخليفة وأزالوا الخلافة العباسية من العراق .

ووصل المد المغولي إلى بلاد الشام وحدود مصر في الوقت الذي كانت فيه دولة المماليك تتمكن لنفسها من الحكم والسلطان فهزم المغول وجنبت مصر شرهم وارتدوا على أعقابهم إلى إيران مرة أخرى .

وقد استطاع الظاهر بيبرس السلطان المملوكي أن يحجب الخلافة العباسية مرة أخرى وأن يقل بقايا الخلفاء العباسيين إلى القاهرة ، فأصبحوا مجرد موظفين في البلاط المملوكي .

(١) عبد الطيف حمزة ص ٨٢ .

(٢) Lane - Poole : Egypt in the middle ages p. 261.

(٢)

يتبعن هذا من إشارة المؤرخ المقرئ محمد بن يعقوب ، وضح الممالك خليفة رجلا أعطوه اسمه وألقابه التي تلاثه لكنه لا يملك من السلطة شيئا حتى ولا حق إبداء رأيه ، كان يقضى وقته بين الأمراء والموظفين الكبار والكتاب والقضاة يزورهم ليشكرهم على ولائهم ومسامراتهم التي كانوا يدعونه إليها .

غير أن مجرد انتقال الخلافة الرمزية إلى القاهرة كان كقبلاً باتجاه المسلمين إلى هذه القوة الروحية التي تعيش في كنف الرعاية المملوكية .

ولا نرى ما كان من ارتفاع مكانة مصر في ميدان التجارة الدولية المتبادلة بين الشرق والغرب . هذه التجارة التي نمت زمن الحروب الصليبية وتضاعف نموها في لعصر المملوكي . مما مكن الحكومة المملوكية من جباية المكوس الطائلة ، ومن تشجيع هذه التجارة التي جلبت لمصر الرخاء . ونمت علاقاتها الدبلوماسية مع الدولة البيزنطية . ومع صقلية ومع توسكانيا والندقية وأشبيلية وأرغونة ، بل نمت علاقاتها بدول إفريقية وآسيا .

والتجارة كما تعلم عامل هام في تبادل المؤثرات الثقافية وبقدر نمو صلات مصر وعلاقاتها بالعالم الخارجي يشتد هذا التبادل الثقافي ويزداد .

يضاف إلى ذلك ما ورثته مصر من العهد المملوكي من مشكلة الصليبيين ، وما كان من رعايتها لحركة الجهاد وتوفيق الظاهر بيبرس في طرد الصليبيين من آخر قلاعهم بلاد الشام ، وتحرير العالم الإسلامي من هذا الخطر الذي ظل يهدد أمنه وسلامته مدة طويلة .

هذه الأمور كان لها أثر عظيم في تطور الحياة الثقافية في مصر بل في العالم الإسلامي كله .

ذلك أن المماليك حين صدوا الخطر المغولي عن مصر والشام دافعوا عن الحضارة الإسلامية ، وصانوا التراث العربي في مصر والشام من التفرق والضياع ، ذلك التراث الذي سيكون السبع الذي تنمجر منه القومية العربية في العصر الحديث .

وكانت الأحداث التي أصابت إيران والحن التي تعرض لها العراق سببا في أن أهل العلم المشتغابن به كانوا يفرون بأعضهم وعلمهم معتنسين بمصر حيث يظلمهم الأمن والطمأنينة .

واتجاه الثقافة العربية. فارتفع من الشرق إلى مصر يشبه إلى حد كبير ما كان لسيوط
القسطنطينية في يد العثمانيين من هجرة المشتغين بالعلم القديم إلى إيطاليا وغيرها من
من بلاد أوروبا .

وكان ضعف العراق واضمحلال الثقافة الإسلامية في فارس معناه بالتالي ازدياد
نفوذ مصر باعتبارها المعصم الأخير لهذه الثقافة ، خصوصاً بعد توفيقها في دفع الخطر
الصليبي ، وإيوائها للخلافة العباسية المختصرة .

ضعف العراق لأن المغول كانوا لا يزالون على الوثنية لم يهتموا بالتراث الإسلامي
ولم يرحموا من الضياع ، ونجم عن ذلك انهيار نفوذ العراق من جميع نواحيه ، فلم
بعد المركز الروحي للعالم الإسلامي ، بل أصبح إحدى ولايات الأطراف في امبراطورية
شرقية عاصمتها في بلاد فارس ، حتى التجارة لم تعد تمر بالعراق كما كانت قبلاً بل
تحولت طرق التجارة بين الشرق والغرب شمالاً وشرقاً إلى تركيا وفارس ، وغرباً
إلى مصر والبحر الأحمر .

بل تمخضت أحداث الشرق عن أمور بالغة الأثر فبدأت اللغة العربية نفسها
تضمحل باعتبارها لغة العلم والثقافة والدين ، فقد بدأ الفرس أولاً ثم تلاهم الأتراك
يجعلون لغاتهم أداة لثقافتهم الإسلامية ، كما استولوا على الزعامة السياسية والثقافية
وانتصر استخدام اللغة العربية كلغة للأدب والثقافة على البلاد التي يتكلم أهلها العربية .
تبع هذا بالطبع أن أصبحت مصر موئل الثقافة العربية ، وزعيمة الحياة الفكرية
الإسلامية بعد ما أصاب الشرق من ويلات على أيدي المغول .

وقد ألقت هذه الزعامة على أهل مصر عبئاً عظيماً في صيانة هذا التراث ومضاعفته
فأخذوا يحددون التراث الإسلامي ولكن بعقول مصرية ظهر أثرها في كل لون من
ألوان العلوم العقلية والنقلية . ومن أدلة العناية بالنواحي المصرية أن كتاب التاريخ
في ذلك الوقت كانت توالي فهم كلها أو أغلبها تدور حول أحوال مصر أولاً والعالم
الإسلامي ثانياً .

وقد وصلت الحركة الفكرية إلى أوجها في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي ،
لأن هذا القرن شهد ظهور طائفة من الدارسين المصريين اشتغلوا بأنواع الثقافات

الإسلامية المعروفة ، وبجودها فيها - وحملوا التراث الإسلامي خدمات جليلة ، مثل المقريري والسخاوي والعيني وإبن حجر والسيوطي (١) .
بل ابتداء من العصر أخذت أقاليم المغرب الإسلامي تدين لمصر بالرعاية المطلقة في ميدان الفكر ، بسبب ما كان من السقوط ملك المسلمين واضطراب شئون المغرب الإسلامي .

ليس أدل على ذلك من أن ابن خلدون شيخ المؤرخين لم تطب له الإقامة بوطنه المضطرب المتقلب إنما عجم شطير مصر وقام بالتدريس بالجامع الأزهر ، أقام بمصر ومات بها وتأثر بعلمه وفقه كثيرون ، ومن أشهر تلاميذه المؤرخ المشهور تقي الدين المقريري .

وكان من أثر تزعم مصر لحركة الجهاد الصليبي ، وترسم المماليك سياسة الأيوبيين من شد أرر السسة ومقاومة الحركات الشيعية أن أكثروا من تأسيس المدارس التي رأينا الأيوبيين يكثرون من تأسيسها في مصر .

فيذكر المؤرخ السيوطي أنه في عهد المماليك كثرت دور العلم والمدارس ، وكان لسلطان هذه الدولة عناية كبرى بهذه الدور ، أعانهم على ذلك الثراء الذي بلغته مصر في أيامهم .

ومن المدارس التي أنشأها المماليك المدرسة الظاهرية القديعة أنشئت سنة ٦٦١ هـ والمدرسة المنصورية سنة ٦٧٩ هـ والمدرسة الباصرية سنة ٧٠٣ هـ ومدرسة السلطان حسن سنة ٧٦٨ هـ والمدرسة الظاهرية الجديدة سنة ٧٨٩ هـ .

بل انتشرت المدارس في مصر كلها وبلغ عدد ما أحصاه الإدقوي في كتابه الطالع السعيد في مدينة قوص وحدها في القرن الثامن الهجري ست عشرة مدرسة وأنشئت مدارس في سنا وادفو (٢)

هكذا حمل العصر المملوكي في مصر هذه الانتصارات المتلاحقة للثقافة العربية في مصر . اكتمل تطورها واكتملت حلقاتها ، توطنت وتفوقت وعقدت الزعامة لمصر ومدارسها وجامعاتها .

(١) علاء عر الدين : العالم العربي ص ٩١ .

(٢) مد الطب حرة : ص ١٦٣ .

غير أن المهم في نظرنا هو اتساع أفق التجارة العالمية وإفادة مصر منها إلى أبعد حد فقد نشطت التجارة الدولية إلى أبعد الحدود في الفترة الواقعة بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر ودرت على العرب ثروات طائلة لا شغلهم بالوساطة بين الهند والصين من ناحية وأوروبا من ناحية أخرى ، وظلوا يسيطرون على المحيط الهندي حتى نهاية القرن الخامس عشر . والعرب هم الذين أرشدوا فاسكو داجاما في رحلته المشهورة إلى الهند سنة ١٤٩٧ .

كان الشطر الأكبر من بضاعة الشرق المحملة بطريق البر يمر بالعراق في طريقه إلى الموانئ السورية ثم تشحن إلى أوروبا ، لكن أغلب هذه المتاجر كان يأتي بطريق البر ماراً بعدن وجدة ويفرغ في مصر فيتسلح التجار الأوروبيون ويشحنونه إلى أوروبا . وبلغت العلاقات التجارية مع أوروبا وبالأخص جمهوريات إيطاليا ذروتها ، فكانت الأساطيل التجارية للبنديفة وجوة وبيزا وأمالفي وغيرها تتنافس تنافساً شديداً للمتاجرة مع الشرق .

وأسهمت المدن الفرنسية بنصيب في هذه التجارة الراجحة ، وكذلك كان شأن أسبانيا فعقد ملوكها معاهدات تجارية مع سلاطين مصر . وكان ثمة تبادل تجاري بين قبرص والامبراطورية البيزنطية .

استطاعت مصر إذن أن تتصل بآسيا وأوروبا واتصلت على الحصر على إفريقيا فيما وراء حدود مصر الجنوبية .

ومما يدل على عمق صلة الممالك بالعالم الإفريقي أن المؤرخين بدءوا يتحدثون عن الدول الإسلامية الإفريقية ، عن تاريخها ونظمها وحضارتها ووصف شعوبها ، فالمقرئ مثلاً يكتب عن الإسلام في الحبشة ويكتب عن بلاد النوبة ، والقلقشندي صاحب كتاب صبح الأعشى يورد بعض الجزء الخامس من موسوعته الكبيرة للدول الإفريقية ، وكذلك فعل التويري في كتابه نهاية الأرب ، والعمرى في كتابه مسالك الأبصار ، وهذا بالطبع نتيجة لكثرة الرحلات ونمو التجارات .

وليس أدل على تأثير التجارة في نشر الإسلام من أن فريقاً من نجار العصر المملوكي يسمون بالكاغية أو الكارمية كان لهم شأن يذكر في نشر الإسلام في شرق إفريقيا وفي بلاد الحبشة .

ويبدو أن هذه النهضة كانت شاملة لم تقتصر على ميدان التجارة فقد تجاوزته إلى ميدان الصناعة فنشطت صناعة النسيج والأواني المعدنية والحرف والزجاج والسجاد والجلود والورق فأثمنت في رخاء الدولة وفي ثرائها . وازدهر الفن المعماري ، فكان الممالك من أعظم البنائين ، واجتمعت لديهم وسائل ثنيهم تحقيق تفضله الرغبة فبنيت المساجد الرائعة والمدارس .

بل امتد تيار هذه النهضة فتجاوز الأدب التقليدي إلى الأدب الشعبي فأنشئت قصص ألف ليلة وليلة صورتها النهائية في ذلك العصر وانتشرت قصة عنترة بطل الصحراء وملحمة بني هلال وأساطير لقمان الحكيم .

كانت هذه هي حال الثقافة العربية في مصر حتى سنة ١٥١٧ سنة سقوط دولة المماليك ، وامتداد النفوذ العثماني إلى مصر ، ونهاية هذا العهد الزاهر في تاريخ الثقافة الإسلامية ترجع إلى عوامل أهمها :

١ - أنه حوالى القرن الخامس عشر ظهرت دولة جديدة في الشرق الأوسط هي الدولة العثمانية التي قامت كالطود الشامخ من بين أفاض السلطنة السلجوقية في الأناضول .

٢ - كان التدهور الاقتصادى وانضائفة المالية الكبرى التي أصابت مصر في القرن الخامس عشر مما دفع المماليك إلى مضاعمة رسوم المرور على التجارة العالمية واحتكار المنتجات الرئيسية التي تعتمد عليها هذه التجارة . فدفع ارتفاع الأسعار الأوربيين إلى الانتقام لأنفسهم : وفي سنة ١٤٨٩ وقعت الكارثة الكبرى ، ففي ١٧ مايو من هذه السنة استطاع فاسكودا جاما أن يصل إلى الرحاء الصالح ، وأقام البرتغاليون قواعد في الهند . فكان ذلك صربة قاضية على طريق حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقى سلبت المماليك مقومات حياتهم .

٣ - انهيار عملية جلب العبيد بطريق الشراء وذلك بسبب ما قام في وجه هذا النظام من صعوبات في أسواق العبيد على البحر الأسود مما أدى إلى عدم الانتظام في الحصول عليهم وإلى انحطاط صفاتهم

ورغم أن خصوع مصر للعثمانيين كان معناه امتداد اللغة التركية إلى مصر كما امتدت إلى بلاد الشرقين الأدنى والأوسط . وأصبحت لغة الدولة والمداوين ،

غير أن الثقافة العربية في مصر ظلت تدور حول الجامع الأزهر الذي احتضن هذه الثقافة العربية في هذا العصر المظلم وصالحها من العنجهية والفتن ، فلم تمتد أيدي العثمانيين إليه بسوء .

بل كان لاتساع النفوذ العثماني نحو المغرب من ناحية أخرى وبعض جهات شرق إفريقيا الفضل في فتح آفاق جديدة أمام هذه الثقافة العربية ، بل كان لهذه الوحدة الإسلامية التي تحققت في ظل الحكم العثماني أثر واضح في نمو سلطان الأزهر في نفوس المسلمين كافة في إفريقيا وآسيا .

ففي الوقت الذي جاء فيه نابليون إلى مصر كان الأزهر يضم طلبة من شمال إفريقيا والنوبة وبلاد السنغال وساحل الصومال ومكة والمدينة واليمن وسورية والعراق بل من تركيا وكردستان وخراسان وأفغانستان وبلخاوة وبرنيو والهند

فلم تقطع رعاة مصر للعالم الإسلامي في هذا الميدان الثقافي ، بل كانت هذه الرعاة الأساس الذي بنيت عليه حركة لإحياء والعث وتمكنت مصر من الإمساك بزمام النهضة العربية ولا زالت تمسك به حتى اليوم .

غير أن القرن السادس عشر والسابع عشر سميتا تطورات جديدة كان لها أثرها الواضح في ثقافتنا العربية ، فقد قامت علاقات جديدة بين الإسلام وبين عرب أوروبا الذي سجل تقدما علميا كبيرا في صناعات الحرب والسلم وتحررت تجارتها من كل قيد وقويت في أهله روح المغامرة والابتكار .

بدأت هذه العلاقات منذ أوائل القرن السادس عشر حين قام الفرنسيون بمعارضة الباب العالي لعقد تحالف دفاعي مشترك ، وقد تحول هذا الاتفاق إلى اتفاق اقتصادي بمنح التجار الفرنسيين امتيازات واسعة في الامبراطورية العثمانية وتغلغل النفوذ الفرنسي في الشرق ، وأقيمت القنصليات والفنادق وأخذت التجارة الأوروبية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر تنمو باطراد وولدت إجماعات جديدة من التجار أقامت في الشام ومصر في ظل حماية لقناصل ، ثم تحول هذا الاهتمام إلى طمع واستعمار في ظل الحماية الفرنسية على مصر .

وكانت لهذه التطورات نتائج هامة في مستقبل الثقافة العربية في مصر وغيرها من بلدان الشرق الأوسط إذ كان معنى ذلك أن الثقافة الإسلامية التي كفت عن التطور ووقفت كأن لا حياة فيها تعيش على تراث الماضي ، بدأت تلتقي بالثقافة الجديدة الفنية التي ظهرت في أوروبا منذ عصر النهضة .

الثقافة العربية في مصر في القرن التاسع عشر

كانت مشكلة الثقافة الإسلامية في مصر ، وفي غيرها من العالم الإسلامي محددة المعالم واضحة كل الوضوح ، متحصنة في كيف يمكنها أن تفيد من هذه النهضة الشاملة التي ظهرت في أوروبا في العصر الحديث .

فقد وضع للمفكرين أن التراث الإسلامي يزداد خجلاً والتراث الأوروبي يزداد تفجراً ووثوباً ، ولم يعد في استطاعة المسلمين ، أن يبقوا هكذا سلبين والغرب يقطع هذه الخطوات الهامة المطردة في سبيل التقدم والرقى (١) .

كان هزكان المعاصرين ما رميت به الحياة العثمانية من ضعف وجمود ، وما انتشر في الولايات العثمانية من أزمت اقتصادية وإهمال للمرافق العامة وفساد في النظم وتحلف عن الركب ، في الوقت الذي تقدمت فيه أوروبا وخلصت من جمودها وركودها .

ولم يكن يعرف أحد كيف يتم الاقتراب بين هاتين الثقافتين ، هل يبدأ الإصلاح من أعلا أو من أسفل .

وكان باستطاعة الدولة العثمانية أن تفعل بالشرق الأوسط ما فعلته اليابان من الملازمة البطيئة بين الحضارة الغربية وبين النظم القائمة ، ملازمة لا تهدم أسس الحياة ولا ترقى إلى مستوى الطفرة .

ولسكن العثمانيين عجزوا عن محاربة الغرب في نهضته العسكرية والفكرية والاقتصادية بل فرضوا على العالم الإسلامي سياسة العزلة والانقطاع .

وقامت فلسفتهم في حكم الولايات التابعة لهم حتى القرن التاسع عشر على أن تتخفف الدولة بقدر ما تستطيع من أعباء الحكم المباشر ، فتترك الناس يدبرون شئونهم بأنفسهم طالما ظلوا على ولائهم لها فهي لا تريد أن تغير من حياتهم شيئاً (٢) .

وما دام الإصلاح قد عز من الداخل فلا بد أن يأتي من الخارج على يد الغربيين

(١) Radwan ; Old and new forces in Egyptian education. p. 18-22.

(٢) أحمد مرث عبد الكريم : النهضة العربية الحديثة في مصر من ١٩٢٨ .

أنفسهم ، الذين كانوا قد قطعوا في ذلك الوقت أشواطاً بعيدة في التفوق البحري والعسكري فوق تفوقهم الصناعي والحضارى .

هذه كانت الحملة الفرنسية محاولة لفرض الحضارة الغربية على المجتمع الإسلامى فى مصر فرضاً تسند به جيوش الفرنسيين وأساطيلهم . ولم يكونوا ليقتنعوا بمصر ، فقد كانوا يحاولون أن يتسربوا إلى الشرق الأدنى كله ليفرضوا عليه السيادة الفرنسية وأنماط الحضارة الغربية التى جلبوها معهم .

وصح هذا الاتجاه من سيرة الحملة الفرنسية نفسها . فقد استعد لها ثابليون استعداداً وافراً . وليس فى الناحية العسكرية فحسب ؛ إنما عماً عدداً من العلماء لدراسة مصر ومناخها وطبوغرافيتها ومواردها المعدنية ونباتها وحيوانها وآثارها التاريخية .

وكانت هذه البعثة تضم عدداً من أعظم الخبراء فى الرياضيات والفلك والجغرافيا والجيولوجيا والمعادن والكيمياء والنبات والحيوان ، وفيهم المهندسون والتحاتون والموسيقيون . وأعدت لهم مكتبة وزودها بالأجهزة العلمية المناسبة ، وأشياء معهد مصر Institut D' Egypte ، على عرار معهد فرنسا ليضم كبار العلماء المرفقين للحملة وصالح الجيش دوى المعرفة الواسعة بفروع العلم .

وكان هذا المعهد يهدف إلى زيادة المعرفة بمصر عن طريق الدراسة والنشر . وقسم إلى أربعة فروع : فرع الرياضيات ، والعلوم الطبيعية . والاقتصاد السياسى والفنون والآداب ، وسجلت أبحاث المعهد فى نشرته الضخمة .. وصف مصر (١) .

غير أن المجتمع العربى الإسلامى فى ذلك الوقت كان يفكر تفكيراً إسلامياً وسيطاً . . . كان يعيش بفكره وروحه فى عالم العصور الوسطى . ولم يكن فى حاجة إلى البقطة المفاجئة أو الطفرة ، إنما كان فى حاجة إلى ملائمة وتبديد بين حسنة العرب ونزات الإسلام ، وأن يعطى من ثقافة الغرب وحضارته ما يلائم تفكيره ومستواه فكيف يقرى على هذا الطوفان الذى جاء فى ركب الحملة الفرنسية على مصر . فلم تكسب محاولة نابليون عطف الناس إنما أثارت دعرهم وفرعهم .

(١) عملاء عن الدين . العالم العربى ص ٩٨ .

ثم كيف يقبل هذا المجتمع ذو التفكير الاسلامى العزوف محاولة للإصلاح نجى
فى ركاب المسيحيين الخارجين على سلطان المسلمين وخليفهم ؟

وكان عمر الحملة الفرنسية مرتبطاً بمشاكل السياسة الدولية فلم تعمر طويلاً
ولم تعمر محاولتها فى الإصلاح ، ولكنها لم تخل من فائدة هزت أعماق الشرق ،
وزلزلت أفكار المعاصرين ، واطلعوا على أنماط فى الحياة . وجدوها تختلف كل
الاختلاف عما عرفوه وألفوه ، ورأوا مبادئ جديدة للقوة ، ومنهاجاً جديداً فى
الحياة يختلف عن منهجهم .

ورأوا أن قوة المالك أو قوة العثمانيين ليست هى القوة الوحيدة التى تحتكر القوة
والنفوذ وتحجز النصر .

وأن المعسكر المسيحى مسلح بالأسلحة ، بأحدث ماوصل إليه اعلم الأوربي
المعاصر ، ورأى من نعوس المسلمين فى مصر وبلاد الشام هيئة الخلافة العثمانية
التي بدت فى نظرهم هزيلة ضعيفة تعجز عن الغرب حتى فى الميدان العسكرى (١) .

وكان لابد من الإصلاح ، وهنا تشعبت مسالك المصلحين واختلفت آراؤهم
هل يصحون الحال بالثورة على الخلافة العثمانية ويصلحون من فسادها بقوة
السلاح ؟ وهل إذا أصلحوا يقبلون على الغرب ويتزودون بعلمه وسلاحه ؟ أم
هل يمكن الإصلاح فى نطاق الخلافة العثمانية وأن يحىء الإصلاح من الداخل
منتخباً ثوباً شرعياً من الولاء لخليفة المسلمين مع الاقتباس من العرب ، الفاسا
لمواطن القوة العسكرية والإفادة من الغربيين فى وثبتهم الحضارية التى بهرت
المعاصرين .

هذا التساؤل أو هذه الخيرة أدت إلى ظهور منهجين فى الإصلاح ، وظهور
٨ مدرستين كل تمثل تياراً فكرياً من التيارات التى أشرت إليها ، شأت مدرسة
الوهابيين ذات الهدف السلفى فى الإصلاح والثورة على الخلافة . والمدرسة المصرية
فى عهد محمد على التى ترمى إلى الإصلاح من الداخل ، الإصلاح دى الصيغة الشرعية
مع عدم إهمال ثقافة العرب ومصدر قوته ونفوده .

(١) أحمد عرت عند انكرم : النهضة العربية الحديثة فى مصر من ١٨٢٢

نشأت المدرسة الأولى في نجد بعيدة عن مركز القوة العثمانية وبعيدة أيضاً عن تيار الحضارة الغربية ، فجاءت متجاربة مع بيئتها وموقعها الجغرافي .

كانت رجعة الى الماضي ، كانت حركة حنبلية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، إعادة التوحيد الإسلامي إلى نفاذه الفطري ، وتجريده من أوهام وشبهات الماثوية أو الهندوكية والباطنية والقرامطة والسبائية ، ثم دعوة صريحة إلى الإبداع في التشريع وإطلاق باب الاجتهاد على مصراعيه لكل مقتدر عليه مستوف لشروطه ، والاعتماد على القرآن والسنة وحدهما كمصدر للعقيدة والتشريع ، ثم التوسل بالقوة لفرض هذا الإصلاح ومد نفوذه الى العالم الإسلامي كله .

وقد تحقق هذا بتحالف الوهابية مع أمير الدرعية من آل سعود عام ١٧٤٧ ، وبدأت الفتوح والتوسعات وأعلن المنهج الثوري في الإصلاح (١) .

وتمت المحاولة الثانية في مصر مستوحاة من موقع البلاد وطبيعتها حيث يلتقي الشرق والغرب ، فلا يمكن أن تهمل حضارة الغرب وتقاليده ، ولا يمكن أن تكون المحاولة سلفية خالصة فتعرض البلاد لسطوة الخلافة من أساطيلها في البحر وصاكرها المنتشرين في شرق البحر الأبيض المتوسط .

كانت محاولة محمد علي أولاً ثورة على فساد الحياة العثمانية في مصر ومحاولة لإصلاحها اصلاً شرعياً في نطاق الولاء للخليفة شكلاً على الأقل ، ثم بعث لقوى الإسلامية مستعينة بتجارب العرب وخبراته المالية والعسكرية .

وقد أجمل الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم برنامج الإصلاح على النحو الآتي :

١ - نهضة داخلية شاملة تناول جميع مرفق البلاد الاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

٢ - تكوين قوة عسكرية في البر والبحر للدفاع عن البلاد ، وتنفيذ سياستها الخارجية .

(١) محمد بدیع شریف : النهضة العربية الحديثة ص ١ - ٢٢ .

٣ اتحد سياسة خارجية نشطة تهدف إلى إحياء الشرق العربي وتنظيم الصلات بين مصر والسودان، والتوسع في إفريقية كخطوة لا بد منها لمقاومة الاستعمار الأوربي الذي بدأ رحله من هذه المناطق (١).

كان هذا الإصلاح بقدر مظاهر الفساد التي وضحت في مصر طوال القرن الثامن عشر، في أواخر هذا القرن أثبت النظام العثماني المملوكي عجزه عن تحقيق الحكم الصالح للمصريين. كما أثبت عجزه عن الدفاع عن بلادهم عندما دهمها العروا الفرنسي وقد اشتهرت بحادث حملة نوبارت كما أثبت الأحداث التي مرت بها مصر وعانها من حروب ١٨٠١ و ١٨٠٥ أنه لن يكون لمصر أمل من الخلاص من هذا الوضع إلا بتحطيم هذا النظام وأصبح إهباريه مقدمة لا بد منها لهضة مصر في أواخر القرن التاسع عشر.

وكانت دعوة محمد علي لإصلاح هذا النظام متمشية مع ما بلغه من سوء وكان له في مصر سلطة فلا تتمكن فيه عصبية مسلحة من قواد الألبانيين أو غيرها من قبائل أو عشائر أو زعامات شعبية من المشايخ والمتصوفة.

في السنوات العشر الأولى إلى تحطيم هذه العصبية ليس على يد محمد علي بل على يد سلطة الدولة تسدها قوة الجيش الوطني والحكومة المركزية.

وكانت الحكومة على نحو لم تعرفه مصر من قبل تعتمد على قوة عسكرية ثابتة.

وكانت الحكومة قوية جداً ينحنون إليها في كل أمر ويلتمسون منها العدل والميلاد. وإن كان المصريون في ظل هذا التنظيم الحكومي الجديد قد عرفوا هذا التمسك من الحرية والحكم الذاتي الذي كانوا ينتمون به في تدبير شؤونهم في علاقاتهم الخارجية (٢).

ومع ذلك فإن إصلاح في القرن التاسع عشر موجهة إلى فساد لأوضاع الاقتصادية في مصر وفي هذا العصر. والاقتصاد المصري كان اقتصاداً محلياً لا يرتبط

(١) أحمد - محمد - ريم النهضة العربية الحديثة ص ٢٢٦ .
(٢) مصر المعاصرة ص ٤١ .

بالاقتصاد العلمى بصفة قوية ، فهو يعتمد على الزراعة ، وكادت مصر أن تقسم إلى وحدات اقتصادية يعتمد كل منها في حياتها على نفسها ، فحركة التبادل بين هذه الوحدات تتم في أضيق الحدود ، والفكرة الأساسية أن أهل القرية الواحدة أو الإقليم الواحد يعتمدون في تدبير معاشهم على إنتاجهم . انكمشت تجارة مصر الخارجية وأصبحت الصناعات منزلية صرفة ، فقل القدر المتداول ، وضعف التمويل ، وانعدم الاستثمار ، وقل الحافز إلى التغيير .

كانت محاولة الإصلاح قضاء على الفساد واستكمالاً لهذا القصد ومعالجة لهذه الأدواء . بدأت هذه الحركة الإصلاحية بضغط مرافق البلاد الاقتصادية تحت إشرافها فألغى الالتزام ونظمت جباية المال على أسلوب حديث بصطلمع به جباة موظفون ، وصبغت الحكومه الصناعات القائمة وشرعت في احتكار لتجارة الخارجية .

ثم بدأت مرحلة الانقلاب الاقتصادي بالعمل على زيادة الإنتاج والتنمية الاقتصادية بتوسيع الرقعة الزراعية وزراعة محاصيل تجارية . وتحولت البلاد من النظام الرراعى الذى يقوم على الإنتاج المحلى إلى النظام الرراعى الذى يقوم على التخصص والإنتاج لسوق أوسع نطاقاً ، السوق المصرية العامة ، ثم السوق الخارجية .

وانتهجت الدولة إلى التصنيع ، وأنشئت في القاهرة والاسكندرية وكثير من مدن الأقاليم مصانع كبيرة لغزل القطن ونسجه والحريير والكتان والجوخ ومصانع لإنتاج الأسلحة ، ودور للصناعة البحرية . وامتدت يد الإصلاح إلى التجارة ، وربط الاقتصاد المصرى بالاقتصاد العالمى واحتكار التجارة الدولية (١) .

غير أن أهم ناحية في هذه الحركة الإصلاحية التى شهدتها مصر في القرن التاسع عشر هى بداية حركة التحديث في الحياة الإسلامية ، التجديد بما يلائم طبيعة المسلمين وحاجة العصر وأوضاع الناس وأفكارهم وثقافتهم بالأخذ من الغربيين خير ما عندهم والاعتماد على هذا في الأخذ بيد المجتمع الإسلامى في مصر والشرق .

كانت حركة موجهة ما في ذلك شك فخدم منهج محمد على في إصلاح فساد النظام وبعث قوته العسكرية وتحقيق طمأنة المادية لكنها كانت التجربة الأولى المفيدة التى شهدتها لشرق الأدنى ، فكانت ذات نتائج بعيدة المدى بالغة الأهمية .

(١) أحمد عرت عبد الكريم ص ٥١٩ - ٥١٦ .

كانت هذه الإصلاحات مبنية على أسس متعددة : إنشاء نظام تعليمي حديث
يخدم أهداف هذه النهضة ويهيئ لأصحاب هذا المنهج طائفة من المعاونين والعمال يمكنه
الاعتماد عليهم في شق طريقه نحو الإصلاح .

وكانت خطته التعليمية أن يترك الأزهر والمدارس الدينية على حالها لا يتعرض
لها وينشئ إلى جانبها مدارس تأخذ باللون الجديد في التدريس والتأهيل ، فوضع
أساس الثنائية في حياتنا العلمية ، ثنائية التعليم الديني والمدني .

لاسكر أن الأزهر لم يكن يعلم الطب أو الهندسة أو فنون الحرب والصناعة ،
وأنه من العث أن يلتبس محمد علي هؤلاء الفتيين في أروقة الأزهر وحول أعمدته
كما يقول الدكتور أحمد عزت عبد الكريم (١) .

ولكن كن من الممكن أن تنبعث الحركة الإصلاحية في حجر الأزهر ولو فعل
لكان لهذه النهضة الثقافية الحديثة شأن آخر بل لكان لهذه النهضة المسلمين شأن آخر . ولكن
المصلح كن يهدف إلى أطماعه وذاتيته ، وكان يريد الإصلاح السريع الذي يحقق
آماله من أيمر طريق .

برأشاً لمدارس الابتدائية والثانوية والفنية . كما أنشئت مدرسة الطب والتحق بها
مائة من الطلاب . وكان أساتذتها من الأطباء الفرنسيين وساعد الأساتذة في مهمتهم
عدد من التراجمة كانوا يحضرون الدروس ويترجمون المحاضرات ، وانبعت هذه
المدرسة نفس برنامج كلية الطب في باريس . وفي خلال العشر سنوات التي تلت
هذا التاريخ أنشئت مدرسة التوليد ومدرسة الصيدلة ومدرسة البيطرة (٢) .

وكان يريد أن يدعم هذه النهضة العملية بطائفة من الدارسين يلتحقون بمعاهد
أوروبا ، فكانت البعثات التي ذهبت أولها سنة ١٨٤٧ ، وبلغ عدد الطلبة المصريين
الذين اشتركوا في هذه البعثات ٣١٩ طالباً درسوا الطب والحقوق والإدارة المدنية
والعلوم الطبيعية والكيمياء والرياضيات والهندسة والآلات والطباعة وعلم المعادن
والزراعة والري وصناعة التسيج والصباغة والعلوم الحربية وصناعة الأسلحة والملاحة
وبناء السفن .

(١) النهضة العربية الحديثة : ص ٥٥٩ .

(٢) نجلاء عز الدين : العالم العربي ص ١٠٣ .

ومثل هذه النهضة لابد أن تقوم على حركة في الترجمة واسعة النطاق، وهذا يتطلب جيلاً من المثقفين يعرفون الغربية وغيرها من لغات الغرب .

وأسست مدرسة الألسن وأشرف عليها رفاة الطهطاوي الذي استهل أول حركة للترجمة في مصر في العصر الحديث . ولقد ترجم كتباً شتى في موضوعات مختلفة، في الجغرافية أربع مجلدات عن كتاب فيكتور أدولف بلطرون للجغرافيا الفرنسية ، وفي التاريخ ترجم نبذة من تاريخ الإسكندرية وتاريخ قدماء الفلاسفة، وفي الاجتماع ترجم كتاب دائرة العلوم في أخلاق الأمم وعوائدها وكتاب أصول الحقوق الطبيعية، ونقل كتباً أخرى في الميثولوجيا والمنطق والهندسة وترجم لمتسكيو . وقد شارك في هذه الحركة أبناء البلاد الشرقية والمستشرقون الذين كانوا يفلتون إلى مصر اختيارياً (١) .

وأهم معالم هذه النهضة أنها لم تقتصر على النقل من التراث الغربي إنما امتدت إلى الإحياء ، إحياء التراث القديم ، وأنشئت مطبعة بولاق سنة ١٨٣١ وأخذت تطبع الكتب المدرسية وتنشر الكثير من عيون التراث العربي القديم ، فكان إنشاء هذه المطبعة ثم عكوفها على هذا الطبع بمثابة وضع الأساس الأول لحركة الإحياء الثقافي التي انبثقت في مصر في القرن العشرين . ومهدت لنجاح حركة التجديد والالتقاء الثقافي الحق بين التراث العربي القديم والتراث الغربي الواعد . ونشأة تراث جديد عربي الصورة والمذاق غربي الروح والطبع .

كانت هذه المدرسة تهدف أساساً إلى الأخذ من الثقافة الغربية بقدر ما يلائم حاجة الناس بالملاءمة الوثيدة بين الإسلام والثقافة الغربية الوافدة ، وكان نجاح هذه الحركة التطورية الوثيدة يتوقف على ما يتوفر للقوة المسلحة من قدرة على الصمود ، فهي سد منيع أمام التيار العربي المتدفق بثقافته وأطباعه التجارية والسياسية . تأخذ من هذا التيار وتشيع منه ما يناسب الحاجة ويتلاءم مع الصالح العام، فإذا ما ضعف هذا السد وانهار طعم التيار الغربي واندفع اندفاعاً لا يتوقف بعده .

وكانت هذه الحركة الإصلاحية الموجهة مرتبطة بأهداف المصالح السياسية

ومرئطة سياسته القائمة على إصلاح الحياة العثمانية من الداخل مع التظاهر بالولاء للخلافة العثمانية من استقام أمرها وما تجاوزت مع هذه الحركة الإصلاحية .

لذلك كانت نهاية محمد على سببا في تعبير طابع هذه المدرسة وفتحة التطورات بعيدة المدى في تاريخ الثقافة الإسلامية في مصر في القرن التاسع عشر .

كانت حركة محمد على تهدف إلى الإصلاح داخل نطاق السيادة العثمانية فإذا بالقضاء عليه وإذا بالملابس التي صحت هاتيه وأعقبها تدفع مصر إلى أن تشق طريقها خارج حدود الامبراطورية العثمانية (١) .

وتسوية ١٨٤٠ - ١٨٤١ تشق عن هذا الاتجاه، فقد دفعت بالمستقبل السيامي لمصر خطورة إلى أمام في طريق الانسلاخ عن الامبراطورية العثمانية ، إذ جعلت من مصر ولاية مسترة ولا يجرى عليها الحكم العثماني المباشر ، فلا يتعاقب على ولايتها ولاة من رجال الإدارة أو العسكرية العثمانية . وقد أصبح لمصر إدارة وطنية من أبناء البلاد أو ممن استقروا بها واتخذوها لهم رطنا (٢) .

وتركت مصر تواحه الحضارة الغربية المتدفقة وانغوذ الغربي الظافر ، وتوثق صلاتها بأوروبا في وقت ضعفت فيه قوتها العسكرية والاقتصادية ولم يستطع ولايتها الضعفاء أن يؤدوا نفس الدور الذي أداه محمد على من قبل ؛ وأن يحسروا هذا التيار وأن يأخذوا منه بفكر متابعين سياسة الإصلاح والتجديد التي تابعها محمد على من قبل .

واندفع التيار الغربي لابتكاريته قيد . أدخلت في البلاد الخطوط الحديدية وأنشأت شبكة من التلغراف وبنيت مئات الجسور ، وحفرت آلاف من قنوات الري . وزادت الصادرات والواردات . وريد من إنشاء المدارس الابتدائية والثانوية والفنية ، وفتحت المدارس الأجنبية . أنشأتها العوثة التبشيرية ، وأسست دار الكتب سنة ١٨٧٠ ، والجمعية الجغرافية سنة ١٨٧٥ .

وقد لاحظ دى ليون Deleone فصل أمريكا العام في مصر هذا التيار الغربي المتدفق على البلاد في شدة وعنف خصوصاً في عهد إسماعيل بإنشاءات لامثيل لها في

أى بلد تبلغ مساحته وسكانه أربعة أضعاف مساحة مصر وسكانها وهو من النوع الذى سيزيد فى المستقبل رخاء مصر وزيادة طائلة . أما عن التعليم فإنه مدهش حقاً ويعتبر مدهشاً فى أى بلد من بلاد العالم ، وكتبت صحيفة التايمز اللندنية سنة ١٨٧٦ بأن مصر « مثال مدهش للتقدم ، فقد تقدمت خلال سبعين سنة بما يعادل تقدم البلاد الأخرى خلال خمسمائة سنة (١) » .

وصحب هذا كله إسراف ولاية الأمر فى الاستدانة للسير فى ركاب هذه الحضارة الغربية الوافدة ، ثم تدفق رأس المال الغربى لاستخدامه فى مضر وتدفع الجبراء الأجانب وبوغل النفوذ الأوروبى فى حياة الناس ، وانتهى الأمر بفرض الرقابة الدولية على مصر فى الناحية المالية .

ورأى المفكرون المعاصرون حضارة أوروبية تتدفق على البلاد وتنقل منها إلى مختلف جهات العالم الإسلامى دون حساب .

كان مصلحو أمس يأخذون بقدر فإذا بها اليوم تتدفق كأنها السيل ، وإذا بها ترواحه الثقافة الإسلامية وجهها الوجه ، وطبقة من الحكام استبد بهم الضعف ودفعهم الإسراف إلى الإثقال على الكادحين من أهل البلاد فى وقت بدأت يقظة الواعين من أهل البلاد ومطالبهم بالحد من سلطان الاستبداد والاقتداء بالغرب فى الحياة الدستورية ثم نعوذ أحسن بنفث سمومه فى البلاد ويسيطر على أقدارها يوماً بعد يوم .

وكما انقسم مفكرو القرن الماضى فى منهجهم فى الإصلاح إلى مدرستين لكل منهما منهجه ورسالتها ، كذلك نشأت فى الحياة المصرية المعاصرة مدرستان وظهر تياران فى الإصلاح ، تيار يريد أن يجابه مشكلة التقاء الثقافات الإسلامية بالثقافات الغربية الوافدة ، إذ يلتبس لما الحلول ، ويرسم لها منهج الإصلاح

وفريق آخر يصب كل همه على الحد من طغيان الحاكم وفساده ، وإنصاف الشعب . وإصلاح الحياة النيابية الدستورية وإقامة حكم وطنى قوى نظيف ، يصمد لهذا النفوذ الغربى الذى وضح فى أمور البلاد .

المدرسة الأولى : تتمثل فى منهج جمال الدين الأفغانى وتلميذه محمد عبده .

والمدرسة الثانية : تمثلها الثورة الإصلاحية الكبرى التي انبثقت من صفوف الشعب بزعامة أحمد عرابي .

المدرسة الأولى تريد أن تعالج المشاكل الثقافية وتبني الإسلام أن يواجه الغرب والمدرسة الثانية تريد أن تنهض بالحكم الوطني لتواجه الغرب في ميدان السياسة (١) :

كانت مدرسة جمال الدين تقوم على أساس مواجهة العرب بالإسلام واع متجدد ، متين الأساس ، وتطهير الإسلام من البدع التي دخلت فيه ، وعود به إلى أصوله الأولى ، وفهم شامل له ونقيد بحقائقه ومبادئه الجوهرية .

وهذه الحقائق إذا ما فهمت فهما صحيحا لاتعارض مع الحقائق العلمية ، لأن الدين لا يعوق التقدم العلمي ، ثم تحرر عقلي . وإصلاح فكري يمكن الوصول إليه ، بتحرير العقل من كل ما يعوق بحثه عن الحقيقة . فالعقل الحر ينسجم مع الحقيقة ، وهذا الانسجام يعيد التوازن إلى الإنسان ، وفي زعمهم أن هذا الإصلاح الفكري مقدمة لأي إصلاح سياسي .

ونادت هذه المدرسة أيضاً بالتحرر من المعتقادات والعادات البالية ففاضل جمال الدين من أجل حرية الفكر ، وحض على إعلان الأفكار الحرة بجرأة وعلانية ، وأنكر الطغيان والظلم مهما كان مصدرهما .

ثم الدعوة إلى التحرر من الاستعباد أيا كان شكله ، فحاول أن يوجد رأياً عاماً مدركاً واعياً ، فألهم مدرسة من الكتاب ، وشجع الشبان على إنشاء الصحف وبث روح القومية ، وترك تأثيره طابعاً عميقاً في الأدب واتجاهه . ذلك الأدب الذي كان حتى عصره منصبا على مدح الأمراء والحكام ، فوضع الأدب غاية : هي خدمة الشعب والتعبير عن حاجاته ، والدفاع عن حقوقه ، فنشأ أدب جديد متطلع إلى الشعب ، ليستمد منه المادة والموضوع (٢) .

وقد أنجبت تعاليم جمال الدين المصباح الأستاذ محمد عبده وإن كان يختلف عنه في تطبيقه لهذه المبادئ ، إذ كان يرى أن تغزل الأمور الدينية عن الحركات الثورية السياسية ، وأن تتطور كل ناحية في طريقها المرسوم .

وكان يهدف إلى تطهير الإسلام بما دخله ، وإصلاح التعليم العالي ، والملازمة بين الشريعة وروح العصر ، والدفاع عن الإسلام ضد التيارات الأوربية والمسيحية (١) . أما المدرسة الأخرى التي كانت ترى أن أي إصلاح يجب أن يبدأ بالناحية السياسية أولاً ، فقد تمثلت في الحركة الوطنية التي تزعمها أحمد عرابي . وهي تمثل العناصر المستنيرة والحررة في مصر ، كانت رغبة صادقة من أجل التحرر من الاستغلال الأجنبي ، ووضع دستور يضمن حقوق الشعب ويحمي مصالحه من عبث حكام أصبحوا أداة عاجزة طيعة في يد الدسائس التي ينغتها الأجانب والرجعيون من أهل البلاد .

وأصدق شاهد على صدق رغبة هذه المدرسة في الإصلاح السير ولوردسكاون بلنت Wilfred Scawen Blunt ، الذي عاش في مصر سنة ١٨٨١ - ١٨٨٢ والذي كان يعرف عرابي معرفة جيدة ، ويعطف على الأمانى المصرية .

وهو يقول أن الحركة الوطنية لعام ١٨٨١ « كانت في جوهرها حركة فلاحين غايتها تحرير الفلاحين » ، وهو يصف عرابي بأنه من الأحرار وأنه يتصف بالإنسانية واسعة وأن إخلاصه يملو على الشبهات (٢) .

وتنصح هذه الاتجاهات في برامج الحزب الوطني التي وضعت سنة ١٨٨١ ففيها الاعتدال في الروح والفكرة .

فقد وقف موقف الولاء من الخديو بشرط أن يعدل في حكمه ويتمتع بالقانون ونادى بضروة الرقابة المالية بشرط أن تكون مؤقتة واعتبر أن الشرف الوطني يقضى بوفاء الدين الأجنبي . أما الظلم الناجم عن إعفاء الأوربيين المقيمين في مصر من الضرائب ومن الخضوع لقوانين البلاد فيجب إصلاحه بغير عنف . لم يفرق هذا الحزب بين الناس على أساس من دين أو جنس بل نادى بأنهم جميعاً سواء أمام القانون في الحقوق . وأدرك أن الموقف السلبي لا يحقق الحرية بل اعتبر أن المصريين

Gibb : Modern trends in Islam p. 29.

(١)

Elnat : Secret History of British occupation of p. 110,

(٢)

إذا ما أراحوا الحرية فعليهم أن يصمموا على إكمال تدريبهم- السياسي عن طريق البرلمان وحرية الصحافة ونشر العلم (١).

وقد جاء في الفقرة الأخيرة من البرنامج ما يلي « وأخيراً فإن الهدف العام للحزب الوطني هو بعث البلاد وذلك بحسن تطبيق القانون وازيادة التعليم وبالحرية السياسية التي يعتبرها حياة الشعب وهو واثق بعطف الشعوب الأوربية التي تنعم بالحكم الذاتي وتساعدنهما لمصر في أن تكسب لنفسها هذه النعمة ذاتها » .

كان من الممكن أن تنجح المدرسة الأولى في بعث لإسلام وتلقيحه بثقافة العرب تلميذاً صحيحاً وأن تنجح المدرسة الثانية في إصلاح الدولة وإنصاف الشعب وإدخال الديمقراطية الدستورية ونوقف التدخل الأوربي فتخلقان أمة إسلامية تأخذ بأسباب النهضة على أسس سليمة وأن تشيعها في إفريقية لولا الاحتلال البريطاني .

هذه إذن قصة الثقافة الإسلامية في مصر منذ المنح العربي حتى الاحتلال البريطاني وسعروض لنفس هذه الثقافة في الشطر الآخر من شمال إفريقية في بلاد المغرب .

٣ - انتشار الإسلام في بلاد المغرب

دور التكوين :

رغم أن العرب لم يستقروا في بلاد المغرب إلا بعد اتصال عتيق استغرق نحو خمسين سنة : إلا أن الإسلام في هذه البلاد كان أكثر نجاحاً وأسرع انتشاراً ، أسرع من انتشاره في مصر رغم سهولة فتحها .

فما كاد القرن الثاني الهجري يؤذن بالإنهاء حتى كان الإسلام قد استقر في بلاد المغرب ودخل المغاربة فيه واندمجوا في الحياة الإسلامية ، واكتسبت ثقافتهم الصفة العربية الواضحة .

ولعل ذلك يرجع إلى ظروف البلاد نفسها . إلى طبيعة المسيحية فيها وإلى طبيعة البلاد نفسها وطبيعة أهلها ، ثم إلى سياسة الدولة الأموية التي أمنت الفتح وأدخلت البلاد في نطاق الدولة الإسلامية .

كانت المسيحية في بلاد المغرب تختلف اختلافاً بيناً عنها في مصر ، فقد كانت العقيدة المسيحية في مصر قد تعمقت في نفوس المصريين وأصبحت لهم عقيدة ووطنية في وقت واحد . واستطاعت كنيسة مصر على النحو الذي رأينا أن تكتل الشعب المصري حولها في نضالها العنيف مع الدولة البيزنطية ومذاهبها الدينية التي كانت تفرضها على الناس .

أما في بلاد المغرب فإن المسيحية لم تكن تتجاوز المدن الساحلية والسهل الساحلي لسبب واضح هو أن النفوذ الروماني والبيزنطي لم يكن يتجاوز هذا النطاق . ظل النطاق الداخلي خارجاً عن النفوذ البيزنطي من ناحية وخارجاً عن نفوذ الكنيسة الإفريقية من ناحية أخرى .

ولانكر أن بعض التأثيرات قد نفذت إلى بعض هذه النواحي الداخلية غير أن السير توماس أربولد (١) يشك إطلاقاً في امتدادها إلى قبائل البربر في المناطق الداخلية

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ١١٥ .

لسبب واضح في مجيئه ، هو أن هذه القبائل لبدوية لم تنسرب الحضارة الرومانية وكانت تقف من الدولة البيزنطية موقف العداء الصريح . وأنها كانت لانتماء تزداد مناطق الاستقرار ، مناطق النفوذ البيزنطي بالإغارات المستمرة (١) .

فإذا كان هذا هو حال برقة وطرابلس وتونس والجزائر فما بالنا بالمغرب الأقصى بشعابه الجبلية وهضابه وطبيعته المعقدة . كانت الكثرة الكثيرة من أهل هذه المناطق الداخلية على الوثنية وكذلك شأن غالبية شعوب المغرب وقبائله .

هذه المسيحية محدودة الانتشار في المغرب كانت قد ضعف سلطانها بالتدريج في أغلب المناطق التي كانت قد استقرت فيها ، ففي برقة مثلاً كادت أن تتلاشى قبيل الفتح الإسلامي (٢) . وقد نال من كنيسة إفريقية مالمقية في ظل الوندال الآريين قرابة قرن من الزمان اضطهدوا الأرثوذكس اضطهاداً عنيفاً ، وشردوا أساقفتهم وحرّموا عليهم الجهر بإقامة شعائر الدين وأمعنوا في تعذيب من أبي أن يدخل في مذهبهم (٣) .

فلما عادت هذه البلاد إلى الدولة الرومانية وعقد مجمع قرطاجنة لم يحضره إلا نحو مائتين وسبعة عشر أسقفاً ، بعد أن كانت كنيسة إفريقية من أغنى الكنائس بالأساقفة والقسيسين (٤) .

ولم تكن الكنيسة تخلص من الوندال حتى ذاقت من البرر ، حتى إذا كان القرن السابع الميلادي وبدأ الزحف الإسلامي كانت المسيحية قد ناهت في الضعف ، ضعفاً في العدد . وضعفاً في نفوس الناس .

لم نستطع المسيحية في المغرب وهذا حالها أن تقف من المد الإسلامي وقفة على الأقل تداني وقفة المسيحية في مصر .

فقد ناضلت كنيسة مصر واحتفظت برمقها على حين نجد كنيسة المغرب رغم تسامح العرب قد تلاشت تدريجياً ، ففي سنة ١٠٥٣ مثلاً لم يمثل هذه الكنيسة إلا خمسة أساقفة ثم ازدادت ضعفاً خلال القرنين التاليين .

Maréais . Les arabes en Berberie, p. 42.

(١)

(٢) أربولد : الدعوة إلى الإسلام من ١٤٥ .

Ibid, vol IV, pp. 331-3. (٤)

Gibbon, vol. V, p. 214. (٣)

وفي سنة ١٢٤٦ كان أسقف مراکش الزعيم الروحي الوحيد الذي يشرف على ما بقي من هذه الكنيسة القديمة .

ثم اختفت تدريجيا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، ولم يبق من ذكرها إلا أطلال الكنائس منتشرة في هذا السهل الفسيح (١) .

وما دام المغاربة كان إقبالهم على المسيحية على هذا النحو الضئيل فمن الطبيعي أنهم لم يناضلوا من أجلها ولم تستطع عقائدهم البدائية أن تنافس الإسلام ، بل دخل في هذا الدين من كان قد دخل في المسيحية ، وكان ضعف المسيحية على هذا النحو ثم قلة مقاومتها من الاسباب التي بسرت للإسلام أن ينتشر ومكنته من أن يعم البلاد كلها .

هناك حقيقة أخرى تفسر هذا الانتشار السريع ، الذي صادفه الإسلام في بلاد المغرب أبداً من ضعف المسيحية نفسها ، وهي أن أهل البلاد الأصليين كانوا فريقين : فريق ينزل السهل الساحلي الذي يقع بين الجبال والبحر . ثم ينتشر على طول الجبال الممتدة من الشرق إلى الغرب في السفوح المزروعة والنواحي الحصينة المحيطة بجبال أوراس ، ويمعنون انتشاراً حتى مدينة طنجة ، وهذا الفريق من البربر يسمى فريق البرانس (٢) .

أما في الجنوب حيث نشاهد سلسلة من الوديان العالية والمضارب المرتفعة والبيئات الرعوية أو شبه الرعوية التي تمتد امتداداً متصلاً من طرابلس إلى المغرب الأقصى ، فقد نزلت طائفة من القبائل البدوية الكبرى هذه القبائل البدوية من سكان المغرب هي قبائل البر ، (٣) .

كان المستقرون أكثر إقبالا على الحضارة الرومانية وأكثر تشرباً لها وأوفر دخولا في المسيحية ، فكانوا يحكم تعلقهم بها أشد مقاومة للعرب وأبطأ دخولا في الإسلام ، بل كانوا هم عصب المقاومة للزحف العربي .

أما البدو سكان المناطق الداخلية البعيدون عن النفوذ الروماني والبعيدون بالتالي

(١) أربولا : "الدعوة إلى الإسلام ص ١٤٦ .

Gautier : Les Siècles obscurs, p. 198.

Fagnan : L'Afrique. Sept... pp. 134-135.

(٢)

(٣)

عن تأثير المسيحية في كثير من الأحيان للرومان متمسكين بدينهم القديم . هؤلاء الناس رأوا الفتح العربي بقرص مصير المغرب فالتقوا بثقلهم منه وأيدوه من أول الأمر بل كانوا عادة العرب في زحفهم وطلبة جندهم . دلوهم على عورات البلاد ، وأعانوهم في نضالهم مع الرومان .

وأشهر من أيد الفتح العربي من هذه القبائل البدوية قبيلة لواتة وبفراوة وبفوسة وقبيلة زناتة (١) ، وبإمداد هؤلاء قبل أيدوا الفتح العربي منذ البداية فقد كانوا أسرع استجابة للإسلام ودخلوا فيه .

بدأ الإسلام ينتشر أول ما ينتشر بين هذه القبائل من البربر تدفعهم إليه عداوتهم للروم . ولم نستطع عقيدتهم الوثنية أن تصمد أمام الدين الإسلامي الوافد في قوته وعنفوانه .

ولما انهارت مقاومة البيزنطيين وابتسط النفوذ العربي على البلاد كلها ، لم يشأ الفريق الآخر من أهل المغرب أن يتحلف عن الركب ، فبدأوا بدورهم يدخلون في الإسلام أسوة بمن دخل فيه من البدو .

وثمة أسباب أخرى تفسر سرعة انتشار الإسلام في المغرب وسرعة تقبل الناس له . وهو أن بعض هؤلاء العرب اتخذوا سياسة كانت بعيدة الأثر في انتشار الإسلام وفي إقبال أهل المغرب عليه .

فحسان بن العمام فاتح إفريقية منح البربر الذين يؤيدون الفتح ويؤازرونه حق المساواة الكاملة مع العرب أو حق الرعاية العربية الكاملة .

ووضح أدم البربر ما ينطوي عليه الإسلام من مساواة بالفاتحين العرب ومن مكاسب مادية ومعنوية فيكونون عدة العرب في زحفهم المقبل صوب المغرب الأقصى مع ما ينضج من هذا الرحف من مغن ومكاسب مادية وفيرة (٢) .

وتتضح سياسة حسان هذه من رواية المالكى (٣) ، وهي تهدف إلى إشراك البربر في جيش الفتح . ومعنى هذا منحهم حقوقهم المشروع من العطاء .

(١) مؤسس . فتح العرب للمغرب ص ٢٨٤ .

(٢) المسكر : رياض النفوس ص ٣٦ . (٣) ابن عدارى : البيان ص ١٧ .

ثم إذا لم يسوى بين العرب والبربر في قسمة في الحرب ومغانمها لم يعتبر العرب حكاما والبربر محكومين ، إنما ساوى بينهم في الحقوق والواجبات ، وفي الاشتراك في الحرب .

هذا بخلاف ما ألفوه من سياسة الرومان حيث كان أهل المغرب مهما بلغت ثقافتهم ومكانتهم من موالى الرومان لهم المرتبة الثانية في المجتمع فإذا هم يظفرون بالمساواة المطلقة .

بل أمعن حسان في سياسة التهدة والتراضى هذه فاعتبر أرض المغرب مفتوحة صلحاً لا عنوة وأقر البربر على ما بيدهم من الأرض .

وتبين إذن أن مخالفة العرب لا تفقد لهم أرضهم ولا مبرراتهم المادية وهذه السياسة كان لها أثر رهيب بعيد المدى في دوع البربر نحو الإسلام . ذلك أنه ميز البربر على سائر أهل المغرب ، فاعتبر الروم والأفارقة موالى للعرب ، لا يتساوون مع البربر ولو أسلموا ، واعتبروا الأرض التي كانت للروم مفتوحة عنوة ، فاستحلها العرب ، واعتبروا أهلها ومن وجده عليها موالى لهم يتصرفون في شئونهم كما يريدون .

فوجد البربر الذين استعملوا بالأمس أنفسهم أروع شأناً من سادة الأمس الأفارقة والروم ، وكانت النتيجة الملموسة لهذه السياسة هي اختفاء العنصر الرومي واللاتيني من البلاد شيئاً فشيئاً ، حتى انعدمت آثارهم من البلاد تقريباً ، واختفت تبعاً لذلك اللغات اليونانية واللاتينية والفينيقية التي كان يسمعلها هؤلاء الروم والأفارقة ، وأدت هذه السياسة إلى نهوض الشعب المغربي وأخذته بأسباب الحضارة الإسلامية (١) .

وامتدت سياسة التهدة هذه من تونس والخرائر إلى المغرب الأقصى ، على يد موسى بن نصير الذي تابع سياسة حسان في المغرب الأقصى ، فلم يكن قائداً فحسب إنما كان مصلحاً وسياسياً في نفس الوقت . قرب إليه البربر وحبيهم في الحكومة الجديدة فولاهم الاعمال وأشركهم مع العرب في إدارة البلاد (٢) ، فوجدوا أن

(١) مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٢٨٨ .

(٢) ابن خلدون ص ١٠ ص ٢٧ .

انضمامهم للعرب ومخالفتهم قد يتمخض عن مكاسب مادية جمة ، فيدأوا يقبلون على الإسلام إقبالا عظيما .

وكان نشر الإسلام يسير جنباً لجنب لان موسى أحب ألا يكون إسلام البربر خوفاً أو رهبة بل اقتناعاً وحباً ، فأخذ يفتحهم في الدين فينشئ المساجد في البلاد التي فتحها ، حتى لقد أنشأ مسجداً في أغمات هيلانة في أقصى بلاد المغرب (١) .

ونجحت سياسة موسى نجاحاً بعيداً ، فأصبح المغرب الأقصى بشعوبه وقبائله طوعاً وبمبته . وكما أشرك حسد بربر إفريقيا في جيش العرب كذلك فعل موسى ، أشرك بربر المغرب الأقصى في فتح الأندلس . وانضمت إليه جماعات البربر طمعاً في الغنم أرحماً في الجهاد (٢) .

وحركة فتح الأندلس كانت عظيمة الأثر في انتشار الإسلام بين البربر فقد كان هذا النصر السريع ، الذي أحرزه العرب حافزاً لمن تحلف من البربر المسلمين إلى عبور البحر للاشتراك في الحرب والمساهمة في الغم الوهيب ثم دافعاً لمن بقى على دينه إلى الدخول في الإسلام حتى يتاح له الانتحاق بحند المسلمين

لذلك كان فتح الأندلس معجلاً بإسلام البربر ، فقد حاربوا مع العرب جنباً لجنب واحتكوا بهم وخالطوهم وأفادوا منهم في الدين والثقافة (٣) .

ولم ينفرد الولاة بالاهتمام بأمور المغرب على هذا النحو بل اهم به الخلفاء ، وكان اهتمامهم متمماً لأعمال الولاة ودافعاً للحركة الإسلامية إلى الأمام خصوصاً الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي كان يريد أن يزيد الإسلام انتشاراً في المغرب ، وأن يشبه في قاب من دخل فيه حديثاً .

ولتحقيق هذا العرض نراه يولى إسماعيل بن عبيد الله سنة ١٠٠ هـ (٤) ليدعوا من بقى من البربر إلى دين الإسلام . ولم يكن إسماعيل هذا عاملاً على المغرب فحسب بل داعية إلى الإسلام بالدعوة السلمية والحنة والإقناع

(١) ابن عسار ١ ص ٢٨ .

(٢) حسن أحمد محمود : قيام العرب في ٦٤

(٣) مؤنس . فتوح المغرب ص ٢٩٢ ،

(٤) الداع : معام الإيمان ١ ص ١٥٤ .

والمؤرخون يردون إليه الفضل في إتمام ما بدأه أسلافه وفي تثبيت العقيدة في نفوس مسلمي البربر .

وأُتبع عمر بن عبد العزيز هذا بإرسال التابعين الذين انتشروا بين البربر وأخذوا يعلمون أصول الدين . يبصرون بقواعده وأصوله ، وأقام كثيرون منهم في مدينة القيروان أو غيرها من المدن المغربية ، أقاموا المساجد وجعلوها مدارس للإسلام ، يقصدها البربر من كافة أقاليمهم .

وقد أخذ عن هؤلاء التابعين كثيرون من أهل اللاد . فإذا تعلم فريق من أهل اللاد الأصليين وقضوا بعض الوقت في الدراسة في القيروان عادوا إلى بلادهم لمتابعة الرسالة . فيتولون وظائف الإمامة والقضاء ، ويعملون بدورهم على نشر الإسلام وثقافته العربية (١) .

ويمكننا أن نقول في اطمئنان أن القرن الثاني للهجرة أطل بلاد المغرب وقد أصبحت قطرا إسلاميا يتعمل مع التفكير الإسلامي الذي شاع في العصر الأموي .

وإذا بالفرق الدينية التي ظهرت في ذلك العصر مثل الشيعة أو الخوارج تتقل هي الأخرى إلى المغرب بفرار بعض الدعاة حيث تصادف دعابتهم مرعى خصيباً بين القبائل .

وكان ظهور حركات الخوارج سريعاً في المغرب واندلعت نيران ثورتهم سنة ١٢٢ هـ (٢) . وهذا يدل على تفاعل البربر تفاعلاً كاملاً مع الحياة الإسلامية ، بل كان دعاة الشيعة وثور الخوارج عاملاً هاماً في نشر الإسلام بين أهل اللاد .

وقد شهد نفس هذا العصر تطوراً مماثلاً صاحب انتشار الإسلام وهو انتشار اللغة العربية .

ويحبل للمتأمل أن اللغة العربية كانت أوسع انتشاراً في بلاد المغرب منها في مصر ، لأن العربية وجدت في مصر لغات عريقة ذات أصالة وحضارة مثل اللغة القبطية

(١) ابن عداري : البيان المغرب ج ١ ص ٣٤ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١١٠ .

بتمليدها العريقة وماضيها المشرق^(١) وهي لم تكن لغة الثقافة وحدها ، بل اتخذت تعبيراً دينياً فأصبحت لغة الكنيسة والتمسك بها يحمل في مفهوم المصري معنى دينياً ووطنياً . إلى جانب الإغريقية لغة الرواقي والمصطلح الديواني والثقافة الإغريقية .

أما في بلاد المغرب فإن الإغريقية أو اللاتينية لم تكن واسعة الانتشار بل كانت لغة الحكومة ولغة سكان المناطق الساحلية ، أما غالبية البربر فكانت أبعد من أن تتأثر بهذه اللغة ما دامت قد بقيت بعيدة عن التأثير بالحضارة الرومانية ، ولم تكن لغات البربر غير المكتوبة تقوى على معالبة اللغة للعربية .

وكما أقبل البربر على الإسلام أقبلوا على اللغة العربية ووجدوا فيها أداة طيعة تمكنهم من التصهم فيما بينهم ، فقد تعددت لهجاتهم وكانت اللغة العرسية لغة مكتوبة يستطيعون عن طريقها أن يسجلوا قرائهم (١) .

وكان إقبالهم على اللغة العربية شديدا يدل على ذلك ما ترويه كتب الطبقات من رحيل الكثيرين منهم في القرن الثاني الهجري إلى الشرق للاستزادة من العلم والتثبت من اللغة .

وظهرت خلال هذا القرن فئات تكتب بالعربية وتؤلف بها ، وبدراسة ماورد من تراجم في كتب طبقات فقهاء المغرب نجد الرواية تنسلل إلى رجيل أول من أهل البلاد الأصليين الذين برعوا في ثقافة العرب وفهموها حق الفهم (٢) .

وفي نفس الوقت الذي انتشر فيه الإسلام واللغة العربية كانت الثقافة العربية الوافدة إلى مدارس القيروان وغيرها من مدن إفريقية تسير في طريقها المرسوم نحو انصاف والاردهار

كما أظلت المغرب وحدة سياسية شاملة في ظل عمل خلفاء بني أمية .

دور الازدهار :

لكن هذه الوحدة السياسية التي أظلت أقطار المغرب جميعها وتبعية هذه البلاد كلها للحلافة الإسلامية في الشرق لم يكن من المعقول أن يستمر طويلا .

(١) انظر : الديع ، معالم الإيمان والمالكي رياض النفوس .

(٢) أبو العرب تميم طغرت علماء إفريقية .

ذلك أن المغرب سيكون ميداناً للحركات القومية التي ظهرت في محيط الدولة الإسلامية منذ قيام الخلافة العباسية . غير أن القومية المغربية كانت أسبق ظهوراً من نظيرتها في الشرق ، أسبق بنحو قرن من الزمان .

ويرجع السبب في ظهور هذه القومية المغربية مبكرة نوعاً ما إلى طبيعة البلاد ، وعدم استطاعة العرب أن يقهروا أهل البلاد قهراً مطلقاً في وقائع حاسمة ، الأمر الذي اضطرهم إلى المهادنة والمصانعة ، على عكس الحال في العراق وإيران ومصر حيث قهرت القوميات قهراً عسكرياً بعد نصر حاسم .

وكان على هذه القوميات أن تظل مستكنة فترة طويلة ريثما تسترد أنفاسها ، فنمت شخصية المغرب المستقلة في ثورة الخوارج التي اشتعلت بالبلاد قبل سقوط الخلافة الأموية بنحو عشر سنوات ، أعني سنة ١٢٢ هـ (١) فانشر مذهب الخوارج الذي بنادى بأن الإمامة ليست مقصورة على العرب ، بل يشترك فيها المسلمون على السواء ، فهي ثورة على الإمامة القرشية .

وقد تنفقت القومية المغربية المتربصة هذه المبادئ واعتنقتها معارضة للحكم الإسلامي ووقوفاً في وجه الخلافة الإسلامية .

وانبعث شرارة الثورة في مدينة طنجة وبابج الثوار رجلاً سقاء يسمى ميسرة ، ثم عمت الثورة بلاد السوس الأدنى ، ثم سائر جهات المغرب الأقصى .

ولم يستطع جند الأندلس العود إلى المغرب وإخماد الفتنة ، وامتد لهب الثورة إلى إفريقية وسقطت القيروان ، وكاد سلطان العرب في المغرب أن يقضى عليه .

وعلى الرغم من أن الدولة الإسلامية قد استردت إفريقية إلا أن البلاد انقسمت على نفسها انقساماً واضحاً . وبدأت القوميات تظهر في المغرب ، وبدأت الأقاليم الجغرافية تنضج وتظهر (٢) .

انفصلت بلاد الأندلس عن الخلافة الإسلامية في عهد عبد الرحمن الداخل ، وبدأت تنشأ في المدينة قرطبة حاضرة هذه الإمارة مدرسة جديدة للثقافة العربية ، وبدأت وتعم اعتمادها على القيروان والشرق تظهر شخصيتها الأندلسية .

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ١٢ ص ٣٨

(٢) : حين أحمد محمود : قيام المرابطين ص ٦٥ .

الثقافة الإسلامية في المغرب فهي زعيمة هذه المدارس ، وهي التي ظلت توجه ثقافة المغرب فترة طويلة ، ولم تظهر المدارس الأخرى إلا حينما ضعفت مدرسة القيروان ثم انهارت آخر الأمر .

مدرسة القيروان :

رأينا الجهود التي بذلها الولاة العرب منذ عهد حسام بن النعمان لإقرار السكينة في البلاد ، ونشر الطمأنينة بين ربوعها ، غير أن هذه الجهود أثمرت في عهد الأغالة ، فقد أطل البلاد عهد من السلام الحقيقي والطمأنينة غير المشوبة بقلق أو اضطراب .

ولعل هذا يفسر بأن إسلام البربر وإقبالهم على الثقافة العربية قد حبسهم في العرب وفي ثقافتهم ، وهذب من طبيعتهم النزعة إلى الثورة والخروج على السلطان

إلا أن الأغالة استطاعوا أن يوجدوا نوعا من التعاون بين طبقات السكان على اختلافهم : بين الجنود العرب الذين كانوا يؤلفون طبقة أرستقراطية عسكرية ، وبين البربر أهل البلاد الأصليين ، أو بين الأفارقة وهم عنصر خليط من البربر وبقايا الرومان القدماء .

وضح هذا التعاون المثمر في المدن على وجه الخصوص وفي مدينة القيروان حاضرة البلاد حيث عاشت هذه العناصر جنبا إلى جنب . ولعل هذا التعاون قد هيا للأغالة أن يستغلوا موارد البلاد خير استغلال ، فعظمت ثروة البلاد ، وأقبل هؤلاء الأمراء على الترف والرفاهية ، وكونوا لأنفسهم بلاطا يتشبه بالبلاط العباسي البغدادي في حياته واتجاهاته .

واطمئنان الأغالة من ناحية ووفرة مواردهم من ناحية أخرى قد أغرامهم بفتح ميدان الجهاد في جزيرة صقلية ، وبدأت المحاولة الأولى سنة ٨٢٧ م ، وبذلك فتحو للحضارة الإسلامية نهرا تندفق فيه لتتخذ طريقها إلى إيطاليا فيما بعد .

وقد ظهر أثر هذه السياسة وأثر هذا السلام وأثر هذا الثراء في ميدان الحضارة ، ففي الفن الإسلامي تنوعت الآثار المنسوبة إلى الأغالة ، وجورج مارسيه يقسمها إلى آثار دينية مثل المساجد وآثار مدنية مثل القصور وآثار حربية مثل الحصون ، ومرافق عامة مثل خزانة المياه التي انتشرت في تونس في عهدهم .

واستقلت إفريقية أوكادت في عهد عبد الرحمن بن حبيب الذي نشر السلام والطمأنينة في ربوع البلاد ، وأمتد سُلطانه غربا حتى تلمسان ، بل حاول غزو صقلية وسردانية . وبذلك عبد الطريق أمام الأغالبة فوجدوا إمارة ممهدة وشعبا مستقرا وحضارة زاهرة . فاستقلوا بحكم إفريقية في ظل النفوذ العباسي ، ونمت مدرسة القيروان في عهدهم نموا واضحا (١) .

وفي المغرب الأقصى قامت دويلات صغيرة مستقلة تبسط كل نفوذها على منطقة معينة محاولة أن تقرر السكينة في ربوعها . وأن تؤمن أهلها حتى يعيشوا في سلام . استقل بنو واسول في سجلماسة (٢) . واستقلت برغواطة بطنجة وما حولها . ومهدوا الطريق أمام الأدارسة ليعتمدوا على بربر المغرب في إقامة إمارة مستقلة توحد المغرب الأقصى كله تحت لوائها .

وكان لانتساب الأدارسة للرسول أثر كبير في توحيد القبائل المتنافرة . وظفروا بتأييد السكان على اختلاف طبقاتهم . ووجدوا بين إقليم الساحل وإقليم المرامي . فاطمان أهل السهول والبدو وازدهرت الحياة الاقتصادية ونجحوا في إقامة حكومة مركزية قوية اشترك فيها العرب والبربر جنباً لجنب . وسقطاعوا بفضل هذه الوحدة الشاملة لإحياء حركة الجهاد . وعملوا على نشر الإسلام في البلاد (٣) .

وكان تأسيس مدينة فاس فاتحة عهد حديد في تاريخ البلاد ، فقد أصبحت حاضرة المغرب الأقصى يقصدها العلماء والتجار من كل صوب (٤) .

وبدأت مدرسة فاس تتلقى المؤثرات الثقافية من القيروان ، وأخذت تكون شخصيتها المستقلة وتنشر العلم في ربوع البلاد . وكان الأدارسة أنفسهم يؤيدون هذه الحركة العلمية ولهم الفضل في نشر الثقافة العربية في البلاد .

إذن بدت في بيئة المغرب الإسلامي ثلاث مدارس إسلامية : مدرسة القيروان في إفريقية ، ومدرسة قرطبة في الأندلس ، ثم مدرسة في فاس المغرب الأقصى . وسوف يستمر التنافس بينها نحو سبعة قرون متصلة . غير أن تاريخ مدرسة القيروان هو تاريخ

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١١١ . (٢) نفس المصدر ج ٦ ص ١٠٥ .

(٣) ابن أبي زرع : دوح القرطاس ١٣ . (٤) الجزائى : زهرة الآس ص ٢٢

وظهرت هذه الآثار من ناحية أخرى في الثقافة العربية الإسلامية التي رأيناها في العهود السابقة على عهد الأغالبة تنمو ويشهد ساعدها . غير أن عهد الأغالبة بظروفها التي أشرنا إليها دفعها إلى الأمام في طريق التطور والنمو (١) .

ومؤرخو هذا العصر يذكرون كيف أنهم أنشأوا بمساجد القيروان حلقات للتدريس ، وأنشأوا مدارس جامعة أطلقوا عليها اسم « دور الحكمة » واستخدموا لها الأساتذة من الشرق . فكانت هذه المدارس وماقرون به إنشاءها من انصراف القائمين عليها للدرس والبحث عاملا هاما في رفع شأن لغة العرب وثقافتهم .

غير أن أهم تطور ثقافي شهدته إفريقية في المصور الوسطى هو انتشار مذهب مالك من مدرسة القيروان ، ونفسيه في القسم الغربي من العالم الإسلامي كله ، بما فيه بلاد الأندلس ، ثم عبوره إلى عرب إفريقية ، حيث لا يزال حتى اليوم المذهب الغالب على المسلمين في هذه البلاد ، والعامل الموجه لثقافتهم وحضارتهم وحياتهم الاجتماعية .

ظهور مذهب مالك ثم انتشاره لم يكن وليد عصر الأغالبة ، فقد انتشر في البلاد قبل الأغالبة ، غير أن عصرهم شهد الانتصار النهائي لهذا المذهب ، وسرعة انتشاره في بلاد المغرب كلها

وفد مذهب مالك إلى القيروان قادما من مصر كما وفدت المذاهب الإسلامية الأخرى ، ورحل كثير من فقهاء البلاد إلى مصر أو الحجاز طلبا للمزيد من فقه عالم دار الهجرة (٢) .

ثم عادوا إلى بلادهم متأثرين بما رأوا وسمعوا ، غير أن هؤلاء لم يكن لهم أثر يذكر حتى جاء أسد بن الفرات العالم المشهور في تاريخ إفريقية (٣) ، ورحل إلى مصر . وسمع من علي بن القاسم ، إمام المالكية في مصر ، فتأثر به رغم أن أسد هذا كان على مذهب العراقيين ، أعنى حنفي المذهب ، ودون خلاصة مشاهداته وتجاربه ، في كتاب مشهور في تاريخ الفقه الإسلامي في المغرب اسمه

George Marcats , Faschitesliss & oeeleer p. 5.

(١)

(٢) الداغ : معالم الإيمان ج ٢ ص ٥٢ .

(٣) المالكي : رياض النفوس ص ١٨١ .

« الإسديدة » (١) - جازيل - فيم أن يؤفق بين تقاليد مالك وأبي حنيفة ، فإزداد
الباش معرفة بفقهاء مالك عن ذي قبل .

ويظهر أن ماسمعه الإفريقيون من علمائهم الراحلين إلى مصر ، أو ماسمعوا
من خروس أسد بن الفرات ، حبهم في هذا المذهب الذي يتمسك بسنة الرسول
في أضييق الحدود ، وبهذا الفقيه الذي اتخذ مقام الرسول مقراً لتعاليمه وفقهه
فبدأوا يقبلون على هذا المذهب ، إقبالاً أشد من ذي قبل ، ويطلبون المزيد من
العلم به والمعرفة بخباياه .

هذه الرغبة في الاستزادة من علم مالك دفعت فقيه المغرب المشهور سحنون
ابن سعيد إلى الرحيل إلى مصر ليسمع على بن القاسم ، وأقام في القسطنطينية
حتى تشرب مذهب مالك وملك عليه نفسه وعاد إلى بلده .

وجمع خلاصة دراساته وقراءته المالكية في أول كتاب ظهر في فقه مالك غير
الموطأ وأسماه (الملتونة) (٢) .

ويرجع إلى سحنون هذا وإلى نجمه الغريب لهذا المذهب ، الفضل في دخول
الناس فيه جماعات ، وطار صيته إلى الأندلس فجاءه علماء قرطبة يسمعون
منه ويتعلمون عليه ، وبدأ مذهب مالك منذ ذلك الوقت يدخل بلاد الأندلس
ويتنشر فيها .

وكان مذهب أبي حنيفة المذهب الرسمي للدولة وقد وفسد إلى إهريقية بقيام
الدولة العباسية غير أنه لم يلق إقبالاً من المغاربة المتشبعين بحب الرسول والمخلصين
للاسلام الصحيح .

وسبب كرههم للمذهب أبي حنيفة قلة اعتماده على الحديث ، واعتماده على الرأي
والاجتهاد متأثراً بالمدارس الفارسية في التفكير الحر (٣) .

غير أن ظهور مذهب مالك خصوصاً في عهد سحنون بدأ يتغلب على مذهب
أبي حنيفة مسيطراً على قلوب الناس ومدارس الفقه ، حتى انتصر بهائياً منذ عهد
سحنون . وبدأ المالكية يغلبون على الحياة الثقافية في بلاد المغرب كلها .

(١) الدباغ : المعالم ج ٢ ص ٨

(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ٥١

(٣) المالكي : دباغ النفوس ص ١٦٥

وبفضل مذهب مالك وتزيمته اشتد كره أهل إفريقية لمذهب أبي حنيفة ، واشتد سلطان الفقهاء المغاربة المالكيين في الحياة الثقافية والدينية ، حتى أفتوا بتكفير الحنفية وبأنه لا يصلى عليهم ولا تشهد جنازتهم ، ولا يصلى خلفهم ، ولا يروى عنهم الحديث ، إنما يقاطعون سلباً وإيجاباً ، وأصبح من تقاليد المالكية الابتعاد عن مصاحبة الأمراء ، وعدم تولى القضاء ، والبعد عن مناصب الإفتاء (١) . وتمكنت تقاليد المالكية في نفوس المغاربة ، وفي مدارس القيروان وإفريقية ، ووقفت للمذاهب الأخرى بالمرصاد .

فلما انتشرت في مدارس إفريقية محنة خلق القرآن ، وآراء المعتزلة كان المالكيون أشد الناس لهم حرباً ، وأكثرهم عنفاً في مقاومتهم ، وتمسكوا بالكتاب والسنة حتى هزموا المعتزلة ، ولم يبق لهم بالقيروان رأى ولا أتباع ، ولم يجد الأمراء مفراً من النزول على رأى المالكية (٢) .

وفي هذا العصر تمكنت تقاليد المالكية من المغرب الأقصى ومن الأندلس ، وأصبح في البلاد مذهب الدولة الرسمي .

وبما يدل على مبلغ اقتناع الأندلسيين بمذهب مالك وتفصيلهم إياه ما رواه القاضي عياض ، عن الخليفة الأموي الحكم المستنصر . « نظرنا طويلاً في أخبار الفقهاء وقرأنا ما صنف من أخبارهم إلى يومنا هذا . فلم نر في مذهب من المذاهب أسلم منه ، كان فيهم الجهمية والرافضة ، والخوارج والشيعة : إلا مذهب مالك رحمه الله ، فإننا ما سمعنا أحداً ممن تقلد مذهب قال شيئاً من هذه البدع » (٣) .

انتصر المالكية انتصاراً عظيماً في عهد الأغلبية . وكانت مقاطعتهم للأمراء وعدم السير في ركابهم ، وأخذهم بالبأس والشدّة ، أمراً محبباً إلى المغاربة الذين عرفوا في طول تاريخهم بالنزعة الاستقلالية ، وميلهم إلى الخروج على كل سلطان أجنبي يمرض عليهم ، فوجدت دعوة المالكية في نفوسهم صدى محسباً يرتاحون إليه .

(١) الدباغ : معالم الإيمان ج ١ ص ٢٢

(٢) نفس المصدر والصفحة

(٣) حسن أحمد محمود : قيام المرابطين ص ٩٤

وأصبح هؤلاء الفقهاء المالكيون في نظر المغاربة الزعماء الذين يدافعون عن الضعفاء ويعارضون الحكام ، ويستشهدون في سبيل العقيدة .

بدأت تختفى الزعامة السياسية والحربية وحلت محلها زعامة أخرى دينية شعبية ينصاع لها الناس عن عقيدة وإيمان ، وأمنع المغاربة في تعصبهم لمذهبهم المحبب فمن كان مالكياً قبلوه وأحبوه ومالوا إليه ، ومن كان غير ذلك حاربوه دون رحمة . لا نستطيع أن نقول أن مدارس إفريقية قد أقفرت من ألوان الثقافة العربية الاخرى ، فكانت جميع أنواع العلوم الإسلامية تلقى في مدارس القيروان ، وقد رأينا الآراء الجديدة ذات الطابع الحر في التفكير والدراسة تنسرب إلى المغرب . كما نسربت إلى البيئات الإسلامية الاخرى .

لكن المغاربة غلبت عليهم النزعة المالكية الدينية بوجه خاص ، فجعلتهم لا يعرفون من الدراسات الإسلامية إلا هذه الناحية يقبلون عليها ويتمصبون لها .

وظل هذا حال الثقافة الإسلامية بوجه عام ، ومذهب مالك بوجه خاص حتى أقام الفاطميون دولتهم في إفريقية ، ووجد الفاطميون في بيئة إفريقية ثقافة إسلامية موطدة وثقافة دينية ثابتة الجذور ، ورأوا شعب إفريقية كله متكئاً خلف فقهاءهم المالكين يهدون بهديهم . ويأتمرون بأمرهم ، فرأوا أنه لا نجاح لدولتهم ولا بقاء لها إلا بمحاولة التغلب على هذه الوطنية المغربية الدينية .

وقد رأينا الفاطميين في كل مكان يتساحون في نشر دعوتهم بالدعاية والمناظرة والعلم . فنجأوا إلى مثل هذا في القيروان ، توسلوا بالمناظرة وعقدوا المجالس وجلبوا أئمة المالكية . وأخذوا يجادلونهم ويناقشونهم فلم يقتنعوا (١) . وأغدقوا المال والجاه فلم يمع المال أو الجاه ، فانقلب الفاطميون إلى طغاة مستبدين يستعينون بالعنف والشدة .

ضربوا الفقهاء بالسياط وقطعوا ألسنة البعض ، وضربوا الرقاب وصلبوا الفقهاء أحياء ، وصادروا الأموال ، وتفننوا في بعض وسائل التعذيب ، وتصور كتب الطقات هذه الوسائل تصويراً بشعاً ، فيذكر الدباغ (٢) . أنهم كانوا يبطحون الناس على ظهورهم ثم يأمرهم السردان بأن يدوسوهم بالأقدام .

فلم تحد هذه الوسائل ووقف المالكية في وجه الفاطميين كرجل واحد - واعتبروا الفاطميين زنادقة ونادوا بقتلهم حيث وجدوا وأعلنوا عليهم المقاطعة السلبية ، لا يصل في مساجدهم ولا تدفع لهم الأموال ولا يتعاون معهم . وقد ألف أحد الفقهاء كتاباً في نسب الفاطميين فحاربه الناس حتى فر من القيروان بنفسه (١) .
وانتشرت المقاومة في المغرب كله بفضل الفقهاء المالكية ، وقامت الثورات والفتن في وجه الفاطميين ، بل إن إخفاقاتهم في فتح المغرب الأقصى ، وإقرار السكينة في البلاد كان سبب المالكية .

وكان هذا سبباً في محاولتهم فتح مبدان حديد بالاتجاه صوب مصر . إذ تضافرت ضدهم جميع القوى المتحركة في مصر المغرب الأمويون في الأندلس . والأدارسة والزنايون في المغرب الأقصى بظاهرهم المالكية في كل مكان فكان رحيل الفاطميين إلى مصر انتصاراً للمالكية ولسياسة المقاطعة السلبية والإحائية (٢)

رحيل الفاطميين إلى مصر معناه اختفاء النزعات المتحررة من الحياة الثقافية في إفريقية ، لا محل لتشييع أو حنفية أو معتزلة أو خوارج أو ماشابه ذلك ، ومعناه اشتداد الصبغة الدينية المالكية الضيقة في الثقافة العربية في المغرب كله .

وقد اكتمل انتصار المالكية في إفريقية سنة ٤٤٣ هـ ، حين أعلن أمراء إفريقية الخاضعون للفاطميين اسمياً العصيان على هذه الدولة ، وقطعوا الخطبة لهم من البلاد ، واختفى نفوذ الشيعة نهائياً ، بل قتل من بقي منهم بالقيروان أو المغرب الأوسط أو المغرب الأقصى .

وتغلب مذهب مالك نهائياً وطبع الثقافة لعربية في المغرب بطابعه الذي لا زال سائداً حتى اليوم (٣) .

حدث هذا كله في القرن الخامس الهجري . وقد صاحب انتصار المالكية على هذه الصورة بوطن الثقافة العربية نهائياً في البلاد بتعشيش اللغة العربية وتغلغل الثقافة الإسلامية في نفوس الناس ، وظهور رحيل من مثققي البربر وفقهائهم وعلمائهم يطبعون الثقافة الإسلامية بطابعهم المزمع المتعصب .

(٢) نفس المصدر ص ٨٠

(١) حس أحمد محمود : قيام المرابطين ص ١٦

(٣) ابن خلدون ص ٦٠٩

وساعدهم على هذا التمييز اختفاء الفؤاد العربي أو الشرقى نهائياً برحيل الفاطميين وقيام أسرات من البربر الخالص مثل الزيريين في تونس والحماديين في الجزائر ، ثم المرابطين في المغرب الأقصى .

وأصبحت الكلمة الأولى لأهل البلاد الأصليين . تسنموا مقاعد الملك وأصبحت لهم الوزارة والقيادة ومناصب الدولة ومظاهر العز والسلطان .

وكان هذا في الواقع بداية الثقافة المغربية الإسلامية في أجلى صورها ذات الطابع الخاص المتميز عن الطابع الشرقى في كل ناحية ، في الخط العربي قلم مغربي خاص ، وفي الفن الإسلامي طابع خاص ، وفي الثقافة الدينية المالكية المتزمتة الضيقة . وفي الناحية الفكرية التي تدور في دائرة ضيقة جداً من التقاليد الدينية ونزعة سلفية صرفة .

ويكاد النشاط الأدبي في مدارس القيروان في ذلك العهد أن يكون قاصراً على الوافدين إلى البلاد من الشرق أو الأندلس وقراءة ما كتبه العباد الأصفهاني في الحريدة وابن دحية في المطرب تطلعك على أن الأدب العربي لم يجد له سوقاً رائجة في بلاد المغرب . حتى التوايف التاريخية والجغرافية كلها تشف عن هذا الطامسح الدني الضيق المتزمت .

وإذا كانت ثقافة المغرب العربية قد وصلت إلى هذا الحد من الضيق في هذا العصر إلا أن الأحداث السياسية التي شهدتها هذا العصر قد غيرت من مجرى هذه الثقافة . وكتب عليها أن نبتدى دوراً من أدوار الانحدار يبتدى من غارات العرب الهلاليين ويستمر فترة طويلة .

وكانت أهم الأحداث المؤثرة في تاريخ إفريقية (وتونس) السياسي بوجه عام والثقافي بوجه خاص والتي شهدتها هذا العصر الطويل الممتد من القرن الثاني عشر الميلادي حتى القرن التاسع عشر هي :

١ - غارات العرب الهلاليين وانتقالهم من مصر إلى إفريقية منذ سنة ٤٤٣ هـ .

٢ - اصمحلال البحرية الإسلامية ، وبداية ظهور اقوى المسيحية الأوربية وإحراجها السيادة البحرية في حوض البحر الأبيض المتوسط .

٣ - نهضة أوروبا وظهور قوى سياسية جديدة سيكون لها أثرها في تاريخ المغرب الإسلامي .

٤ - تفوق الدول المسيحية في شبه جزيرة أيبيريا واستطاعة هذه القوى بعد أن توحدت أن تطرد المسلمين من البلاد نهائياً .

٥ - ظهور الأتراك العثمانيين في آسيا الصغرى وامتداد نفوذهم نحو أوروبا ونحو مصر ودخولهم ميدان السيادة البحرية في حوض البحر الأبيض المتوسط ، وتأسيسهم لبعض الإمارات التركية في تونس والجزائر .

كانت بداية الانحدار في تاريخ الثقافة العربية في إفريقية على يد العرب الهلاليين الذين كانوا يقيمون بصعيد مصر في لعصر الفاطمي . حتى ساءت العلاقات بين الفاطميين في مصر وبين الإمارة التابعة لهم في تونس ، فرأوا أن يدفعوا عرب بني هلال لغزو هذه البلاد ، فبتخلصوا من عثمهم وإفسادهم في مصر ، وقد يتخلصون أيضاً من أمراء إفريقية الخارجين عن طاعتهم . وفي سنة ٤٤٣ هـ ظهرت طلائع قبائل البدو في إفريقية بعد أن مرت بركة وطرابلس (١) .

وقد ظهروا بإفريقية في وقت كانت الأحوال السياسية تمهد لنجاحهم وتوقيعهم ذلك أن القبائل الإفريقية صاحبة الدولة والأمر كانت قد أعزقت في الترف ، واستمرأت الحضارة . وفقدت روحها العسكرية ومقوماتها الحربية .

ولم يكن من المعقول أن تصمد أمام هذه القبائل البدوية الميالة إلى القوة الترابية إلى العنف ، كما أن الإمارة التونسية انقسمت على نفسها ولم تستطع أن توحد صفوفها وتجمع كلمتها في هذا الوقت العصيب ، لذلك انتصر العرب الهلاليون ، وهرمت الدولة الزيرية هزيمة ماحقة .

وكانت هذه الهزيمة عظيمة الأثر في تدهور إفريقية ، ذلك أن عرب القرن الخامس الهجري كانوا يختلفون عن عرب القرن الأول أصحاب الرسالة والدعوة والإصلاح ، كان عرب القرن الخامس يغلب عليهم العف والتورط وعدم الخضوع لأي سلطان سياسي ، مما كادوا ينتصرون في إفريقية حتى عاثوا فيها فساداً . أفسدوا

المزارع ، واثقلوا أشجار الزيتون ونهبوا المدن وأحرقوها ، وأفسدوا الحقول المحيطة بها ، وحاصروا مدينة القيروان حاضرة الثقافة وكعبة الحضارة فدخلوها عنوة وأعملوا فيها الدمار والحزاب ، ثم أخذوا يزحفون غربا يهددون مدن البلاد كما هددوا مدن إفريقية (١) .

وبعض الباحثين يشبه هذه الغارة الهلالية بغارات الجرمان على الدولة الرومانية في القرن الخامس والسادس . وهذا التشابه في النتائج التي ترتبت على كلا الغارتين ، قوض الهلاليون صرح الإمارة التونسية وأنشأوا إمارات عربية صغرى يقاتل بعضها بعضاً ، ونحبل البلاد إلى أتون ملتهب من الاضطرابات والموضى ، ومن حيث أثر هؤلاء الأعراب الماتحين في حضارة البلاد .

وقد رأينا كيف أن ازدهار الثقافة العربية في البلاد كان يستمد وجوده من عنصرين هامين . من الاستقرار والطمأنينة السياسية والاقتصادية ثم من الرخاء والترف وثرء الأمراء وإعدادهم على أهل العلم والأدب ، وتشجيعهم على المضي في طريقهم المرسوم : وقد انهار العنصران ، عدم الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي وتفرق شمل البلاد ، ونكست إفريقية نكبة اقتصادية كانت بعيدة الأثر في تاريخها كله .

وقراءة مصدر شبه معاصر لهذه الأحداث المفجعة مثل الدباغ (٢) صاحب كتاب معالم الإيمان يعطينا صورة صادقة لما تركته هذه الأحداث في تاريخ الثقافة العربية في البلاد .

فقد أصبحت القيروان ومدن إفريقية خراباً تلثمها النيران ونحصد أهلها سيوف السفاحين من الغزاة ، وفجع العلماء في أمنهم واستقرارهم ، فخرجوا يبحثون عن ملاذ لهم من هذه الفتنة (٣) .

ولم يكن أمامهم إلا المغرب الأقصى في ذلك الوقت ، فقد استقرت أموره السياسية ، وبدأت طلائع الموابطين في صحراء المغرب تنأب للوثبة الإصلاحية الكبرى . بل إن بعض أهل إفريقية من المشتغلين بالعلم لجأوا إلى صقلية مثل أبي الحسن علي ابن رشيق القيرواني صاحب كتاب زهر الأداب .

Marcais : Les Arades p. 115.

(١)

(٢) ابن خلدون - ص ١٥٩

(٣) معالم الإيمان - ص ٢٥٢

كانت لهذه الأحداث نتيجة واضحة كل الوضوح هي اضطلال إفريقيا (تونس) ثقافيا ورجحان كفة المغرب الأقصى ، فقد أصبح الملاذ الأخير للحركة العلمية في شمال إفريقيا ، ومن الغريب أن إفريقيا لم تفق من هذه الصدمة التي طمت آثارها ماثلة في البلاد طيلة العصور الوسطى وفي مطالع العصر الحديث ، وكان الأحداث قد اصطلحت على أن تنال من إفريقيا ومن ثقافتها العربية إلى أبعد حد .

ففي نفس الوقت تقريبا الذي كانت فيه حمرع الهلاليين تغطى البلاد على الصورة التي عرضنا له ، كان حوض البحر الأبيض المتوسط يشهد تطورا خطيرا سيكون له شأن عظيم في تاريخ الحياة الإسلامية ، ذلك أن السيادة البحرية التي أحرزتها الأساطيل الإسلامية ، في القرن الثالث والرابع الهجري بدأت تنهار .

كان المسلمون قد وضعوا أيديهم على سلسلة من المواقع والجزائر التي لا بد منها لتتم لهم السيادة ، كانت لهم قبرص وكريت وصقلية ، وحزر البليار وسردانية ، وكانت ثغور المغرب والأندلس ، حافلة بالأساطيل المتحفزة للغزو ، واستطاع المسلمون دخول جنوة في سنتي ٩٣٥ و ١٠٠٤ م وأصبحت الأساطيل الإسلامية موضع رعب وفرع في كل مكان (١) .

غير أن سقوط الخلافة الأموية ، وتفرق أمراء الأندلس من ناحية ، ورجل الأسطول الفاطمي إلى مصر ، من ناحية أخرى ، قد أضعف من قوة البحرية الإسلامية ، في الوقت الذي بدأت فيه معالم النهضة واتحاد الكلمة قلوب في سماء أوروبا ، وبدأت جمهوريات إيطاليا مثل البندقية وجنوة وبيزة تظهر البحر من القراصنة المسلمين . وانتزعوا جزر البليار وسردانية من المسلمين ، بل طهر النورمانديون في جنوب إيطاليا . وتطلعوا إلى صقلية ثم وثبوا عليها وانتزعوها من المسلمين نهائيا (٢) .

وقد المسامون بفقداء معقلا من أمتع معاقلم في البحر الأبيض .

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ٤٠

(٢) Du Mas Latrie - Traité des paix et de Commerce p. 5

١. **ميسورية قاس بالمغرب الأقصى :** ميسورية قاس بالمغرب الأقصى وكانت أوضاع المغرب تهيئه في هذا الوقت بالذات للزعامة الساسية والزعامة الثقافية ، ففي هذه البقعة من إفريقية تلتقي مؤثرات البحر الأبيض المتوسط القادمة من تونس والجزائر والأندلس بالمؤثرات الإفريقية الخالصة القادمة عن طريق ساحل المحيط الأطلسي . في المنطقة الساحلية تسود المؤثرات الأوروبية وتنتشر المؤثرات الإفريقية في الجنوب (١)

وفي الوقت الذي استمرت فيه الأحداث موارد إفريقية وطاقها البشرية والحضارية ادخرت ثروات المغرب الأقصى وشعبه وطاقاته لبغلب على لأحداث منذ القرن الخامس الهجري فصاعدا

ومصادق ذلك أن القرن الخامس الهجري الذي شهد مظاهر العنف التي خيمت على إفريقية شهد قبائل صحراوية كانت تنزل في المناطق الجنوبية من المغرب الأقصى ، كانت قد أسلمت حديثا وأثبتت من صفوفها حركة سلفية إصلاحية وحدثت هذه القبائل ثم دفعتها نحو المغرب الأقصى تريد الإصلاح

بل اندفعت في تيار الجهاد وعبرت البحر إلى الأندلس ، وشاركت في حروب الاسترداد ، وأوقفت عدوان المرنة ، وجمعت بين المغرب والأندلس في دولة واحدة بزعامة مراکش

وترغم المغرب الأقصى الحياة السياسية في بلاد المغرب كلها ، وكان لهذه الأحداث كلها أثرها الواضح في تأكيد الزعامة الثقافية التي وضحت منذ اضمحلال مدارس إفريقية .

واستردت مدارس المغرب الأقصى مثل قاس وأغمات وسجلماسة (٢) قوتها ، بل إزدادت قوة عن ذي قبل .

ساعد على ذلك التوحيد بين المغرب والأندلس فتدفقت ثقافة الأندلس إلى المغرب طائفة من كل قيد ، بل تحطت هذه المؤثرات حدود المغرب إلى السودان الغربي ،

(١) Julien : Hist. de l'Afrique p. ١7.

(٢) عبد الرحمن بن زيدان : الانحاف - ٢ ص ٢٦ .

واستقدم المرابطون العلماء والفنانين والفقهاء لحضور مجالسهم أو لتشييد عمائرهم أو لتأديب بنينهم

وكتب الصبغات تصور (١) هذه العلاقات الوثيقة التي ربطت بين المغرب والأندلس في عهد المرابطين ، فتحدث عن أهل المغرب الذين وفدوا على الأندلس وألوا مدارسهم ، وجلسوا إلى فقهاء وعلمائه وأعلام أهل الفكر الأندلسيين الذين رحلوا إلى المغرب ، طافوا به ، أو أقاموا فيه يعلمون ويفقهون

وقد أطلت بلاد المغرب والأندلس في ذلك العصر نهضة علمية شاملة في سماء الأدب ، صهر ابن قزوين والأعشى التطيلي وابن زهر (٢) .

والأسد جوريح ماسية يعلق على هذه الوحدة التي تمت بين المغرب والأندلس بقوله « إن المغرب يخدم المقاتلة والأندلس يقدم العلم والفن الرفيع المغرب أنحصم لأندلس سياسيا لكن الأندلس أنحصم المغرب ثقافيا (٣) »

بدن اجتمعت في بلاد المغرب الأقصى مؤثرات إفريقية التي هزت من غارات بني هلال ، ومؤثرات الأندلس التي وجدت في ظل المرابطين على نطاق واسع .

ومما يدل على أن تنمو في المغرب الأقصى لم يكن وأهمي الدعائم أنه لم يته مانهاء المرابطين بتمازج وصورها في عهد الموحيدين

والموحيدين لم يكونوا أكثر من المرابطين حماسا ولا أكثر علطة وبداعة ، لكنهم مصورا في هذه النهضة الثقافية إلى غايتها .

فكادوا يخلصون من حماسة ابن تومرت وعبد المؤمن حتى عملوا على تشجيع النهضة العلمية ووصل هذا التشجيع إلى الذروة في عهد أبي يعقوب يوسف الذي نشأ في عاصمة الأمويين وتأثر بما شاع فيها من نهضة ، وحينما عاد إلى مراکش اقتنى مكتبته لا تقل عن مكتبة الحكم المستنصر الأموي ، وقد أحاط نفسه بأبن الطغيلة وابن زهر وابن رشد ، وأعاد أيجاد الخلافة الأموية (٤) .

(١) انظر مثلا ابن الأثير «تكملة» - ص ٥١ ، ٧٣ ، ٧٨ ، ١١٦ ، ٢٥٠ ، ٢٩٠

(٢) المراكشي ص ١٥١ و ١٧٠ - ١٧١

(٣) Marcais : op cit p 189.

(٤)

(٤) المراكشي ص ١١٥

وإذا بزعامة المغرب الأقصى تبلغ الذروة، فقد امتد نفوذ الموحدين إلى المغرب الأوسط، وفتحوا إفريقية وطرّدوا الألمان من المهدية، ووصل نفوذهم إلى طرابلس، ولم يتخلّفوا عن معركة الجهاد في الأندلس، وأصبحت مراكش عاصمة لامبراطورية شاسعة تضم الأندلس والمغرب الأقصى والأوسط وإفريقية (١). وقد زادت هذه الانتصارات السياسية من نهضة المغرب الثقافية فقد أصبح قلب الحياة الإسلامية المغربية الخافق.

ولم يفتقد تمرق دولة الموحدين وانقسامها عام ١٢١٣ م من هذه الحقائق (٢). إفريقية التي انفصلت عن دولة الموحدين واستقلت في ظل بني حفص لم تستطع أن تسرد مكانها القديمة إطلاقاً، بل طلت تبعيتها الثقافية للمغرب الأقصى واضحة طوال ذلك العصر.

والسبب في ذلك أن حروب البلاد من الهلالية كانت لا تزال دامية. وكانت موجات عظيمة من هؤلاء البدو تندفق على البلاد باستمرار.

وأصبح هؤلاء الأعراب في البلاد قوة لا يمكن التغلب عليها، والدمار الذي حلّموه في الحياة الإقتصادية لم يمكن إصلاحه. يشهد بذلك الرحالة والجغرافيون الذين زاروا البلاد في ذلك العصر مثل العبدري والدمشقي الذي يذكر أنه لم يبق من مدن إفريقية المأهولة إلا الدمار والحراب.

في الوقت الذي كانت فيه المدن الساحلية لا تزال تهددها الأساطيل المسيحية، بل تعرضت البلاد لحملة صليبية يقودها القديس لويس، ولولا وفاته لخضعت البلاد للنموذ الصليبي (٣).

يدل على مبلغ اضطراب الحياة في البلاد أن ابن خلدون فيلسوف الإسلام رآها في القرن الرابع عشر. وهاله ما رآه من خراب ودمار فأوى إلى قلعة يفكر في

(١) دوسالفرطاس ص ١٤٣

G. Marcais : op. cit, p. 269.

(٢)

Marcais : op. cit. p. 263.

(٣)

ماهى الإسلام وحاضره ، وأنتج هذا التفكير مقدمته المشهورة . وهو لم يستطع الإقامة في قطر هذا حاله ، فرحل إلى مصر فعاش فيها ودفن بها .

حتى في ظل هذا الاستقلال الذى نعمت به إفريقيا في عهد الحفصيين ظلت تستلهم الوحي من المغرب الأقصى ، كان عمال بني حفص من المغرب الأقصى ، وأساليبهم في الحياة والحكم متأثرة بالتقاليد المغربية أو الأندلسية .

على حين ظلت الدول التي خلمت الموحدون في حكم المغرب الأقصى أكثر إحساساً بهذا التفوق ، وأكثر حرصاً على هذه الرعامة . فنو مرين مثلاً ماكادوا يخرجون من صحرائهم ويتم لهم الاستيلاء على البلاد . حتى خاضوا معركة الجهاد لنجدة ملوك غرناطة ، وأخذوا يعملون بدورهم على سيطرتهم على المغرب الأوسط أحياناً وعلى إفريقيا أحياناً أخرى (١) .

كما دافع الأشراف السعديون عن هذا التراث الإسلامى الذى أصبح يتركز في قاصية المغرب بعد سقوط غرناطة واستطاعوا بعد جهود متلاحقة أن ينظموا المقاومة الإسلامية ، وأن يطردوا البرتغاليين من المدن الساحلية التي استولوا عليها (٢) ، وأن يؤدوا نفس الدور الذى أداه الماليك في مصر حينما صانوا تراثها الإسلامى من عدوان الصليبيين والمغول .

وكما حقق الماليك بهذا الدفاع اعجيد رعاة مصر للعالم الإسلامى في الجناح الشرقى حافظ الأشراف السعديون على هذه الرعاة الثقافية التي توارثها دول المغرب الأقصى منذ أيام المرابطين .

كما استطاع خلفاؤهم الأشراف العلويون أن يجنوا بلادهم الخطر الذى أصاب إفريقيا في القرن السادس عشر حطر النفوذ التركى الذى تسرب إلى الجزائر ثم إلى تونس .

ذلك أن الساحل الإفريقى كله تعرض لعدوان الأسباب الذين أطمعهم انتصارهم على المسلمين في الأندلس ، فأرادوا أن يتبعوا هذا النصر بالإغارة على مراكز المقاومة الإسلامية نفسها ، فاستولوا على معظم ثغور طرابلس وتونس والجزائر .

(١) دوض القرطاس ص ١٧٨

Terrasse : Histoire du Maroc , vol. II, p. 158.

(٢)

واستولى البرتغاليون على بعض ثغور المغرب الأقصى ، وتعرض أهل الجزائر على الخصوص فوق هذا العدوان لغارات القراصنة الأوربيين ورأوا أنه لا معصم لهم من هذا العدوان إلا إذا استنجدوا بالقرطانيين عروج ، وأخيه خير الدين بربروسة ، اللذين ذاع صيتهما وعلت منزلتهما بين أهل المغرب لما أظهرهما من تفوق في مقاومة القراصنة الأوربيين . فدعوا الآخرين إلى إنقاذهم وتحرير بلادهم ، فانتقلوا من القرصنة إلى الاستقرار والتملك معتمدين على القوة البحرية ورضاء أهل الجزائر .

ولامات عروج انفرد بالبطولة خير الدين فقام بمهاجمة فلول الأسبان التي تحصنت ببعض القلاع في الجزائر واستولى عليها . وأخذ يمد ملكه شرقاً وغرباً .

ولكنه رأى تثبيتاً لسلطانه وإكسابه الصبغة الشرعية عرص هذا الملك على السلطان العثماني ، فقبل أن نوصع الجزائر تحت سيادته ، كما عرص عليه الاستيلاء على تونس منهزماً ورصة قيام فتن أهلية وحروب داخلية بين آخر أمراء بني حفص .

وقد لبى السلطان رعة خير الدين ، وأمده بعض السفن الحربية . ونم فتنح تونس سنة ١٥٣٤ ، وعاود الأسبان عدوانهم مرة أخرى ، غير أنهم ردوا على أعقابهم سنة ١٥٧٤ .

واستولى العثمانيون على تونس هائبا ، كما امتد هذا العود إلى برقة وطرالمس ، وأصبح النفوذ العثماني ممتدا من الجزائر غرباً حتى مصر شرقاً .

وقد وفدت إلى موطن الحصار الإسلامية في المغرب المؤثرات التركية ، ورد الانكشارية والجند وظهر الأثر التركي في التنظيمات الإدارية والعسكرية وأصبحت التركية لغة الدواوين ولغة الحكومة (١) .

وأظل المغرب القرن التاسع عشر وقد تركزت ثقافة الإسلام وترثته في بلاد المغرب الأقصى : ثقافة الأندلس التي طردت من أسبانيا ، وثقافته إفريقيا التي أخذت تتجه غرباً منذ غارات بني هلال .

(١) صلاح المقاد : المغرب العربي ج ١ ص ٧ وما بعدها .

الثقافة العربية في المغرب في القرن التاسع عشر

(دور الإصلاح)

وقد انفلتت بلاد المغرب مع أحداث العالم الإسلامي عامة والعالم العربي خاصة التي وضحت في القرن التاسع عشر .

ولم يكن غريباً أن تعجوب هذه البلاد مع هذه الأحداث وهي جزء من الوطن العربي الكبير .

تعرض لمغرب لنفس الظروف وقاسى من نفس العلل واستجاب لنفس التطورات وكما أحس المشاركة بما أصابهم في ظل الخلافة العثمانية . كان المغاربة أكثر إحساساً ، فقد عانت تونس والجزائر من النفوذ التركي ، وساءت ثقافتها الإسلامية كما عانت مصر .

فقد كانت تونس في دائرة النفوذ التركي منذ أن فتحها خير الدين ، وعند ما ضعفت الدولة العثمانية ازدادت سلطة الحماية الإنكشارية فانقضت السلطة العليا إلى الداي لذي كان ينتخب من بينهم .

وفي النصف الأول من القرن الثامن عشر انتحب العسكريون من بينهم حسن بن علي الذي اتخذ لنفسه لقب باي .

ولم تكن حال الجزائر أحسن من حال تونس . وتعرض المجتمع العربي للعدوان الاستعماري ، تعرض لعدوان البرتغاليين والأسبان ثم تعرض لعدوان الفرنسيين .

كانت أول محاولة لفرنسا عام ١٥٤٠ حين قام الإمبراطور شارل الخامس بحملة مكونة من أسطول كبير لا يقل عدده عن خمسمائة سفينة حربية وأربعة آلاف مقاتل .

ونجذدت أطماع فرنسا في الجزائر في أوائل القرن التاسع عشر إلى أن حدث النزاع المشهور بين الداي وبين قنصل فرنسا في ٢٩ إبريل سنة ١٨٢٧ .

وأرسلت الحكومة الفرنسية أسطولاً حاصر ميناء الجزائر وأنزلت قوات فرنسا

عام ١٨٣٠ ، وثبتت فرنشا أقدامها في البلاد بعد القضاء على ثورة عبد القادر سنة ١٨٤٧ ، ثم زحف النفوذ الفرنسي نحو الجنوب متغصلاً بالنفوذ الفرنسي في غرب إفريقيا .

ورأى المغاربة كما رأى المشاركة من قبلهم نفوذاً عثمانياً متداعياً لا يمكن أن يقبهم هذا الشر المستطير ، وفساداً عثمانياً يتطرق إلى صميم حياتهم ثم ثقافة غربية وافدة في ركاب الاستعمار تختلف عن ثقافتهم الإسلامية .

نشأت حركات للإصلاح تصب في نفس المحرى الذي صت فيه حركات الشرق بل تكاد أن تتفق معها في وسائلها وأهدافها . فظهرت مدارس تختلف في مسيحها من حيث نهوض بالدين الإسلامي ، مدرسة تريد أن تحيي القديم وأن تعيد إلى الإسلام قوته الأولى وأمجاده الأولى . وتقف من الغرب موقف العداء ، ومدرسة أخرى تريد أن تحدد في الحياة الإسلامية وأن تلائم بين تقاليد الإسلام وبين حضارة الغرب وتقاليده .

المدرسة الأولى تمثلت في السنوسية التي أسسها السيد محمد بن علي السنوسي في بنغازي (١) عام ١٨٥١

وقد استلهم - كما قلنا - أفكاره من الوهابيين فدعا إلى بحث العقيدة الإسلامية وتجديدها بالعودة إلى إيمان أصيل في بساطته ونقاته وقوته .
فقد السنوسيون الرهابية في عملهم على توطيئ البدو وتحويلهم إلى رراع مستقرين .

كانت الراوية نواة هذا الاستقرار ، كل راوية تمثل وحدة اقتصادية مكتفية بذاتها حيث يفلح أعضاء الطريقة الأرض ويعيشون على ما تنغله . ثم هي مركز للتعليم والدعوة يخرج منها الدعاة إلى مختلف الجهات لنشر الطريقة وإذاعتها بين الناس .

(١) ولد أبوه سنة أربع أو خمس بعد المائتين والألف بصعراء مستعامة من أعمال الخزانة وشأ فيها وطلب العلم بمدينة فاس واشتغل بالطريقة الدرقاوية ثم رحل إلى مكة فلقى بها الأستاذ أحمد بن أدريس الشريف الفاسي المشهور وأخذ عنه الطريقة الصوفية من فرع الشاذلية تبرع بها فأجبه أستاذه المذكور واستخلفه وأذن له في إعطاء المهود فبنى راوية بجبل أي قيس بمكة ، ثم رحل إلى الجبل الأخضر من طرابلس سنة ١٢٥٠ هـ .

وكانت محاولة للقضاء على بدع العصر بالدراسة العميقة للأصول ، والعودة إلى الإسلام الأول ، ثم مجاربة التجاذل واليأس الذي ران على قلوب المعاصرين بالدعوة إلى العمل الجاد المخلص ، ثم هي رفع لمستوى المعرفة الدينية بالتعليم الديني الصحيح ، ثم هي دعوة إلى الإسلام وإذكاء الرغبة في الجهاد .

وقد كان لهذه الدعوة صدى عميق في الأوطان التي تسربت إليها ، فأغلب هذه الزوايا كانت تقع على طرق القوافل فكانت تقوِّم بواجب الضيافة بلا مقابل لمدة ثلاثة أيام . فأصبحت ملتقى التجار والمسافرين من أنحاء بعيدة في إفريقية .

وكان الطلاب يمدون إلى مدارس الزوايا لتلقى العلوم الدينية ، ثم يعودون من حيث أتوا لنشر المبادئ التي تعلموها ، فهي أشبه بحركات المرافطة التي شهدتها تاريخ المغرب في القرن الخامس الهجري .

ولما مات السيد محمد السنوسي خلفه ابنه السيد المهدي سنة ١٨٥٩ . وانتشرت الدعوة في عهده في برقة وطرابلس ، وامتدت نحو الصحراء الغربية ، وأصبح لها أتباع ومريدون في مصر وتركيا والهند .

ولم ترض تركيا عن حركة مغلصة تهدف إلى الإصلاح . وبدأت تحاربها وتعمل على إخمادها ولما شعر المهدي السنوسي بذلك انتقل إلى واحة حغبوب ثم غادرها سنة ١٨٩٤ إلى الكفرة وزادت الحركة السنوسية انتشاراً . واصدمت بالاستعمار الفرنسي سنة ١٩٠٠ .

أما المدرسة الأخرى فقد ظهرت في تونس : فكان صاحبها الوزير الشهير خير الدين باشا ، الذي ظهر في تونس في النصف الأخير من القرن التاسع عشر في عهد الباي أحمد ؛ والذي عرف فيه إخلاصه وصدق بصيرته ، فأوفده إلى أوربا للدفاع عن مصالح بلاده ، ولما عاد عينه وزيراً للحربية . فبدأ يطبق مبادئه في الإصلاح

وكان أشد تأثيراً بمبادئ مدحت باشا ومدرسته ، التي ترى أن الخطوة الأولى في أي إصلاح هي وضع دستور ، أساسه الشورى في الحكم . ليتمكن الدولة من أن تبنى قواعدها السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والعسكرية على أسس طيبة تحفظ كيان الدولة وتجعلها تقف على المستوى الذي تقف عليه الأمم الأخرى .

« كان منهج خير الدين في الإصلاح يقوم على الأسس الآتية : العدالة ، والحرية ، والمساواة ، والعلم .

عمل على تحقيق الأساس الأول بمحاولة النظر شتخصيا في شكايات الناس ، وروى أنه أقام صندوقا في الساحة العامة في تونس ليضع فيه كل مظلوم شكواه . كما نجح في معالجة الإتيار الاقتصادي الذي كانت تعانيه البلاد ، وعالج مشاكل الفلاحين الذين يفرون من مزارعهم فرعا من جياة الضرائب .

أما الحرية فقد عمل على تحقيقها بإدخال نظام الشورى ووضع دستور مجلس الدولة التونسي ، هذا الدستور الذي علق عليه نابليون الثالث بقوله : إذا تعود العرب على الحرية والعدالة ، فلن يكون بيننا وبينهم سلام في الجزائر .

أما العلم فكان به مجددا إلى أبعد مما ذهب إليه المجددون في مصر ، كان يريد أن يجمع العلوم الإسلامية والحديثة في صعيد واحد ، فأنشأ مدرسة تدرس فيها العلوم الإسلامية إلى جانب العلوم الحديثة واللغات الأوربية ، وأصلح جامع الزيتونة وجمع له مكتبة عظيمة من مختلف مساجد البلاد كما أهدها مكتبته الخاصة .

وكان لا يؤمن بالطفرة أو الانتقال المفاجيء ، إنما يؤمن بأنه من الممكن أن نخطو تونس في طريق الإصلاح جامعة بين ثقافتها وعروبيتها وبين موارد العلم الحديث . ولكن هذه المحاولة المخلصة في الإصلاح لم يقدر لها أن تستمر ، فقد عزل خير الدين باشا ، وترك تونس ، لكنه ترك مهجا في الإصلاح والنهوض بالمجتمع الإسلامي لا يزال يلهم الوطنيين من أهل البلاد .

هذه المبادئ ضمنها كتابه المشهور « أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك » بحث في مقدمته حال البلاد الإسلامية ، وأسباب انحطاطها ، وكيفية إصلاحها .

وهو يقول : « بأن المعرفة هي أساس التقدم ، وأن العلم والمعرفة لا يمكن تحقيقهما إلا في مجتمع تسوده الحرية والعدالة ، وليس هناك ضمان لبقاء حكم العدالة والحرية إلا بواسطة المؤسسات التمثيلية ، وألح على إدخال النظم النيابية ، واعتبر ذلك حجر الزاوية في إصلاح البلاد الإسلامية . وكان من الممكن أن تبقى مبادئه

بعد رحيله ، وأن ينفذها غيره ، لولا الإجتلال الذي دهم تونس ففضي على هذه المحاولة المحلصة في الإصلاح .

والمغرب الأقصى ، رغم العزلة التي ضربت نطاقها حوله منذ القرن السادس عشر الميلادي ، امتد إليه بصيص من هذه التيارات التي كانت تبتلع العالم الإسلامي المعاصر ، فقد بذل سلاطين مراكش محاولات للانتفاع بنظم الغرب العسكرية على الأقل ، فاستعانوا بالبعثات الفرنسية لإصلاح أحوال البلاد ، وتدريب جيشها ، خصوصاً في عهد السلطان مولاي الحسن (١٨٧٣ - ١٨٩٤) الذي عين عدداً من الضباط الفرنسيين لتدريب الجيش على النظم الحربية الحديثة .



٤ - دور مصر وبلاد المغرب في انتشار الإسلام في إفريقيا

عرضنا لانتشار الإسلام وتفوق الثقافة العربية في مصر وبلاد المغرب في الفترة التي حددناها في الباب الأول من الكتاب ، وهي الفترة الممتدة من تمام الفتح حتى نهاية القرن التاسع عشر .

ونحن لا ننكر أن بلاد شمال إفريقية كانت ولا تزال تتفاعل مع دنيا البحر الأبيض المتوسط ، وتتأثر بما يشيع فيه من حضارات ، وأن تاريخ مصر والمغرب يعتبر من هذه الوجهة جزء من تاريخ حوض البحر الأبيض .

ولا ننكر أن الصحراء الكبرى تضرب حول هذا الإقليم نطاقاً وتكاد تجعله دنيا منفصلة .

غير أن مصر وبلاد المغرب لم تكن أبداً في عزلة عن بقية القارة ، إنما كانت تتأثر بها وتؤثر فيها وهذا الأثر المتبادل واضح في العصور الوسطى والحديثة ، وهو أشد وضوحاً بين الجماعات الإسلامية التي تعيش فيها .

فصر مثلاً تتصل بوادي النيل الواقع جنوباً منذ القدم ، عبر الطريق الذي يتجه جنوباً بشرق من أسوان وكورسكو عبر أوطان البجة الموازية للبحر الأحمر ، غير أن أهمية هذا الطريق محدودة بالقياس إلى الطرق الأخرى .

إنما أكثر هذا الاتصال كان عبر الطريق الذي يتبع مجرى النهر إلى منطقة دنقلة ثم يتشعب غرباً من كورني على طول وادي مقدم وعبر الدبة على طول وادي الملك إلى كردفان ، ثم يمضي إلى دارفور وما يليها غرباً وجنوباً ، أو يسير جنوباً مشاطئاً للنيل حتى الأتبرة والنيل الأزرق .

كما تتصل مصر ببلاد السودان عن طريق درب الأربعين ، بل اتصالها يحاوي السودان غرباً إلى منطقة بحيرة شاد وشمال نيجيريا (١) .

وبلاد المغرب تتصل اتصالاً مماثلاً ووثيقاً بغرب إفريقيا - كما أشرنا - عن ثلاثة طرق : طريقان في الغرب ووحيد في الشرق .
الطريقان الأولان يخترقان المنطقة الواقعة إلى الغرب من النيجر ، وهما يبدأان من مافلت جنوب مراكش ثم يفترقان عند الحريب ، فيمضي الطريق الأول إلى مناجم الملح في عزرة ، ومنها إلى غانة مساحلاً للمحيط ، ويمضي الآخر إلى أودغست ومنها إلى تنسكت

أما الطريق الشرقي فبدأ من أوجلة بطرابلس ماراً بمنطقة التبو . وينشعب شعبتين واحدة تمضي إلى بحيرة شاد ، والاخرى إلى منطقة السيجر (١) .
إذن فقد كان اتصال كل من مصر وبلاد المغرب بما وراءها من البلاد حقيقياً وواضحاً

ومن بريد هنا أن بين في إنجاز الدور الذي قامت به مصر والمغرب في انتشار الثقافة الإسلامية إلى ما وراء حدودهما .
وإن كان هذا الدور سيتضح بصورة أوفى ويزيد من التمهيد في الأبواب المقدمة المخصصة لعرب إفريقيا وشرقها ،
وكن مانريد أن نمضي إليه هو أن تثبت أن لوطن الإسلامى كان ولا يزال متصل الخلفات يؤثر بعضه في بعض ويتأثر بعضه ببعض .

علاقة مصر ببلاد النوبة والسودان :

أما مصر فإن أثرها الثقافى في المناطق الواقعة إلى الجنوب منها قديم العهد . قدم قدم الحصار المصرية نفسها .

فقد اتصلت ببلاد النوبة والسودان وشرق إفريقيا ، بل إن الاستاد ميك (٢) يرى أن أثر مصر القرعوية قد جاوز بلاد السودان الشرقى إلى شمال نيجيريا نفسها ،

Hogben : op. cit. p. 25.

(١)

Meek . op. cit. vol, I, pp. 59-60.

(٢)

وأن شعوب هذا الجزء من إفريقية قد تأثرت بالحضارة المصرية القديمة في عادات الدين وبعض العقائد وفي بعض ألوان الفن البناء . . .

بل يرى أن مصر إتصلت بغرب إفريقية عن طريق البحر ، فقد شارك نحاو الفينيقيين في الرحلات البحرية التي قاموا بها في هذا الجزء من العالم ، بل إن بعض التأثيرات الفارسية قد انتقلت من مصر إلى بعض جهات إفريقية (١) .

وعندما انتشرت المسيحية في مصر وتأكد انتشارها دخلت بلاد النوبة وشرق إفريقية ، وقد رأينا كيف أن بصيصاً من هذه التأثيرات المسيحية قد وصل إلى منطقة بحيرة شاد وشمال بيجيريا (٢)

فلم يكن من المعقول أن يقطع الإسلام هذه الصلات القديمة ، بل كان المعقول أن يتسرب الإسلام عبر هذه المسالك التي تربط مصر بإفريقية كما تسربت عبرها الثقافات القديمة .

وقد كان لمصر دور بارز وأثر واضح في انتشار الإسلام في بلاد النوبة والسودان وشرق إفريقية وغربها في الفترة التي حددتها .

وهو دور كانت تختلط فيه العوامل السياسية والاقتصادية والدينية والثقافية . أما عن علاقات مصر ببلاد النوبة والسودان وأثر هذه العلاقات في انتشار الإسلام فإننا في الفترة الممتدة من القرن السابع إلى آخر التاسع عشر نستطيع أن نميز في هذه العلاقة بين عهدين لكل منهما طابعه ونتائجه في انتشار الإسلام والثقافة العربية .

العهد الأول يمتد من الفتح العربي لمصر حتى الفتح المصري للسودان . والعهد الثاني يمتد من الفتح المصري للسودان حتى اتفاقية الحكم الثنائي بين مصر وبريطانيا .

في العهد الأول كانت علاقة مصر الرسمية لاتعدى حدود النوبة جنوباً على طول وادي النيل ، أو نشر نفوذ مصر في الصحراء الشرقية حتى منطقة سواكن .

Meek : vol. I, pp. 39-60.

(١)

Palmer : pp. 4, 110, 131, 148, 170, 176, etc

(٢)

والدول التي تعاقبت على حكم مصر لم تتخذ سياسة مرسومة للتوسع صوب الجنوب ، أو شر الإسلام في ربوع النوبة أو مجاوزة هذا النطاق إلى الجنوب .

فبعد الله بن سعد الوالى العربى في مصر في فترة التوسع والاندفاع يعضى نحو الجنوب ، ويتصر على ملك النوبة ولكنه لا يريد أن يتوغل نحو الجنوب إنما يعود من حيث ذهب .

كانت علاقة مصر ببلاد النوبة بعد عبد الله يتحكم فيها عاملان . معاهدة البقط التي عقدها عبد الله بن سعد مع ملك النوبة والتي نظمت العلاقات السلمية والتبادل التجارى بين البلدين وضمت لمصر موردا منتظما من الرقيق والتي صممت لأهل النوبة سوقا لتجارهم وموردا منتظما من القمح وبلغ مصر الأخرى . وأصبحت بلاد النوبة من وجهة نظر الدول الإسلامية في مصر سوقا كبيرا أو منطقة نفوذ إسلامية .

كانت العلاقات تنجح إلى الهدوء والمسالمة كلما عملت بمالك النوبة على تنفيذ هذه الاتفاقية .

ويمكننا أن نعزو ما نقلته المراجع من سوء للعلاقات بين الطرفين إلى نقض اتفاقية البقط هذه من أى الطرفين .

وكان نقضها في الغالب يحىء من ناحية ملوك النوبة ، فبعضهم لم يرض عن هذه المعاهدة ، وإن رضوا بها فقد رضوا كرها أو خوفاً . كما وجد بعضهم في ما تشترطه المعاهدة من توريد الرقيق نوعاً من المهانة ، فكانوا يمتنعون عن الوفاء بهذا الشرط .

وكانت الدول الإسلامية في مصر لا تتردد في إرسال الحملات التأديبية المتعاقبة . ويمكننا أن نسرّد أغلب الحملات التي أرسلتها مصر منذ الفتح حتى العصر المملوكى لهذا السبب ، حملات الأخشيديين والفاطمين ثم حملة صلاح الدين المشهورة حينما أرسل أخاه توران شاه سنة ٥٦٨ هـ على رأس جيش توغل حتى بلدة إريم (١) . وكان ملوك النوبة يردون على هذه الحملات كلما واتهم الفرصة .

(١) القلشنقى ج ٥ ص ٢٧٦ .

والعامل الثاى الذى كان يتحكم فى هذه العلاقات ويوجهها الصلات الدينية بين بلاد النوبة ومصر . . .

فقد كان مسيحيو النوبة على المذهب يعقوى ، فكانوا يتبعون السكينة المرقسية فى الإسكندرية ، وكان بطريرك مصر يشمل تلك البلاد برعايته الدينية ، ويرسل الأساقفة أو يتوسط لإعادة الطمأنينة والمحبة بين ممالك النوبة .

وكانت كنيسة مصر خاضعة للتفود الإسلامى طوال هذا العهد ، فكانت علاقة الدولة بالكنيسة تتأثر إلى حد كبير بعلاقة مصر بالدول المسيحية فى بلاد النوبة فكلما ساءت العلاقات رد الولاة هذا السوء إلى البطريرك وحملوه المسئولية وطلبوا إليه إصلاح ذات البس (١) .

ويبدو أن الكنيسة القبطية فى مصر كلما تعرضت لحملة من الاضطهادات أو المضايقة استجبت بمحاوكة الحشنة أحياناً أو ملوك النوبة أحياناً أخرى .

وكانت اضطهادات الأحباش للمسلمين أو غارات ملوك النوبة هى من قبيل التأثير لما توهموه من اضطهاد الأقباط فى مصر .

لكن علاقات مصر ببلاد نوبة فى العصر المملوكى جدت عليها عوامل أخرى بالإضافة إلى العوامل السابقة جعلت الحملات العدوانية بين الطرفين تتخذ طابعاً عنيفاً مما سيكون له أثر واضح فى تاريخ انتشار الإسلام فى بلاد النوبة والسودان .

يديد أن ملوك النوبة أرادوا أن يحاربوا مصر فى العصر المملوكى حرباً اقتصادية عن طريق انتعاض للتجارة المملوكية التى تسلك الصحراء الشرقية عن طريق عيذاب ، هذه التجارة التى ازدهرت فى العصر المملوكى .

وكان هذا التحدى بالنسبة للمالكة بالغ الخطورة إذا عرفنا ما أصبح للتحارة من مكانة فى الحياة الاقتصادية لمصر فى العصر المملوكى .

كما أن العلاقات بين مصر وبلاد النوبة قد اتخذت طابعاً صليبياً أو كانت جزءاً من حملة الصليبية العامة التى تساهم المالكة بعد الأيوبيين .

وتلوح من المراجع اتجاهات تلك النوبة إلى التعاون مع القوى الصليبية في الشام فقد انتهز ملك النوبة فرصة انشغال الظاهر بيبرس بحروبه في مملكة أرمينية الصغرى سنة ١٣٧٢ (١) وهاجم أسوان وعيذاب وأحدث من الأفعال المتكررة ما يدل على الرغبة في التشنى من المسلمين ، الأمر الذى يخرج بهذه الحملات عن طابعها القديم .

وقد أدرك الممالك هذا الخطر الصليبي الكامن في الجنوب وأدركوا احتمال طمس التوحيب للمصريين من الخلف وهم منصرفين إلى ذلك ما تبقى من فلاح الصليبيين بالشام . ومن هنا ازداد الاهتمام المملوكى بالنوبة كمظهر لسياسة الدفاع عن حدود مصر وحماية ظهرها . وبدأت الحملات المملوكية تتخذ الطابع العسكرى العنيف .

وسمى للممالك في نفس الوقت إلى بسط نفوذهم على قبائل البجة الضاربة في منطقة الصحراء الشرقية الممتدة من القصير إلى سواكن .

وكان اهتمامهم بهذه تجاريا ، فإن هذه البجة فضلا عن غناها بالمناجم إلا أنها كانت معبرا من معابر التجارة بين مصر والحبيشة .

نقل المتاجر بالبحر حتى عيذاب ، ثم تحمل منها إلى قوص ، فأصبحت هذه المنطقة من أهم المناطق في طريق تجارة التوابل .

وكان ملوك النوبة كثيرا ما يحرصون ملوك البجة ويدفعونهم إلى مصابغة الحكومة القائمة بمصر عن طريق التعرض للقوافل المارة ببلادهم .

وهذا هو الذى اضطر بيبرس إلى بسط سلطانه الفعلى على هذه البلاد ، حين أرسل الحملة المشهورة إلى عيذاب وسواكن .

كما أرسل للممالك حملات أخرى سنة ٧١٥ و٧١٦ هـ ، وخضع صاحب سواكن وأصبح نائبا عن السلطان المملوكى ، ويقال إن الحملات المملوكية وصلت إلى وادى أتبرة .

هذه الحملات كلها تمخضت عن نتائج خطيرة في تاريخ الإسلام في النوبة والسودان ، عن إضعاف مملكة دنقلة المسيحية ، وفي القضاء عليها وما أعقب ذلك من تدفق العرب صوب الجنوب ،

بل شهد العصر المملوكي الأخير تطوراً آخر ، ففي سنة ١٥٤٤م سقطت مملكة علوة نهائياً بسبب التحالف الذي تم بين القواسمة وهم من رفاة مع قبائل الفنج الذين ظهروا من الجنوب فجأة .

على كل حال نستطيع أن نقول إن العهد المملوكي في مصر توجه خاص قد أسهم بطريق غير مباشر في انتشار الإسلام في بلاد النوبة ثم في السودان .

لقد أدت حملاتهم المتعاقبة إلى إضعاف مملكة دنقلة ثم القضاء عليها ، وكان القضاء على دنقلة يفتح الطريق أمام القبائل العربية التي بدأت تطرق باب النوبة منذ العصر الفاطمي لساهم بدورها في القضاء على مابقي من نفوذ بدنقلة ، ثم لتتضي في طريقها نحو الجنوب .

ثم أدت سياستهم إلى اضطهاد القبائل العربية في صعيد مصر ، ثم دفعها إلى بلاد النوبة .

كما أدت السياسة الداخلية والدينية للدول الإسلامية في مصر إلى هجرة كثيرين من الفارين أمام الضغط السياسي أو الديني صوب الجنوب بحثاً عن المرحى وجرياً وراء الرزق ، وانتشرت في سهول السودان ، ومضت جنوباً نحو سنار ، ودخل بعضها كردفان ودارفور (١) .

هذه الهجرات العربية التي تدفقت من مصر استطاعت أن تفتح طريق الاتصال المباشر بين مصر والسودان عبر بلاد النوبة بعد أن سقطت الممالك المسيحية ، في الوقت الذي شهد السودان قيام ممالك إسلامية في سنار ودارفور .

فانفسح المجال أمام الثقافة الإسلامية التي كانت قد بلغت الغاية في مصر في أواخر القرن الخامس عشر لتتسرب إلى السودان طليقة من كل قيد ، فتطلع ملوك الفونج إلى الأزهر وعلمائه ورجاله .

وكان بعض السودانيين يذهبون إلى الأزهر ويعودون بعد تحصيل العلم وكان لهذا كله أثر واضح في انتشار الثقافة العربية في السودان .

وفي طبقات ود ضيف الله تفاصيل كثيرة عن العلماء المصريين الذاهبين إلى السودان أو رجال السودان الراحلين إلى مصر .

(١) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ١٣١ - ١٣٢

وقد أثرت مصر في السودان في ميدان المذاهب والفقه (١) ، فمثلا محمد بن قدم الكيمياتي المصري هو الذي أدخل المذهب الشافعي (٢) . حتى مذهب مالك نفسه رغم أنه دخل السودان من الغرب إلى دارفور ومنها إلى بلاد الهويج ، إلا أن دواية المذهب ظلت مزدهرة بالأزهر إلى جانب المذاهب الأخرى ، وقد انتقلت إلى السودان على أيدي رجال الأزهر .

ويلاحظ أن الأثر المصري تميز بالطابع العلمي لأن الذين تأثروا بالثقافة المصرية في ذلك العهد اتجهوا إلى تعليم الناس الفقه والتوحيد واللغة وغيرها من العلوم .

وكما اتصلت مصر بالفونج اتصلت بدارفور اتصالاً واضحاً في عهد السلطان عبد الرحمن ، وليس بعيداً أن يكون قد رحل بعض علماء مصر إلى هذه البلاد كما رحلوا إلى سار (٣) .

غير أن القرن التاسع عشر شهد تطوراً هاماً في تاريخ العلاقات بين مصر وبلاد السودان وفي أثر ثقافة مصر في وادي النيل كله ، وهذا بدأت حكومة مصر لا تنظر إلى بلاد النوبة فحسب ، إنما تنظر إلى ما هو أبعد من النوبة نظرة غير سلبية كما كانت أيام المماليك إنما نظرة إيجابية .

فقد أخذت جيوش محمد علي تدخل السودان للفتح واتوسع . فتحت بلاد النوبة وقصت على الإمارات والمشايخات التي قامت بالبلاد ، إما مستقلة بشؤونها أو خاضعة لنفوذ الفونج

ثم دخل المصريون بربر ، وبدأوا يغزون الفونج في معاقلهم وأوغل الفتح حتى سنار جنوباً ، وفتحت هذه المدينة في ١٢ يونيو سنة ١٨٢١ .

بل بدأ أن المصريين يريدون مجاوزة سنار في طريقهم إلى الجنوب . فابراهيم بن محمد علي كان بعد نفسه القيام بحملة في بلاد الدنكالا أن مرضه عاقه عن مواصلة الرحل (٤)

(١) عبد العزيز عبد المجيد : التعليم في السودان ج ١ ص ٥٧ - ٥٨ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٦٥ - ٦٦

(٣) يوم صغير : تاريخ السودان ج ٢ ص ١٢٢ - ١٢٣ .

(٤) المرجع السابق ج ٣ ص ١٠ .

وأوغل الفتح المصري في كردفان ، وبدأ يصطدم بسلاطين دارفور . وامتد نفوذ محمد علي صوب الشرق إلى منطقة كسلا وخضع السودان للحكم المصري المباشر منذ تمام الفتح حتى قامت الثورة المهديّة في ١٢ أغسطس عام ١٨٨١ .

وأول ما حققه هذا الفتح أنه قضى على العزلة التي كان السودان يعيش فيها وأعاد صلته بدنيا البحر الأبيض المتوسط وببقية العالم الإسلامي والعالم الأوربي ، وأهم من هذا أن هذا الفتح بقضائه على الإمارات والمشيكات والممالك كتن القوى الإسلامية في البلاد ، وجمع بين التيارات الإسلامية الوافدة من الشرق والغرب في نظام سياسي موحد

وكان الفتح المصري بعثا للقومية السودانية الحديثة حين استطاع أن يجمع بين مناطق مختلفة مناخياً وطبيعياً وشرعياً ، وأدخلها في إطار سياسي موحد ، واستطاعت القبائل العربية أن تنتقل في حرية مطلقة .

فكان الفتح المصري أتاح للنفوذ العربي أن ينتشر على مدى أوسع ، على حين كانت الحواجز السياسية قبل الفتح تحدد من هذا التجوال ، واستطاعت هذه القبائل أن تتعاون وتقترب وتترج ، فساعد الحكم المصري على وحدة الدم العربي في السودان ، بل استطاع بوسائله المتواضعة أن ينشر في البلاد نوعاً من الأمن والطأينة Pax Aegyptiana وأن ييسر بقدر المواصلات بين أرجاء السودان وأن يقضى على المازعات الداخلية بين القبائل وأن يهيء السودان ليظهر كقوة كبرى في تاريخ الإسلام .

وكسب الحكم المصري للإسلام منطقة جديدة لم يكن يتيسر له أن ينفذ إليها ، فقد بدأ النفوذ المصري يتجاوز سنار نحو الجنوب متجهاً إلى أعالي النيل والمناطق الاستوائية ، خصوصاً في عهد الخديوي إسماعيل بمعاونة صمويل بيكر وغردون ، وضمت مصر المديرية الاستوائية وأعالي النيل ، وفتحت هذه المناطق أمام الجهود المنظمة لنشر الإسلام (١) .

ووقوع الفتح المصري في القرن التاسع عشر عصر التجديد والإصلاح كان معناه

إعادة صلة السودان بالمجتمع العالمى الدولى ، وظهر هذا الاهتمام بتدقيق الرحالة
والمكتشفين بعد الفتح المصرى
وحمل الفتح إلى السودان الظاهرة التى شاعت فى العالم الإسلامى فى القرن
التاسع عشر ، ظاهرة الالتقاء بين الثقافة العربية والثقافة الغربية
فقد حمل المصريون إلى السودان تجاربهم فى الإصلاح والإفادة من علوم الغرب .
وأصبحت الصلات الثقافية بين القطرين أشد وثوقاً ، وتدفقت الثقافة الإسلامية
طليقة من كل قيد يتمثل ذلك فى رحيل كثيرين من العلماء المصريين
 وإقامتهم فى السودان ، واشتد رحيل السودانيين عن ديارهم قبل طلباً للعلم فى الأزهر
وأصبحت الأروقة فى هذا العهد تحفل بالقادمين من سنار وبربر ودنقلة ودارفور
وقدمت مصر المنح المالية للطلاب ؛ وأنشأت رواق السنارية وأروقة أخرى للتكرامة
والبرناوية والدناقلة وأهل دارفور (١) .

وأثرت هذه الصلات القوية فى التعميم الدينى ، وأنشئت مدارس للعلم لتدريس
العلوم العربية يغذيها علماء السودان الذين تعلموا فى مصر ، وأصبحت مدينة الخرطوم
مركز الحركة العلمية .

وبدت فى السودان طلائع حركة علمية جديدة بصورها ما حفلت به أخبار ذلك
العهد من مناقشة بين الفقهاء فى أسس كل الاجتماعية المعاصرة .

بل امتد أثر مصر إلى الطرق الصوفية ، ساعدت بعض الفرق على دخول السودان
كما شجعت فرقا أخرى على الانتشار .

وامتد الأثر المصرى إلى التعليم المدنى الحديث الذى شهدته مصر فى عهد محمد
على ، هذا النوع من التعليم دخل إلى السودان لأول مرة فى تاريخه (٢)

علاقة مصر ببلاد الحبشة وشرق إفريقيا :

ارتباط مصر ببلاد الحبشة وشرق إفريقيا لم ينقطع منذ القدم غير أن صلة
مصر بهذه البلاد سدرت إلى أبعد الحدود . ابتداء من القرن الرابع الميلادى

(١) عبد العزيز عبد الحميد ص ١٢ ص ١١٣

(٢) عبد العزيز عبد الحميد التعليم فى السودان ص ١٢ ص ١٣ - ٢١ .

على وجه الخصوص ، فقد انتشرت المسيحية في بلاد الحبشة . وانتشرت في مصر في نفس الوقت .

بل أصبحت كل من كنيسة الحبشة ومصر متصلتين أشد الاتصال ، فكلاهما تستوحى تعاليمهما من المذهب يعقوبى ، وكانت كنيسة الحبشة في الحقيقة تابعة للكنيسة يعقوبية في مصر .

غير أن القرن السابع الميلادى وما شهدته من أحداث هامة سيؤثر في مصر ، وفي شرق إفريقية ، ويكتب لهذه الصلات أن تتخذ شكلا آخر ، فقد ظهر الإسلام ، وبدأت الدولة العربية تتوسع في الشرق الأدنى ، واستولت على الشام ، وفتحت مصر . وأصبحت هذه البلاد ولاية إسلامية وحضعت كنيسها ليعقوبية للنفوذ الإسلامى . وامتد هذا النفوذ إلى شمال إفريقية ، ووصل الرحف الإسلامى إلى حدود مصر الجنوبية .

وكما تأثرت مصر بهذه الأحداث الهامة تأثرت بها الحبشة وغيرها من بلاد شرق إفريقية .

بل كانت هذه التطورات نقطة تحول في تاريخ الحبشة على وجه الخصوص ، فقد كانت هذه البلاد قبل ظهور الإسلام وانتشاره على هذا النحو (رغم بعدها) على اتصال بالعالم المتحضر ؛ ببلاد البحر الأبيض المتوسط وبالدولة البيزنطية .
فبسبب الفتح العربى في عزل بلاد الحبشة عن هذه المناطق التى كانت على اتصال وثيق في الناحية الثقافية .

بل بدأت أحوال الحبشة الاقتصادية تتأثر بهذه الحوادث ، ذلك أن مدن شرق إفريقية الساحلية كانت تنزل بها حالات من البسنيين والمصريين والإغريق ، الذين كانوا يسيطرون على تجارة الحبشة ، وقد بدأ هؤلاء الناس يهجرون مدن الحبشة وأسواقها وبذلك عزلت الحبشة اقتصادياً . كما عزلت ثقافياً من قبل

هذه التطورات التى خضعت لها مصر وتأثرت بها الحبشة ستؤثر في طبيعة العلاقات بين القطرين .

فقد استجدت عوامل جديدة وجهت هذه العلاقات وأثرت فيها .

فصر استجابات للتأثيرات الإسلامية وبدأ أغلب المصريين يدخلون في الإسلام ، وأصبح المسيحيون في مصر أقلية في البلاد ابتداء من القرن الثالث الهجري .

وحصعت الكنيسة البيزنطية للدولة الإسلامية ، وأصبحت هذه الدولة هي التي تعين سريرتها وتتحكم في أملاكها وفي علاقاتها بالعالم الخارجي .

وبدأ الحشنة وشرق إفريقيا ، بدأ الإسلام ينتشر وتكونت حالات إسلامية ليست فائقة العدد ، وامتدت التأثيرات الإسلامية إلى قلب الحبشة نفسها .

وأصبحت هذه الحالات الإسلامية على صلات ووحدة بمصر الإسلامية ، على حدود مصر أصبحت لمصر مكانة طبيعية في العالم الإسلامي وستتشد هذه الصلات . فربما أربع المجرى فصاعداً .

وكانت حالات المسلمين في الحبشة وشرق إفريقيا لم تنقطع فكذلك اتصال المسيحيين بالأحباش كنيسة مصر لم ينقطع أبداً ، وكما كان مسلمو الحبشة وشرق إفريقيا يبعثون إلى مصر كان أقباط مصر ينطلقون إلى الحبشة باعتبارها دولة مسيحية تحرس حرياتهم الدينية . وتوقف من عدوان السلطات في مصر ، إذ أرادت هذه السلطات أن تنال من حريات المسيحيين الدينية والمدنية .

هذه الأوضاع كلها كانت عاملاً حاسماً في تاريخ العلاقات بين كل من مصر والحبشة . صفة الكنيسة الحبشية بالكنيسة المصرية وعلاقة المسيحيين بمصر بإخوانهم في شرق إفريقيا ثم انتشار الإسلام المطرد في شرق إفريقيا وأهمهم للدولة الإسلامية في مصر بإخوانهم في الدين في هذه المنطقة النائية .

فمعرض هذه التطورات ولتر أثرها في العلاقات بين التطرين .

فقد إلهام الإسلام ينتشر على سواحل البحر الأحمر بعد أن اضطرت العرب لحماية تجارهم من الأسيروين يتخذوا لهم مراسي آمنة على ساحل هذا البحر المقابل ، فاحتلوا حرر دهشتهم منه مصبوع .

وبذلك قدم الإسلام أول رأس جسر سيؤدي إلى احتلال مراكز أخرى ثم قسرت الإسلام إلى شرق إفريقيا .

وكانت أول شعوب استجابة للإسلام شعوب البجة ، المنتشرين بين النيل

والبحر الأحمر ، واستمر انتشار الإسلام في الساحل الشرقى طوال القرن العاشر وبعض الحادى عشر .

بلى بدأ الإسلام يدخل أرض الحبشة نفسها ابتداء من النصف الأول من القرن العاشر الميلادى ، ممتداً من المناطق الساحلية مخترقاً النطاق الجنوبي للبلاد ، وكان هذا التسرب سلمياً بطيئاً يتم عن طريق التجار أو الدعاة انتشاراً لا تكاد تحس به الحبشة أو ترى فيه عدواناً على استقلالها .

وإذا بهذا الانتشار يؤدى في الفترة الواقعة بين القرن العاشر والثالث عشر إلى قيام سلسلة من الإمارات الإسلامية في المنطقة الممتدة من جنوب الحبشة حتى منطقة البحيرات ، كما انتشرت على طول ساحل الصومال وبلاد الحلا مستعمرات إسلامية تشتمل بالتجارة مثل مقدشيو وغيرها

هذا هو الوضع في شرق إفريقيا وبلاد الحبشة . عند نهاية القرن الثانى عشر وبداية القرن الثالث عشر ، إمارات إسلامية كبرى تقوم في صميم الوطن الحبشى نفسه ، وانتشار للإسلام على نطاق واسع في المنطقة الساحلية الممتدة حتى جنوب موزمبيق جنوباً بل امتد التيار الإسلامى إلى قلب المنطقة الحبشية .

فما هو أثر هذه الأوضاع على العلاقات بين مصر وبلاد الحبشة ؟ .

كان تسرب الإسلام كما رأينا تسرباً سلمياً الى أبعد الحدود كما أن العلاقات بين هذه الإمارات الإسلامية وبين دولة الحبشة كانت علاقات سلمية أيضاً .

وسند نوع من التسامح والفهم المتبادل بين الأقلية المسلمة في بلاد الحبشة وبين الكثرة المسيحية ، فكان من الطبيعى أن تساعد هذه الأمور بدورها على حسن العلاقات بين مصر وبلاد الحبشة .

والملاحظ أن هذه العلاقات ظلت منذ الفتح العربى حتى أوائل القرن الثالث عشر يغلب عليها جو الود والتفاهم . ولم تقطع العلاقات الودية بين كنيسة الحبشة والكنيسة المصرية ، بل ظلت متواترة في عهد الولاة وعهد الطولونيين والإخشيديين والفاطميين ، بل لم يعبر قيام الدولة الأيوبية من طبيعة هذه الصلات .

وقد جرت التقاليد المتبعة في اختيار مطران الحبشة في هذه الفترة بأن يرسل ملك

الحبشة رسالتين . واحدة إلى صاحب الأمر في مصر والأخرى إلى بطريرك الإسكسرية مشموعة بمبلغ كبير من المال وهدية من العاج والمسك والرفيق لأمر مصر ثم ينتهي الأمر باختيار المطران المطلوب .

لاسكرت هذه العلاقات جاءت في بعض المناسبات حينما كان بعض أمراء مصر يعدون على الأقلية المسيحية ويرد ملوك الحبشة فيعاملون الأقلية المسلمة بالمثل ، إلا أنه غالباً ما كان يصور الجو فيتدخل بطريرك الأقط في مصر لدى الأحباش فهذا الأحباش وتعود العلاقات إلى سيرتها الطبيعية

لكن هذه هي قبة ابتداء من القرن الثالث عشر فصاعداً ستدخل في دور جديد وتنتهي مع تسوية وأحمد فيمخرج الأحباش عن تسامحهم القديم ، ويعبر المالكة في مصر من التسامح التقليدي الذي عرفت به الحكومات الإسلامية المتعاقبة (١)

فقد شهد القرن الثالث عشر ذلك الصراع الرهيب بين الإسلام والمسيحيين ، وكان لابد أن يستجيب الأحباش ويستجيب لممالك لما تملبه هذه الأحداث ، فيدخل الأحباش هذه المعركة الصليبية ضد المسلمين في شرق إفريقيا ، كما يجب المسلمون في شرق إفريقيا للدفاع عن أنفسهم متعاونين مع القوى الإسلامية المناضلة في مصر وبلاد الشام

دخل الأحباش المعركة الصليبية في شرق إفريقيا في القرن الثالث عشر في عهد الأسرة السلجوقية . وبدأ النضال العنيف بين ملوك الحبشة وبين هذه الإمارات الإسلامية التي رأتها تقوم في هذه المنطقة

وكان المماليك المسلمين كعادتهم في علاقتهم بالمسلمين في شرق إفريقيا فقد تركوا إخوانهم في أن يدخلوا معركة الجهاد اعتماداً على مواردهم المحدودة ، دون أن يتدخلوا تدخلاً مباشراً لنصرتهم .

ولعلهم قد يذكروا أن لجهة «صليبية» جهة واحدة ، اكتفوا بمداخلة الصليبيين عن بلاد الشام ، كوا جهة إسلامية في شرق إفريقيا تتصدع أمام التقدم الحبشي

حتى العثمانيون أنفسهم الذين تزعموا حركة الجهاد الإسلامي منذ القرن السادس عشر فصاعداً لم يدركوا خطورة هذا الصراع الدائر في إشرق إفريقية ولم يتجاوز نفوذهم سواحل البحر الأحمر، ورغم ما توأفر لهم من إمكانيات وزخم أساطيلهم التي وصلت إلى سواكن ومصرع وعدن فانهم لم يؤيدوا القوى الإسلامية التي تنصارع الأحباش تأييداً جدياً.

وقد أسهم البرتغاليون بنصيب موفور في مساعدة الأحباش والقضاء على التوسع الإسلامي (١) الذي قام به أحمد بن إبراهيم الغازي الملقب بأحمد القرين (١٥٠٦ - ١٥٤٣).

وخرجت الحبشة من هذا الصراع ظافرة منتصرة بعد أن أخضعت هذه القوى الإسلامية لسلطانها.

وقل الاهتمام المصري الرسمي بشرق إفريقية والحبشة أو انقطع بسبب الأحداث التي تعرضت لها مصر منذ القرن السادس عشر فصاعداً. فقد سقطت دولة المماليك وخضعت مصر للنفوذ العثماني وظلت طوال القرن السابع عشر والثامن عشر ترضح تحت نير السيادة العثمانية، وإن كان أثرها الثقافي لم ينقطع طوال هذه الفترة وبقي الأزهر وبقية مدارس مصر تؤدي دورها المعتاد.

ثم برزت قوة مصر مرة أخرى في القرن التاسع عشر، وكما أكدت نفوذها في السودان، كذلك بدا الاهتمام المصري واضحاً بالحبشة، وشرق إفريقية، فقد دخلت جيوش محمد علي بلاد السودان وأصبحت تتاخم أرض الحبشة.

ويبدو أن محمد علي كان يفكر في غزو الحبشة بعد تمام الفتح، فقد أطلع صولت القنصل الإنجليزى في مصر على هذه الرغبة. ولا نشك في أن الاعتبارات التي وجهت نحو أرض الحبشة منبعثة من فرار أنصار الملك عمر، واعتصامهم بأرض الحبشة وتمنعهم بتأييد الأحباش ورعايتهم.

لكنه كانت هنالك اعتبارات إسلامية تنطوى عليها هذه الرغبة. فهي استمرار لجهاد مصر للصليبيين، ثم وضعت مشروعات محمد علي سافرة فقد طلب من الباب العالي أن يمكنه من بسط نفوذه في البحر الأحمر بإعطائه سواكن ومصرع،

وقد رأى البب العالى لزاء نشاط الأحباش فى منطقة مصوع أنه يتعلم الاحتفاظ بهذين الميناءين ، وأن حقوق السيادة العثمانية معرضة للضياع ، لذلك وافق على تأجير سواكن ومصوع لمحمد على مدى حياته ، وبدأ مندوب مصر الذى أوفد إلى هذه الجهات بعد إحصاء تقريبياً للقبائل المنتشرة على طول الساحل بين سواكن ومصوع وبربر ، للاستيلاء على كل الساحل الاقربى حتى رأس غوردافوى (١).

وكان المصريون قد استطاعوا تهديد الحبشة من ثلاث جهات . من القلايات وتاكا ومصوع . وقد حدث أول اشتباك جدى سنة ١٨٣٨ ، حينما غزا المصريون حدود الحبشة . فى منطقة القلايات . وأرغموا الذعر فى منطقة حدار ، وقيل أن انفاقاً تم بين مسلمى الخلا ، وبين جنود مصريين متخفين فى رى التحار للتمهيد للغزو المصرى

وم تمكن مصر بسبب أحداثها السياسية منذ عام ١٨٤٠ ، أن تحقق ما أراده محمد على . غير أن النفوذ المصرى ، بدأ يتسرب إلى السهول الإريترية حينما أعلن بنو عامر حصوعهم لمحمد على ، وأُشئت كسلا واتخذت مستقراً تخرج منه الغزوات لتهديد بلاد الحبشة (٢)

وفى سنة ١٨٦٢ عاودت مصر غزو الحبشة عن طريق السوادن بقيادة موسى باشا حمدى . غير أن تمشى الحدودى أجبر المصريين على الارتداد وأرسل تيودور ملك الحبشة إلى الملكة فيكتوريا يستنجد بها .

وقد ساعد فتح قناة السويس سنة ١٨٦٢ على تجديد فكرة العز عن طريق البحر الأحمر . وقد شجع مصر على سلوك هذا الطريق النجاح السريع الذى حققته حملة نابيه الانجليزية فى قهر نيودور .

وقد حددت تركيا إعطاء مصر مصوع وسواكن (٣) . وقد اتى إسماعيل ترحيباً من الدو المقيمين على ساحل البحر الأحمر الذين طلبوا الحماية من إسماعيل . وقد عين إسماعيل منزحراً حاكماً على مصوع ، واحتل المصريون الصومال من

(١) حرار ص ٦٢ .

(٢) نفوس شقر : تاريخ السودان - ٢ ص ٤٨ - ٤٩

(٣) يوم شقر - ٣ ص ٩٠

زِيلِجَ حَتَّى رَأْسِ غُورِ دِافُوى ، ودخل المِصْرِيُّونَ هَرَرَ في ٣٠ سِبْتَمْبَرِ سَنَةِ ١٨٧٧
دُونِ مَقَاوِمَةٍ (١) .

وكان لِإِسْتِيلَاءِ المِصْرِيِّينَ عَلَى هَرَرِ أَثَرٌ عَظِيمٌ فِي انْتِشَارِ الإِسْلَامِ وَأُرْسِلَتْ بِمِصْرَ
الْبَقِيَّاءُ لِنَشْرِ الثَّقَافَةِ الإِسْلَامِيَّةِ .

وَفِي سَنَةِ ١٨٧٥ أَصْبَحَ فِي مَقْدُورِ إِسْمَاعِيلِ أَنْ يَعاوِدَ فِكْرَةَ غَزْوِ الحِيشَةِ ، وَكَانَتْ
حِطَّتُهُ تَعْتَمِدُ عَلَى اسْتِغْلَالِ فُرْصَةِ انْقِسَامِ الحِيشَةِ عَلَى نَفْسِهَا ، غَيْرَ أَنَّ الإِمْبَرَاطُورَ
يُوحِنَّا وَحَدَ الصَّفُوفَ فَأَخْفَقَتْ مَشْرُوعَاتُ إِسْمَاعِيلِ

وَعَاوَدَ السُّكْرَةَ سَنَةَ ١٨٧٦ فَلَمْ يَملُحْ (٢) . وَأَهْمَلَتْ مِصْرُ مَشْرُوعَاتَ غَزْوِ الحِيشَةِ
مُحْتَفِظَةً بِأَمْلَاكِهَا فِي شَرْقِ إِفْرِيقِيَّةِ . وَسُوفَ نَعْقِدُهَا فِي عَمْرَةِ الْأَحْدَاثِ الَّتِي تَلَتْ
الثَّوْرَةَ المَهْدِيَّةَ .

وَمِنَ الْخَطَأِ الزَّعْمُ بِأَنَّ عِلَاقَةَ مِصْرَ أَوْ اِهْتِمَامَهَا بِشَرْقِ إِفْرِيقِيَّةِ كَانَتْ تَحْدُوها
المَشْرُوعَاتُ السِّيَاسِيَّةُ ، إِنَّمَا اِهْتَمَّتْ هَذِهِ الْبِلَادُ تَأْمِينًا لِمَسْلُكِ تِجَارَةِ الحَرِّ الْأَحْمَرِ .

وَقَدْ رَأَيْنَا فِي الْبَابِ الْأَوَّلِ كَيْفَ لَعَتِ السَّكَاكِمَةُ وَكَيْفَ لَعِبَتْ عِيذابُ وَقُوصِ
دُورِهَا عَظِيمًا فِي نَشْرِ الإِسْلَامِ فِي بِلَادِ الحِيشَةِ وَفِي شَرْقِ إِفْرِيقِيَّةِ (٣) .

وَقَدْ اتَّصَلَتْ مِصْرُ بِشَرْقِ إِفْرِيقِيَّةِ ثَقَافِيًّا كَمَا اتَّصَلَتْ اقْتِصَادِيًّا ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ
مِنَ أَهْلِ تِلْكَ الْبِلَادِ يَرْحَلُونَ إِلَى مِصْرَ طُلُبًا لِلْعِلْمِ فِي الْأَزْهَرِ ، فَأَهْلُ زِيلِجِ مِثْلًا كَانُوا
لَهُمْ رِوَاقٌ بِالْأَزْهَرِ (٤) ، وَكَذَلِكَ طَائِفَةُ الْجَبَرْتِ الَّذِينَ كَانُوا كَثِيرًا الْوُفُودَ إِلَى
مِصْرَ يَقِيمُونَ فِيهَا وَيَتَعَلَّمُونَ . وَاشْتَهَرَ مِنْهُمْ فِي مِصْرَ كَثِيرُونَ (٥) . وَلَعَلَّ وَفُودَ
مُسْلِمِي الحِيشَةِ إِلَى مِصْرَ قَدْ أَشْتَدَّ أَثْنَاءَ التَّوَسُّعِ الْمِصْرِيِّ الْعَظِيمِ فِي عَهْدِ إِسْمَاعِيلِ .

وَقَدْ اِمْتَدَّ أَثَرُ مِصْرَ الثَّقَافِي إِلَى قَلْبِ الحِيشَةِ نَفْسًا . ذَلِكَ أَنَّ أَقْبَاطَ مِصْرَ مِنْذُ الْقَرْنِ
الرَّابِعِ الْحِجْرِيِّ فَصَاعِدًا كَانُوا قَدْ أَتَقَوْا اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ . وَاتَّخَذُوا لُغَةً يَكْتُبُونَ بِهَا

(١) Trimingham ; Islam in Ethiopia

(٢) نَعُومُ شَقِيرٌ تَارِيخُ السُّودَانِ ج ٣ ص ٨٩ - ٩٠

(٣) عَرَبُ مَقِيَّةِ ص ٢١

(٤) Trimingham . Islam in Ethiopia

(٥) هَابِدِينْ . تَارِيخُ الحِيشَةِ ص ٢٣٢ - ٢٣٨

إنتاجهم الثقافي . بعض هؤلاء المصريين كانوا يرسلون إلى الحبشة وبشيمون قبا
ما تعلموا من ثقافات في مصر (١) .

وقد استطاع الأحباش عن هذا الطريق أن ينقلوا إلى اللغة الحبشية كثيرا من
التوايف التي كتبها المسيحيون باللغة العربية . فتاريخ يوحنا النقبوسى كانت له
نسخة عربية ترجمت إلى الحبشية في عهد الملك يعقوب سجداء ، وقد ترجمه أحد
أساقفة قلوب ، كما نقلوا إلى الحبشة تاريخ ابن شاكر بطرس بن الراهب . ولما
كان الأحباش قد ظلوا قرونًا عديدة يترجمون من اللغة العربية إلى الحبشية فقد دخلت
لغتهم ألفاظ عربية كثيرة (٢) .

صلة مصر بغرب إفريقيا :

وقد اتصلت مصر فوق هذا كله بغرب إفريقيا . اتصلت بهذه البلاد اقتصادياً ،
غير أن هذه الصلات الاقتصادية قد وضحت تماماً في العصر المملوكي ، هذا العصر
الذى شهد تطور العلاقة بين مصر وعرب إفريقيا تطورا بعيد المدى ، إذ كانت
القوافل تنقل من مصر إلى عرب إفريقيا (٣) .

وكانت محاصيل إفريقيا الوسطى والسودان الغربى مودة من مواد التجارة التي
ارتكزت عليها عظمة الدولة المملوكية ، إذ كانت تديمها التجار الأوربيين من الجنوبيين
والبنادقة وغيرهم بأثمان مرتفعة ، وكان العاج أهم صادرات تلك الجهات إلى مصر كما
ذهب التجار المصريون بمئاتهم إلى بلاد الكانم والنكرو (٤) .

وكان الحج من أهم عوامل تدعيم العلاقات بين مصر وبين هذه البلاد إذ يبدو
أن حجاج غرب إفريقيا كانوا يمرون بمصر في طريقهم إلى الحج وبعد عودتهم منه .
قد حج إلى مكة كثير من مشاهير سلاطين المسلمين في هذه الجهات وانصلوا
أثناء مرورهم بمصر بالسلاطين ووجوه الناس والعلماء وكانت لهم مع مصر مراسلات
سجلها ديوان الإنشاء .

(١) المقرئى الإلام ص ٦ - ٧

(٢) عابدين : تاريخ الحبش ص ٢٢٢ - ٢٢٨

(٣) Esge : West africa pp. 26-27

Meek . op. cit, vol I, p. 62.

(٤) حمد عمار ص ٥٧ - ٥٨

وحتى زار مصر في طريقه إلى الحج منسى موسى - سلطان مالى واسكنى محمد سلطان
سنغى (١) وقد تأثر الأخير بهذه الزيارة إلى أبعد الحدود وتأثر بما رآه في مصر من
أشباب الحضارة وما سمعه في مصر من علم وما لمسه من تقدم حتى إذا عاد إلى بلاده
عمد إلى تطبيق ما اقتبس من نظم الحكم في بلاده (١) ، ونشبه بالخليفة العباسى في
مجلسه ومطعمه .

وقد زار الخليفة العباسى أثناء مروره بمصر وتلقى منه التقليد والخلة (٢) واعترف
به حاكما شرعيا على بلاده ، وعندما عاد إلى عاصمته سنغى أرسل إليه رسولا
خاصا من قبله ، وكما وفد هؤلاء الملوك فقد كثيرون من وجوه القوم من العلماء
وانتجار وغيرهم

وكانت الصلات الثقافية أهم هذه الصلات وأقواها فقد عدت مصر في القرن
الخامس عشر موئل التفكير الإسلامى في الشرق ، وكان الأزهر كعبة المسلمين في
كافة أرجاء إفريقية ، فليس بغريب أن يقصده الطلاب من غرب إفريقية ، شأنهم
شأن غيرهم من المسلمين .

وكان أهل التكرور أسبق طوائف غرب إفريقية اتصالا بمصر في هذه الناحية ،
استمرت منهم طوائف بمصر لتشهد حلقات العلم في الجامع الأزهر ؛ ولتسمع من
شيوخه المبرزين (٣) .

وابنى نحر التكرارة بمصر مدرسة للمالكية عرفت بمدرسة ابن رشيق ،
وأصبحت مثابة لطلاب العلم من بلاد التكرور ؛ وبعضهم وفد على مصر بقصد
الانقطاع والعبادة والانتظام في سلك الطرق الصوفية (٤) .

وقد اتصت تنبكت عاصمة السودان الغربى بالقاهرة ؛ ورحل علماؤها إلى
مصر واتصلوا برجال الأزهر (٥) وكانت لهم صلات بإمام مصر جلال الدين
السيوطى (٦) .

Dubois : Tombouctou pp. 134-135.

(١)

(٢) نفس المصدر ص ١٨ - ٢٢

(٣) محمود كمت : الفنان ص ١٢ .

(٤) حامد عمار ص ٧٩ .

(٥) نفس المصدر ص ٣٧

(٦) السعدى : تاريخ السودان ص ٢٢

كما نحدث السعدى عن علماء من مصر زاروا مدينته ، تنيكب وقعدوا للتدريس بها ، ولم يكن الرحيل قاضياً على التكرور إنما دخل كثير من بلاد برنو إلى مصر للتعلم بالجامع الأزهر ، وعادوا إلى البلاد بعد إتمام تعليمهم لمتابعة نشاطهم العلمى (١) ولا نعرف بالضبط تفسير هذه العلاقات في القرن التاسع عشر وإن كنا نرجح أنها تضاعفت عن ذى قبل ، خصوصاً بعد أن توسع المصريون في السودان ، ووصلوا إلى دارفور وباتوا أقرب اتصالاً بغرب إفريقيا .

أثر بلاد المغرب في غرب إفريقيا :

وكما تركت مصر وثقافتها الإسلامية أثرها الواضح في السودان وادى النيل وشرق إفريقيا بل وعربها ، كذلك كان شأن بلاد المغرب أثرت أثراً واضحاً باقياً في تاريخ الإسلام في غرب إفريقيا ، هذا التاريخ الذى لا يمكن فهمه إلا في ضوء تاريخ المغرب وأحداثه .

وبلاد المغرب كما قلنا تتصل اتصالاً طبيعياً بغرب إفريقيا ، والطبيعة حددت وسيلة هذا الاتصال وطريقته ، فاقليم فزان بطرابلس مثلاً لا يبعد عن بلاد برنو أكثر من مسيرة أربعين يوماً .

وفى العرب يسكن النيجر انحناءة عظيمة صوب الشمال ليفرب من شقة الصحراء ، هذه الصحراء التى لا تتصل بساحل المحيط الأطلسى اتصالاً مباشراً ، ولكنها تترك سهلاً ساحلياً يجعل الاتصال عبره ممكناً بين الجنوب والشمال (٢) .

عبر هذه الطرق ، اتصل المغرب بالسهل الخصيب ، الواقع جنوب الصحراء الكبرى اتصالاً قديماً متصلاً ، وكانت التجارات لا تفتأ تتبادل بين الإقليمين هذه التجارة التى كان لها شأن كبير في تاريخ غرب إفريقيا ، كانت الأوطان الزنجية في حاجة ملحة ومستمرة إلى ملح الطعام ، الذى يستخرج من مناجمه الواقعة جنوب المغرب الأقصى .

وقد احتكر المغاربة هذه التجارة منذ فجر التاريخ .

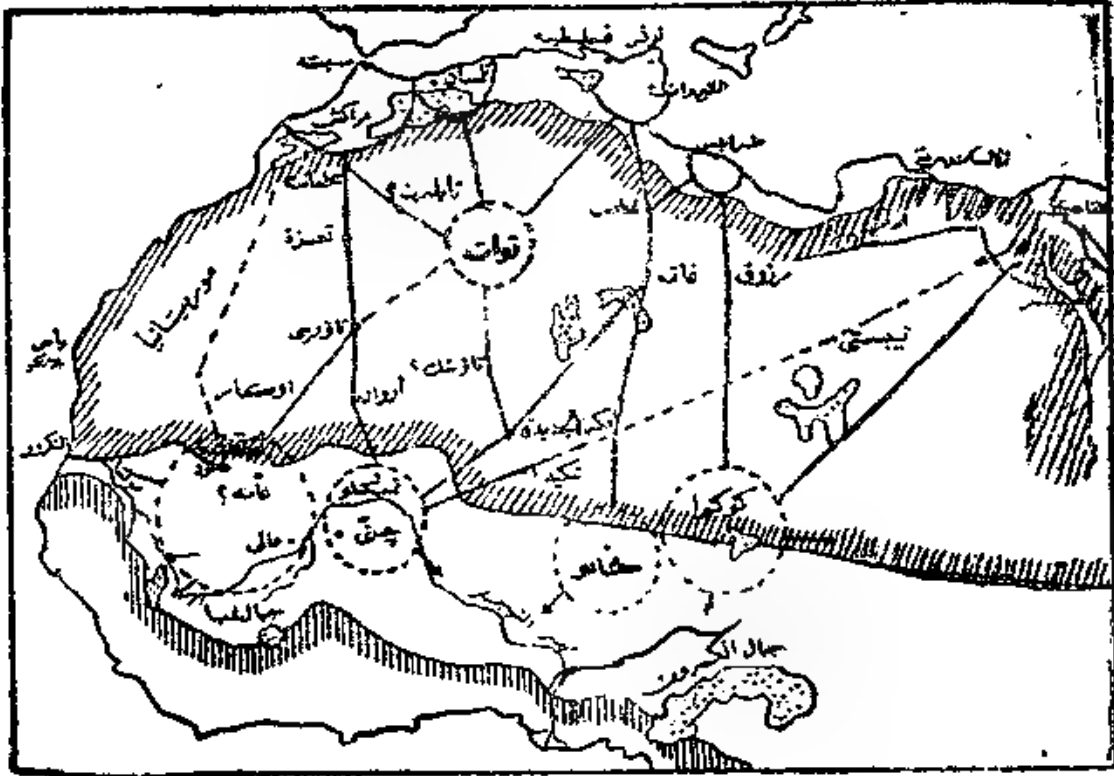
Palmer : op, cit pp, 33-91.

(١)

Cooley : Negroland pp, 1-2.

(٢)

- كان الزنوج أو غيرهم من شعوب المنطقة الواقعة جنوب الصحراء يبادلون هذه السلعة بالذهب والعبيد ، وقد تحمل القوافل المنحدرة من الشمال ، النحاس والمنسوجات والتمر والماشية والعقود والحلي .



العلاقات بين شمال إفريقيا وغربها

وعلى جانبي هذه الصحراء قامت مدن تجارية هامة في جنوب المغرب الأقصى وفي شمال منطقة السهول في السودان العرب ، وعملت هذه المدن على تنظيم القوافل وتصريف المنتجات .

وبذلك نفذت احاصيل الإفريقية الرعوية أو الاستوائية الى منطقة البحر الأبيض المتوسط ، ومنه كانت تحمل إلى أوروبا ، كما كانت سلع البحر الأبيض المتوسط ، تحمل جنوبا إلى قلب الوطن الزنجي الضخم (١) .

هذه الصلة القديمة القوية لم يكن من المعقول أن يقطعها الإسلام ، بل كان المعقول أن ينمىها ويضاعفها ، وأن يفتح منها إلى أبعد الحدود .
فقد أصلح المسلمون طرق الواحات وأنظموا القوافل ، وأمنوا التجارة ، وأعادوا منها فائدة عظيمة جداً ، وبدأ المغرب الإسلامى يؤثر في غرب إفريقيا بثقافته وشعبه وسياسته .
وقد بدأ هذا الاتصال منذ اللحظة الأولى التي دخل فيها النفود الإسلامى بلاد المغرب . فالمعروف أن عقبة بن نافع الفهري أوغل بقواته حتى ساحل المحيط الأطلسى . وسار موسى بن نصير في نفس الطريق فكان هذا أول اتصال بين الإسلام القادم من المغرب وبين إقليم غرب إفريقيا (١) .

ولكن العامل الحاسم المؤثر في غرب إفريقيا لم يكن سياسة الدول التي تعاقبت على حكم المغرب . إنما هجرات البربر التي كانت تندفع في موجات متعاقبة نحو الجنوب متأثرة بالأحداث السياسية التي وقعت في بلاد المغرب .

وكان إسلام البربر عاملاً حاسماً في انتشار الإسلام في هذا الجزء من إفريقيا . وبهما من شعوب البربر على وجه الخصوص أولئك الذين كانت تمتد مصارهم جنوب المغرب الأقصى ، ثم تمتد ديارهم على ساحل المحيط جنوباً حتى مشارف السنغال . هذه الشعوب بدأت المحاولات الأولى لإدخالها في الإسلام منذ عهد موسى بن نصير ، ولكن الجهود الحقيقية تمت في عهد الأدارسة ، إذ في عهدهم وعن طريقهم نفذ الإسلام إلى هذه الجهات .

وتأكد إسلام هذه القبائل على وجه الخصوص منذ القرن الخامس الهجرى فصاعداً .

ومن غريب الصدف أن تدهم غارات بني هلال بلاد المغرب في الوقت الذي تم فيه إسلام هذه القبائل . لأن العرب المغيرين سيدفعون بطوبى كثيرة من البربر إلى الفرار نحو الجنوب .

هاجر بعضها إلى بلاد برنو أو كانم ، ثم اندفع بعضها عبر الطريق الساحلى نحو بلاد السنغال (١) .

ومن أدلة تمام إسلام هذه القبائل ، وصيرورتها عاملاً حاسماً فى انتشار الإسلام فى السودان الغربى ، أن ابتعثت من صفوفها حركة إصلاحية كبرى ترعها عبد الله ابن ياسين من رباطه فى مصب السنغال .

واستطاع عن طريقها أن يوحد قبائل الملثمين وأن يدفع بها نحو بلاد المغرب فى حركة يزجيها الحمس الشديد من أجل الإسلام والرغبة الملحة فى الجهاد ، فقامت دولة المرابطين موحدة بين شطر كبير من غرب إفريقيا وبين المغرب والأندلس (٢) .

وفى خلال هذه الوحدة تعدت المؤثرات الإسلامية إلى السودان الغربى على نطاق واسع ، وعمل المرابطون على نشر الإسلام هناك ، ويكفى للتنويه بهذه الجهود أن نذكر أن أبا بكر بن عمر أمير المرابطين مات هناك مجاهداً فى سبيل الإسلام ، ويظهر أن القرن الحادى عشر الميلادى كان عصر الانتشار الواسع المتدفق من المغرب إلى هذه الجهات

فقد قامت جماعات مسلمة من أهل البلاد الأصليين ، وأنشئت مدن ما زال لها شأن كبير فى تاريخ الإسلام فى إفريقيا ؛ مثل تنبكت مثلا ؛ والدور الذى قامت به هذه المدينة كمرکز للثقافة الإسلامية سنعرض له بالتفصيل فيما بعد .

ونهاية عهد المرابطين وبداية حكم الموحيدين ليس معناه القضاء على هذه الجهود ، أو الانتفاص من هذه الوحدة ؛ فقد خلف المرابطون فى هذا الجزء من إفريقية جماعات من المسلمين . تنطلق باستمرار إلى الوطن الأكبر الواقع عبر الصحراء تستمد منه التأييد ، وتنهل من ثقافته .

ومصادق ذلك كله أن الامبراطوريات الإسلامية الكبرى (١) التي قامت في غرب إفريقيا من القرن الثاني عشر فصاعدا كانت أحرص ما تكون على أن لا تتصل بالمغرب الإسلامي فقط بل بالعالم الإسلامي كله . وإذا كان منسي موسى سلطان ملي أو اسكي محمد سلطان سنغي قد تطلعا إلى مصر وتأثرا بما شاع فيها من ثقافة ، فلا بد أنهما اتصلا أيضاً بالمغرب الإسلامي ، بملوكه وفقهائه وعلمائه ومدارسه الكبرى في القيروان أو فاس .

يدل على ذلك كله الاتصالات العلمية التي توصلت بين كعبي العلم في غرب إفريقيا تنبكت وحي . هاتان المدينتان كانتا جزءا من الوطن المغربي في قلب السودان الغربي . وردعا العلماء المغاربة ، وسار أهلها إلى المغرب ، وتبادلوا الكتب والدراسات والآفاق .

وبلغ هذا الاتصال مداه في القرن السادس عشر حينما عمل سلاطين مراکش على التطلع نحو الجنوب . بل دخلوا تنبكت ، وقضوا على دولة سنغي ، وأعادوا الوحدة القديمة بين السودان وملاذ المغرب ، التي حققها المرابطون من قبل .

بدأت الحملة في سنة ١٥٩٠ (٢) . واستطاعت دخول تنبكت ، ولم يترك المغاربة هذه البلاد إلا عام ١٦١٨

وفي ظل هذه الوحدة انطلقت لمؤثرات الثقافية بين القطرين طليقة من كل قيد . انتقل كثيرون من علماء السودان إلى المغرب الأقصى ، ومنهم الفقيه المعروف أحمد بابا التمسكي (٣) .

ومؤرخو السودان يدسبون إلى هذا الاحتلال المراكشي كل رذيلة وينسبون إليه أسباب تأخر الثقافة العربية ثم اضمحلالها في القرنين السادس عشر والسابع عشر (٤) . وإن كنا نعتقد أن هذه الصلة لو قدر لها أن تطول لترك آثارا هامة في مجرى

Hogben pp. 4-54,

(١)

Fage ; pp. 40-33.

(٢) اسمدي تاريخ السودان ص ١٣٧ - ١٤٢

Dubois : pp. 347-351.

Dubois . op. cit. p. 347.

(٣)

(٤) اسمدي تاريخ السودان ص ١٦٩ . الفتاش ص ١٧٥

الثقافة الأوربية في غرب إفريقيا، وانسحاب المراكشيين كان لمواجهة التوسع الاستعماري الذي ظهر في غارات الأسبان والبرتغاليين واحتلالهم مدنا بالساحل المغربي، وانصراف المغاربة إلى مدافعة هذا الخطر الذي تعرضوا له .

ثم تتابعت الأحداث في بلاد المغرب ، توغل النفوذ العثماني ثم استشرى عدوان الدول الأوربية ، ووهت العلاقات بين المغرب والسودان .

وعاش السودان في شبه عزلة (١) ، ولم يتمخض تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر عن محاولات الإصلاح والتوسع شبيهة بمحاولات محمد علي في مصر ، بل تعرضت الجزائر للغزو الفرنسي ، وبدأ السودان الغربي يتعرض بدوره لعدوان مماثل .

والحياة الثقافية في غرب إفريقيا طابعها مغربي حاص ، بسبب الاتصال الوثيق بين تنبكت ، وبين جامعات المغرب مثل فاس والقنبروان (٢) . فالقلم العربي الذي استخدم في هذه البلاد ، هو القلم المغربي المشهور . والمذهب الغالب هو مذهب مالك الذي انتشر في المغرب والأندلس ، ودخل إلى غرب إفريقيا وغلب عليها .

Hmgben : Muhammedan Enirates pp. 50-57.

(١)

(٢) السعدى : تاريخ السودان من ٢١ ، ٥٧ .

[illegible]

الباب الثالث

إنتشار الإسلام والثقافة العربية
في غرب أفريقيا

المقصود بغرب إفريقية هنا ، المنطقة الفسيحة التي تمتد من المحيط الأطلسي في الغرب حتى السودان وادي النيل في الشرق والتي تقع بين المناطق الصحراوية أو شبه الصحراوية في الشمال وبين نطاق الغابات الاستوائية في الجنوب .

أو بمعنى آخر نفس المفهوم الجغرافي الذي عرّفه الرحالة والجغرافيون المسلمون في العصور الوسطى باسم بلاد السودان ، فقد كانوا في الحقيقة يصفون نسم بلاد السودان على هذه المناطق التي حددناها .

ومن الغريب أن هذه المنطقة التي تقاسمتها اليوم المصالح والأهواء كانت تعم في الفترة التي حددناها للدراسة ، بوحدة بشرية وثقافية عميقة الجدور ، كانت في الحقيقة تخضع لمؤثرات شرية وثقافية واحدة .

وكانت تأثيرات عادة تنطلق إما من العرب متجهة صوب الشرق ، وإما منطلقاً من مصب السنغال أو من منحى النيجر أو من المراكز الثقافية الهامة في المنطقة مثل تنكيت وحنى وكانو وغيرها .

وقل أن تجد تأثيرات بشرية ذات أثر واضح . تحوت حدود السودان وادي النيل ، متجهة صوب الغرب لتترك أثراً واضحاً في تكوين المنطقة البشرية والحضارى ، والقبائل العربية التي دخلت دارفور ، وقامت عند حدود السودان الغربية ، بل تعرضت دارفور نفسها لتأثيرات قادمة من الغرب ، حتى العناصر العربية التي تدفقت إلى غرب إفريقية ، إنما جاءت من بلاد المغرب ، منطلقاً إلى مصب السنغال ثم متجهة صوب الشرق .

وكانت مناطق السافانا الفسيحة التي يحدها النطاق الصحراوي من الشمال والنطاق الغابي من الجنوب قلب الإقليم النابض . مراكزها الثقافية حملت مشعل العروبة والإسلام وشعوبها تبنت الدعوة ولعبت الدور الأوب في تاريخ الإسلام في هذه

المنطقة . في الحق كانت بيئة السافانا هذه على حد تعبير ترمينجهام ، بيئة تسهل الهجرات وتتيح الاحتكاك الثقافي وتمهد لتكوين الوحدات الاجتماعية والسياسية (١) :

١- دور التكوين

تاريخ غرب إفريقية في العصور الوسطى والحديثة حتى نهاية القرن التاسع عشر كانت تتحكم فيه وتوجهه ظاهرتان عظيمتا الأثر : الهجرات أو الغزوات المتصلة لبعض قبائل البربر وطرقها المستمر للوطن الزنجي في الجنوب ، ثم شعوب بدائية من أهل البلاد ، تتعرض لهذه الهجرات ، ونحتك بها وتقتبس الكثير من نظمها الاجتماعية والعسكرية والدينية كما تمنح من معين ثقافتها .

هذه الانصالات أو هذه الهجرات كان ظاهرة واضحة ربما منذ القرن الأول ميلادي . عبر أنها لم تتجاوز أبداً مجرد الانتقالات الموسمية لقبائل المغرب عند أطراف الصحراء ، ثم الاحتكاك ببعض المراكز الأمامية التي أنشأتها الشعوب الزنجية . أو مجرد إغارات خاطفة على أوطان الزنوج لاقتناص العبيد ثم العودة بهم إلى أسواق المغرب .

هذا فصلا عن الاتصال التجاري الخفي الذي كان يتم بين المغرب وبين أسواق إفريقية

عبر أن هذه الهجرات بدأت تتخذ طابعاً آخر منذ بدأ العرب بسلطان سيادتهم على بلاد المغرب كلها . هذا الطابع هو توغل هذه القبائل صوب الجنوب في حركات مستمرة متدافعة ملحة ، ليس بقصد الإغارة ثم العودة أو اقتناص العبيد ، إنما للإقامة الدائمة .

وتفسير هذا التحول ليس عسيراً . فالرومان لم يتوغل بعدوهم إلى أبعد كثيراً من السهل الساحلي ، وأقاموا خطاً من الثغور Limes ، يحمي حدود منطقة بعدوهم من عدوان القبائل البدوية ، على حين توغل العرب . وهم من البدو في صميم الوطن المغربي . وجاوزوا النطاق الروماني ، وأحصعوا قبائل البدو لسلطانهم . ربما للمرة الأولى في تاريخ المغرب في العصور الوسطى .

وأصبح هؤلاء البدو جزءاً من عالم المغرب الإسلامي ، يفعلون بانفعالاته ويتأثرون بأحداثه ، وكانت كلما اجتاحت المغرب ضائقات أو أزمات سياسية تمعن هذه القبائل في هجرتها نحو الجنوب .

وبدأت في أواخر القرن العاشر الميلادي تستقر في منطقة أدرار ، وتستولي على مناجم الملح في تغزق ، وتديرها مستعينة بطائفة من الزنوج ، حتى كانت غارات بني هلال التي ظلت عاملاً هاماً في تاريخ المغرب حتى القرن السادس عشر (١) .

هذه القبائل العربية كانت كلما أمعنت في تقدمها كلما احتكت بقبائل البربر وأرغمت الكثير منها على الهجرة ، من يشأ البقاء والخضوع للعرب والاندماج في حياتهم يترك وشأنه ، ومن لم يشأ البقاء أجبر على الفرار بنفسه (٢) .

استمرت غارات العرب حتى دخلت مشارف السنغال نفسه (٣) كما ذكرنا في الباب السابق ، واستمر بدوره تطواف البربر يؤثر في أحوال غرب إفريقيا حتى القرن الثاني عشر ، إذ يذكر ديبوا (٤) أن الطوارق أغاروا على مدينة جاو سنة ١٧٧٠ .

هذه القبائل المهاجرة كانت نجماً حياً مستقلة ، واتحدت الطابع الحربي محافظة على كيائها .

وكان اعتمادها على الخيل من ناحية ، والإبل من ناحية أخرى يؤكد هذا الطابع من نطاق أعمالها العسكرية .

وينتهي أمرهم بأن يفرضوا نفوذهم بالقوة على طوائف مسالمة من الزنوج المستقرين . ثم ينتشر نفوذهم انتشاراً سريعاً في إقليم السفانا المكشوف الواقع هناك نطاق الغابات .

وتكتفي باخضاع الشعوب الزيجية بقوة السلاح . ثم تفرض عليهم الجزية ثم

Palmer, op.cit. p. 7.

(١)

De la chapelle : Hesperis 1930, T, XI, p. 49

(٢)

Dubois : op. cit. p. 152.

(٣)

Annuaire du Monde Musulman , Page pp. 15-16 .

(٤)

بمدينة سجلماسة ، ولكنها لم توغل على ساحل المحيط حتى مصب السنغال ، كما يقول البعض ، ولا يبعد أن تكون بعض بطونها قد رحلت ، حتى أصبحت على مقربة من غنة . بدليل أن الإدريسي يذكر أن تكرور من بلاد لتونة ، مع أن تكرور هذه في وادي النيجر في الجنوب (١) .

فكانت بذلك تحتل موقعا ممتازا وتسيطر على ذلك الطريق التجاري الهام الذي يسير بحوار البحر .

والى الجنوب من ذلك تقع ديار جدالة وتمتد جنوبا حتى تقرب من حوض السنغال ، وهذه القبيلة أوفر مالا وأكثر استقرارا ، فهي تسيطر على النهايات الجنوبية للطرق التجارية الهامة بين الشمال والجنوب ، فهي من ناحية قريبة من غانة وشعب صنغانة الواقع على الضفة اليسرى من منحني النيجر ، وقريبة من أودغشت وطريق سجلماسة .

لذلك استطاعت أن تسير متاجرها عبر هذا الطريق وأن تجني من وراء ذلك مالا وفيرا (٢) . كما يذكر المؤرخون أنها أقرب قبائل الملثمين من بلاد السودان (٣) .

أما قبيلة مسوفة فتمتد ديارها في منطقة قاحلة مجربة تقع بين سجلماسة في الشمال ، وأودغشت في الجنوب ، وكانت بعض بطونها تمتد شرقا حتى تصل إلى تادمكة وكوكو في الجنوب (٤) .

وكانت هذه القبيلة تسيطر على ذلك الطريق الحيوى للتجارة حتى زم ابن بطوطة (٥) .

كما أن ابن حوقل وهو يسبق ابن بطوطة بعلة قرون ، وجد هذه القبائل في مضاربها تلك تسيطر على التجارة المارة بين أودغشت في الجنوب وسجلماسة في الشمال (٦) .

Cooley : The Negroland of the arabs p. 19,

(١)

Ibip. p. 29.

(٢)

(٣) البكري ص ١٧٢ .

(٤) الأدهشي ص ٧٨ .

(٥) الرحلة ج ٤ ص ٣٧٨ ، ٣٤٠

(٦) المسالك ص ٧٨ .

هذه القبائل تمسك بمصالح الطريق إلى السودان العربي ، وكانت جلفة الاتصال بين المغرب بشعوبه وحضاراته وثقافته ، وبين المحيط الزنجي الواقع إلى الجنوب ، والذي يمتد شرقاً حتى بحيرة تشاد .

ولكى تكمل الصورة نعرض للجانب الآخر من شعوب غرب إفريقيا ، للشعوب الزنجية في هذا الجزء من القارة ، توزيعها الجغرافي ، وضعها شمال نطاق الغابات ، وفي أقصى الغرب ، وعلى الخصوص في بلاد فوطة .

على طول صفتي السنغال نزل شعب التكرور Tucoror والتيرير Serer والولوف Woloff . أما في الشرق على طول النصف اليسرى للنيجر في المنطقة التي تقع بين مدينتي تلاري Tellabery وبوسا Bussa نزل شعب سنغي ، وهم عشائر من الزراع أو صيادي الأسماك .

بين هؤلاء السعى والتكرور في المنطقة الواسعة الممتدة بين أعالي السنغال في الغرب بحيرات النيجر في الشرق ونطاق الغابات في الجنوب تقع ديار الشعوب المتكلمة بلغة الماندي . وتشمل المانكة في الجنوب والسونكة في الشمال (مؤسسي دولة غانا) .

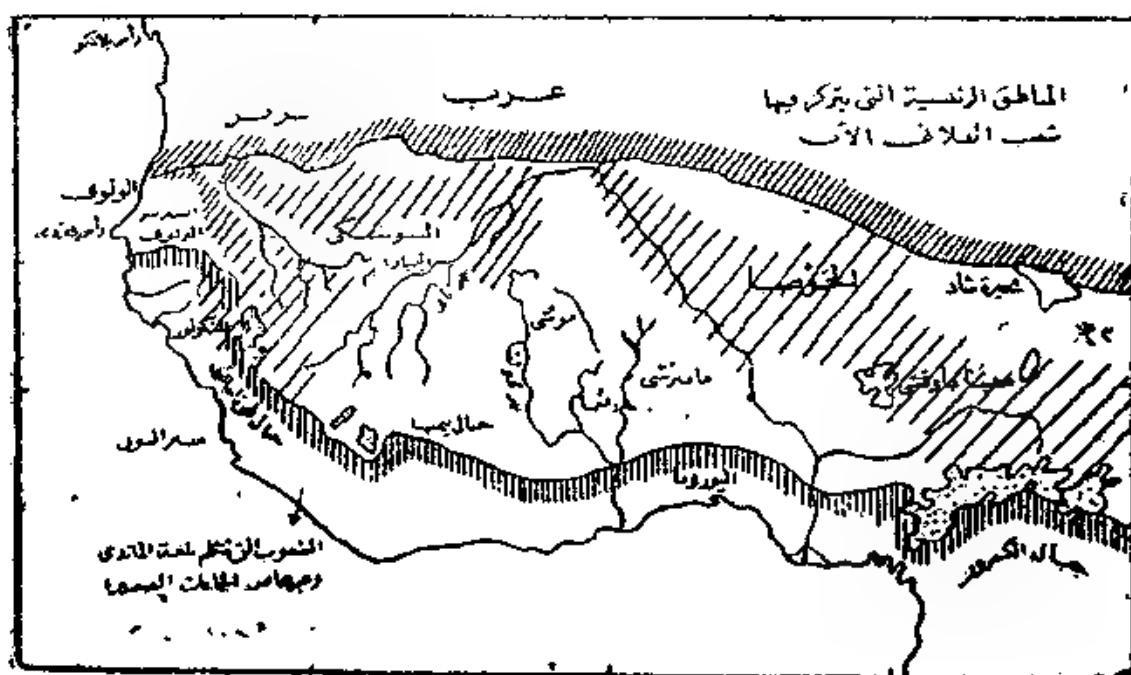
إلى الشرق من المانديجو أعني بين السنغي في الشمال ونطاق الغابات في الجنوب عاش أجداد لشعوب الحالية المتكلمة بلغة الجور . وهم شعوب الموسي Mossi والداجومبا وسنومر والبوبو والكونكومبا وغيرهم .

وقبل أن تؤدي هجرات البربر إلى قيام إمارات الحوصة في القرن العاشر الميلادي ، كانت المنطقة الممتدة من النيجر في الغرب إلى بحيرة تشاد في الشرق ونهر بنوا Beue في الجنوب قد تسربت إليها عناصر حامية قليلة انحدرت من الشرق متدفقة من حضبة الحبشة عبر أعالي النيل ، وامتدت تأثيراتها في الغرب حتى مواطن البوربا في جنوب نيجيريا (١) .

كانت هذه الشعوب الزنجية تعيش على هيئة جماعات مسالمة برأسها أكبر الرجال سناً . ولكل منها كهنوته ، إذ كانت تعتقد بوجود الله مع تقديسها لطائفة

لا حصر لها من الطواطم كانت قراهم تنتشر حول القرية الكبرى التي يزل فيها الزعيم الأكبر بقية رؤسائه.

هؤلاء جميعهم وصلهم بصيص من الحضارة عبر الصحراء ، عرفوا صناعة الذهب والحديد وبناء الزوارق ، وقطعوا مساحات واسعة من الغابات وهبوا للزراعة بوسائلهم البدائية .



غرب إفريقية : الأجناس الشهيرة

استطاع واحد من هذه الشعوب قبل تدفق الإسلام إلى المغرب بوقت طويل أن يؤسس دولة ، هذا الشعب هو شعب الماندى بصفة عامة ، ثم فرع السوننكة أحياناً أخرى ، واتخذت هذه الدولة اسم غانة ، ولا يدل هذا الاسم على الشعب ، إنما يطلق على الطبقة الحاكمة أحياناً أو على العاصمة التي أقاموها أحياناً أخرى .

بارت و دی لافوس پتفقان عی أن قیام هذه الدراة كان عام ۳۰۰ میلادی (۱).

(١) انظر مادة فائقة : دائرة المعارف الاسلامية

وتأسيس هذه الدولة في رأى: هذين الباحثين لا يرد: إلى جهود الماندي، إنما ينسب إلى تأثيرات وفدت عليهم من الخارج ، أو على الأقل إلى طبقة حاكمة وافدة احتكرت الزعامة ، وأصبحت إلى الوطنيين .

ويختلف الباحثون في كنه هذه الطبقة الحاكمة فالأستاذ بارت « Barth » يرى أنها من الفولبة ، ودي لافوس يرى أنهم يمثلون هجرة أتت من الغرب متخذة الطابع المسالم . هجرة لعلها على اليهودية أو غير اليهودية . إلا أنها استغلت خبرتها وثقافتها في تكوين هذه الدولة .

وكان أول ملوكهم يدعى كان . واتخذ مدينة أوكار قرب تنبكت الحالية عاصمة له .

واستطاعت هذه الدولة (هذه الأسرة الأولى تتألف من ٤٤ ملكاً) في الفترة الممتدة من القرن الرابع الميلادي حتى القرن الثامن أن تمتد من أوكار (١) .

وفي آخر القرن الثامن استطاع شعب آخر من شعوب الماندي وهو شعب السونكة أن يرث هذه الدولة .

فقد استنفذ المهاجرة أغراضهم واندمجوا في السكان ، وعلموا الناس نظمهم وتجاربهم ، واستطاع السونكة استغلال هذه المواهب للاستيلاء على الحكم في غانة سنة ٧٧٠م (٢) .

وقد امتدت هذه الدولة امتداداً متصلاً في هذا القرن ، أخضعت بلاد فوتا حيث التكرور والولوف والسيرير ، ووصل هذا التوسع إلى نهايته القصوى في مستهل القرن الحادي عشر الميلادي ، وصلت دولتهم شرقاً إلى أخوار مدينة تنبكت الحالية وإلى النيجر الأعلى في الجنوب الشرقي ، وإلى أعالي السنغال ونهر Bawle في الجنوب الغربي ، وفي الغرب صاقوا بلاد التكرور . أما في الشمال فقد امتدت إلى أحوار المغرب الأقصى .

كان تدفق الإسلام عند دخوله المغرب الأقصى المرة الأولى ونفوذه إلى غرب

(١) Hogben ; p, 27. Cooley : op. cit. p. ٤٤-45 , 8.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة غانة .

إفريقية، يشوقت على-أمرين: إسلام شعب الطوارق وتبنيه للدعوة وبالجهاد ثم ضعف مقاومة دولة غانة وتمزق الإسلام بها آخر الأمر لتسبح الطريق إلى التيار الإسلامي ليتدفق في وبرة على هذا الجزء من إفريقية . . .
فلنر كيف أسلم هؤلاء البربر وكيف ضعفت غانة ثم تلاشت وكيف تدفق الإسلام إلى هذه الجهات ؟ .

بدأت المحاولات الأولى لانتشار الإسلام بين ديار الملثمين في غمرة صراع العرب من أجل السيطرة على المغرب . بدأت في ولاية عقبة بن نافع النهري الثانية حين استطاع أن يقضى على المقاومة المغربية في المغرب الأوسط ، فلما فرت القبائل أمامه معصمة بجبال المغرب الأقصى منهية لرد العدوان لم يجد مفرأ من أن يحاوز مدينة تلمسان . وتدفق بقراته إلى المغرب الأقصى . توغل في إقليم الساحل حتى ملنجة ، ثم اندر بعد هذا إلى إقليم السوس الأدنى (١) ، وانقض على مصودة الساحل واستطاع بفضل معاونة زناته أن يقضى على مقاومتهم ثم واصل تقدمه حتى أدرك مدينة ماسة بالسوس الأقصى وأشرف على مدينة أنعمات .

بل تذهب بعض الروايات إلى أنه وصل في هذا الزحف إلى مدينة نول على ساحل المحيط في أقصى الغرب (٢) . بمعنى أنه توغل في موطن الملثمين الذي حددناه تحديداً جغرافياً .

ولم يدع هؤلاء الملثمون للإسلام منذ اللحظة الأولى ، فقد قاومت قبيلة مسوفة وملثونة دفاعاً عن كيائها .

ويبدو أن عنة لم ترهب هذه المحاولات فهزم المسوفيين وواصل الزحف حتى مدينة تاروادنت (٣) ، فاستكنت هذه القبائل ولم تعد إلى المقاومة كما عمد عقبة بدوره إلى بناء مسجد في مدينة (٤) ماسة . وبناء هذا المسجد يدل على أن ثمة تحولاً إلى الإسلام طهر بين الملثمين . ويبدو أنه عند ما قرر العودة ترك من يعلم هؤلاء الناس مبادئ الإسلام ، كما لا يبعد أن يكون قد أقر شيوخهم على ما بيدهم من سلطان .

وهناك روايات أخرى تذهب بمذهب المغالاة في هذا الزحف الإسلامي الأول حين ترى أن عقبة دخل بلاد السودان وفتح بلاد التكرور وغانة (١) .
والرحالة بارت (٢) يمتضى مؤيداً هذه الأخبار بقوله إن بعض الروايات المحلية تدعى أنه كانت بغانة جالية إسلامية سنة ٦٠ هجرية وأنه قد بنى بها عدد من المساجد .
ونحن عرفنا كيف أن غانة تقع عند منحنى النيجر أو بمعنى أدق في المنطقة الواقعة بين النيجر والسنغال .

هل من المعقول أن يستطيع عقبة بإمكانياته المحدودة والعلو من خلفه أن يترك بلاد السودان ومصب السنغال ومنحنى النيجر ؟
ويمكن - تفسيراً للرأى السابق - أن نقول أن ديار السود كانت أكثر امتداداً نحو الشمال (٣) . وأنه لا يبعد أن تكون غانة الزنجية قد مدت نفوذها شمالاً حتى المغرب الأقصى .

وقد بفيت ذكرى الفاتح عقبة تدبث عبر الأجيال ممثلة في إدعاء بعض الشعوب الانساب إلى عقبة ، وقد لاحظ بارت هذه الحقيقة أثناء رحلته الشهيرة . كما ذكر ميلك Meek أن بعض قبائل الفولاني في شمال نيجيريا تدعى مثل هذا النسب (٤) .
مهما يكن الأمر ، فإن عقبة كان أول من حمل المثلثين على الإسلام وأول عربي يرتاد هذه الأقاليم ، ففتح الطريق أمام تجار العرب الذين بدأوا ينقلون إلى هذه الجهات واتخذوا مدينة « أزقي » قاعدة لهم (٥) . وبدأوا يخرقون الصحراء إلى مدينة أودغشت حاضرة مسوفة .

لكن عقبة ما كاد يدرك تهوده في طريق عودته حتى انقض عليه البربر فقتلوه وارتدت القبائل ، وكادت جهود العرب كلها تتلاشى .

De la Chapele : Hespéris 1930.XI,p.24

(١)

Berth. op cit vol IV, p. 579.

(٢)

R. Bassot : Mission au Sengal p. 446.

(٣)

Meek : op. cit, vol I, p, 61.

(٤)

De la chapelle : op. cit, d. 24.

(٥)

إلى أن استقامت الأحوال لبني أمية واستأنفت فتوح المغرب وجاء موسى بن نصير
بتم ما يدهه عقبة .

فعاد إلى المغرب الأقصى سالكاً نفس الطريق الذي سلكه عقبة ووصل إلى طنجة
ثم سبتة . وانحدر إلى السوس الأدنى ، ثم أدرك ساحل المحيط ، وبلغ وادي درعة
وتأفلت (١) .

ورأى يعمل على إخضاع القبائل التي تنكرت للإسلام بعد مصرع عقبة ، وقد
نجح موسى متوسلاً بالسياسة التي عرضنا لها في الباب الأول ، فانتشر الإسلام بين
قبائل المغرب الأقصى على أسس جديدة أكثر توطئاً من الأسس السابقة . ومن شارات
نجاح سياسة موسى اشتراك هذه القبائل في فتح الأندلس .

وأدرك موسى مواطن الملتزمين واتصل بهم ، وردهم إلى الإسلام ، وأشأ فسجداً
في مدينة أغمات هذه المدينة التي ستغدو من أهم مراكز الإسلام والثقافة العربية في
المغرب الأقصى .

ولا يبعد أن يكون موسى قد ولى زعماء الملتزمين أعمالاً في ديارهم ، فأقبلوا على
الإسلام منذئذ إقبال سائر أهل المغرب طمعاً في المشاركة فيما يعم به العرب الفاتحون ،
بدليل اشتراك فرق من هؤلاء القوم في جيش الفتح الذاهب إلى الأندلس (٢) . ومن
هنا نؤكد أن إسلام الملتزمين تم في هذا الوقت .

وقد تابع خلفاء موسى نفس السياسة بنشر الدعوة إلى الإسلام بين صفوف
البربر ، خصوصاً في عهد عمر بن عبد العزيز ، الذي عمل على نشر الإسلام في المغرب
الأقصى بإرساله طائفة من التابعين ، انتشروا في البلاد يعلمون الناس أمور دينهم (٣) .

ثم قامت ثورة الخوارج التي عمت المغرب بأسره . ولم تكن هذه الثورة ارتداداً عن
إسلام تأصل ، إنما كانت ثورة على السلطان ، ومنعاً لمظالم وجدها أهل البلاد .

(١) ابن عذاري : ١٠٠ ص ٢٧

(٢) ابن الأثير : ٩ ص ٢٥٩ .

(٣) الدباغ : معالم الإيمان ١ ص ١٥٤ .

وتأسيس هذه الدولة في رأي هذين الباحثين لا يرد إلى جهود الماندي إنما ينسب إلى تأثيرات وفدت عليهم من الخارج ، أو على الأقل إلى طبقة حاكمة وافدة احتكرت الزعامة ، وأصهرت إلى الوطنيين .

ويختلف الباحثون في كنه هذه الطبقة الحاكمة فالأستاذ بارت « Barth » يرى أنها من القولية ، ودي لافوس يرى أنهم يمثلون هجرة أتت من الغرب متخذة الطابع المنسالم . هجرة لملها على اليهودية أو غير اليهودية . إلا أنها استغلت خبرتها وثقافتها في تكوين هذه الدولة .

وكان أول ملوكهم يدعى كان . واتحد مدينة أوكار قرب تنيكت الحالية عاصمة له .

واستطاعت هذه الدولة (هذه الأسرة الأولى تألف من ٤٤ ملكاً) في الفترة الممتدة من القرن الرابع الميلادي حتى القرن الثامن أن تمتد من أوكار (١) .

وفي آخر القرن الثامن استطاع شعب آخر من شعوب الماندي وهو شعب السونكة أن يرث هذه الدولة .

فقد استنفذ المهاجرة أغراضهم واندمجوا في السكان ، وعلّموا الناس نظمهم وتجارهم ، واستطاع السونكة استغلال هذه المواهب للاستيلاء على الحكم في غانة سنة ٧٧٠م (٢) .

وقد امتدت هذه الدولة امتداداً متصلاً في هذا القرن ، أخضعت بلاد فوتا حيث التكرور والولوف والسيرير ، ووصل هذا التوسع إلى نهايته القصوى في مستهل القرن الحادي عشر الميلادي ، وصلت دولتهم شرقاً إلى أخوار مدينة تنيكت الحالية وإلى النيجر الأعلى في الجنوب الشرقي ، وإلى أعالي السنغال ونهر Bawle في الجنوب الغربي ، وفي الغرب صاقوا بلاد التكرور . أما في الشمال فقد امتدت إلى أحواز المغرب الأقصى .

كان تدفق الإسلام عند دخوله المغرب الأقصى المرة الأولى ونفوذه إلى غرب

(١) Cooley : op. cit. p. ٥ , 8, 44-45. Hogben ; p. 27.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة غانة .

إفريقيته. يشوق على أمرين :- إسلام شعب الطوارق وتبنيته للدعوة والجهاد ثم ضعف مقاومة دولة غانة وتسرب الإسلام اليها آخر الأمر لتتسح الطريق الى التيار الإسلامي لتندفق في وفرة على هذه الجزء من إفريقية .
فلنر كيف أسلم هؤلاء البربر وكيف ضعفت غانة ثم تلاشت وكيف تدفق الإسلام الى هذه الجهات ؟ .

بدأت المحاولات الأولى لانتشار الإسلام بين ديار الملثمين في غمرة صراع العرب من أجل السيطرة على المغرب . بدأت في ولاية عقبة بن نافع التهمري الثانية حين استطاع أن يقضي على المقاومة المغربية في المغرب الأوسط ، فلما فرت القبائل أمامه من مصصة بجبال المغرب الأقصى مهيئة لرد العدوان لم يجد مفرأ من أن يجاوز مدينة تلمسان ، وتدفق بقراته الى المغرب الأقصى . توغل في إقليم الساحل حتى ملنحة ، ثم اندحر بعد هذا الى إقليم السوس الأدنى (١) ، وانقصر على مصودة الساحل واستطاع بفضل معاونة زناته أن يقضي على مقاومتهم ثم واصل تقدمه حتى أدرك مدينة ماسة بالسوس الأقصى وأشرف على مدينة أنعمات .

بل ذهب بعض الروايات الى أنه وصل في هذا الزحف الى مدينة نول على ساحل المحيط في أقصى الغرب (٢) . بمعنى أنه توغل في موطن الملثمين الذي حددناه تحديداً جغرافياً .

ولم يدع هؤلاء الملثمون للإسلام منذ اللحظة الأولى ، فقد قاومت قبيلة مسوفة وملتونة دفاعاً عن كيانهما .

ويبدو أن عقبة لم ترهبه هذه المحاولات فهزم المسوفيين وواصل الزحف حتى مدينة تاروادنت (٣) . فاستكانت هذه القبائل ولم تعد الى المقاومة كما عمد عقبة بدوره الى بناء مسجد في مدينة (٤) ماسة . وبناء هذا المسجد يدل على أن ثمة تحولاً الى الإسلام طهر بين الملثمين . ويبدو أنه عند ما قرر العودة ترك من يعلم هؤلاء الناس مبادئ الإسلام ، كما لا يبعد أن يكون قد أقر شيوخهم على ما بيدهم من سلطان .

وهناك روايات أخرى تذهب لمذهب المغالاة في هذا الزحف الإسلامي الأول حين نرى أن عقبة دخل بلاد السودان وفتح بلاد التكرور وغانة (١) .
والرحالة بارت (٢) يمتضى مؤيداً هذه الأخبار بقوله إن بعض الروايات المحلية تدعى أنه كانت بغانة جالية إسلامية سنة ٦٠٠ هجرية وأنه قد بنى بها عدد من المساجد .
ونحن عرفنا كيف أن غانة تقع عند منحنى النيجر أو بمعنى أدق في المنطقة الواقعة بين النيجر والسنغال

هل من المعقول أن يستطيع عقبة بإمكانياته المحدودة والعدو من خلفه أن يترك بلاد السودان ومصب السنغال ومنحنى النيجر ؟
ويمكن - تفسيراً للرأى السابق - أن نقول أن ديار السود كانت أكثر امتداداً نحو الشمال (٣) . وأنه لا يبعد أن تكون غانة الزنجية قد مدت نفوذها شمالاً حتى المغرب الأقصى .

وقد بقيت ذكرى الفاتح عقبة تدبث عبر الأجيال ممثلة في إدعاء بعض الشعوب الانتساب إلى عقبة ، وقد لاحظ بارت هذه الحقيقة أثناء رحلته الشهيرة . كما ذكر ميك Meek أن بعض قبائل الفولاني في شمال نيجيريا تدعى مثل هذا النسب (٤) .
مهما يكن الأمر ، فإن عقبة كان أول من حمل المثلثين على الإسلام وأول عربي يرتاد هذه الأقاليم ، ففتح الطريق أمام تجار العرب الذين بدأوا ينقلون إلى هذه الجهات واتخذوا مدينة « أزنى » قاعدة لهم (٥) . وبدأوا يخترقون الصحراء إلى مدينة أودغشت حاضرة مسوفة .

لكن عقبة ما كاد يدرك نهوده في طريق عودته حتى انقض عليه البربر فقتلوه وارتدت القبائل ، وكادت جهود العرب كلها تتلاشى .

De la Chapelle : Hespéris 1930.XI,p.24.

(١)

Berth. op cit' vol IV, p. 579.

(٢)

R. Bassot : Mission au Sengal p. 446

(٣)

Meek : op. cit, vol I, p. 61.

(٤)

De la chapelle : op. cit, d. 24.

(٥)

إلى أن استقامت الأحوال لبني أمية واستأنفت فتوح المغرب وجاء موسى بن نصير
يتم ما يدهه عتبة

فعاد إلى المغرب الأقصى سالكا نفس الطريق الذي سلكه عتبة ووصل إلى طنجة
ثم سبته . وانحدر إلى السوس الأدنى ، ثم أدرك ساحل المحيط وبلغ وادي درعة
ونافلت (١)

وراح يعمل على إخضاع القبائل التي تنكرت للإسلام بعد مصرع عتبة ، وقد
نجح موسى متوسلا بالسياسة التي عرضت لها في الباب الأول ، فانشر الإسلام بين
قبائل المغرب الأقصى على أسس جديدة أكثر توطداً من الأسس السابقة . ومن شارات
نجاح سياسة موسى اشتراك هذه القبائل في فتح الأندلس .

وأدرك موسى مواطن الملتزمين واتصل بهم ، وردداهم إلى الإسلام . وأنشأ مسجداً
في مدينة أعمات هذه المدينة التي ستغدو من أهم مراكز الإسلام والثقافة العربية في
المغرب الأقصى .

ولا بعد أن يكون موسى قد ولي زعماء الملتزمين أعمالاً في ديارهم ، فأقبلوا على
الإسلام منذئذ إقبال سائر أهل المغرب طمعاً في المشاركة فيما ينعم به العرب الفاتحون ،
بدليل اشتراك فرق من هؤلاء القوم في جيش الفتح الذاهب إلى الأندلس (٢) . ومن
هنا نؤكد أن إسلام الملتزمين تم في هذا الوقت .

وقد تابع خلفاء موسى نفس السياسة بشهر الدعوة إلى الإسلام بين صفوف
البربر ، خصوصاً في عهد عمر بن عبد العزيز ، الذي عمل على نشر الإسلام في المغرب
الأقصى بإرساله طائفة من التابعين ، انتشروا في البلاد يعلمون الناس أمور دينهم (٣) .
ثم قامت ثورة الخوارج التي عمت المغرب بأسره . ولم تكن هذه الثورة ابتدأ عن
إسلام نأصل ، إنما كانت ثورة على السلطان ، ومنعاً لمظالم وجدها أهل البلاد .

(١) ابن عذاري : ج ١ ص ٢٧ .

(٢) ابن الأثير : ج ٩ ص ٢٥٩ .

(٣) الدناع : معالم الإيمان - ١ ص ١٥٤ .

وقد شارك المثلثون في هذه الفتنه واستكانوا حين هدأت ، واسترد المغرب الأقصى مزيداً من الحرية الداخلية . حينما قامت به إمارات محبة إسلامية ، مثل إمارة سجلماسة (١) ، التي ظفرت بتأييد المثلثين .

ولم يعدد ولاية القيروان عن الاهتمام بالمغرب الأقصى ، بل عملوا على إيفاء الصلات التي تربطه بإفريقية ، فعمل عبد الرحمن بن حبيب مثلاً على إقامة سلسلة من الآبار تصل بين واحات إفريقية وبين أو دغشيت بصحراء المغرب العربي (٢)

واستطاع جوده عبور الصحراء وأمعنوا في شر الإسلام في أقصى أوطان المثلثين . واستطاع تجار العرب أن يتقلوا بديار المثلثين وبلاد السودان ، وأصبحت القوافل أوفر حراً على ارتياد هذا الطريق .

ثم قامت دولة الأدارسة العلويين في المغرب الأقصى . وقامت بتسليح الدور الذي قام به الأغالب في تونس . بتوحيد البلاد وإقرار السكينة بعد فن الحوارج ، وكان سبهم العلوي سبياً في توحيد القبائل المختلفة .

وقد نجح الأدارسة في إقامة حكومة مركزية قوية اشرك فيها العرب والبربر (٣) ، واستأنفوا الجهاد لإتمام إسلام البلاد ، فعملوا على رد المصامدة إلى الإسلام وتوسعوا شرقاً حتى تلمسان ، وبسطوا نفوذهم على إقليم الريف ومكناس وفاس حتى منطقة الأطلس الوسطى .

ولم يتخلف المثلثون عن المشاركة في بيعة الأدارسة الإفاده من جهودهم المصادفة في نشر الإسلام .

ولعل الثقافة العربية التي كانت تنبعث من مدينة فاس قد وصلت أيضاً إلى مواطن المثلثين ، لأن الأدارسة بسطوا نفوذهم على البلاد كلها ، وكذلك على الواحي الشمالية من ديار المثلثين وتخطى نفوذهم حال درن . وانتشر في إقليم الواحات .

(١) ابن خلدون - ٦ - ص ٩٠٥ .

De la chapelle - op cit, pp, 56-57,

(٢)

Terrasse : Hist, de Mareo ,p, 11.

(٣)

ب وروى المؤرخون أن عبد الله بن إدريس أخضع قبيلة لمطة على ساحل المحيط
وقولى أغمات والسوس الأقصى ، وبلاد نفيس وحصنهاجة الرمال (١) .

ج من ذلك يتبين أن مضارب الملمثيين القريبة من جبال أطلس قد خضعت للأدارسة ،
وأصبحت جزءاً من أملاكهم ، لذلك لن نتردد في القول بأن إسلام صنهاجة الذي بدأ
في عهد عقبة قد تأكد في عهد الأدارسة خصوصاً في القرن الثالث الهجري (٢) .

كان إسلام قبائل الملمثيين في القرن الثالث الهجري ذا أثر بالغ في تاريخ المغرب
والسودان ، إذ أدى إلى قيام حلف قوى يجمع الملمثيين جميعهم برعاية لمثونة .

وكان هذا التوحيد في ظل الإسلام نديراً بموجة من التوسع صوب الجنوب لنشر
الإسلام بين القبائل الزنجية بغرب إفريقيا (٣) .

فكان لا بد لها أن تواجه مملكة غانة التي وصلت في هذا الوقت إلى أوج قوتها
وتوسعها .

ورغم هذا نجح الملمثيون في منازلة غانة ، وأمنعوا في زحفهم حتى دخلوا أودغشت ،
واتخذوها حاضرة لهم ، وفرضوا الجزية على الشعب المغلوب .

ولم يدم هذا النصر ، فقد تفرق الحلف مرة أخرى سنة ٣٠٦ هجرية ، واستطاعت
غانة من خلال هذه الفرقة أن تستعيد مدينة أودغشت ، وبدأت وكأنها لم تصب بسوء ،
بل كانت طوال الخمسين سنة التالية أعظم قوة في غرب إفريقيا .

غير أنه ترتب على هذا الاحتكاك المتصل عن طريق المتاجرة أو الحرب أن
تسرب الإسلام إلى بلاد غانة نفسها .

وضحت هذه الحقيقة على الخصوص خلال القرن الحادي عشر . يتبين هذا من
رواية البكري الذي زار هذه البلاد سنة ٥٤٦٠ هـ . سنة ١٠٦٧ م . وذكر أن مدينة
غانة حينئذ واحد للمسلمين به اثنا عشر مسجداً وعدد من الفقهاء وأهل العلم . وهذا
يوضح لنا نتيجة هذا الضال الذي استمر أكثر من مائتي سنة . أما الحلي الآخر فهو

(١) حس أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٧١ .

(٢) ابن خلدون ص ٦٠ من ١٨٢ .

(٣)

يقوم الملك تحيط بمطائفه من الإكواخ المستديرة يضمها سور واحد ، وإلى جانب القصر أنشئ مسجد آخر يؤدي فيه زوار الملك من المسلمين صلاتهم الأمر الذي يشهد بظهور رعية مسلمة وفيرة العدد تعمر هذا العدد الوفير من المساجد ، هذا الحى الملكى يسمى بالغابة لكثرة ما يحيط به من أشجار ، وبهذه الغابة ينزل الكهنة والسحرة وعبد الأصنام . ورغم وجود الوثنية على هذا النحو فإن حاشية الملك نفسه ووزرائه كانوا من المسلمين .

وكان مضي الإسلام إلى أبعد من هذا يتوقف على استئناف الملتزمين للجهاد بإتمام وحدتهم من حديد ثم على مدى مقاومة مملكة عانة لهذا التيار الإسلامى المنحدر من الشمال .

ويبدو أن الملتزمين كانوا قد اتخذوا هذا الجهاد سياسة مرسومة بتوارثونها ، كما اتخذوا هذا التوسع نحو الجنوب غايتهم التى يسعون إلى تحقيقها . وكانت الحرب تستأنف كلما تمت الوحدة ، ثم تبدأ إذا تفرقت القبائل .

وقد شهد القرن الخامس الهجرى محاولة للتوحيد من هذا النوع تمت فى سنة ٤٢٩ هـ (١) ، ثم تمت فى أعقابها محاولة جادة لاستئناف الجهاد أو محاربة أهل غانة .

ولم يستطع الملتزمون للمرة الثانية أن يمضوا إلى أبعد مما مضوا ، فقد هزموا وقتل زعيمهم ، وأخفقوا فى انتراع مدينة أودغشت والسيطرة بالتالى على تجارة السودان (٢)

ويبدو أن هذا الإخفاق المتصل قد أثر فى نفسه الملتزمين وفى مصيرهم كانت قبيلة لمتونة هى التى تزعمت هذا الرحف الإسلامى طيلة لسنين الماضية فانتقلت الزعامة إلى قبيلة جدالة . ولعل انتقالها على هذا النحو يعبر عن مصير هذه الحرب التى لا تبدأ (٣) . ثم رأى الواعون من زعمائها أنه لا تتم الوحدة المنشودة ولا يتحقق الجهاد ، إلا فى ظل إسلام جديد يضم الملتزمين فى وحدة تنيلهم أغراضهم وتحقق أهدافهم .

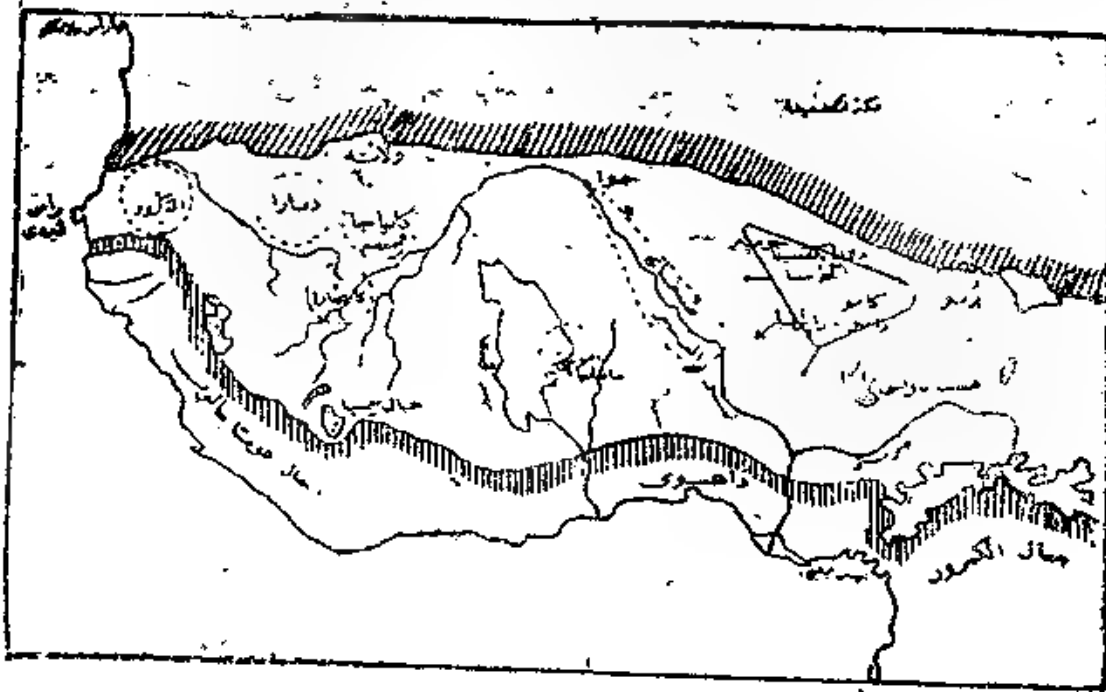
كان زعماء جدالة فى القرن الخامس الهجرى يرون أن سر البلاء والإخفاق يرجع إلى عدم عمق الشعور بالوحدة وسرعة تفرق الجماعة وأن أحسن وسيلة لتحقيق النجاح

(١) جامع توارىخ فاس ص ٢٨

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٢ .

(٣) للبكرى : المغرب ص ١٧٠ .

إن يتشتمس وسيلة أخرى لتحقيق الوحدة الجديدة أطول عيراً ، وأن أحسن وسيلة أن يوحد هذا الحلف بدعوة دينية تنبثق في صفوفهم ، فتوحد الناس وتلك في نفوسهم الرغبة في الجهاد .



ولايات السودان الغربي في مسهل القرن الثالث عشر الميلادي

فاستقدم زعيم جدالة فقيهاً مالكياً من فقهاء المغرب الأقصى يدعى عبد الله بن ياسين ليتمكن للإسلام الصحيح من نفوس الناس ، ويدعو للوحدة على أسس جديدة . وهذا الاختيار كان معناه بداية امتداد نفوذ مذهب مالك من القيروان إلى المغرب الأقصى ، ثم تخطيه حدود هذا الإقليم نحو الجنوب وانتشاره في بلاد السودان .

ارتحل عبد الله بن ياسين إلى ديار الملثمين ، وأخذ يدعو الناس إلى التمسك بأسباب الدين ، وبمهد للوحدة السياسية ، فلم يستطع ، وآثر أن يسلك في تحقيق هذه الغاية سبيلاً آخر .

هاجر نحو الجنوب مع بعض صحبه إلى جزيرة نائية في مصب السنغال الأدنى (١) ،

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٧١ .

وأتخذ يحيا حياة التصوف والتعشف والزهد والمراقبة، وكان الناس يسمعون بأخباره
فيرحلون إليه وينضمون لرباطه؛ ومن هنا اتخذ أتباعه اسم المرابطين .

في هذه الجزيرة النائية عمل عبد الله بن ياسين على أن يخلق جيلا جديداً من
المسلمين ، ويعدهم لحياة شاقة من الجهاد ، وشرع يروضهم «بإضاعة روحية وبدنية ،
وبعدهم للحرب ويسمى في نفوسهم الإسلام الصحيح ، ويخلق فيهم طبقة فداية تعمل
على إحياء السنة والقضاء على المفاسد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد ،
وتحقيق الوحدة بين المسلمين على هذا الأساس الديني الصرف وإشعال الحمية في نفوس
هذه القبائل واستخدامها في معركة الجهاد .

فلما زاد عدد أصدائه من المرابطين خرج من رباطه ليفقد السياسة التي رسمها
لنفسه ، فبدأ الجهاد في ميدان غرب إفريقية ، فسار إلى الشرق إلى منحنى النيجر ،
ودخل مدينة أودغشت (١) ، وانتزعها من ملوك غانة ونجح نظامه الجديد في هذه
المعارك نجاحاً بعيد الأثر . استبسلوا استبسالاً لم يعرفه الملثمون من قبل .

ثم جاوز أودغشت جنوباً بدليل ما يذكره المؤرخون من أن رئيس الشكروور
حالف المرابطين ، وحارب إلى جوارهم .

وكان هذا النجاح بعيد الأثر في نفوس الملثمين ، فانضمت إليه قبيلة لتونة ،
ثم سار صوب الشمال ووجد القبائل بزعامته مرة أخرى .

وفي الوقت الذي اندفع فيه المرابطون صوب المغرب الأقصى ثم الأندلس
انغمساً في الجهاد ومدافعة للمسيحيين في الأندلس ، كانت جموعهم تتابع جهود
عبد الله بن ياسين .

في الوقت الذي كان فيه يوسف بن تاشفين يقود معركة الجهاد في مبادي
المغرب والأندلس ، كان الأمير الشرعي أبو بكر بن عمر يقود المجاهدين
في الجنوب .

وقد استطاع بعد جهاد دام أكثر من خمس عشرة سنة أن يستولى على القسم الأكبر

من غانة (١). وأن يضمه إلى دولة المرابطين النامية ، ورغم أنه مات في ميدان المعركة ، إلا أن الأثر الذي تركه لم يذهب بوفاته . فقد اكتسب سلطان غانة واستبطلت بعض أقاليمها . كما ألهم ملوك صوصو أقاليم أخرى وإنهى أمر من بقي باعتناق الإسلام (٢) .

وكان إضفاف ملك غانة على هذا النحو بمثابة انفساح المجال أمام الإسلام ليتدفق إلى غرب إفريقيا في قرّة وعنف .

فقد أسلم ملك غانة وأخلصوا في إسلامهم . وعملوا بدورهم على متابعة الجهاد ونشر الإسلام بوسائلهم . وتحولت غالبية الشعب الغاني إلى الإسلام .

ويبدو أن هذه الدفعة التي دفعها المرابطون للإسلام كانت قوية ، بل أقوى مما يظن ؛ إذ تركت في تاريخ الإسلام في غرب إفريقيا آثاراً عميقة . ذلك أن دعاة المرابطين نشروا الإسلام في المنطقة الواقعة بين السنغال والنيجر ، بل نشروا الإسلام على ضفاف السنغال (٣) .

وتمخضت هذه الجهود عن إسلام شعب التكرور فعمل بدوره على متابعة الدعوة إلى هذا الدين .

أما القبائل التي لم تدعن لهذه الدعوة الإسلامية فقد بحث لها عن أوطان أخرى : هاجر السيرير مثلاً صوب الجنوب ، وهاجرت قبائل أخرى صوب الغرب (٤) ، وهاجر القولبة إلى منطقة فوناتورو (٥) .

وفي ركاب المرابطين دخلت الثقافة الإسلامية متدفقة من مدارس المغرب ومدارس الأندلس ، فقد وجد المرابطون بين السودان والمغرب والأندلس في دولة واحدة (٦) .

(١) دائرة المعارف الإسلامية - مادة غانة

Fage : op. cit, p. 21.

L'Islam noir, p. 28.

Meek : op. cit. vol I. p. 16

L'Islam noir, p. 28, Dubois. p. 261

Meek : op. cit. vol I. p. 61.

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

(٦)

وقد تم في عهدهم أعظم أثر في الميدان الثقافي في تاريخ السودان ، حينما أسست مدينة تنبكت التي أصبحت حاضرة للثقافة العربية في غرب إفريقيا .

تأسست هذه المدينة في آخر القرن الخامس الهجري ، فيذكر السعدي صاحب كتاب تاريخ السودان ، أن قوماً من طوارق مقشرون اختطوا هذه المدينة ، وهم قوم من البدو ، قدموا هذه البلاد لرعي أغنامهم ، فكانوا يصيفون على ضفاف النيجر في موقع هذه المدينة . ثم يرحلون في الخريف إلى أوطانهم (١) ، ثم استقر بهم المقام بسبب استقرار الحياة في عهد المرابطين ، فأنشئت هذه المدينة ، وأضحت سوقاً هامة يؤمها الرحالة ويغد عليها التجار بطريق النهر أو تأتيها القوافل عن طريق مراكش .

وسرعان ما اقتنى العلماء أثر التجار فأخذوا يشخصون إليها من المغرب الأقصى والأندلس ، بل من مصر وغدامس وتوات وتافلت وفاس وغيرها (٢) « ما دنسها عبادة الأوثان ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمن مأوى العلماء والعابدين ومألف الأولياء والصالحين (٣) » وبني بها مسجد جامع ، ومسجد آخر يسمى مسجد سنكري . وكانت في المدينة عمائر حسنة وبنيت من حولها الأسوار وحلت المساكن المبينة من اللبن محل الأكواخ .

كما امتد الإسلام إلى مدينة أخرى كان لها في تاريخ الإسلام والثقافة العربية مثل ما لتنبكت . وهي مدينة جنى ، أسلم أهلها آخر القرن السادس الهجري ، وأمها العلماء والعقهاء ، والسعدي يذكر أنه كان بها أكثر من أربعة آلاف من المشتغلين بالعلم .

انتهى هذا الدور بانتشار الإسلام على نطاق واسع وتوطن الثقافة العربية في مركزين مشهورين في تنبكت وفي جنى وتفرق غانة وضعفها ثم تلاشيها آخر الأمر .

L'Islam noir, p. 28, Doboï, p. 261.

(١)

(٢) السعدي تاريخ السودان ص ٢١

(٣) بعض العهد ص ١٦ .

٢- دور الإزدهار

يمتاز هذا الدور بطابع خاص وسمات واضحة تختلف من وجوه كثيرة عما ألفناه في العصر السابق .

إد مثل انتقال السلطان إلى أهل البلاد الأصليين الدين دخلوا في الإسلام وتشربوا الثقافة وتأثروا بتقاليده ، واقتبسوا من نظمة وأفادوا من خبرات البربر الذين خالطوهم واتصلوا بهم .

وهذا تطور طبيعي في تاريخ الإسلام في أى مجتمع من المجتمعات . هو نفس التطور الذى شهدناه في المغرب حين انتقل السلطان إلى أهل البلاد أنفسهم بعد ضعف العرب ، ونفوق نفوذهم ودمائهم . بل شهد كل قطر دخله الإسلام وتغلغل فيه ، فنأسست دول إسلامية ملوكها من أهل البلاد الأصليين دوى الدم الزنجى الخالص أو الذين اختلطت دماؤهم بدماء البربر . فدولة ملئ مثلاً أسسها شعب الماندينجو . ودولة سغى أسسها أسرة من شعب سنغى اختلطت بدماء البربر .

وليس معنى هذا استبعاد نفوذ البربر نهائياً ولم يكن من المعقوك أن يستبعدوا ، وقد كانوا عامل المؤثر الفعال في تاريخ البلاد . إذ لا بعد أن يكون مستشرو الملك ووزرائه وربما بعض قواده من البربر الخالص أو ممن اختلطوا بدماء البربر .

وقد عرض فيدج Fage (١) لهذه الامبراطوريات محاولاً أن يفلسف أسباب قيامها واتساعها ثم اضمحلها . ولعله تأثر بنظرية ابن خلدون في تفسير التاريخ الإسلامى ، وهو يرى - وهذا صحيح - أن هذه الامبراطوريات تعتمد في تكوينها على قوت راکبة من الحیالة أو الأباله . فتكنس عنفاً وسرعة في الانتشار في منطقة السافانا الممتدة من الغرب إلى الشرق .

وقد يصل نفوذها إلى مشارف الغابات ثم يتوقف لأن الخيل أو الإبل لا تقوى على اختراق هذا النطاق .

والشعوب التى تدين لهذه الدولة بالطاعة تحتفظ بتقاليدها المحلية وبلغاتها لأن الحاکمین

والحكم في الولايات النائية ومناطق الأطراف بمعهد به عادة إلى فريق من النواب أو القواد قد يغريهم البعد بالطمع في الاستقلال أو الثورة ؛ وفي بعض الأحيان يولي أهل البلاد فيؤسسون بدورهم دولة تستقل عن الدولة الكبرى . وهذه الدول الكبرى كلما اتسعت في الرقعة كلما تناهت في السوء ، وبانت أشد تعرضاً للتفكك ثم الانهيار .

هذه الدول بعد قيامها تشتغل بالحياة الإسلامية ، وتتخذ مظهراً إسلامياً واضح المعالم يتمثل في أمور معينة . يتمثل في خروج الملوك المسلمين إلى الحج في مواكب حافلة . ثم اتصالهم بالقوى الإسلامية المختلفة المعاصرة في المغرب أو مصر تأكيداً لروح الأخوة الإسلامية التي يمرضها هذا الدين . يتمثل هذا في خروج سلاطين ملي وسنعي وبربو وكانم للحج ، ثم عملهم على الانصب بمراكز القرة في العالم الإسلامي .

ومن المظاهر أيضاً التشبه بالقوى الإسلامية في نظم الحكم ، فيقانون هذه النظم ويطبقونها في بلادهم ، مثل ما فعله بعض ملوك سغى في تطبيق بعض مظاهر النظم الإدارية التي شاهدوها في مصر .

ثم تتخذ هذه الدول اللغة العربية وسيلة للأداء والتعبير الرسمي ، فيتحدثون الكتاب من أصحاب العلم والمعرفة ، ومراسلات أمثال هؤلاء مع ديوان الإنشاء في مصر أوضح مثل لذلك .

ومن مظاهر هذا التعبير الإسلامي إحاطتهم ببطانة من العلماء والفهاء وأهل الفتيا ، وإنشاء المساجد ، وتشجيع الحركة العلمية ، وإيفاد الطلاب لمراكز لعلم في البلاد الإسلامية .

ثم يتبنون سياسة الجهاد توكيداً للروح الإسلامية التي علنت عليهم . ويكرن ميدان الجهاد في المناطق المصاوبة التي تنزل فيها الشعوب الوثنية .

وهذا الدور تتضح فيه مظاهر الالتقاء الحضاري بين الإسلام وتقاليدته وأنظمتها ، وبين التقاليد وأنظم المحلية ، وهي تشبه عملية التقاء الثقافة العربية بالثقافات القديمة في الشرق الأدنى . ثم ظهور أنماط جديدة جامعة بين هذا وذاك . فظهرت في هذا الدور أنماط من نظم الحكم جامعة بين المؤثرات الإسلامية والمؤثرات الرنجية .

ولمعرض هذه الدول التي ظهرت في هذا الدور مطبقين الأسس التي عرضنا لها فبين مدى انفعالها مع الحياة الإسلامية ومدى تحقيقها للمظاهر السابقة .

سلطنة ملي :

مظاهر قيام هذه السلطنة ثم توسعها واتحدارها ثم سقوطها بعد ذلك تتمثل فيه الظروف التي سبق أن أشرنا إليها في معرض كلامنا عن قيام هذه الامبراطوريات الإسلامية والتطورات التي مرت بها وظروف التي خضعت لها .

فقد أسسها شعب زنجي أصيل (١) هو شعب الماندنغو (٢) ، واسم هذه السلطنة يؤيد هذا القول ، فكلمة ملي تحريف لكلمة ماندنغو ومعناها المتكلمين بلغة الماندى . فالغولانسون يطلقون عليهم اسم مالى ، والبربر اسم مل أو مليت . والمؤرخون العرب يخلعون عليهم لقب مليل ، على حين نجد الحوصة يسمونهم بالوننجارة .

هذا الشعب الزنجي الخالص اعتنق الإسلام في آخر القرن الحادى عشر في الحركة الدافعة الكبرى التي صحبت قيام دولة المرابطين وعكوفهم على الجهاد في منطقة السودان الغربى .

وكان بعض هؤلاء الناس قد أنشأوا دويلة صغيرة انفصلت عن غانة ، وظفرت بنوع من الاستقلال الذاتي يطلق عليها المؤرخون اسم مملكة كانجبا kangaba .

هذه الدويلة التي أسلمت أرادت أن تشارك بنصيب في الحياة الإسلامية وأن تؤسس لها ملكاً إسلامياً خالصاً .

وكان توسع هذه الدولة يستجيب للأحداث السياسية المعاصرة ، ولعبت الدول المحيطة بها من القوة أو الضعف .

مصادق ذلك أن توسعها واستهلاكها لحركة دافعة من الفتح أو التوسع وقع في القرن الثالث عشر ، في الوقت الذي تفكك فيه ملك غانة بعد صراعها مع المرابطين (٣) . وبعد أن تسرب الإسلام إلى صفوفها على نطاق واسع .

وفي نفس الوقت كانت دول المغرب الإسلامى قد شغلت بشئونها الخاصة وبأحداثها فامبراطورية الموحدين كانت قد دهمها الانحلال والتفكك وانقسمت إلى دول صغرى متصارعة من أجل القوة والنفوذ .

(١) السلى : تاريخ السودان ص ٩ .

(٢)

(٣)

وقد توفرت لهذه الدولة النامية القوة بامتلاكها ناصية القوة العسكرية وتمركزها على أساليب القتال وتجنيد جيشاً قائماً من الحياة لتوالى بالقرم تبنيها لحركة الجهاد في سبيل الإسلام .

وضح هذا التطور في عهد ملكها اسندياتلا ، وكان مظهر هذا التطور استطاعة هذا الملك عام ١٢٣٧ م أن يقهر مملكة صوصو القوية ، وأن يصرع صاحبها في ميدان المعركة ثم التهامه ما نبي من شيوخ ملك غانة القديم (١) ، فأنفصح المجال أمام هذه الدول المتطلعة إلى النمو والقوة بعد تغلبها على غانة من ناحية وعلى صوصو من ناحية أخرى .

ومن مظاهر برور هذه الدولة في سماء الحياة السياسية ، وتطورها على هذا النحو ، اتخاذها حاضرة جديدة ترمز إلى الدولة وإلى قوتها النامية ونفوذها الممتد .

ويستفاد مما كتبه محمود كعت في كتابه « الفتاش » أن هؤلاء الملوك كانت لهم عاصمة قديمة تسمى جرية جاوزها إلى عاصمة جديدة اتخذت اسم « نياني » .

وقد أدت الحروب التي أجريت في منطقة النيجر في السنوات الأخيرة إلى تأييد ما ذكره هذا المؤرخ ، إذ تم الكشف عن موقع هذه المدن عند ملتقى النيجر بفرعه Sankaran (٢) .

واستمرت هذه الحركة التوسعية في عهدا اسندياتا ، واستمر هذا القصور الذاتي بعد وفاته في عهد خليفته منسي و (٣) (١٢٥٥ - ١٢٧٠) ، فاستولى على مناجم الذهب في ونجارة ، كما استولى على بموك وبولده .

ولم تتوقف الفتوح بعد منسي ولي ، وإنما استمرت في عهد خلفائه حتى وصلت الغاية في عهد ملك ملي الشهير منسي موسى (١٣٠٧ - ١٣٢٢) .

فقد استولت جيوشه على ولانة . ودخلت تنبكت ومنطقة جاو في النيجر الأوسط . وامتدت هذه الدولة في آخر العهد به إلى بلاد التكرور في الغرب ثم إلى دندى

Hoghben, pp. 30-34.

Hoghben, pp. 20-34.

(١)

(٢)

(٣) دائرة المعارف الإسلامية . مادة ملي

في الشرق ، بل امتد نفوذها شمالا إلى ولالة ، وأروان وتادمكة في قلب الصحراء (١) ، وأوعل نفوذها جنوباً حتى فوتا جالون .

وقد عدد القلقشندي الأقاليم التي انضوت تحت لواء هذا الملك الواسع وذكر منها : هلي وصوصو وغانا وكوكو تكرور .

بل يستناد من رواية القلقشندي أن آمال منسى موسى لم تقف عند حدود البحر بل امتدت إلى ما وراءه ، وكان هذا السلطان أراد أن يتبع توسعه البرى بتوسع بحرى باكتشاف معالم المحيط الأطلسى ، فأعد حملة مكونة من مائتى سفينة شحنها بالرجال والأرواد وأمرهم ألا يعودوا حتى يبلغوا نهاية البحر . ولما لم يعودوا سحز حملة أخرى فكان مصيب الإخفاق (٢) .

يذكر استيلاء هؤلاء السلاطين أن يسيطروا سلطانهم على سهل السفانة الفسيح من منطقة سمرقند في المغرب حتى منطقة شادى شرق بعد اجتلاكهم أعنة الخيل والإبل .

وقد نجم عن هذا كله تدفق الجزية في مبالغ ضخمة إلى خزانة الدولة . ثم احتكارها لسبع الملح والذهب وغيره من المعادن ، ثم سيطرتها على التجارة العالمية الراححة المنطلقة من مدن السودان إلى مدن المغرب وما صاحب هذا من العنى الفاحش والثراء الجهم الذى لوح من وصف كل من ابن بطوطة (٣) ولبير الأفرىقى ، ثم إنشاء العلاقات التجارية مع بلاد المغرب مع مصر .

وم كادت الدولة تبلغ الغاية من التوسع حتى بدت مظاهر الضعف فأغرق الملوك في انزف .

والقلقشندي (٤) يصرب ذلك مثلاً بالسلطان مارى جباطة بن منسى مغا ، الذى بدد الثروات فى ملذاته ونزواته ، وفقد الملوك المتعاقبون روحهم العسكرية ، وأت لأقاليم الخصعة تستقل الواحدة بعد الأخرى : استقلت حاو وأروان وولائه (٥) .

(١)

Page, p. 24.

(٢)

Page, p. 26.

(٣) القلقشندي - ص ٢٨٢ ، ٢٥٤ .

(٤) ابن بطوطة - ص ١٠٤ .

(٥) القلقشندي ج ٤ ص ٢٩٢ .

وبدأ الولوف والتكرور. يغيرون من الغرب ودولة الكانم من الشرق واستقلت إمارة سيكون لها شأن عظيم ، وهي إمارة سنغاي ، وانفسح المجال أمام شعب جديد سيظهر على مسرح الأحداث (١) .

ولا يعني لنا من سرية هذه الدولة إلا أن نبين كيف انفعلت انفعالا إسلامياً ، وكيف استطاعت أن تحقق من المظاهر الإسلامية ما سبق أن نوهنا عنه .

أول هذه المظاهر اتصالها بالقوى الإسلامية المختلفة وإظهارها لروح الأخوة الإسلامية . ظهر هذا من اتجاه هؤلاء السلاطين إلى الحج إلى مكة ثم زيارة مصر في الطريق .

وقد بدأت هذه الظاهرة منذ فجر قيام الدولة ، إذ أشار الفيلسوف الحروحي منسى ولي بن ماري جاطة (٢) للحج في عهد السلطان بيبرس .

وكان هؤلاء الحجاج يجتازون الدرب الصحراوي المعروف بطريق غات ، والذي يمتد من حد المدينة وينتهي عند أهرام مصر .

لكن هذه الصلات ظهرت في صورة واضحة قوية في عهد السلطان منسى موسى (٣) . الذي يعتبر موكبه من أروع مشاهد مواكب الحاج التي وفدت على مصر في القرن الثامن الهجري .

إذ بلغت عدة من جاء في ذلك الركب أكثر من عشرة آلاف شخص (٤) وبرغم ما في هذا العدد من مبالغة إلا أن يجيء ذلك الوفد الضخم أتاح للمصريين فرصة طيبة لمعرفة الكثير من أحوال تلك البلاد .

فالعمري في كتابه مسالك الأصبار يستمد معظم معلوماته عن الأمير أبي العباس أحمد بن الحاكى المهندار ، الذي مدبه السلطان الماصر محمد للإشراف على ضيافة هذا الملك . وقد ظهر ثراؤه الواسع . فقد بعث إلى الخزانة السلطانية بهدايا من بينها حمل كبير من الذهب الخام .

ولم يدع أميراً أو رب وظيفة إلا ونفحه من هذا الذهب ، كما أفاض على الحجيج وأهل الحرم بمكة وتصدق بكثير من الأموال هناك ، وأكرمه سلطان مصر ، وبعث إليه بالخلع ، كما كفّل له جميع وسائل الراحة للحج ، فزوده بالدرهم وأعد له الجمال والهجن ووفر له المؤونة .

ويبدو أن هذا الحج كان هدفه إظهار مظاهر البذخ ، وإكساب شخصيته من الهيبة والاحترام ما يمكن للملكة من البلاد ، ويبعث رعيته على الطاعة له وقد مهد شيبه إلى مصر ، وتقربه من سلطانها . مكناب أمسك فيه ناموساً لنفسه . مع مراعاة قوانين الآداب . . وحاطب فيه الناصر محمد بآيات التقدير والإجلال . وبعث إليه هبة مقدارها خمسة آلاف مثقال ذهب .

وفي هذا الكتب ، وفي هذه العلاقات ما يدل على روح الأخوة الإسلامية بين مصر وسنة الإسلام وبين السلطات الإسلامية الناشئة في غرب إفريقيا

وقد رسل ديوان الإنشاء بمصر ملوك تلك الجهات بدليل ما يوحّد في التعريف وصح لأشئ من نماذج لمكاتباتهم (١) .

وكان هذا استهلالاً لعلاقات ثقافية وتجارية واسعة (٢) ، فقد اشتهر هذا السلطان فرصة وجوده في مصر بابتاع جملة من الكتب الدينية ليوفر لأهل مملكته طرفاً من مآهل ثقافة المصرية .

وتبع هذا رحيل كثيرين من علماء مصر إلى تنبكت ، ورحيل علماء تنبكت إلى مصر . بل إن ابن بطوطة رأى هناك طبيباً مصرياً ، واشتملت حاشية السلطان منسى سبيان على ثلاثين مملوكاً من ممالك القاهرة .

كما وفد التجار المصريون إلى هذه البلاد ، ورحل تجار التنكارة إلى القاهرة بل سقرب طوائف من هؤلاء في مصر نشتغل بالتجارة أو العلم أو التصوف ، وهذا كله من مظاهر الأخوة الإسلامية الحقة .

وكان اتصال سلاطين على بمصر اتصلوا بملوك المغرب ، خصوصاً بالسلطان

(١) حامد عمار علاقات الدولة المملوكية بالدول الأفريقية ص ٥ .

Meek, vol I, p 62.

(٢)

أبى الحسن على المربني ، وانتزح منسى موسى فرصة استيلائه: على تلمسان. وبعث إليه بالتهنئة (١) ، كما بعث بالسفراء الدائمين إلى مدينة فاس .

وتوطد العلاقات الثقافية مع المغرب ، ليس في حاجة إلى إيضاح ، ويكفي أن عرى هذه الصلات لم تنفصم بحكم وحدة اتباع مذهب مالك (٢) . فقد كان فقهاء هذه المذاهب دائمي الاتصال بفقهاء السودان يتبادلون الفتاوى والتأليف والرحلات .

بل امتدت هذه العلاقات إلى الأندلس ، يدل على هذا ما يروى من استعانة منسى موسى بأحد أهل الأندلس (٣) لبناء القصور والمساجد ، وبذلك شاع الفن العربي الأندلسي في هذه البلاد .

ومن المظاهر الإسلامية فوق الحج وتوطيد صلات الأخوة إحاطة سلاطين على أنفسهم بالفقهاء والعلماء (٤) خصوصاً في عهد منسى سليمان الذي بنى المساجد والجوامع والمنارات ، وأقام بها اجمع وأجاعات والأذان وجلب إلى بلاده الفقهاء من مذهب مالك (٥) .

وقد اكتمت الحركة الإسلامية في عهدهم بسبب حركات الجهاد المتتابعة من ناحية ورحيل الفقهاء من ناحية أخرى .

حدث هذا كله في القرن الرابع عشر حينما زار ابن بطوطة هذه البلاد ورأى فيها حياة إسلامية أصيلة عريقة وعناء من مصر ومراكش ، وطلبة للعلم وحفاظا للقرآن .

وقد زارها ليو الإفريقي في النصف الأول من القرن الخامس عشر ، فوجد الحياة الإسلامية في غاية الازدهار بفصل الجهود المتصلة التي بذلها هؤلاء الملوك لخدمة الاسلام ، ونشر الثقافة الإسلامية (٦) .

(٢) القلقشندي - ٧ ص ٢٩٧ .

Dubois, p. 265.

(١) ابن خلدون - ٧ ص ٢٦٦

(٣) دائرة المعارف الإسلامية : مادة مل .

(٤)

(٥) القلقشندي - ٧ ص ٢٩٧ .

(٦) دائرة المعارف الإسلامية : مادة مل .

سلطنة سنغى :

ثم قدر لشعب فى آخر أن يؤدى نفس الدور الذى أداه شعب الماندينجو وأن يؤسس دولة تشبه الدولة السابقة فى كثير من مظاهر قيامها ، ثم توسعها ثم انحدرها ، ونشبهها أيضاً فى مشاركتها فى الحياة الإسلامية العامة .

فقد بدأت دولة صغيرة لا تكاد تختلف فى ظروف قيامها عن دولة غانا هجرة من بربر لحطة تدفقت على منطقة النيجر فى القرن السابع الميلادى واستطاعت أن تسيطر نفوذها على الفلاحين من أهل سنغى الذين ينشرون على صفة البحار الأوسط .

ثم بدأت هذه الدولة تنمو نمواً مطرداً فى ظل أسرة حاكمة من هؤلاء البربر (أسرة زار أوديا) التى اختلطت دماؤهم بدماء أهل البلاد الأصليين وقد أعادت من علاقاتها التجارية مع غانه وتونس وبرقه ومصر ومن طرق القوافل المارة بتادمكة

ثم بدأت المرحلة الحاسمة فى تاريخ هذه الدولة فى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى ، حين اعتنق ملوكها الإسلام وبدأ هذا الدين يتسرب بين صفوف أهلها .

اعتنق شعب سنغى الإسلام فى ظروف مشابهة لاعتناق أهل ملئ اعتنقه فى الحركة الإسلامية الضخمة التى اضططع بها المرابطون فى ذلك الوقت .

وليس بعيد أن نكون قد تلقى بعض التأثيرات الإسلامية الضخمة عن طريق هذه العلاقات التجارية التى نشأت بينها وبين المغرب الإسلامى (١) .

ولعل انتشار الإسلام على هذا النحو أو إفادتها من التجار هى التى دفعت سنغى إلى التماس حاضرة حديثة ... إذ انتقلت الدولة إلى مدينة حاو على مقربة من طرق القوافل الرئيسية التى تصل المغرب بالسودان .

ولم تستطع هذه الدولة الناشئة أن تقاوم الحركة التوسعية الكبرى التى تمت فى عهد موسى سلطان ملئ ، فحضعت لدولة ملئ ودانت لها بالطاعة وظلت على هذا الولاء حتى بدأت مظاهر الصعف تدهم ملك ملئ مؤذنة بتمككه وانهيائه .

وكان استرداد هذه الدولة لاستقلالها مؤذناً باندفاع توسعية لا تقبل عن اندفاعه
ملى من قبل .

وقد وضع هذا التطور في عهد ملكها سني علي (١٤٦٤ - ١٤٦٢) . الذي
هياً لدولته حيشاً قائماً منظماً ، ثم بدأ الزحف فاستولى على مدينة تنسكت ، وبدأ
ببسط نفوذ دولته الناشئة في سهول غرب إفريقيا (١) .

غير أن هذه الحركة التوسعية تظهر في صورة قوية واضحة في عهد اسكى
محمد ، فقد استكملت الدولة استعدادها العسكرى الموفور . وأفادت من الحركات
السابقة واتخذت هذه الحركة الجديدة مظهراً إسلامياً واضحاً حين اتجه هذا الفاتح
إلى مملكة موسى الرنجيه فأعلن الجهاد واستشار أهل العلم والورع (٢) .

بدأ بأد طلب إلى ملوك هذه الدولة الدخول في الإسلام أو دفع الجزية فلما
أبو حاربهم في ديارهم ، قتل رجالهم وحرب أرضهم وسب نساءهم .
ثم انساح فوق السهول لايكاد يعوقه عائق . فانبسط نفوذه غرباً إلى بلاد
الماندنجو والقولان وشمالاً حتى مواطن الطوارق . وامتد نفوذه جنوباً بعد
إخضاع مملكة موسى Mossi الوثنية .

وتجاوز سعى سني الآفاق التي وصل إليها سلاطين مى ، إذ تسرب
نفوذهم إلى شمال نيجيريا .

فهوجمت إمارات الخوصة كشن (كسينا) ، وعوبير وكنو ، وزنغره
وزاربا وخضعت كلها سنة ١٥١٣ .

وكان هذا الخضوع بداية لظهور الثقافة الإسلامية في هذه الجهات . فظهرت
مدن كانو وكاتسيا كمراكز للثقافة في هذا الجزء من نيجيريا .

وفي تاريخ السعدى أكثر من إشارة إلى علماء من تنسكت رحلوا إلى هذه
الجهات في ظل نفوذ سنى ، فأقاموا هناك يتفقهون في الدين ، وينشرون الثقافة
الإسلامية . فالخاج أحمد التنسكى عند عودته من الحج أقام بكانو زمناً يعلم الفقه

كما زارها مخلوف بن علي في سنة ١٥٢٠ م .
اسمه محمد بن أحمد تولى قضاء كتسبنا

وأشرف النفوذ الإسلامي المنتشر في ركاب سلاطين سنغري على منطقة
بحيرة شاد (١) .

لهذا كله نرى السعدي ومحمود يجمع التبركات وغيرهم يلتوتون هذا العهد بلون
زاه ، ويكاد وصفهم لإسكي محمد لفضائله وجهاده في سبيل الدين يرقى به
إلى مصاف الأولياء ، فنسوا إليه الكرامات والخوارق ، وسجوا حوله الأساطير .
ويحق لهم أن يفعلوا هذا ، فلم تصل دولة من دول غرب إفريقية إلى هذا
القدر من سرعة الزحف وامتداد السلطان .

فقد شمل نفوذ هذه الدولة منطقة السفان كلها في امتدادها من الشرق إلى
العرب

ومما أكسب هذه الفتوحات صفة القوة والدوام أن إسكي محمد وضع نظاماً
إدارية صالحة . تمكنه من السيطرة على هذه الرقعة من الأرض .

فقد نحد أربعة من نواب الملك عهد إليهم بحكم الولايات مع منحهم سلطان
المطلق . حاكم دندي ويشرف على المناطق الممتدة شرقاً حتى بحيرة شاد ،
وحاكم سكو الذي يولى المنطقة الواقعة بين العاصمة جاجو وبين مدينة نديك ،
ثم حاكم بال ويسيطر على الأقاليم الشمالية الغربية ومواطن الطوارق . أما الحاكم
الرابع فيتولى المشرق العربي الممتد إلى بلاد التكرور .

وجعل قوات الجيش القائم المنظم عدته في الغزو والفتح والجهاد ، صم
إليه فرقاً من فرسان البربر ثم فرقاً أخرى من أبالة الطوارق ، وفرقاً من المشاة .

ولم تستطع دولة أخرى أن تبلغ هذا المبلغ من تنظيم الجيوش والتحكم في هذه
القوى الماثرة . ولعل هذا القدر من القوة يعسر لنا سر هذا التوسع العظيم الذي لم
نألفه من قبل (٢) .

Meek, vol I, p. 66.

(١)

Dubois, pp, 131-134.

(٢)

ثم ينقضى عهد الفاتحين المجاهدين المؤسسين ورأى جيل من الخلفاء الذين ينقضهم هذا الإخلاص وهذه الرغبة في الجهاد بل ينجحون إلى الراحة والإغراق في الترف والنعم .

والفترة التي تلي عزل إسكي محمد ثم وفاته لم تحل من بعض السلاطين الذين توفرت لهم بعض مواهب هذا الرجل القذ إلا أنها حفلت بالمنازعات على العرش ، فهو صراع متصل بين الأخوة وأعمال تنسم بالعنف ومؤامرات واغتيالات وخوف متصل من المنافسين على العرش (١) ، فحادث النهاية على يد جيوش المغرب الأقصى التي تقدمت لفتح السودان سنة ١٥٩٠ (٢) .

وقد اتصل النزاع بين سلاطين سنغى وسلاطين مراکش على ساحم الملح الغنية الواقعة عند تعزة .

وتطور هذا النزاع إلى عدوان متبادل واشتباك مسلح ، ورأى المنصور سلطان مراکش الذي كان قد أبطره انتصاره على البرتغاليين عند القصر الكبير أن يحسم هذا النزاع بفتح بلاد سنغى مستغلا ما أصابها من ضعف وتفرق .

فأعد حملة مؤلفة من نحو أربعة آلاف من حيرة - عند مراکش بقيادة حودة باشا ، وعبروا الصحراء وهزموا قوات سنغى قرب عاصمتهم حاو ، ثم قضوا على آخر رمق في مقاومة سلاطين سنغى .

ولكنهم تبينوا أن هذه الحملة كلهتهم عاليا . فقد نوموا أن ما حازته دولة سنغى من ثراء عريض ليس مرده إلى ما ملكوه من مناحم غنية بالذهب . إنما تبينوا أن هذا الثراء كان سببه استغلال هذه الدولة للتجارة العالمية المتصلة بين الشمال والجنوب . وهذه التجارة لا تنمو ولا تدر الربح إلا إذا هدأت الأحوال ، وساد السلام واستتب الأمن .

وقد قضى الفتح المراكشي على هذا الأمن الذي استظلت به دولة سنغى ، فبارت التجارة وساء الحال .

Ibid, p. 136.

(١)

Fage, p. 30.

(٢)

ولم يستطع المراكشيون أن يمدوا نفوذهم إلى ما وراء المدن الرئيسية ، حتى
وتلك وجار . وكفوا بعد حين عن إرسال الجند أو المؤنة

وتركوا قواتهم هناك تقرر مصيرها بنفسها فنشأت أسرة محلية من باشوات
تدعى تدعى الناحية الإسلامية لسلطان مراكش ، وتعتمد على عنصر خليط من البربر
وأهل البلاد .

وقد تعاقب منهم على حكم تنبكت في المدة من سنة ١٦٦٠ إلى سنة ١٧٥٠
مائة وخمسة وعشرون من هؤلاء الباشوات (١) .

وبدأت دولة سنغى قد شابت دولة ملي من حيث تطورها العام . فإنها
قد شهدت في اتخاذ مظهر إسلامي واضح . بل فاقها في هذه الناحية وهذا
تطور سريعي فقد امتد سلطان سنغى إلى القرن السادس عشر . واستطاع الإسلام
بعد ذلك أكثر من ثلاثة قرون أن يقطع خطوات واسعة في سبيل النمو والانتشار .

وقد سعى ملوك سنغى كما سعى ملوك ملي من قبل إلى الاتصال بالقوى الإسلامية
للمصره لتحقيقاً لروح الأخوة الإسلامية .

وقد خرج إسكى محمد إلى الحج ومر بمصر سنة ٨٩٩ هـ في موكب حافل
لا يخلو عن موكب ممسّى في روعته وأهله وفخامته .

وأعقد أكثر مما أعقد سلفه . فقد روى السعدى مثلاً أنه تصدق في الحرمين
بمائه ألف مثقال من الذهب واشترى بساتين في المدينة المنورة حشم على أهل
تكرور .

واحتدح في موسم الحج يزعماء المسلمين وتأثر بما رآه في مصر من نظم في
حكم راقية ومن ثقافة عربية مزدهرة . فاتصل بالإمام السيوطي وغيره من
علماء العصر ونقّى تقليداً من الخليفة العباسي .

وعاد إلى بلده متأثراً بما رآه من روح إسلامية خالصة . وعمل على تطبيق
ما نفعه من آراء وتجارب . ويقال إنه استهدى في تنظيماته الإدارية بالنظم التي
شهد بها في مصر (٢) .

وامعن في إحاطة نفسه ببطانة من العلماء . وروى صاحب تاريخ السودان
وصاحب تاريخ الفتاش تفاصيل كثيرة عن تقدير هذا السلطان للعلم وأهله . فإذا
دخلوا عليه أنجلسهم على سريرهم وقربهم وأمر بالأيقة أحد إلا للعلماء أو الججاج
والأياكل معه إلا العلماء والشرفاء وأولادهم . ولا يفتأ يسأل عن سنة الله
ورسوله (١) .

ويشير صاحب الفتاش إلى بعض آراء الإصلاحية التي تنسب إلى هذا السلطان
فقال : « وأبطل البدع والمنكر وسدك السماء وأقام الدين أتم قيام وجدد الدين
وأقام العقائد (٢) » وأولى جامعة تفكت المزبد من عابته فتفوقت في عهده
ووصلت إلى ما لم تصل إليه من قبل .

وأصبحت هذه السياسة الإسلامية سياسة مقرررة للحلفاء ، فإسكى اسحق
يسر في نفس الطريق من تشجيع العلماء وإكرامهم والأيخذ بيدهم (٣) ، وهذا
إسكى داود يتخذ خرائن الكتب « وله نسخ يسخون وكتبة » . وربما (٤) هادى
العلماء . وقيل انه حافظ للقرآن وقرأ الرسالة فأتمها وله شيخ يعلمها وبأثيه
الشيخ بعد الروال ويقرئه إلى الطهر (٥) .

فكان دولة سنغى شهدت تمكن الإسلام من أهل عرب إفريقية وازدهار
الثقافة الإسلامية إلى أبعاد الحدود .

انتشار الاسلام صوب الشرق

واضح إذن أن التيار الإسلامى كان يتدفق من بلاد المغرب ويتجمع في
منطقة السنغال والبلاد الواقعة بين منحى النيجر في الشرق ونهر السنغال في
الغرب ، ويتركز على الخصوص في المراكز الإسلامية التي ظهرت في هذا الجزء من
القارة .

(١) الفتاش ص ٥٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٨٧ .

(٤) المرجع السابق ص ٩٤ .

(٥) المرجع السابق ص ٩٤ .

من هذه المراكز كان الإسلام يتقدم صوب الشرق في حركات ملحمة مطردة :
 وما على بد التجار الذين يؤسسون أفقاً ينشيطهم صوب الشرق أو في ركائب الفاتحين
 من سلاطين ملي وسنغلي .
 إمارات الخوصة :

وقد جاوز الإسلام منحى النيجر متجهاً صوب الشرق إلى المنطقة الواقعة شمال
 نيجريا الحالية إلى حيث شعب الخوصة :

وهذا الشعب يمثل هجرة من هجرات البربر الذين كانوا لا يكفون عن المضى
 صوب الجنوب كما أتاحت لهم الفرص .

ذلك أن غارات الهالبيين منذ القرن الحادى عشر فصاعدا دفعت فريقاً من المشمين
 إلى الهجرة إلى واحة أبر ، كما دفعوا إلى الهجرة أيضاً بعض قبائل من البربر من غير
 الملتزمين وقد عاش "مريقان حنباً" لجنب فترة طويلة ، وتزأوجا ثم اندججا (١) ، ومن
 هذا الاندماج نشأت شعوب الخوصة ولم تعد واحة أبر تكفى هذا العدد من
 السكان ، فبدأ الخوصة يسكنون عن مهاجر جديدة ، فانطلقوا صوب الجنوب إلى
 شمال نيجريا ، وكونوا لأنفسهم إمارات صغيرة بلغ عددها سبعة أقدمها إمارة بريم .
 وإمارة غوبير وكابوا وكاسينا وزاريا وزنقرة (٢) .

حتى بدء القرن الرابع عشر ، فإذا بالخوصة لا يزالون على وثنيهم . يستعاد هذا
 من رواية ابن بطوطة الذى زار هذه البلاد سنة ١٣٥٣ م ، وعجب لأن أهلها لا زالوا
 على الوثنية .

ثم بدأ الإسلام يتدفق إلى هذه الإمارات من الغرب ، يدل على هذا ما يرويه
 تاريخ المدينة كاسو من أن فريقاً من الفقهاء يزيدون على الأربعين رجلاً ، قد وفدوا
 على هذه المدينة فعلموا ما كمها الإسلام ، وأسسوا مسجداً ، وأقاموا فيه يعلمون الإسلام ،
 وبذلكون الشريعة الإسلامية .

وليس بعيد أن يكون سلاطين ملي قد بسطوا على الأقل نفوذهم الروحي في هذه

البلاد .

ويبدو أن ثمة تأثيرات إسلامية أخرى دخلت البلاد من الشرق ، ويبدو أن فقهاء المغرب قد شاركوا في هذه الجهود السلمية لنشر الإسلام بين شعب الحواسة ، مثل الجهود التي بذلها فقيه توات الشهير محمد بن عبد القادر المغيلي (١) .
وقام أهل برنو بجهود مماثلة في الفترة الواقعة بين سنتي ١٤٣٨ و ١٤٥٠ (٢) . ومضى الإسلام قدماً في البلاد ، حتى كان آخر القرن الخامس عشر حين بدأت كانوا وكنسينا تبرزان في ميدان الثقافة الإسلامية .
وقد رأينا كيف أن علماء من تنبكت وجنى قد رحلوا إلى هذه المدن وأقاموا بها يعلمون فقه مالك .

ومضت الحركة الإسلامية حينما استطاع إسكى محمد سلطان سعى أن يسط نفوذه على هذه الإمارات في القرن السادس عشر .

وبدأت مدن الحواسة تزداد تالفاً وسعة في انتمود عى دى قبل خصيصاً بعد سقوط سنغى واحتلال المراكشيين لبعض بلادهم .

وتعرض علماء تنبكت وجنى للكثير من المظالم والمحز ، فاضطروا إلى الهجرة صوب الشرق التماساً لأوطان أكثر أمناً وطمأنينة .

ورغم هذه الجهود التي اتصلت منذ القرن الرابع عشر فإن الإسلام لم يغلب على البلاد ، تماماً فقد بقيت جاليات وثنية كبيرة حتى القرن التاسع عشر (٣) .

سلطنة كام و برنو :

ولم يقف الإسلام عند حدود نيجيريا بل عاود انطلاقه صوب الشرق فنفذ إلى منطقة بحيرة شاد حيث قامت سلطنات إسلامية مثل سلطنة كام و برنو تشبه من وجوه كثيرة السلطنات التي حفل بها تاريخ ذلك العصر في السودان الغربى : مثل ملو وسنغى ، وقد اتخذ تاريخها نفس المجرى ، وتعرضت لنفس الظروف ، ومرت بنفس .

(١) Meek, vol. I, p. 89 .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية : مادة حواسة .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية مادة حواسة .

الأدوار ، ومثلت ذورها المرسوم في سميذان الحياة الإسلامية بنفس العمق والاصالة التي شهدناها في السلطنات السابقة .

تشابه حتى في البداية الأولى التي شغلت الفترة الواقعة بين سنتي ٨٠٠ و ١٢٥٠ م ، هجرات من البربر تتدفق إلى شرق بحيرة شاد وغربها ، كما تدفقت هجرات مماثلة إلى جميع أرجاء غرب إفريقيا .

في هذه الفترة هاجر الزغاوة وهم شعب جمع بين المؤثرات الزنجية والحامية ، وانتشروا في مسهل هذه الفترة في مساحة رحبة تمتد من بلاد دارفور حتى بحيرة شاد (٢) .

وبدو أن الزغاوة ظلوا على لوثنية حتى النصف الأول من القرن الحادي عشر ، هالكري الذي كتب عن هذه البلاد في هذه الفترة يذكر أنهم لازالوا على الوثنية .

حتى إذا مضى القرن الحادي عشر وبدأ القرن الثاني عشر تعرض الزغاوة لهجرة جديدة من الطوارق . هجرة من التبو واتدا .

هذه الهجرة لم تكن شاملة بالصورة التي نتوقعها ، إنما كانت على هيئة أرستوقراطية حاكمة تملك مصادر القوة والعمود ، وتستطيع عن طريقها أن تحصع شعب الزغاوة لسلطانها

هذه الارستوقراطية الحاكمة أنحلت أول أسرة مالكة تسيطر على المنطقة الواقعة شرق البحيرة ، وتؤسس سلطنة كانم التي كان لها شأن و تاريخ السودان .

وما يلفت النظر أن ملوك هذه الأسرة يطلقون على أنفسهم اسم بني سيف يدعون نسباً حميرياً يصلهم بسيف بن ذي يزن .

وهذا النسب يؤكد لنا صحة انحدرهم من أصل ملثي ، لأن الملثيين جميعهم من صنهاجة الجنوب ينتسبون إلى الحميريين .

وكان طبيعياً أن يحتفظ بنو سيف بهذه القرابة الوثيقة . وأن يحافظوا على هذا النسب التقليدي (١) .

ويبدو أن ظهور هذه السلطنة في ظل هذه الأسرة الحاكمة كان مرتبطاً بدخول الإسلام إلى أرض كانم ، والذين عرضوا لتاريخ هذه السلطنة يختلفون في الوسيلة التي دخل بها الإسلام هذه النواحي ، فبالمر مثلاً (٢) يرى أن هجرة أموية دخلت هذه البلاد قادمة من مصر ، ويشير في مواضع أخرى إلى أن فريقاً من فقهاء المالكية فروا من مصر في عهد الخليفة العاطمي الظاهر لإعزاز دين الله ، والتجأوا إلى بلاد كانم وعملوا على نشر الإسلام بين أهلها ،

ويعتقد أن الإسلام دخل في ركاب هذه الأسرة الحاكمة ، وأن إدخال هذا الدين هو الذي مكن لها من السيطرة على البلاد والوثوب إلى كراسي الحكم .

ورواياتهم المحلية تؤيد هذا بقولها إن الهادي العثماني (٣) جد الأسرة الحاكمة هو الذي أدخل الإسلام إلى البلاد ، وإن كان صاحب كتاب الاستبصار يرد انتشار الإسلام في البلاد على نطاق واسع إلى سنة ٥٥٠ هـ (سنة ١١٠٦ م) . وبعض الروايات الأخرى ترجع إدخال الإسلام إلى حكم الملك أوى (٤) .

إذن دخل الإسلام في ظل الأسرة الحاكمة في آخر القرن الحادي عشر ثم نتت أقدامه وتوطد في القرن الثاني عشر . وهذا لا ينفي تدفق تيارات إسلامية أخرى من مصر أو المغرب (٥) .

وكان اعتناق الأسرة للإسلام ثم انتشار الإسلام على نطاق واسع بين أهل البلاد إيذاناً باطلاقهم نحو العلاقات الدولية والتوسع والغنى والشهرة ،

ومن الغريب أن هذه الشعوب تظل مجهولة حتى تعتنق الإسلام فتظهر على مسرح الأحداث ، ويدخل تاريخها في عهد من النور والوضوح (٦) .

Palmer, p. 6.

(١) الفلقشدي : صبح الأمانى - ص ٢٧٩ .

(٢) Palmer, p. 6.

(٣) الفلقشدي - ص ٢٨١ .

Palmer, p. 14.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية : مادة كانم

(٥) الفلقشدي - ص ٢٨١ .

(٦) Barth, vol. II, p. 72.

وقد انطلقت هذه الأسرة تتوسع في أواخر القرن الثالث عشر في عهد ملكها
دونامة الأول وسليمان وخليفته ، فانتشر نفوذها حتى بلغ حدود مصر وطرابلس
وبيجيريا في الغرب (١).

واتسعت تجارتها ، وتدفقت الزوايا إلى خزائنها . وفي نفس الوقت تقريباً
رسمت الحركة العلمية في البلاد ، وتوطدت اتصالاتها الثقافية بمصر والمغرب وغرب
إفريقية .

ثم حدث ظروف أدت إلى انتقال السلطان إلى فرع آخر من هذه السلالة ثم انتقال
مركز النفوذ من شرق البحيرة حيث بلاد كانم ، إلى غربها حيث بلاد برنو .

قامت سلطنة برنو في حجر نفس الأسرة . ذلك أن قبائل اللالة (٢) من أهل
البلاد الأصليين ثرت على استبداد الأسرة الحاكمة ، وأعلنت الحرب واقتحمت
عاصمتهم جيبي (٣) ، وطردت الملوك من بلاد كانم ففروا إلى غرب البحيرة على
الحو الذي ذكرناه ، تمت هذه النقلة في عهد السلطان عمر بن إدريس (١٣٩٤ -
١٣٩٨) .

ثم عودت سيطرة برنو ظهورها في سماء الحياة الإسلامية فقد استطاعت في عهد
ملكها ماي على أن تنصع للبلالة الثائرين وأن تبسط نفوذها على شرق البحيرة وأن
تجمع كانم وبرنو في سلطنة موحدة (٤) .

ثم بلغت أوج توسعها في القرن السادس عشر . فقد تخلصت من متاعب البلالة ،
ومكنت لها الأحوال الدولية المعاصرة من مواصلة سياسة التوسع فالمغرب شهد تسرب
النفوذ العثماني إلى الجزائر وتونس وانشغل المغاربة بمداغة الخطر الأسباني والبرتغالي .

ثم سقطت مملكة سنغاي ووقعت هذه البلاد سبياً للفوضى والاضطراب في ظل الحكم
المراكشي .

(١) Barth, vol II. p. 372 .

(٢) Hegben . op. cit. p 37 .

(٣) القلقشندي ج ٥ ص ٢٨١ .

(٤) Meek, vol, p. 80 .

١٧١ وقد تمت من أكثر برنو الثقافية مزدهرة في ظل الأمن والطمأنينة ، والرحالة ليو الإفريقي زار هذه البلاد في ذلك العصر ، ورأى مبلغ ما نعتت به من شهرة واسعة ، ومن أدلة هذه الشهرة ظهور هذه السلطنة على الخرائط البرتغالية المعاصرة (١) ، وامتد نفوذ برنو غرباً في عهد ماي على فواصل بقايا نفوذ سنغبي وبسط نفوذه على إمارات الحوصة .

وبلغت هذه السلطنة أوج قوتها في عهد إدريس ألوما الذي استطاع بعد حصاره على الأسلحة النارية أن يقهر شعوب الوثنية في الجنوب وأن يبسط نفوذه شمالاً حتى واحه أير (أمير) ومناطق الندا والتو (٢) . وهر يشبه من وجوه كثيرة إسكى محمد سلطان سنغبي الشهير .

وقد مرت سلطنة برنو بفترات من الضعف والانحلال في القرن السابع عشر ، ولكنها بقيت حتى القرن التاسع عشر . وساعدها على البقاء اضطراب أحوال العالم الإسلامي ، وتفرق شعوب غرب السودان والمغرب .

وقد قامت سلطة كانم وبرنو في الحياة الإسلامية بنفس الدور الذي قامت به سلطة ملي وسنغبي من حيث اتصالها بالبيئات الإسلامية المجاورة والدول الإسلامية المعاصرة ، تأكيداً لروح الأخوة الإسلامية . وإفادة من الخبرات الثقافية والعلمية .

فقد سعى هؤلاء السلاطين إلى مواسم الحج ، ومروا في طريقهم بمصر شأنهم شأن السلاطنتان الأخرى ، فالسلطان دوناما سلطان كانم خرج حاجاً في القرن الحادى عشر ، ومر بمصر في طريق السفر والعودة ، ويقال إنه ترك بمصر نحواً من ثلاثمائة من العبيد (٣) .

ولا بد أن أمثال هذه الزيارات قد تكررت . ولا بد أن صلة كانم قد توطدت بمصر ، فقد كانت أقرب هذه السلطنات من الطرق التي تسلك الصحراء الغربية في طريقها إلى واحات مصر .

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة برنو .

Hogben, p. 40.

Palmer : Bornu, Sabara and Sudan, p. 91

(٢)

(٣)

وقد حفظ لنا ديوان الإنشاء رسالة طريفة تبودلت بين سلطان برنو سنة ١٣٩١ م وبين سلطان مصر برقوق ، وردت هذه الرسالة في كتاب القلقشندي وجاء فيها من المتوكل على الله تعالى الملك الأجل سيف الإسلام وربيع الأنام الملك المقدم القائم بأمر الرحمن المستنصر بالله المنصور في كل حين وأوان ودهر وزمان ، الملك العادل الزاهد بن عمرو وعثمان الملك بن إدريس الحاج أمير المؤمنين المرحوم كرم الله ضريحه ، إلى ملك مصر الجليل أرض الله المباركة أم الدنيا .

ثم مضى في هذه الرسالة يشكو من الأعراب الذين « يسمون جذاماً وغيرهم قد سبوا أحرارنا من النساء والصبيان وصغار الرجال فقاموا على المسلمين فقتلوهم قتلاً شديداً » . وهؤلاء الأعراب قد أفسدوا أرضنا كلها في بلد برنو كافة حتى الآن وسبوا أحرارنا وقرائنا من المسلمين أو يبيعونهم لجلاب مصر والشام وغيرهم ، ويضطهدون بعضهم . فإن حكم مصر قد جعله الله في أيديكم من البحر إلى أسواق فإنهم قد اتحدوا متحراً فسعث الرسل إلى جميع أرضكم وأمرائكم ووزرائكم وقصائكم وعلمائكم وصراحت أسواقكم بنظرون ويبحثون ويكشفون ، فإذا وجدوهم فلينزعوهم من أيديهم « (١) » .

وأبلغ دليل على اتصال العلاقات الودية بين كاتم وبين مصر ، أن طائفة من أهل كاتم حلوا إلى مصر ، وأقاموا بها واشتركوا بنصيب موفور في تجارتها الخارجية . واشتغلت هذه الطائفة بتصريف المحاصيل السودانية ، وبتجارة الرقيق ومارسوا تجارة البهار من اليمن والهند والصين .

وقد اتخذت هذه الطائفة مدينة قوص مركزاً لها فأصبحت سوقاً تجارياً حافلاً بمحتحات إفريقية الوسطى والمغرب واليمن والهند .

وكونوا لهم نقابة قوية هيمنت على التجارة واحتكرتها ، وأقاموا على نقابهم رئيساً معترفاً به من قبل الحكومة .

وقد نمت ثروة بعضهم نمواً عظيماً بحيث أصبحوا يقومون في عالم التجارة بما

تقوم به للبنوك الحديثة ، ويقضون السلاطين في مصر والبلاد المجاورة (١) . ولم يرحل الكائنون إلى مصر تجاراً إنما رحلوا إليها طلاب علم ، التحقوا بالأزهر ، وأنشأوا في مصر مدرسة لتعليم مذهب مالك (٢) بالفسطاط ، وعادوا إلى بلادهم يتابعون نشاطهم الثقافي .

وقد اتصلوا بالمراكز الإسلامية الأخرى . اتصلوا بتونس (٣) في عهد بني حفص . اتصالات تجارية وثقافية مختلفة ، واتصلوا بكانو وتنبكت وجنى وجاو ، وعملوا على تشجيع الحركة العلمية في بلادهم بتقريب العلماء والفقهاء والإغداق عليهم ، وأنشأوا المساجد وأوقفوا الأوقاف على طلبة العلم (٤) .

كما عملوا على نشر الإسلام والجهاد في سبيله ، واستخدموا الأسلحة النارية في السيطرة على القبائل الوثنية الواقعة إلى الجنوب منهم ، وأدخلوا الكثير منهم في الإسلام . وإليهم يرجع الفضل في بسط لواء الإسلام في منطقة بحيرة شاد كلها ، وأسهموا في نشر الإسلام في بلاد الحوصة .

طابع الإسلام والثقافة العربية في دور الازدهار

هذا الدور من تاريخ الإسلام في عرب إفريقيا يمتاز بطابع واضح كل الوضوح ، فقد تم فيه الامتزاج الكامل بين التقاليد الإسلامية الوافدة وبين التقاليد الزنجرية المحلية ، وتمت الملاءمة بين هذين العنصرين بعد انتهاء مرحلة الانتقال الساقطة ، وظهرت تقاليد إسلامية إفريقية ، إسلامية الشكل والطابع . إفريقية الروح .

تنضج هذه الحقيقة من دراسة ما رواه الرحالة والجغرافيون الذين زاروا هذا الجزء من إفريقيا مثل ابن بطوطة ، أو ما ذكره القلقشندي الذي عرض لنماذج من

(١) حامد عمار ص ٥٨ .

(٢) أسست هذه المدرسة بين سنتي (١٢٤٢ - ١٢٥٣) م دائرة المعارف الاعلامية كاتم القلقشندي ج ٥ ص ٢٨١ .

Hogben : op. cit. p. 36.

Palmer, p. 48.

(٣)

(٤)

الحياة ولصور من نظم الحكم اقتبسها من الكتاب الذين سبقوه ، أو من أهل تلك البلاد الذين عاصروه .

وتتضح هذه الصور أيضاً من إشارات كثيرة وردت في ما كتبه مؤرخو السودان مثل السعدى صاحب كتاب تاريخ السودان أو محمود كمت صاحب كتاب الفتاش ، وصاحب تذكرة النسيان أو تاريخ كانوا .

هذه الروايات والأخبار المتعلقة بنظم الحكم وبعض أوجه الحياة الاجتماعية المعاصرة ، تشعر بأنها في مجتمع إفريقي صميم اكتسب الثوب الإسلامى أو الصبغة الإسلامية .

وهذه طبيعة الإسلام في أى بلد حل فيه ، يتق من التقاليد ومن النظم ومن مظاهر الحياة مالا يتعارض مع تقاليد الإسلام أو روحه .

فالقلقشدى يتحدث عن تقاليد البلاط في سلطنة ملئ فيشير إلى جلوس السلطان على (مصطبة) كبيرة عليها دكة من أبنوس تحيط بها أسان الفية من كل صوب ، وعن رجل مهمته أن يكون سفيراً بين السلطان والناس اسمه الشاعر ، وعن المحيطين بالسلطان وببدهم طبول يدقون عليها ويرقصون ، وعن تقاليد السلطان بأن لا يدخل عليه أحد متعللاً . وعن تقاليد السلطان حينما يعود من سفر يحمل على رأسه الجتر ، وينشر علماً ، وتضرب أمامه الطبول والطاير والبوقات (١) .

ثم وصف ابن بطوطة لبلاط نفس هذه السلطنة لا ينقلك من هذا الجو الإفريقى الخالص ، داره المرتفعة التى تطل على المشور (دار الشورى) ولها طيقان ثلاثة من الخشب مغطاة بصفائح الفضة ، وما تحبها من طيقان أخرى معطاة بالذهب وعليها الستائر .

فإذا نهى للحلوس رفعت الستائر إيذاناً بذلك ، فإذا جلس أخرج من شبك إحدى الطاقات « شرارة حرير » قد ربط فيها منديل (٢) .

فإذا رأى الناس المنديل صربت الصول والأبواق ، فإذا خرج من باب القصر

(١) القلقشدى - ص ٢٨١

(٢) ابن بطوطة ج ٢ ص ١٩٢ .

مخرج إمامه نحو ثلاثمائة من العبيد بأيديهم القسي والرماح والدروع ، ويضطف أصحاب الرماح بحبة ويسرة ، ويجلس أصحاب القسي ثم يؤتى بفوسين مسرجين .
وعند جلوسه يخرج ثلاثة من العبيد مسرجين ، فيدعون ناذيه ، ثم يحضره الفوارية وهم الأمراء ثم الخطيب والفقهاء ، ويقف الترجمان على باب المشور في ثياب فاخرة متقلداً سيفه وغمده من الذهب ، وفي رجله الخف والمهاميز (١) .
والرحالة الغريب مثل ابن بطوطة تسرعى انتباهه الأمور الغريبة التي لم يألّفها في بلاده ، فهو يلاحظ أن السودانيين من أعظم الناس تواضعاً للوكلهم ، وأشدّهم تذلاً ، وأن من تقاليدهم التمرغ في التراب إظهاراً للخضوع ، إذا تكلم السلطان وضع الحاضرون عما عندهم من رؤوسهم وأنصتوا .

وروى ابن بطوطة أن رسول سلطان ملّي إلى بني مرين « كان إذا دخل المجلس الكريم حمل بعض ناسه معه قفة من تراب فيترّب مهتماً قال له السلطان كلاماً حسناً » (٢)
ثم يسترسل ابن بطوطة في وصف هذه المشاهد الغريبة فيتحدث عن الترجمان الذي يعنى بشعر مدح السلطان فيه ، ويذكر غزواته وأفعاله . ويعنى النساء والجواري معه يلعبن بالقسي ، ويكون معهن نحو ثلاثين من غلمانهم عليهن جيايات الملف الأحمر ، وفي رؤوسهم الشواشي البيض ، وكل واحد منهم تقلد طيلة (٣) . ثم بعض الشعراء الذين يرتدون الملابس التنكرية صورة مصنوعة من الريش تشبه الشفشاقي ، وما رأس من الخشب له منقار أحمر ويقفون بين يدي السلطان بهذه الهيئة « المصحكة » فينشدون أشعارهم (٤) . وابن بطوطة يفسر هذا معلقاً بقوله « إن هذا الفعل لم يزل قديماً عندهم قبل الإسلام فاستمروا عليه » ! (٥) .

ولم يتفرد سلاطين ملّي بهذا اللون الفريد من الحياة ، إنما كانت طاهرة شاعت في هذه البيئة الزنجية كلها ، فنلمح من رواية السعدى عن سلاطين سنغى وحياتهم

(١) ابن بطوطة ج ٢ ص ١٨٩ .

(٢) نفس المصدر ص ١٩٢ .

(٣) نفس المصدر ص ١٩٢ .

(٤) نفس المصدر ص ١٩٢ .

(٥) السعدى : تاريخ السودان ص ٨١ ، ١٠٠ ، ١١٤ ، ١٢١ ، ٢٢٥
(م ١٦ - الإسلام في إفريقيا)

ومواكبهم وعاداتهم واحتفالاتهم واحترام الناس لهم ما يوحى بأن ما رواه ابن بطوطة عن أهل ملي شاع عند أهل سنغني وعند غيرهم من شعوب غرب إفريقيا (١).

نلاحظ نفس هذا النمط من التقاليد الإسلامية المختلطة بالتقاليد الإفريقية فيما يروى عن حياة الأمراء في إمارات الحواسة السبع في شمال نيجيريا.

وفي بلاد كانم وبرنو كتب القلقشندي مسجلاً صورة من هذه التقاليد المحلية غير المألوفة ، فذكر « أن ملك كانم لا يراه أحد إلا في يوم العيدين . أما في سائر السنة فلا يظهر لأحد ولو كان أميراً إلا من وراء حجاب » الأمر الذي يدل على تأثير هؤلاء الملوك بالمألوف من حياة الطوارق المثلثين في الصحراء.

ومع هذا كله تحس من حياة الملوك والرعية أن ثمة مظاهر إسلامية صرفة أو عربية حاضرة .

كما نلمح في هذا المجتمع الطابع المعروف عند المتبعين لمذهب الإمام مالك من التزمّت والشدة في الدين وتمسك الفقهاء بالتقاليد وعزوفهم عن مصاحبة السلطان . وتولى الوظائف ، ثم تعلّظهم في صميم الحياة وتمتعهم بالزعامة الدينية الشعبية . نفس الصورة التي نلاحظها في المغرب الإسلامي .

ثم تفدير السلاطين هؤلاء الفقهاء واحترامهم ، يرورونهم في بيوتهم ويستفتونهم ويأتمرون بأمرهم . وحرّت العادة على أن من يلحاً للمسجد أو دار الفقيه أو الخطيب أمن العقاب ، ولم يجرؤ أحد على التعرض له بسوء (٢) .

هذه الروح المملوكية تظهر من التشدد في الدين إلى أبعد الحدود . فقد لاحظ ابن بطوطة هذا الطابع في سلطنة ملي حينما استحسن منهم قلة الظلم « فهم أبعد الناس عنه والسلطان لا يسامح أحداً في شيء منه وعدم تعرضه لمال من يموت في بلادهم ومواظبتهم على الصلوات والتزامهم لها في الجماعات ، وصرهم أولادهم عليها وازدحام المساجد بالمصلين حتى إذا لم ييكر المرء بالذهاب إلى المسجد لم يجد موضعاً (٣) » وفي حرصهم الشديد على حفظ القرآن وتعليم الدين .

(١) القلقشندي ج ٥ ص ٢٨٣ .

(٢) ابن بطوطة ج ٢ ص ١٩٣ .

(٣) ابن بطوطة ج ٢ ص ١٩٣ .

هذا الطابع من الحياة الدينية المطبوعة بطابع مذهب مالك يلحظها في تقاليد سلاطين سنغلي ، وفي حرصهم على التقاليد وتمسكهم بالدين إلى أبعد الحدود .

وقد شاعت هذه التقاليد في غرب إفريقيا كلها حيث يسود مذهب مالك ، وعلق القلقشندى على هذه الظاهرة عند أهل كانم بقوله « يتمذهبون بمذهب مالك الإمام ذوو اختصار في اللباس ، يابسون في الدين » (١) .

ولا نكاد نجد أسره حاكمة في هذا العصر إلا وقد اصطنعت لنفسها نسباً عربياً فسلطين ملي يدعون الانتساب إلى عبد الله بن صالح بن الحسن بن علي ، وانتسب سلاطين كانم وبرنو إلى حمير ، واتخذ سلاطين سنغلي مثل هذا النسب العربي ، هذا كله ليكتسبوا صفة إسلامية كاملة وليفوزوا برضا الرعية وتقدير المعاصرين ، وليمسحوا لأنفسهم مجالا في الحياة الإسلامية الدولية .

ولم يعدم الأمر أن يقتبسوا من التقاليد الشائعة في الحياة الإسلامية المعاصرة ، فهم في لباسهم يتشبهون بأهل المغرب يرتدون عمامة بحتك مثل المغرب وملبسهم شبيه بلبس المغاربة : جناب ودراربع بلا تفريج وهم في ركوبهم كأنهم العرب (٢) .

وتأثر كل من منسى موسى وإسكى محمد بأساليب الحياة في مصر المملوكية ، فاقتبسوا منها ما وافق طبيعة بلادهم ، فسلطان ملي مثلاً يتخذ حاشية من ثلاثين مملوكاً من الترك اشتراهم من مصر ، وكانت وثائقهم ومكاتباتهم الرسمية تكتب كلها باللغة العربية (٣) .

هذا عن بعض ألوان من نظم الحكم والحياة الاجتماعية ،

أما عن الثقافة الإسلامية ، فإنه يمكننا أن نقول في اطمئنان أن هذه الثقافة كان طابعها عربياً صرفاً لم تدخله أية تأثيرات أخرى ، لسبب واضح هو أن هذه الشعوب الزنجية التي اعتنقت الإسلام وتشربت ثقافته العربية لم تكن لها تقاليد ثقافية مثل تقاليد

(١) القلقشندى - ص ٢٨١ .

(٢) القلقشندى - ص ٢٩٨ .

(٣) مراسلات سلاطين برنو مع مصر وكذلك وثائق برنو التي نشرها .

الإيرانيين أو الإغريق التي أثرت في الثقافة العربية في بيئات الشرق الأدنى . حصلت هذه الثقافة إلى بلادهم وتقبلوها كما هي .

هذه الثقافة ذات طابع مغربي بحت واضح بكل الوضوح ، وهذا طبيعي لأن الإسلام دخل هذه البلاد من المغرب فحمل معه إلى غرب إفريقيا تقاليد المغرب وثقافته . وقد تدفق الإسلام من بلاد المغرب إلى غرب إفريقيا على نطاق واسع منذ القرن الخامس الهجري فصاعداً .

وكانت ثقافته منذ القرن الخامس الهجري قد غلت عليها التقاليد المالكية الدينية ، وكانت كلها تقريباً تدور حول فقه مالك والعلوم المساعدة الأخرى التي تخدم هذا الفقه وتساعد على فهم هذه الثقافة المالكية التي وصحت في القيروان . وانتقلت منها إلى المغرب الأقصى والأندلس ، حملتها البربر معهم إلى غرب إفريقيا ، فغلت على الثقافة فيها . وقل أن نجد في السودان الغربي مذهباً إلا مذهب مالك وفقهاً إلا فقه مالك .

انتهى مالكيون في حياتهم وتقاليدهم وإنتاجهم وتأليفهم وتدرسيهم والشعوب مالكية تتأثر هؤلاء الفقهاء وتستهدي بهم . وتراجع العلماء والفقهاء التي وردت في كتب بيل الانتهاج أو في تاريخ السعدي أو القش تعطيها هذه الصور المالكية الصرفة .

وكانت مدارس الثقافة الإسلامية في غرب إفريقيا أن تكون مدارس مغربية حقة . فكانوا في دس أو أودعشت أو مراکش أو القيروان ، نفس الأسلوب ونفس الحجة . نفس المثل ونفس الوسائل . حتى طريقة الكتب نفسها تأثرت بالطابع المغربي ، فالقلم العربي المستخدم هو القلم المغربي .

ونفس المناهج والكتب المتداولة هي المناهج والكتب المالكية المغربية : كتب عياض . وكتب سحنون وشروح ابن القاسم و خليل وكتب المغيلي والونشريشي ، وموطأ مالك ، والمدونة والخزرجية ، وتحفة الحكام والعماد (١) .

كل هذه الكتب كانت تدرس في مدارس غرب إفريقيا في جنبي وتندكت وكانو وكتسيا وبرنو وفي أي مكان تسرب إليه الإسلام أو فقه مالك .

حتى التأثيرات الأندلسية أدخلت إلى مدارس المغرب من قبل في ظل المرابطين والموحدين ، وعلماء الأندلس الذين بارحوا هذه البلاد يعلم سقوطها في يد الفرنجة رحلوا إلى غرب إفريقية ، وأقام كثير منهم في تنبكت (١) كما أقاموا في فاس ومراكش وتونس والقيروان .

ونماذج التأليف التي ظهرت ونشرت نماذج مغربية الصورة ، وعنوان ذلك الفقيه المشهور أحمد بابا التنبكتي الذي ولد بوهران سنة ١٥٥٦ م من أصل صنهاجي ثم رحل إلى تنبكت ، وأقام فيها وشهد الاحتلال المراكشي ، وقد ظهرت مواهبه وارتفعت مكانته العلمية ، وانتشر ذكره حتى أدرك مراكش وبجاية . وقد حمل إلى مراكش أسيراً ولكنه عاد إلى تنبكت مرة أخرى حيث توفي بها سنة ١٦٢٧ . وهو رجل واسع التأليف حم المعرفة ألف في كل ألوان الثقافة المألوفة في عصره ، وقد دبل لابن فرحون في كتابه نيل الابتهاج ، بدأ من حيث انتهى ابن فرحون ، وعرض لتراجم من أغفلهم وأتم هذا الكتاب سنة ١٥٩٧ . وهو يعطينا صورة طريقة لتاريخ الحركة الفكرية ، ليس في مدينة تنبكت فقط ، بل في السودان الغربي كله .

وكذلك المؤرخ المتعدي من رجال القرن السابع عشر ، فقد بلغ مبلغ الرجال سنة ١٦٣٥ ، في الوقت الذي خضع فيه السودان الغربي للنفوذ المراكشي ، وتجهل في بلاد البحر ، وأقام تنبكت وجنى ورحل للمغرب (٢) وهو في أسلوبه وطريقة تناوله للموضوعات يشعر بأنه مغربي الثقافة مع كونه سوداني الموطن .

وكذلك شأن محمود كعت التنبكتي صاحب كتاب الفتاش فقد كان فقيهاً من فقهاء تنبكت صحب إسكى محمد الكبير (٣) ، وألف كتابه بنفس الأسلوب المغربي المألوف .

كانت الثقافة في غرب إفريقية ثقافة مغربية في أرض سودانية . ولا يعني هذا أن مدارس السودان الغربي لم تتأثر بإنتاج المدارس الإسلامية الأخرى . تأثرت على الخصوص بمدارس مصر المملوكية . ورحل أهل السودان إلى مصر وتعلموا فيها .

Dubois : op cit. p 353.

(١)

Dubois : op. cit p. 352.

(٢)

Dubois. p. 342.

(٣)

ورحل بعضهم إلى الشام والحجاز ، ووصلت تأليف المصريين إلى السودان الغربي .
وقد عرفنا كيف ابتاع مئسرى مؤمنى الكتب وحملها معه ، كما أن مؤلفات
السيوطى وغيره من علماء مصر شاعت فى هذه البلاد . لكن هذا كله لا ينتقص
من الحقيقة التى وضحتها ، فكان الوافدون إلى الأزهر يتعلمون فقه المالكية ، وأشأوا
بمصر مدارس مالكية ، وتأثرهم بمصر لا يختلف عن تأثير المغاربة أنفسهم .

وتأثر الثقافة الإسلامية فى غرب إفريقية بثقافة بلاد المغرب لا يعنى أن هذه الثقافة
أقل غرارة وعمقاً ، فهناج العلماء والفقهاء الذين تعرضت لهم كتب التراجم لا يقلون
فى مستواهم واستعدادهم وتحصيلهم عن إخوانهم المغاربة : تلقوا نفس التعليم وقرأوا
نفس الكتب . وعاشوا نفس الحياة (١) . وعرفوا بالإخلاص الشديد والحرص على
التعليم واقتنوا المكتبات العظيمة ووقفوها على المتعلمين .

وكانت مدينته مدكت نفسها سوقاً عظيمة للكتب تدسخ فيها المخطوطات وتورع
فى البلاد .

وفى رواية السعدى أن فقيهاً يدعى محمد محمود بن أبى بكر (اقتنى نفائس الكتب
العربية العربية ودعا يأتى لئابه طالب يطلب كساً ميعطها له من غير معرفة .

ووصل علماء عرب إفريقية فى علمهم إلى مستوى لا يقل عن مستوى المدارس
الإسلامية الأخرى . إن لم يكن يزيد عنها فى بعض النواحي . فقد روى السعدى أن
فقيهاً اسمه عبد الرحمن النيمى جاء من الحجاز بصحة السلطان موسى صاحب مل
حين عاد من الحج ، فأقام بتنبكت زمناً ، ولما رأى رجالها يتفوقون عليه غادرها إلى
فاس ، (٢) .

كما رحل كثيرون من أهل هذه البلاد ومن علمائها إلى المغرب ودرسوا فى
مدارسه ، ووصل بعضهم إلى مصر وبرز فى ميدان الثقافة .

وقد أورد ابن حجر ترجمة لفقيه نكرورى اسمه صبح بن عبد الله ، اشتراه
سيده عقب محبته إلى مصر من بلاده . ولشغفه بالعلم أقبل مع أبناء هذا السيد على

(١) السعدى صفحات ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٨ ، ٤٣ ، ٤٦ .

(٢) السعدى تاريخ السودان ص ٥١ ، ٦٢ .

دروس التجيب وشمس الدين وغيرهما من علماء ذلك العصر ثم اشتغل بالصناعة حتى ادخر خمسمائة درهم اشترى بها حريته ، ثم برع في العلم واشتغل بعلم الحديث وتدريسه في دمشق (١) .

ولاندري بالضبط مدى انتشار الثقافة العربية بين عامة الناس في ذلك العصر ، وإن كنا نلاحظ أن مكاتب تحميط القرآن قد انتشرت في كل مكان دخله الإسلام .

ونلمح في روايات الرحالة والمؤرخين حرص أهل البلاد جميعهم على حفظ القرآن والترامهم للشدة في ذلك ، فقد روى ابن بطوطة أن أهل ملي يجعلون لأولادهم القبود إذا طهر في حقهم التقصير في حفظه ، فلا تفك عنهم حتى يحفظون (٢) .

ولكنهم رغم هذا كانوا لا يتخلون اللغة العربية في حياتهم الخاصة ، إنما كانوا يستخدمون لغاتهم الأصلية ، ثم يصطعون العربية في تعبيرهم الثقافي ، وفي صواتهم ، فقد حضر ابن بطوطة صلاة الجمعة بأحد مساحد ملي ، فرأى رجلا بيده رمح يقف (٣) ، ويبين للناس بلسانهم كلام الخطيب .

حدث هذا في القرن الرابع عشر ، ولا زال يحدث حتى اليوم فقد سمعنا خطبة الجمعة بأحد المساجد بمدينة لاهوس عاصمة نيجيريا الاتحادية تلى بلغة اليوروبا مع اقتباسات من القرآن والحديث باللغة العربية (٤) .

هذا عن قيام الثقافة العربية في عرب إفريقيا ، أما عن المراكز التي استقرت بها هذه الثقافة ، فإن أهمها مدينة نذكت نفسها التي أصبحت مكانها من هذه الثقافة لا تقل عن مكانة القيروان في إفريقية أو فاس في المغرب الأقصى أو قرطبة في الأندلس أو القاهرة في مصر .

فقد ارتبط تاريخ الثقافة في هذا العالم لا مريقى بتاريخ هذه المدينة نفسها . بدأت يوم ولدت المدينة ، واشتد ساعدها باتساع أفق المدينة ونظورها . ثم خضعت لما تعرضت

(١) حامد حمار ص ٥٩ .

(٢) ابن بطوطة ج ٢ ص ١٩٣ .

(٣) أثناء رحلة عام ١٩٥٦

(٤) ابن بطوطة ج ٢ ص ١٩٣ .

له هذه العاصمة الروحية من مظالم الإحتلال المراكشي ، ولما أعقبه من اضطرابات
وتطورات ، حتى دخلت في النفوذ الفرنسي . آنحز الأمر .
كانت بحق مركز الحياة الثقافية ، وقلب الحركة الفكرية النابض ، اجتمع فيها
العلماء من كل جنس ولون : المغاربة والأندلسيون والمصريون والحجازيون ووفد
إليها الناس من كافة بقاع غرب إفريقيا من السنغال والنيجر ، ومن إمارات الحوصة
وبرنو وكانم والسودان .

كل هذه الطوائف كانت تخرج إلى هذه المدينة ، فتقيم بها زمناً ثم ترحل أو تقيم
بها إقامة دائمة . وقل ان نجد كتاباً لم يؤلف في تنيكت ، أو فقيهاً لم يتعلم فيها أو يقيم بها .
تقوم بهذه المدينة واشتغل بالتدريس في جامعها الشهير بجامع (سنكري) الذي
يشبه من وجوه كثيرة الجامع الأزهر في تراثه ومكانته العلمية ، أقام بها حشد كبير
من العلماء والعلماء .

وبررت منهم طائفة وصلوا إلى مرتبة الإمامة أشار إليهم السعدى في كتابه تاريخ
السودان . منهم الحاج جدد القاصى عبد الرحمن بن أبى بكر الذى تولى القضاء في
أواخر دولة ملئ ، ثم عمر الساكن تدينغ الذى تولى القضاء في عهد إسكى محمد ،
وأبو عبد الله أدد محمد بن عثمان ، وأبو جعفر عمر بن محمد أقيت الذى ترك أكثر
من سبعة مائة مجلد ، ومخلوف بن على بن صالح (١) .

كان هؤلاء العلماء يشتغلون بالتدريس في جامعة تنيكت الشهيرة وكانوا في
الحقيقة بمثابة طبقة خاصة من سكان هذه المدينة ، لهم ظروفهم الخاصة وحياتهم
الخاصة ، وكانوا يتوارثون حرفة العلم ويحتكرونها في أسرهم .

وكان الطلاب يفتدون إلى هذه المدينة بعد أن يكونوا قد حفظوا أجزاء من القرآن
في مدارسهم المحلية ، فإذا أتموا هذه الدراسة الابتدائية شددوا الرحال إلى تنيكت وأقاموا
بها حتى يتم تعليمهم هؤلاء الطلاب كانت حياتهم ميسرة يستضيفهم سراة المدينة
وتجارها ووجهاؤها ، كما أن مسجد سنكري كانت به أوقاف تنفق على الطلبة المنقطعين
للعلم (٢) .

(١) السعدى ص ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٩ .

Dubois p. 328.

(٢)

ولم تكن الدراسة في عهد هذه الجامعة مذكورة بزمان إنما كانت زهناً بفرار الطالب من قراءة عدد معلوم من كتب الفقه والحديث والمنطق والنحو وعلوم اللغة .
وقد حدثنا السعدي أن بعض الطلبة ينفقون أكثر من ثلاث سنوات في قراءة موطأ الإمام مالك وحده .

كما أشار السعدي إلى نماذج من الكتب التي كانت تدريس في جامعة تذبكت منها :
الشفاء للقاضي عياض . والصحيحين وعلم الحديث ، والسير ، والتواريخ ، وأيام الناس ، والمملوك ، والرسالة ومختصر خليل والألفية والموطأ ورجز المعلى في المنطق والخررجية في العروض ، وشرح لشريف السني ، ونحفة الحكام لابن عاصم وكتاب المعيار (١) للونشريسي

فإذا أتم الطالب هذه الدراسة المتنوعة حصل على الإجازة المطلوبة ورحل من المدينة إلى حيث يشتغل بالإقراء أو الخطابة أو الإمامة أو القضاء :

وكانت مدينة تذبكت مركزاً لإشعاع فكرى بعيد المدى في بلاد السودان فكانت تحمل إليها الكتب من مختلف جهات العالم الإسلامي ثم تنسخ وتباع في أسواق المدينة ، وكانت تلقى إقبالا منقطع السطر من الطلبة والمشتغلين بالعلم والسلاطين والأمراء .

وكان علماء المدينة يملكون في شعف على إنشاء المكتبات الخاصة وبعضهم نيفت كتبه على الأتقيين (٢) كما اقتنى بعض السلاطين مثل هذه المكتبات مثل ماروي عن إسكى داود سلطان سغى المعروف (٣) .

والأمر الذي كان يربد الحركة الفكرية نوقداً في تذبكت أنها لم تكن عملية الطابع ، إنما كانت عالمية اتصلت دليئات العالمية المعاصرة .

اتصلت بالأزهر في العصر المملوكي ، ولا غرابة في هذا فقد أصبحت مصر موئل التفكير الإسلامي في الشرق والغرب بعد أن أصبحت مستقر الخلافة العباسية ، وتألقت ثقافتها الإسلامية تألقاً عظيماً .

(١) السعدي : تاريخ السودان صفحات ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٨ ، ٤٣ ، ٤٥ .

Dubois, p. 337.

(٢)

(٣) الفتاوى ص ٩٤

وسمع فيها كتبه السعدى هذه العلاقات التي توطدت بين الأزهر وتنبكت إلى أبعد الحدود . فهذا محمد بن أحمد النازختي رحل إلى الشرق واتصل بعلماء مصر مثل شيخ الإسلام زكريا والبرهان والقلقشندي ، وابن أبي شريف ، وعبد الحق السباطي وحضر دروس الأخوين اللقانيين ، ثم رحل للحجاز (١) ، وعاد إلى تنبكت يذيع ما حباه من علم (٢) ومعرفة .

وهناك أمثلة كثيرة تؤيد هذه العلاقة الوثيقة ومن ذاعت شهرته في السودان على وجه الخصوص الإمام السيوطي ، اتصل به طلاب العلم من تنبكت ، وكانت له صلات معروفة بسلطان سعي إسكي محمد ، بل أشار السعدى إلى علماء من مصر جاءوا تنبكت (٣)

ولما حجه إلى أبشهر إلى الصلة الوثيقة التي قامت بين تنبكت وبين جامعات المغرب الإسلامي . فمدينة تنبكت مدينة في ثقافتها ونشأتها وفي تراثها كله إلى المغرب ، وكانت على اتصال وثيق عبر منقطع بمراكش وتونس والجزائر وعداس وطرابلس . كان علماء المغرب دائبي الرحلة إلى تنبكت ، كما كان علماء تنبكت كثيرًا ما يقيمون بها أو بمراكش يعلمون أو يتعلمون (٤) .

ومن المراكز الأخرى التي تلي تنبكت في الأهمية أو تدانها مدينة حنى . وهي مدينة أسست قبل تنبكت بوقت بعيد ، غير أنها بدأت تدخل في دائرة التهود الإسلامي منذ القرن الخامس الهجري ، أسلم أميرها سنة ١٠٥٠ م وبنا مسجدها العتيق على طراز المسجد الحرام في مكة (٥) .

ويبدو أن الثقافة الإسلامية كانت قد تسربت إلى هذه المدينة قبل أن يدخل أميرها في الإسلام . إذ يستفاد من رواية السعدى أن أميرها عندما نهى للدخول في الإسلام أمر حشد جميع العلماء الذين كانوا في أرض المدينة ، فجمع منهم أربعة آلاف ونيف ، وأسلم على يدهم (٦) وذلك بسبب علاقاتها التجارية مع بلاد المغرب وحوض السنغال ،

Dubois, pp 134-235.

(١) السعدى ١٢٠ ، ٥٧ .

(٢) السعدى ص ٣٧ .

(٣) السعدى ص ٢١ .

(٤) السعدى ص ٢٩ ، ٢٠ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١١ .

Dubois, p.175 ,

(٥)

فقد كانت سوقاً عظيماً لتجارة الملح والذهب وجى أهلها من هذه التجارة أرباحاً طائلة .

وارتبطت تجارياً بتبوك وبالمواحات الواقعة على طريق القوافل : ثم خضعت للدولة سنغى كما خضعت تبوك ، فنعمت بالطمأنينة والأمن ، وتضاعف نشاطها التجارى كما رسخت قدمها فى الثقافة الإسلامية عن ذى قبل . وكان إسكى محمد أول من عين القضاة بهذه المدينة للفصل بين الناس وفق الشريعة الإسلامية .

ثم تتابعت وثبتها من بعد ذلك . فوجد السعدى فى تاريخه يتحدث بالتفصيل عن أتمام بها من العلماء والقضاة ورجال الدين (١) .

ولكن رغم رسوخ قدمها فى الثقافة الإسلامية على هذا النحو لم تستطع أن تبلغ ما بلغته تبوك بسبب قرب هذه المدينة من الطريق المؤدية إلى بلاد المغرب وصلاتها المستمرة بمراكز الثقافة فيما وراء الصحراء .

ثم امتدت مراكز الثقافة إلى الشرق فى المنطقة الواقعة شمال نيجيريا فى إمارات الحوصة . بعد أن دخلت هذه الإمارات فى الإسلام وخصعت لنفوذ سنغى ، فظهرت مدن كانوا وكتسبا كمراكز للثقافة الإسلامية منذ القرن الخامس عشر الميلادى فصاعداً . وقد سبق أن أشرنا إلى رحيل بعض علماء تبوك إلى مدينة كانو سنة ١٤٨٥ ، واتصال الرحلة إليها بعد ذلك ، كما شطت كتسبا كذلك (٢) .

وقد رأينا الجهود التى قام بها الإمام المعبلى فى هذه المدينة حين أقام بها زمناً يعلم الناس الفقه ويقضى بينهم . والرحالة بارت (٣) فى حديثه عن إمارات الحوصة يشير إلى علاقة نشأت بين جلال الدين السيوطى وبين أمير كاتسينا . ولا نستبعد عموماً مثل هذه العلاقة فقد اتصل رحالات غرب إفريقية بهذا الإمام العظيم منذ رجوع إسكى

(١) السعدى ص ١١ - ١٢ .

(٢) السعدى ص ١١ - ٢٠ .

(٣)

Meek, vol 1, p. 66.

Barth : vol II, p. 74. Arberry Islam to day, p 36.

(٤)

محمد من الحج بعد زيارته الشهيرة بمصر. بل هنالك ما يدل على أن السيوطي (١) رحل إلى شمال بجريا وأقام في هذه المدينة زمناً يعلم الناس وعاد إلى مصر سنة ٨٧٦ هـ .

بكن مدينتي كانوا وكتسبنا تضاعفت شهرتهما العلمية بعد الأحداث التي أصابت مدينة تنبكت منذ القرن السادس عشر فصاعداً . ولا زالت مدينة كانوا إلى اليوم ربما أهم مراكز الثقافة الإسلامية في غرب إفريقيا وبها مدرسة للعلوم العربية ومدرسة للقضاء الشرعي .

ولم تغف الثقافة العربية عند حدود بجريا ، بل نفذت إلى منطقة بحيرة شاد ، وتوطدت في بلاد كانم وبرنو .

وقد كشفت الوثائق التي نشرها بالمر وترجمها إلى اللغة الإنجليزية عن علاقات هذه البلاد الثقافية بمصر ، وعن رحيل بعض العلماء إلى الجامع الأزهر ، ورحيلهم إلى مكة وزيارتهم بعدد ثم عودتهم إلى بلادهم واشتغالهم بتعليم الحديث والتفسير ، ومن هؤلاء عمر بن عثمان (٢) .

وتشير هذه الوثائق إلى تشجيع السلاطين للحركة العلمية وبناءهم المساجد .

وتكشف هذه الوثائق أيضاً عن تمتع رجال العلم في البلاد بمكانة ممتدة ، فقد درج السلاطين على إصدار مراسيم تجعل شخص العالم وولده وماله حراماً لانتس بسوء طيلة حياته (٣) .

وامتدت هذه الهبات إلى المهاجرين من علماء المسلمين من الشمال أو الشرق ، وقد ضلت أسرهم محتضنة بها مئات السنين (٤) وأشار بعض هذه الوثائق من ناحية أخرى إلى علماء ارتفع شأنهم مثل القاضي محمد بن الحاج أحمد ، والإمام طاهر بن إمام الحج . وعدد القادر بن الحاج وغيرهم . وتفاوتت مراكز الثقافة في برنو في القرن الثاني عشر على وجه الخصوص (٥) .

(١) آدم عبد الله الاثوري : الإسلام في بجريا ص ١٠ .

Palmer : op. cit. p. 33.

Ibid : p. 44

Idem.

Islam to day, p. 137.

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

الذى كاله السعدى لهذا السلطان كيلا ، ونعمت بهذه العناية في عهد إسكى داود
البحر (١) .

ثم دأبت من المراكزيين أكثر مما ذأقت من سن على من قبل ، وهذا أمر يؤسف
به حقاً فقد كان أحسن بهذا الفتح أن يزيد من عمق الصلة بين المغرب وغرب إفريقيا ،
وأن بدوع الثقافة الإسلامية في طريقها نحو التفوق والازدهار (٢) .

وكانت أوضاع المراكز الثقافية الأخرى تتأثر بالأحوال السياسية كما تأثرت بها
تمكنت فقد امتدت البصيرة إلى حى في ظل نفوذ سنغى ، كما تفوقت كانوا وكاتسينا
سبب سبب سبب سبب من سبب ، وتشجيع أمراء الحوصلة من ناحية أخرى . وقد
رأبنا كبر من سبب سبب على تشجيع الحركة العلمية في بلادهم .

٣ غرب إفريقيا في القرن التاسع عشر

(عصر الإصلاح)

كأن الأحداث قد اصطلمحت على أن تجعل الوطن الإسلامى كله في أواخر القرن
الثامن عشر ، وأول التاسع عشر بها للعوضى والضعف والانقسام ، العثمانيون الذين
تزعرو معركة الجهاد منذ القرن السادس عشر ضعف أمرهم وطمع فيهم الظالمون .
المسلمون انقسموا على أنفسهم في كل مكان وتعرضوا لموجة طاغية من التحادل
والتمكك . والاستعمار العرنى يربص بالوطن الإسلامى الدوائر ، ويتبها لأن يقتطع
ما طاب له من أراضيه .

وعرب إفريقيا باعتباره جزءاً هاماً من الوطن الإسلامى امتدت إليه هذه الآثار ،
ورفع في نفس المصير . وسادته نفس الظروف .

وأصبحت أحواله في أواخر القرن الثامن وأوائل التاسع عشر لا تكاد تختلف
في دقش بمقبيلاً عن أحوال الوطن الإسلامى الكبير (٣) .

(١) مدبر ص ٩٤ ، ١١٣

Dubois, p. 351.

(٢)

Arberry : Islam to day p. 137.

(٣)

وكما عانى الشرق العربى من العثمانيين وما شاب نظمهم وتقاليدهم من ألوان من الفساد ، تعرضت بلاد غرب إفريقية للاحتلال المراكشى . هذا الاحتلال الذى قضى على دولة سنغى التى كانت توحد بين قلايم السودان وتيسط عليها ظل الأمن والطمانية .

فتح المراكشيون السودان - كما رأينا - فى أكتوبر سنة ١٥٨٠ وقد أدى هذا الفتح إلى انكماش دولة سنغى ، ثم إلى القضاء عليها آخر الأمر .

وظلت مراكش تحتفظ بنفوذها فى هذه البلاد ، ترسل الأمداد وتعين الولاة . أرسلت نحواً من ثلاثة وعشرين ألف مقاتل فى الفترة الواقعة بين عامى ١٥٩١ و ١٦١٥ . ثم أصبح هذا الاحتلال الذى لم يحقق أحلام المراكشيين أو أهدافهم عبثاً ثقيلاً . حتى إذا توفى السلطان المصور صاحب الفكرة وثبتت بوفاته ، فتخلى المراكشيون عن أحلامهم هذه .

وتركوا السودان يواجه مصيره ، وبحل مشاكله بنفسه ، وبقي جيش الاحتلال . ولما انقطع عنه سبيل المدد اضطر إلى تدبير شئونه بنفسه وسد الفراغ فى صفوفه بعناصر من الزنوج من أهل البلاد لا يلبعون مبلغ جند مراكش فى التدريب والكفاية . وتزوج الجند من نساء البلاد وأنجب عصراً مولداً خليطاً . هذا الجيش المختلط الذى جمع بين البربر والزنوج أطلق عليه اسم « الرماة » (١) .

وكان هؤلاء الجند ينتخبون الباشوات الحكام الذين اتخذوا تفبكت مقراً لحكومتهم ، كما عينوا بعض الولاة فى بمبا وجاو وحتى . وغدا هؤلاء الباشوات العوبة فى أيدى الجند يخلعونهم إذا شاعوا ، ويولونهم إذا أرادوا . حتى لقد تولى منهم فى الفترة من سنة ١٦٦٥ إلى ١٧٥٠ نحواً من مائة وثمانية وعشرين منهم . فما أقرب الشبه بين هذه الأوضاع وتلك التى سادت العالم الإسلامى الخاضع للنفوذ العثمانى . أحوال مصر وتونس والجزائر والشام والعراق واليمن .

وأصبح لا هم لهذه الطائفة من الجند وهذه الطعمة من الباشوات إلا الإثراء بأية

وسيرة والمغالاة في فرض الرسوم والمكوس والضرائب ؛ وشاركهم الرماة في هذا النهب والسلب .

وقد ساءت أحوال البلاد بسبب اضطراب الأمن وعزل الباشوات وانحلال جيش وانحطاط مستواه . وبلغ ضعف هؤلاء الباشوات حداً جعلهم يدفعون الجزية «دوك» «سجور» الوثنيين . ثم استقلت حامية حاو وجنى وبمبا ولم تبق للباشوات إلا مدينة توكت . ثم لم تخلص لهم هذه المدينة آخر الأمر فقد اغتصب قواد الفرق السلطان محمد علي اعتصامهم هذا حتى آخر القرن الثامن عشر (١) .

وتسببت هذه المأساة ذات آثار بعيدة المدى في أحوال البلاد الاقتصادية فقد أصابت سود في الصميم . هذه التجارة التي وصلت إلى قمة تطورها في أول القرن الثامن عشر . ودرت على السودانيين والمغاربة لأرباح الطائلة .

وتدببت نفوذ تخرج في سيل مطرد من مدن السودان تحمل الذهب والعاج واللبان والسكر والحب والبقوليات وغيرها بأسعار مرتفعة تعود على ملوك سنغلي وريج الروير . هذه التجارة الراححة التي أطمعت البرتغاليين وأغرقتهم باحتلال مدن غرب إفريقيا ، كما أغرتهم بالانحدار نحو الجنوب مساحلين لإفريقية العربية .

ولاحال المراكشي بدلا من أن يضاعف هذه التجارة وينميها ، أساء إليها ، ودمعها . ثم قضى عليها بسبب المغالاة في فرض المكوس والرسوم .

وما أن استقل حدود الاحتلال بتدككت وما جاورها كادت هذه التجارة تنقطع وتوقف بسبب اضطراب الأمن في مسالك التجارة وسوء الحال .

وعاش السودان في عزلة اقتصادية حتى قدر للعرب أن يعيد صلته بالعالم ليس عن البحر ولا عن طريق البحر . عن طريق موانئ الساحل العربي والجنوب (٢) .

وخرج المراكشي وما أعقبه من احتلال . وما صحه من فوضى لم يسب إلى الناحية الاقتصادية . بن أساء إلى الناحية الثقافية . وما يكاد يقرأ ما كتبه مؤرخو

السودان منذ القرن السادس عشر فصاعداً حتى نحصل بأن احتلال المراكشيين لتفكيكت ولغيرها من المراكز الثقافية لا يكاد يختلف من حيث آثاره ونتائجه عن غزو المغول ، لينتداد .

فكتاب تاريخ السودان للسعدى وتاريخ الفتاش (١) حافل بأنباء نبي العلماء وتشريعتهم ، وأحمد بابا فقيه السودان المعروف عاش شطراً من حياته في مراكش ، بل ذكروا أنصاراً أخرى تتحدث عن حبس أهل العلم ومصادرة أموالهم وقتلهم في أغلب الأحيان .

ولعل تفسير ذلك أن فقهاء المالكية في السودان كان شأنهم شأن فقهاء المالكية في المغرب يترجمون المجتمع ويدافعون عن حقوق الناس ويثرون على الظلم ويجهرون بنقد الحكام وتجربتهم . فكان ولاية مراكش وباشواتها كلها سمعوا نقداً أو تجريحاً أو رأوا خروجاً حتى عن طاعتهم نكلوا بالعلماء والفقهاء .

وقد فر أغلب المشتغلين بالعلم إلى الشرق أو الغرب . والرحالة الفرنسي دبوا الذى زار تفكيكت في القرن التاسع عشر رأى المدينة الخالدة تعيش على ذكريات مجيدة من تراث تليد ، تعيش على مؤلفات أحمد بابا والسعدى والرغيل الأول من المفكرين . ووجد مكتباتها الشهيرة مقفرة . وجامعتها الكبيرة قد تضاءلت عدداً في الأساتذة والطلاب والكتب (٢) .

هذا المجتمع الذى ضعف اقتصادياً وثقافياً وسياسياً أصبح نهياً لغارات البدو من الطوارق ، الذين كانوا يريدون أن يستبدلوا أوطانهم الصحروية بالمراعى الحصصية في منطقة البجر . فأغاروا عليها واستولوا على جاو سنة ١٧٧٠ ، وهددوا تفكيكت ، وعاشوا في منحى النيجر حتى سنة ١٨٠٠ (٣) .

بل تعرض السودان الغربى لهجرات أخرى غير هجرات الطوارق تعرض لهجرات

Dubois, p. 152.

(١)

Dubois, p. 152.

(٢)

Dubois, pp. 358-359.

(٣)

قوم من البدو الرعاة يطلقون على أنفسهم اسم الفولانية. على حين يسميهم الخوص اسم الفولاني ويخلع عليهم العرب اسم الفلاتة (١).
وقد اختلف الباحثون في أصلهم فولر مثلاً يربطهم لغوياً بالنوبة في السودان، ودي لا فرس يرى أنهم عنصر من البربر استقر في منطقة أدوا وأعالى السنغال منذ القرن الثالث الميلادي، وقد خضعوا للدولة غانية ثم للمرابطين، ثم دابوا بالطاعة لسلطين مالي وسنغلي (٢).
ثم بدأوا يعادرون مواطنيهم متجهين صوب الشرق في مد القرن الثالث عشر فصاعداً، وكانت محاربتهم تمثل تسرباً سلمياً بطيئاً، فهم يلتمسون الإذن بالرعي، ثم يقيمون بقطاعاتهم في أرض المرعي، ثم يترقبون الفرص السالحة، فإذا ضعف القائمون بالأمر اغتصبوا هذه الأرض لأنفسهم وأقاموا إمارات محلية (٣).
منذ القرن الرابع عشر فصاعداً استقرت طائفة منهم بين مزارعي الماددي في منطقة ماسة وهي جريرة حصنة يروها نهر النيجر (٤).
ويبدو أن فريقاً منهم كان قد تسرب تسرباً بطيئاً صوب الشرق إلى شمال نيجيريا وأقاموا بين الخوصة. فريق منهم يشتغل بالرعي وبعضهم ينزل المدن ويشغل بالتجارة، وقد امتدت هذه الهجرة شرقاً حتى وصلت إلى بلاد برونو.
هؤلاء الرعاة من الفولاني يستغلون مظاهر الضعف التي أصابت بلاد السودان في ظل الاحتلال المراكشي فبوسعون أفق هجرانهم، ويزيدون من نشاطهم السياسي (٥)، وسيكونون عدة عثمان بن هودي في الحركة الإسلامية الكبرى التي اضطلع بها في القرن التاسع عشر.

هذا الاقسام الذي أصاب المناطق التي كانت مسرحاً لنشاط سلاطين سنغلي كان ظاهرة شاعت في غرب إفريقية في هذه الفترة، فإلى العرب من منحنى النيجر استقل

(١) دائرة المعارف الإسلامية - مادة . دولة

(٢) Page : op. cit. pp. 30-34, Dubois, p 153.

(٣) Meek. I, p. 97. دائرة المعارف الإسلامية - مادة . دولة

(٤) Page. pp. 30-34.

(٥) Dubois, p 152.

شعب التكرور في منطقة فوتا السنغالية بشأنه متميزاً نويات الضعف التي أصابت مراكز القوة في السودان (١).

بل شهد هذا العصر ظاهرة أخرى لم تكن مألوفة من قبل . فقد ظهرت في المنطقة الواقعة إلى الغرب من النيجر دولا وثنية تعلمت من المسلمين فهم في الحرب وأساليبهم في الحكم ، ونجت من الغزو الإسلامي محتفظة بدينها وتقاليدها ، ثم أخذت نجمها يعلو في سماء الحياة السياسية بعد ذلك الضعف الذي علّت على مناطق النفوذ الإسلامي ، فظهرت إمارة البمبارة في سيجو (٢) .

والبمبارة هؤلاء من شعوب الماندى انصهروا تحت لواء سلاطين ملي ثم ظفروا باستقلالهم في القرن السابع عشر ، واستقلوا تماماً عن باشوات تنبكت المراكشيين ، بل اندفعوا يتوسعون في القرن الثامن عشر ، واضطروا أصحاب تنبكت إلى دفع الجزية (٣) . واندفع بعض هؤلاء صوب الشمال الغربي وأسسوا إمارة أخرى في منطقة كارنا احتفظت باستقلالها طوال القرن الثامن عشر .

ولم يسلم قطر من أقطار السودان من هذه الأدواء التي أصابت المجتمع الإسلامي . فإمارات الحوصة كانت تحم نصباً وشفقة في شر الإسلام بين القبائل الوثنية الواقعة إلى الجنوب منها ، بل كانت في حروب متصلة مع هذه القوى الوثنية ، فضلاً عن انقسامها على أنفسها ، ومحاربة بعضها البعض ، فقاتلت كانو مدينة كانسينا ، وتقاتلت الإمارات الأخريات (٤) .

ويبدو أن الإسلام لم يكن قد تمكن من شمال نيجيريا على نحو مرضٍ . يتبين هذا من الرسائل التي وجهها الفقيه المشهور محمد بن عبد الكريم المعيلي إلى سلطان كانو يعرض فيها لألوان الفساد التي سادت مجتمع الحوصة . من انتشار المفاصد الدينية والدنيوية . ويطلب إليه أن يجمع (٥) جميع أهل بلاده عن جمع أنواع الشرك وكشف

Fage . op cit p 144

Fage . op.cit p. 144.

Idem,

Hogben . op cit. p 68 - ٩

Hogben . op cit p. 68 ١٤٤

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

العودة وشرب الخمر وأكل الميتة والدم « ، ولأن « كفار بلادكم بين المسلمين في الأسواق والمدارل وغيرها ، فإن لم يتركوا اظهار شرك أو شرب خمر أو فطر في رمضان . لكان ذلك ذريعة لأن يفعل كفعلهم ضعفة العقول من العامة والنساء (١) . » وكتاب السيوطي (٢) إلى بعض أمراء الخوصة يشير إلى مثل هذا كله .

ولم تستطع إمارات الخوصة المنقسمة على نفسها أن تغالب الوثنية أو تنجب الدين الشر الذي أشار إليه المغيلي والسيوطي ، وسلطنة برنونا كذلك أظلمها القرن الثامن عشر وهي ضعيفة منقسمة على نفسها (٣) .

والعالم الإسلامي كما انتفض في القرن التاسع عشر وقامت في أكثر أقطاره محاولات محاصنة لإحراج المسلمين من رقبتهم وبقاظ وعيهم ، وبعث النشاط فيهم ، إما عن طريق الدعوات السلمية أو الحركات التحديدية امتدت هذه اليقظة إلى عرب إفريقيا وشهدت محاولات من هذا القبيل للأخذ بيد المسلمين ، وإصلاح عقائدهم وأموالهم . وما كان لهذه الدلائل أن تبقى بعيداً عما اعتزل في الأقطار الإسلامية الأخرى . فقد كانت صلاتها بالعالم الإسلامي صلات وثيقة ، تفكر كما يفكر ويتجاوب كما يتجاوب .

وكانت حركات الإصلاح التي شهدتها غرب إفريقيا في القرن التاسع عشر حركات سلفية كلها . تدعو إلى العودة بالإسلام إلى ماضيه المشرق . وتكوين مجتمع إسلامي صرف في نظمته وتقاليده وعاداته . هذه الحركات يمكن أن تعددها على النحو الآتي -

- ١ - الدعوة الوهابية ممثلة في حركة عثمان بن فودي في نيجيريا
 - ٢ - تحدد نشاط الطرق الصوفية بعد أن امتدت إليها يد البعث والإصلاح ، ممثلة في نشاط السوسية والقادرية والبيجانية .
 - ٣ - حركات يهودية تمثلها حركة أحملو لوبو ووالده أحمدو شبحو .
- قامت المحاولة الأولى في شمال نيجيريا بين إمارات الخوصة قام بها رجل من أمراء أهل البلاد في هذا العصر هو عثمان بن محمد فودي .

(١) كتب هذه الرسالة سنة ٨٩٧ هـ . انظر آدم عبد الله لالودي الإسلام في نيجيريا ٢١ - ٢٤ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٥ - ٢٧ .

(٣)

ومن حق هذا المصلح أن نترجم له وأن نعرف عبادته وأن نعرض لجهاده وللمكانة التي أحرزها بين مصلحي العالم الإسلامي ومفكريه .

ينتسب هذا المصلح إلى شعوب الفولانية التي رأيناها نخرج من أوطانها في منطقة السنغال ، وتتسرب تسرباً بطيئاً نحو الشرق منسابة في سهول السودان .

وهو ينحدر من أسرة من هؤلاء كان وطنها الأول في منطقة فوتاتوزو ، ثم انطلقت في ركاب المهاجرين حتى دخلت سهول بيحريا ، وأقامت في بلاد الخوصة .

في هذه البيئة ولد عثمان بن محمد مردني في قرية طعل بإمارة غويبر سنة ١١٦٩ هـ وكان بيته بيت علم وفتوى . أسلم أجداده منذ دهر طويل وتفقه أبوه في الدين . واشتغل بالعلم (١) ، واشتغل به بيته كله زوجته وبناته وأولاده .

شب في هذه البيئة المتدينة فأولع بالعبادة والذكر . وشأ نشأة دمية خالصة . ثم بدأ يخطط خطواته الأولى في طريق العلم والثقافة . تلقى دروسه الأولى على يد أبيه محمد فودي وجدته رقية وأمه حواء (٢) ثم أقبل على علوم العربية يستزيد منها . أخذ الإعراب عن الشيخ عبد الرحمن بن حمداء . وسمع الفقه من محمد تبون عبد الله . ثم ارتحل إلى الشيخ جبريل بن عمر ولازمه ثم عاد إلى بلاده . وسمع التفسير في ريفر ثم درس الصحيح (٣) .

ولما بلغ مبلغ الشباب وأوتى حظه من الصوج العقلي والفكري هاله حال المسلمين في بلاد الخوصة . فهم يخاطون الوثنيين دون تحرج . ويقادهم العامة ويتشبهون بهم (٤) ، وظهر الدين تشويه البدعة ونجاسة الحرافة ويقتله الجهل .

ثم رحل إلى بلاد الحجاز وذهب إلى مكة . وكانت الوهابية قد انتشرت في الحجاز ، ذاعت مبادئها في الإصلاح وحقت قدراً كبيراً من النجاح بالتحالف الذي تم بينها وبين آل سعود . وقد خالط عثمان دعاة الوهابيين واستمع إليهم ، وتشرب مبادئهم وتحمس لها . فأيقظت في نفسه الرغبة الملحة في أن يحارب البدع في بلاده كما

(١) آدم عبد الله الألودي ش ٣٤

(٢) نساء الطوارق والفولانية يتنصنر نصيب وتمر من الحريه ويتنصنر . ينتم الرمال سواء سواء

(٣) آدم عبد الله الألودي ص ٣٥

(٤)

حاربها الوهابيون في بلادهم ، وأن يعلنها ثورة على أولى الأمر كما كانت الوهابية
ثورة على السلطان والمفاسد . وقويت في نفسه الرغبة في إيقاظ مسلمي إفريقيا من
خمولهم ورقدتهم وحياتهم الدينية المقفلة (١) .

جبه للوهابية واتخاذها ديناً وعقيدة بتبين من الخطوة التي انتهجها في الإصلاح ،
والمبادئ التي أعلنها .

هذه المبادئ تظهر واضحة جليلة في مؤلفاته التي بلغت اثنا عشر مؤلفاً ، وفي
مؤلفات أخيه عبد الله وابنه محمد بل . كلاهما ألف في العقائد ، وفصل وشرح كما
تظهر هذه المبادئ مما رواه المعاصرون أو من في حكمهم عن أفعاله وخطراته ،
ومنهجة - خصوصاً صاحب كتاب تذكرة النسيان - فقد أفرد ذيلاً في كتابه للتأريخ
للسلطان محمد بل بن عثمان ولعصر خلفائه .

فقد عرف عنه إنكاره للصلاة على روح الميت ، وتعظيم من مات من الأولياء .
واستنكاره المبالغة في مدح الرسول وتمجيده . وهاجم في نفس الوقت رذيلتين شاعتا
في بلاده هما شرب الخمر وفساد الخلق (٢) .

وقد بدأ رسالته كما بدأها الوهابيون أول الأمر ، دعوة إلى الدين بالحسنى والموعظة
فأخذ يدعو إلى الإسلام ويحض الناس على اعتناق مبادئه . وبدأت حلقات الطلاب
المتنفذين حوله تتسع بالمدرّج ثم حصص على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتاب
على يديه خلق كثير ، وتزايد عدد أنصاره ومريديه . ثم بدأ بالاتصال بالأمراء
المعاصرين يريد أن يحضهم على إصلاح الأحوال ومحاربة البدع والاتحاد لنشر الإسلام
بين من لم يسلم من الوثنيين .

وتنصح من تعالجه الرعدة السلفية الملحة في إعادة المجتمع الإسلامي إلى بساطته
الأولى ونقائه الأول أيام الراشدين (٣) .

كما نبى عن نفسه في قوة وصرامة عمله من أجل ملك أو أي عرض من أعراض
الدنيا

(١) أرنولد ص ٣٦٠ .

Arberry, p. 138.

(٢)

Arberry, p. 138.

(٣)

وكان يذكر دائماً أن العناية قد اختلته لإصلاح الدين وإعادة حكم الأمة والجماعة (١) فكان يشاور أصحابه في أعماله كلها ، والتزم بحفاؤه نظام البيعة الإسلامية . . .
 وصاحب تذكرة النسيان (٢) في حديثه عن بيعة محمد بن عثمان بن فولاني روى أن خطيب المسجد قرأ على الناس وثيقة الشيخ في استخلاف والده ، وأثناء أهل الآفاق وبأبعده . . .

وكانت جيوش الفتح والجهاد تقرأ آيات الجهاد وسورة براءة لتقوى الروح المعوية (٣) . وظهر طاعهم في التفتش والزهد منذ اللحظة الأولى . فقد كان محمد بن الذي ولي الساطنة بعد أبيه يأكل من كسب يده ، ويأبى أن يقتات من أموال المسلمين (٤) . وكان عثمان وحفاؤه لا يكتفون عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتحطيم دنان الخمر ، وكسر آلات الطرب ، ذهب أحد هؤلاء السلاطين إلى حد قتل صارب الدف (٥) .

وبعد أن كثر أتباعه وزادت شهرته انتقل إلى المرحلة التالية من دعوته ، وهي وعظ الأمراء وإرشادهم ، ولعله كان يريد أن يحقق ما حققه ابن عبد الوهاب من قل . وأن يتم تحالف بينه وبين أحد أمراء الحواسة كما تم التحالف بين الوهابية وآل سعود .

فانجه إلى أمير غوير وبين له الحق والباطل ، وشرح الإسلام الصحيح وطلب إليه أن يعاونه في إحياء الدين وإقامة العدل ، ويبدو أن هذا الأمير استجاب أول الأمر ، فعهده إليه بالتقوى والإرشاد في مجلسه ، يفسر القرآن ويروي الحديث ، ويشرح آراءه الإصلاحية . ويحاور العلماء وينظرهم ويرد عليهم بالحجة . فسعى العلماء الحاقدون إلى الوقعة بينه وبين الأمير . واتهموه أنه إنما اتصل بالأمير رياء وموافقة وطلباً للرئاسة ، وجأ في عرص الدنيا (٦) .

فأنته إلى إمارة أخرى. هي إمارة زنفرة وكتب ، ينشر دعوته أو مبادئه فأسلم على يديه عدد كبير. فمن الوثنيين ، فوزاء الناس له أتباعاً ، ورأى الأمراء فيه خطراً ملحاً يريد أن ينتقص من سيادتهم ، وأن يحد من نزواتهم ويؤلب عليهم رعيته فأمره بالخروج من بلادهم ، وهددوه بليلائه وإبداء أعوانه والقضاء على دعوته . فلما لم يستطع أن يحقق هدفه وأن يفوز بمعاونة أمير من أمراء الخوصة خرج في ٢١ فبراير سنة ١٨٠٦ (١) مهاجراً ومعه طائفة من أنصاره المخلصين إلى أطراف الصحراء فإذا بأمراء الخوصة يتعقبونه أينما ذهب ، يقطعون الطريق الموصل إليه ، وينهبون أمواله ويتيأون لحربه .

فلم يحد أتباعه بدأ من أن يبايعوه على الجهاد أو الموت وطاعة الله ورسوله وبايعوه بإمرة المؤمنين . واستعدوا للحرب واستجاب له أنصاره في كل أنحاء نيجيريا .

ووجدت دعوته استجابة قوية سريعة بين عشائر الهولاني المنتشرين في البلاد إذ رأوا في انتصاره إعلاء لكلهم ، وارتفاعاً لشأنهم ومجداً لجنسهم فاتحدوا خلفه . بعد أن كانوا قبائل معثرة تحيا حياة رعوية ، رقدوا إلى مهجرة يصمون لجيشه ويؤيدون دعوته (٢) .

هذا التأيد الذي ظفر به عثمان بن هودي من أبناء حسه يرى فيه هو حين Hogben حركة قومية لقبائل الهولاني موجهة ضد أمير غريب الذي أراد طردهم والقضاء عليهم وأن الوثنيين منهم (في زعمه) عادوا إلى حياتهم العادية بعد انتهاء الجهاد . على حين تقاسم أصحابه المناصب والنفوذ (٣) .

وهذا القول لا يستقيم مع ما رأيناه من بداية دعوة عثمان فقد رأيناها محاولة مخصصة للإصلاح مجردة من شبهة الجنس أو الرغبة في الملك . وأنه اضطر حين أعوزه الجند وحق الجهاد أن يستعين ببني جنسه في هذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإن كنا لا ننكر أيضاً أن الحركة كانت إلى حد ما قومية ودينية إصلاحية في نفس الوقت (٤) .

Meek, vol. I. p. 78

(١)

Hogben, p. 110

(٢)

(٣) أرفوله ص ٢٦٠

Hogben, p. 75.

(٤)

ولما تزعم ملك غويبر المعارضين له وبنار الحربة أعلن الجهاد رسمياً سنة ١٨٠٦ هـ ،
وابتداً دوراً جديداً في حركته الإصلاحية هو دور الفتح والجهاد في قبال مدينة كانو ،
هانجمها وهزم أميرها هزيمة ساحقة (١) وولى واحداً من الفقهاء من أتباعه أميراً عليها
ثم هاجم أماره زازيا . وتم له فتحها سنة ١٨٠٧ ، واستولى على منطقة سكت (٢) ،
واتخذ هذه المدينة حاضره لدعوته ، وقد أعيد بناؤها فيما بعد في عهد السلطان محمد بل
سنة ١٨١١ ، واستولى على إمارات زنفر وغويبر وكب .

وكان الحماس يوحد بين صفوف أنصاره ، والرغبة الملحة في رفع لواء الدين
تدفعهم إلى طلب الشهادة ، فاستطاع سنة ١٨١٠ أن يخضع إمارات الخوصة كلها
لنفوذه ، بل أراد أن يمد رواق حركته الإصلاحية نحو بلاد برنو ، وفي سنة ١٨٠٨
قسم الدولة بين ابنه محمد بل وأخيه عبد الله ، ولى ابنه على المنطقة الشرقية وأخاه
على القسم الغربي ، وقنع هو بالزعامة الروحية متخذاً مدينة سكت مركزه الروحي (٣) .

وحركته الإصلاحية هذه كان شأنها شأن الوهابية لقيت تشجيعاً وتعصباً من
المخلصين الراغبين في الإصلاح ، كما لقيت معارضة ومخاربة من المحافظين الرجعيين .
فمن عارض هذه الدعوة محمد أمين الكانمي (٤) صاحب برنو ، وأتهم الشيخ
عثمان بأنه يسعى لعرض الدنيا في الوقت الذي سعى فيه هذا الكانمي لعرض الدنيا حين
تولى سلطنة برنو فيما بعد .

ولكن هذه الرعة المخلصة صادفت إعجاباً واستجابة في نيجيريا وفي خارج نيجيريا ،
ومن أعجبهم منهجه في الإصلاح سلطان المغرب فكتب إليه يقول : بسم الله الرحمن الرحيم
صلوات الله على سيدنا محمد المصطفى الكريم وعلى آله وأصحابه الذين انتهجوا منهجه
القويم ، إلى السيد الذي فشا في أقطار السودانين عدله واشتهر في الآفاق المغربية
ديانته وفصله ، العلامة النبیه ، العديم في زمانه السبيه ، ذي النورين العلم والعمل ،
اللذين هما منتهى الأمر . السيد عثمان بن محمد بن عثمان بن صالح الفلاني نفع الله بعلمه

(١) تذكرة السید ص ١٨٥ .

Hogben, p. 113.

(٢)

Page, p. 35

(٣)

Page, p. 35.

(٤)

القاضي والفقهي ، وسلاماً على من عليه ما اشتد شوقنا إليه ، وولجيمه من الله بفشاهة لا حتى لا نخشى إلا الله والله أن نحشى أن نخشاه ، وبعد فقد بلغنا منحة الثامن عليك ، والتعريف بأحوالك وأفعالك ذلك ، ما نتجبه ، فحبتنا وتسليحنا إليك ، وبذلك لسان سلطان نأجيتكم أمير الطوائف الإسلامية بساجدكم المقرا في كتابه إلينا بفضلك ، وإنك تصالح الله ، ذلك السلطان محمد الباقر بن محمد العدل سلطان أهر ، فإنه أجبرنا بما قدمت به من الواجب من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي له نصب الرسول الأمين والوزير والحاجب حتى دخل الناس في دين الله أفواجا ، وترادفت عليك وفود الإسلام أفواجا وصار بلطف شمائلك إنسان العين عين إنسان :

الناس أكيس من أن يمدحوا رجلا ما لم يروا عنده آثار إحسان

وهذا من أعظم المنح وأتم النعم ، لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم ، فالله تعالى يجازيكم عن الأمم خيرا ، ويقيمكم خيرا ويديم دولتكم محفوفة محفوظة ، ويعين العناية ملحوظة ، وفي حصن الله الحرير تاليه ، قال الله تعالى : (ولينصرون الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور) . والسلام منا على جنابكم الذي صار للإسلام مخصوص نصيحتكم كالبيت المعمور . والسلام عليكم ورحمة الله (١) .

ولما توفي الشيخ عثمان سنة ١٨١٧ بوبع ابنه محمد أميراً للمؤمنين وبقيت الإدارة مزدوجة في عهده : القسم الشرقي يدفع الجزية لسكت والقسم الغربي يدفعها لعبد الله ابن فودي ، ثم توفي محمد بل سنة ١٨٣٧ ، والرحالة كلبرتون الذي زار هذه البلاد في عهد هذا السلطان يتحدث عن الاستقرار والرواج والرخاء ، ولا تزال هذه السلطنة باقية حتى اليوم (٢) .

وقد ترك ظهور هذه الحركة الإصلاحية أثراً عظيماً في أحوال المسلمين في نيجيريا ، وفي غرب إفريقيا كله .

(١) آدم عبد الله الأورى : الإسلام في نيجيريا ص ٢٦ - ٢٧ .

(٢) فذكره النسيان ص ١٨٩ .

فلم يعتمد الفولانيون في نشي الإسلام على الجهاد وحده ، إنما قاموا بمجهود مشكور :
لتشريع الإسلام ، بالطرق السلمية ، فالرجالة Landes رأيت في إحدى جزر النيجر
المعلمين الفولانيين ، أرسلهم أمير نوبل لتعليم الوثنيين مبادئ الإسلام (١) بحجة عبادة

الرب ، كما عمل السلاطين أنفسهم على دفع الحركة الإسلامية إلى الأمام (٢) ، إذ بفضلهم
انتشر الإسلام في جنوب نيجيريا ، وبهذه البلاد اليوم ملايين من المسلمين دخلوا
في الدين على نطاق واسع بفضل هذه الحركة الإصلاحية العظيمة .

وكانت هذه الحركة إعلاماً للثقافة العربية في غربي إفريقيا ، فلم تكن دعوة في
الدين مبنية على صوفية إنما مبنية على حركة علمية وعلى دراسة أصينة فإمامهم عثمان
ابن فودي نفسه ألف نحو عشرين كتاباً (٣) .

أصول الولاية - إحياء السنة - بيان البدع - ترغيب العباد - التصوف -
تميز المسلمين - الجهاد - دالية المديح - سوق الصادقين - شفاء الغليل - علوم
المعاملة - عمدة العلماء - عمدة البيان - العقل الأول - كف الطالبين - المهدي المنتظر -
المسائل المهمة - نصائح الأمة - نور الأبواب - الهجرة .

وكان أخوه عبد الله بن فودي يبازي العلماء في مقابلته لصحيح البخاري (٤) ،
وعرف من مؤلفاته نحو ثمانية عشر كتاباً : ألفية الأصول - بحر المحيط في النحو -
تزيين الورقات - تخميس العشریات - تفسير ضياء التأويل - تفسير كفاية الضعفاء -
الحصن الرصين في الصرف - دواء الوسواس - سبيل النجاة - ضوء المصلي - ضياء
السياسة - ضياء الحكام - كتاب النبات - مصالح الإنسان - مفتاح التفسير - مفتاح
الأصول - نيل المرام - نظم النقابة (٥) .

ولم يكن ابنه السلطان محمد بل أقل منهما شأناً في هذا الميدان ، فقد خمس في
غزواته همزية البوصيري ، وقصيدة بانث سعاد ، والبردية للبوصيري . وروى صاحب

(١)

Meek, vol. II, p. 12.

(٢) تذكرة النسيان ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

(٣) الألورى ص ٤١ .

(٤) تذكرة النسيان ص ١٩١ .

(٥) الألورى ص ٤١ .

تذكرة النسيان (١) أنه كان كثير الاشتغال بالآليف وكلما ألف تأليفاً أخرجه إلى الناس فيقرأه لهم ثم يشتغل بتأليف آخر؛ وقد انتقلت زعامة الحركة الفكرية من مدينة تنبكت وجنى إلى مدن كانو وشمال نيجيريا .

ثم شهدت غرب إفريقيا محاولات أخرى للأخذ بيد المجتمع الإسلامي والعمل في عزم وإصرار على نشر التقاليد الإسلامية :

وكما ابعدت حركة عثمان بن فودي في أوساط الفولاني النازلي في إمارات الخوصة ، كذلك قامت حركة أخرى في فرع آخر من هذا الشعب الذي انتشر في بلاد غرب إفريقيا على نطاق واسع .

وقد رأينا أن طائفة من الفولاني هاجرت إلى منطقة ماسة بين السنغال والنيجر . وحالطوا شعب النجارة وعاشوا في كعبه ، وظلت عالييتهم على الوثنية .

في هذا الوسط الوثني الخالص إلا من بصيص من التأثيرات الإسلامية نشأ في فولاني اسمه أحمدو لوبو في أسرة مسلمة متمسكة بالتقاليد الإسلامية ، وما كاد يبلغ سن الشباب حتى دفع به أهله إلى مدينة جنى (٢) . التي كانت من أهم مراكز الثقافة الإسلامية في حوض النيجر . حيث تعلم التفسير والفقه وتفقه في الدين . وعاش في هذه المدينة رماً وغادرها بعد أن اكتملت ثقافته وفي دمه فكره واضحة لبعت القوى الإسلامية ومحاربة الوثنية ، والقضاء على البدع وتحرير عشيرته من أهل ماسة الفولاني من أوهامهم ووثنيهم .

ثم ظهر عثمان بن فودي في شمال نيجيريا يدعو إلى الإسلام ، ويمهد الأذهان لإعلان الجهاد على النحو الذي رأيناه .

وقد احتذبت هذه الدعوة الإصلاحية الهولانية أحمد ولوبو واستجابت لما رغبته الخالصة في الإصلاح ومنحطه الشديد على الصعف والتخادل الذي ساد المجتمع الإسلامي المعاصر وشارك في الجهاد في بلاد الخوصة حتى إذا ما انتهى الجهاد وحقق آمال المصلحين أراد أن يعضى إلى وطنه . ماسة وأن يصحح من شؤنه كما أصلح عثمان من شئون إمارات الخوصة . ولكنه اتخذ له منهجاً يخيف عن منهج عثمان .

(١) ص ١٩٦ .

(٢)

كان عثمان صاحب رأى فى الإصلاح خبلة إلى مقعد الإمامة فى المجتمع ولكن
أحمدو لوبو اختط لنفسه طريقاً آخر^(١) فقد ادعى المهديّة (١) وأنه مبعوث العناية
لإنقاذ المجتمع الإسلامى فى هذا الجزء من إفريقيا^(٢) ثم بجاهدة الوثنية بكل ما يملك
من قوة .

١- فادعى الانتساب إلى البيت النبوى الكريم (٢) وأشاع تنبؤات تبشر بظهور المهدي ،
ويحيى له الأذهان وتذكر صفته ونسبه واسمه ، فساق على لسان السيوطى الإمام
أحاديث دارت بيه وبين إسكى محمد الكبير يقنأ فيها بظهور هذا المهدي بعد نحو
أربعة قرون . ثم سأل الشيخ السيوطى هل يخرج من صلبه من يقيم الدين ويصلح
أمره . فقال له الشيخ لا ولكن يأتى ضالح عالم جليل تابع السنة اسمه أحمد يظهر فى
بعض جزائر ماسية ، ولكن من قل علماء سنقر (سنكرى) وهو الذى يرثك فى
الخلافة والعدالة والإصلاح والحدود والنقى والزهد ويكون كثير التبسم دائم التحرك فى
جلوسه ويسبقك بكونه متبحراً فى العلوم وأنت لاتعلم إلا أحكام الصلاة والزكاة
والاعتقادات . وهو آخر خلفاء المذكورين ثم سأل إسكى الشيخ هل هذا الخليفة
يجد الدين فيجدده أو يحده حامداً فيوقده فقال له الشيخ بل يجد الدين حامداً فيكون
كشرارة جمر وضمت فى يابس الحشيش فينصره الله على جميع الكفار والمخالين
حتى تعم بركته الآفاق والأقطار ، فمن رآه وتبعه كان كمن تبع النبى صلى الله عليه
وسلم . ومن خالفه فكأنما خالف النبى صلى الله عليه وسلم . فتوسط الأدلاء فى زمانه
لكنهم لايزالون على الجهاد إلى فناءهم (٣) .

وقد انتشرت دعوته فى ماسية وصادت قبولا عظيماً ووجد فيها الفولانيون
فرصة لتوحيد صفوفهم وارتفاع شأنهم كما ارتفع شأن إخوانهم فى شمال بيجريا .
ثم تجاوز تفكيره حدود وطنه ونطلع إلى الوطن الإسلامى الكبير فيما وراء الصحراء
الكبرى . كما تطالع محمد أحمد المهدي إلى هذه الآفاق فيما بعد (٤) .

Dubois, p. 154.

(١)

Fage, p. 146

(٢)

(٣) تاريخ الفتش ص ١٤ .

Fage, p. 146.

(٤)

فوجه أحمدو لوبو الكبير إلى المسلمين في إفريقية كلها، إلى سلطان مراكش وإلى
مستلمى الجزائر وتونس ومصر وغيرها من الأقطار الإسلامية بأنه الإمام الثاني عشر
وأمر المهدي الذي يعد لنفاذ الدين والجهاد في سبيل الله، ثم أعلن الجهاد سنة
١٨١٣ فهزم البشارة الوثنيين (١).

ثم دخل مدينة تنبكت سنة ١٨٢٧ (٢) وأتبعها من يد الرماة المراكشيين، ثم دخل
مدينة جني وطهرها من البدع والمنكرات، واتخذ له حاضراً على مقربة منها، (أحمد الله)، ونشأت إمارة إسلامية عظيمة الشأن في منطقة ماسنة وقد
توفي شيخو أحمدو هذا سنة ١٨٤٤ (٣).

وخلفه ابنه أحمدو شيخو، ولم تعمّر دولته طويلاً فقد توفي سنة ١٨٥٢،
وأصبحت ماسنة هدفاً لحركة إصلاحية أخرى تنبعث من بلاد التكرور ورغم أن هذه
الحركة كانت قصيرة إلا أنها أتمت إسلام الفرع المغربي من الفولانيين،
ونشر الإسلام بين شعوب البشارة.

ومن العريب أن كلا الحركتين، حركة عثمان بن فودي وأحمدو لوبو قد خالفتا
طريقة القادرية وأيدتاها إلى أبعد الحدود هذه الطريقة التي نفذت إلى إفريقية الغربية في
القرن الخامس عشر على يد أحد مهاجري توات. ثم اتخذت من منطقة ولايته مركزاً
لها، ثم تدفقت إلى تنبكت (٣). وفي مستهل القرن التاسع عشر امتدت إليها النهضة
الروحية الكبرى التي انتشرت في العالم الإسلامي كله فاندفع القادرية إلى غربي إفريقية،
وأفادوا من حركات ابن فودي، وأحمدو لوبو. وانتشرت انتشاراً واسعاً من برنو
شرقاً حتى منحنى النيجر غرباً، وقاموا بنشاط عظيم في إنشاء الزوايا والربط والمدارس،
وإرسال البعوث والتبشير بين الوثنيين فكأنها اضطلعت بالجهود السامية في نشر الدين
تاركة أمر الجهاد لمن هو أقلر عليه (٤).

ثم امتدت الحركات الإصلاحية التي استلها عثمان بن فودي امتداداً سريعاً صوب
الغرب في سرعة وعنف، ووجدت استحابة عميقة وسريعة في جميع أرجاء غرب

Dubois, p. 155

(١)

Dubois, p. 150

(٢)

(٣) أرنولد ص ٢٦٢.

L'Islam Noir, p. 49

(٤)

إفريقية في ذلك الوقت على أن هناك بلاد كان يفتحنها الأفيغان في نيلهم الجهاد ، مهمة لتفصيل هذه الدعوات الإصلاحية المنطلقة من شمال نيجيريا إلى منطقة غرب إفريقيا .
وقد برز أينما امتداد هذه الحركات إلى المنطقة ما سبقه على يد أحمدو لوبو ، ولكنها انطلقت صوب المغرب إلى حوض السنغال نفسه ، ومنها إلى منطقة فوتار الواقعة إلى الجنوب من السنغال الأدنى هذه المنطقة التي نزها التكروري ، واستطاعوا قبل غزوات المرابطين أن يتخطوا السنغال ويتوسعوا شمالا صوب المغرب . كما خضعت هذه المنطقة للملوك غانية أو صوصو أو ملي . ومنها انبعثت هجرات الفولاني متجهة صوب الشرق فوق سهول السودان (١) .

كان الإسلام قد تأصل في بلاد التكروري ربما أكثر من تأصله في أية بيئة إفريقية أخرى . أسلموا منذ أيام علي بن ياسين واشتركوا في جهاده وتشرّبوا الثقافة الإسلامية ، ويعتقدوا في فهمها ، وأخلصوا لها كل الإخلاص وكانوا ألزم أهل السودان لأحكام الدين وشعائره .

في هذه البيئة ولد عمر الفوتي التكروري سنة ١٧٨٨ في قرية حلوار من بلاد ديمار ، بأرض فوطة (٢) .

وكان أبوه من المرابطين المتفقيين في الدين شأنه شأن غالبية أهل البلاد ، مرباه تربية دينية (٣) وتعلم علوم العربية ، والفقه والحديث والتوحيد ، حتى إذا بلغ مبلغ الشباب ظهر كرمه وقوة شخصيته . ووفرة مهابته .

ثم ارتحل صوب الشرق يطلب المزيد من العلم ، فنزل مصر سنة ١٨٢٠ ، وتلقى العلم بالأحرار ، ثم غادر مصر إلى البلاد المقدسة وتقل بين مدنها وقتاً طويلاً ، وكانت الحجاز في ذلك الوقت مركز الحركات السلفية والثورات الدينية .

وليس بعيد أن يكون الحاج عمر الفوتي قد تلقى دعاة الوهابية وخالطهم وتشرب مبادئهم . وليس من المعقول أن تطول إقامته بالحجاز على هذا النحو ولا يتصل

Dubois, p. 157.

(١)

(٢) أبو بكر خالد عمر يا . ص ١٧ .

(٣) أرنولد ص ٣٦٧ .

بالوهابية . كما اتصل بشيوخ التيجانية وأعجنته مبادئهم التي تدعو إلى الشدة ، بعكس مبادئ القادرية التي تدعو إلى التساهل والتسامح .

ثم عاد إلى مصر مرة أخرى ، وغادرها إلى برنو ثم انتقل إلى بلاد الخوصة ، وكشف عن مبادئه ، فهو يبدو وهابياً متحمساً لمبادئ عثمان بن فودي محبذاً لدعوته إلى الإصلاح (١) . يدل على ذلك أنه أخذ يعظ الناس ويحضرهم على الرجوع إلى عقيدة أسلافه .

ثم مضى إلى مدينة سكت الحاضرة الروحية للدعوة الوهابية التي بثها عثمان بن فودي . اتصل بالدعاة والوعماء وتزوج بنت السلطان محمد بل بن عثمان ، وجمعتهم بهم وأصبحواودة وثقة وتفاهم عميق (٢) .

وعاد إلى بلاد فو سنة ١٨٣١ وقد نشر مبادئ الإصلاح واعترم الجهاد . فلحق إلى حار فوتا دالون ، وأنشأ رباطاً للعبادة الروحية والتدريب على الحرب والاستعداد للجهاد مقلداً عبد الله بن ياسين صاحب دعوة المرابطين .

وتدافع عليه مخلصون من أتباعه المستجيبين لدعوته ، وتسليح بأحدث الأسلحة ، التي اشتهر بها التجار الأوروبيين (٣) .

فقد شعر بقوة انحدر من رباطه سنة ١٨٤٨ ، وقد راد أنصاره قوة في الروح وقوة في سلاح

ولم تلبث دعوته فولا من المزمعين من التكرور الذين لم يألفوا الوهابية ونزعها العقيمة إلى الإصلاح ، فهاجر كما هاجر عثمان بن فودي من قبل إلى مدينة دنكراي وفيها دعة حصينة ومنها أعلن الجهاد على الوثنية والبدعة والفساد .

أهل جهاده يعرفون إمارة الميابة في كارتة مركز الوثنة ، وهزم جيشها سنة ١٨٥٤ (٤) . واستولى على أهم مدنها وكان يريد أن تتعاون معه إمارة الفولاني في ماسنة لش هجومه مردوخ على مدينة سيجو (سيغو) .

(١) أو بكر خالد عمر با . ص ١٨

Page, p. 138.

(٢)

(٣) أو بكر خالد عمر با . فوثة السعالية ص ١٧ - ١٨ .

Page, p. 148.

(٤)

فلما رفض ملوك ماسية استدار عمر غرباً لمهاجمة مدين خاسو ورجلام وهي إمارات صغيرة في السنغال الأوسط. آوى إليها الفارون من جيش كارتة (١) .

ولكن الفرنسيين كانوا قد بدأوا يتدخلون ، والتخم عمر بأول قوة فرنسية سنة ١٨٥٧ (١) فاتجه صوب الشرق واحتل مملكة سيقو سنة ١٨٨١ . وما يسه في نفس السنة ، ودخل تنبكت سنة ١٨٦٣ وأقام دولة سلفية ممتدة من بلاد التكرور حتى تنبكت ولكنه فشل سنة ١٨٦٤ (٢) .

واستطاع ابنه أحمدو بن عمر (حفيد الساطان محمد بل) أن يعيد وحدة الدولة سنة ١٨٧٢ ، متخذاً مدينة سيقو عاصمة له .

وظل كذلك حتى تقدم الفرنسيون سنة ١٨٨١ ، فطردوه من ماسية وهرب إلى بلاد الخوصة ومات بها سنة ١٨٩٨ .

فكانت دولته آخر الدول التي شهدتها عرى إفريقية قبل خضوعه للفرنسيين . ولما كان عمر تيجانياً فقد انتشرت التيجانية في منطقة نفوذه كما انتشرت القادرية في منطقة نفوذ عثمان بن فودي وأحمدو بوبو (٣) .

وكانت سلطنة برنو بحكم ظروفها وموقعها هدفاً للحركات الإصلاحية التي ظهرت بين إمارات الخوصة أو في طرابلس أو في سودان وادي النيل .

فقد سعت إليها مظاهر الضعف منذ القرن السابع عشر بسبب ضعف السلاطين ، وقلة انصرافهم لأموال البلاد ، وإغراقهم في اللهو والترف ، وتعرضت البلاد لغارات متصلة من الطوارق القادة من الشمال أو الغرب المتقدمين عبر دار فورد وكرفان واضطربت أمور الزراعة واجتاحت البلاد المجاعات والأوبئة (٤) ، وأظلمت القرن التاسع عشر وهي غير مهيئة لمقاومة التيارات الواعدة إليها .

وامتدت إليها بحكم موقعها حركات الإصلاح ، امتدت إليها حركة الإصلاح

Dubois, p. 157.

(١)

Fage : op. cit. p. 148.

(٢)

(٣) أرنولد ص ٤٦٦

Hogben, p. 391.

(٤)

(م ١٨ - الإسلام في إفريقيا)

التي اضططلع، بهد عثمان بن قنقش، فغزت قوات الفولاد والحوضية بلاد برنو وفيه عهد سلطانها محمد بن علي « فهزمت جيوشه وسقطت العاصمة سنة ١٨١٨ » .

وكان قد ظهر في ذلك الوقت مصلح من أهل برنو يدعى محمد الأمين الكانمي (١) . رحل هذا الرجل إلى مراكز الثقافة الإسلامية . رحل إلى الحجاز وأقام بالمدينة عامين ثم رحل إلى مصر وفاس وعاد إلى بلاده ينشر الحركة العلمية وذاع صيته لعلمه وتقواه ، وقد استنجد به ملوك برنو ، فزعم حركة مضادة للفولانيين وطردتهم من البلاد (٢) بعد قتال طويل ثم بايع لنفسه بالسلطنة سنة ١٨٢٦ متخذاً مدينة كوكو عاصمة له ، وظلت أسرته تتعاقب على الحكم حتى خضع للاحتلال البريطاني (٣) .

وتعرضت برنو لغارات رانج بن الزبير سنة ١٨٩٣ بعد طرده من وادي ، فاستولى على بلاد ناجري وغزا برنو واستولى على عاصمتها وبقي فيها حتى طرده الفرنسيون منها سنة ١٩٠٠ ، وخضعت برنو لحركات الإصلاح السوسية ، وانتشرت بها زواياهم ، وكثر نشاطهم ، كما تعرضت للدعاية المهدية المنطلقة من سودان وادي النيل (٤) ، وكان من الممكن أن تثمر هذه الحركات الإصلاحية التي اجتاحت غربي إفريقيا ، فرد للإسلام نفاذ وقوته وروحه المدعة ، وتوطد أواصر الوحدة بين المسلمين ، لولا تعرض هذه البلاد لغارات الاستعمار ، ودخولها في دائرة القود الفرنسي والبريطاني (٥) .

Palmer, p. 19.

(١) دائرة المعارف الإسلامية : مادة برنو

(٢) تذكرة السباد ص ١٩٥ .

(٣) ندوم شقير ص ١٢٧

(٤) ندوم شقير ص ١٢٧ .

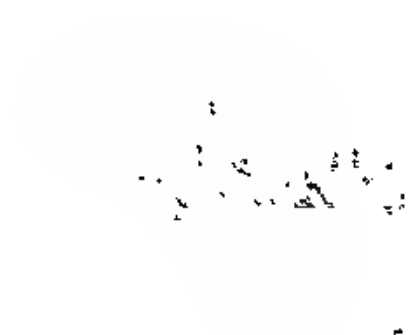
Hogben. p. 194.

(٥)

الباب الرابع



انتشار الاسلام والثقافة العربية
في السودان وادي النيل



١ - دور التكوين

المناهل في تاريخ انتشار الإسلام في غرب إفريقيا وسودان وادى النيل بحسنة الكثير من أوجه التشابه بين الأسباب والتطورات والنتائج .

فان اتصال غرب إفريقية الوثيق ببلاد المغرب كان من أهم العوامل التي ساعدت على انتشار الإسلام وفي تطور الثقافة الإسلامية ونموها واتخاذها طابعاً خاصاً . وسودان وادى النيل كان لاتصاله الوثيق بمصر مثل الأثر الذي تركه اتصال المغرب بالقسم الآخر من السودان . دخلت المؤثرات الإسلامية من مصر عبر بلاد التوبة وتركزت في تاريخ السودان وتطور ثقافته الإسلامية أثراً واضحاً .

وثمة تشابه آخر هو أن القطرين تأثرا بهجرات بدوية تركت أثراً واضحاً في انتشار الإسلام في كليهما . كان المثلثون من بدو المغرب أصحاب الفضل الأول في حمل الإسلام إلى غرب إفريقية ، وفي إداعة المؤثرات الإسلامية ، ورأينا كيف وجهوا هذه الثقافة وأثروا فيها ، وسودان وادى النيل لعبت هجرات العرب إليه دوراً مماثلاً للدور الذي لعبه الطوارق في إسلام غرب إفريقية . هذه الهجرات هي التي حملت الإسلام إلى بلاد السودان وحملت الثقافة العربية وطعمت البلاد بطابع لا يزال مستمراً حتى اليوم .

دخلت هذه الهجرات إلى السودان من بابين : الباب الأول هو الباب الشمالي الذي يفضى إلى مجرى النيل ، متابعاً النهر ، من جنوب أسوان إلى كرسكو ، ثم مخترقاً صحراء العتمور مباشرة إلى أبي حمد . ثم متابعاً النهر مرة أخرى ، منهياً إلى الجنوب .

والباب الثاني هو الشرقي . المنحدر من ساحل البحر الأحمر عبرته الهجرات من جزيرة العرب في طريقها صوب العرب إلى السودان الأوسط (١) .

كأن انتشار الإسلام من بلاد المغرب وتدفقه إلى غرب إفريقيا رهنا بالصراع بين الملثمين وبين مملكة رنجبة ذات تاريخ وذات حضارة عريقة وهي مملكة غانة . وكان نجاح الإسلام في التسرب بحسب الجنوب وفقاً على مقاومة هذه المملكة للتدور الإسلامي الدافع ، ولم ينفصح المجال أمام الهجرات وما تحمله من ثقافات إلا بصعف هذه المملكة واختفائها إثر الأمر .

وكذلك الحال في السودان وادي النيل ، كانت شمالاً النوبة المسيحية تقف في وجه تدور إلى مريد أن يتدفق من مصر عبر الباب الأول وكان انفساح المجال للمدحرج - العرب سحرة عبره لتطرق أرض السودان بتوقف على مدى مقاومة هذه النوبة .

وبعد سبب تلك النوبة ثم تهاوت آخر الأمر ، انفسح المجال وانفتح الباب على مصر عبر الدفق يارات الإسلامية طليقة من كل قيد

ثم كتب السائح منشأه أيضاً إلى حمد بعيد ، فلهجرات حملت الإسلام وثقافته العربية وشرته في الأوطان التي نزحت إليها ، وعملت على إسلام أهل البلاد الأصليين . وشرع ثقافة الإسلامية بينهم ، ثم ما تمخض عنه انتشار الإسلام من مدنهم وديارهم من البلاد الأصليين ، وتكوينهم سلطانات إسلامية محلية تتخذ بالإسلام ديناً وشرعاً ثقافته الإسلامية .

وتؤكد أن يكون مدينة واحدة في القطرين : رأينا كيف أن حملة عقبة ابن زبير انتشرت وتوغل في المغرب الأقصى هي أول اتصال بين غرب إفريقيا وبين فتح مصر

كذلك كانت هذه اتصال السودان وادي النيل بالفاتحين العرب عبر الباب الأول على يد عمرو بن عبد الله ، فقد أتم فتح مصر وبدأ أول اتصاله ببلاد النوبة كما يذكر ابن بطوطة صاحب كتب فتوح مصر ، حين أرسل عقبة بن نافع الفهري نفسه إلى دمن كعبه من الخيالة (١) أعارت على حدود مصر الجنوبية ، وعلى أطراف بلاد النوبة

والبلادري (١) يصور هذا اللقاء الأول، تصويراً أوضح من تصويرو ابن عبد الحكم ، فهو يتحدث عن قتال نشب بين الزاحقين العرب وبين المدافعين من أهل البلاد قتال غلب عليه الإستبسال من جانب العرب وعنف المقاومة من جانب أهل النوبة الذين أظهرُوا من اسرعة في المزاوغة والمهارة في إطلاق السهام وإصابة الهدف ، وكانت أهدافهم عيون المقاتلة وحذقاتهم يصيبونها في دقة ومهارة ملا يكادون يخطئون ، والبلادري يروي له شيخ حميرى من شهد ملاقاته النوبيين فيقول :

« لقد شهدت النوبة مرتين في ولاية عمرو بن العاص فلم أر قوماً أحدثى حرب منهم ، لقد رأيت أحدهم يقول للمسلم : أين نحب أن أضع سهمى منك ؟ فرمى عبث الفتى منا فقال في مكان كذا ، فلا يحطه . فلم يستطع العرب أن يتغلبوا على هذه المقاومة العنيفة فعادوا من حيث أتوا .

ثم عاود العرب الكرة سنة ٢١ هـ في ولاية عبد الله بن سعد أبي سرح ، الذى يبدو أنه أفاد من الاخفاق الذى صادفه جيش عمرو . فأعد حملته أتم إعداد ، وأوغلت في بلاد النوبة جنوباً وأمعنت في زحفها حتى مدينة دنقلة عاصمة البلاد محاصرتها حصاراً عنيفاً ، وصربت كنيسة الكبرى ، ثم توقف هذا الزحف مرة أخرى واقتنع المسلمون بالمصالحة ثم عادوا أدراجهم (٢) .

ونحن نريد أن نتعرف على طبيعة هذا اللقاء الأول وآثاره ونتائج في انتشار الإسلام في بلاد النوبة .

هل كانت عودة العرب من حيث أتوا مردها إلى عنف المقاومة التى صادفوها ؟ كانت هذه المقاومة عنيفة ما في ذلك شك . كانت تخشى من وراءها ممالك مسيحية عريقة وكنيسة يعقوبية عريقة أيضاً . وقفت هذه الممالك أمام الزحف العربى في سودان وادى النيل ، كما وقفت مملكة غانة أمام الزحف الذى قام به الملثمون في غرب إفريقيا .

(١) البلادري : فتوح البلدان ٢٣٧

(٢) البلادري ص ٢٣٧

وقد دخلت المسيحية إلى بلاد النوبة متدفقة من مصر على يد المبشرين المصريين الذين انحدروا إلى هذه البلاد في القرنين الأول والثاني للميلاد .

ثم أخذ مساعد المسيحية يشتد باشتداد تيار المهاجرين من أهل مصر الذين فروا إلى بلاد النوبة معتمدين بها من موجات الاضطهاد والتعذيب والإرهاب ، التي تعرضت لها المسيحية في مصر ، وباتصال العلاقات التجارية بين القبطيين ،

ثم اشتد اعتناق أهل النوبة المسيحية في القرن الخامس الميلادي ، وإن كانت الوثنية قد بدت غالبة على البلاد سنة ٤٥٣ م . كما يتبين مما رواه القائد الروماني Maximianus الذي بعثه الامبراطور مرقيانوس على رأس حملة تأديبية إلى هذه البلاد (١) .

غير أن اقرن السادس الميلادي شهد انتصار المسيحية تماما وغلبتها على أهل النوبة شعبا وحكومة بسبب الجهود التي بذلها الامبراطور جستنيان والمبشرون من الملاكانيين ثم الجهود التي بذلها اليعاقبة فيما بعد (٢) .

وجدت المسيحية الوافدة إلى البلاد ممالك ثلاثة قديمة : مملكة نباتة ومملكة مقره ومملكة علوة ، ويبدو أن مملكة نباتة في العهد المسيحي قد انضمت إلى مملكة مقره واتحدتا في ظل أسرة حاكمة واحدة تدعى بالمسيحية (٣) فوثائق العصور الوسطى لا تتحدث إلا عن مملكتين مسيحيتين : مملكة مقره ومملكة علوة .

امتدت المماكة الأولى من حدود مصر الجنوبية حتى الشلال الثالث جنوبا حيث جزيرة سي ومدينة كورقي وكانت العاصمة مدينة دنقلة . وتتميز عن دنقلة الحالية التي تقع إلى الشمال منها بنحو مائة ميل ، والتي يطلق عليها اسم دنقلة العجوز . وتعرف مملكة مقره في أكثر الأحيان باسم مملكة دنقلة ، وكانت مقسمة إلى ولايات صغرى يحكمها نواب من قبل الملك .

أهم هذه الولايات وأهم هؤلاء الولاة صاحب الجبل ، وهو بخار عادة ممن يتوافر فيهم الناس والحزم . إذ أن مهمته مراقبة الحدود الشمالية ، وصط

(١) عبد العزيز عبد المجيد - ١ - ص ٨ - ٩ .

(٢) Trimmingham ; Islam in the Sudan. p. 59

(٣) Idem.

أمورها الإدارية والحربية والتجارية ، فلا يستطيع يقادم إلى تلك البلاد أن يدخلها دون استئذان (١) .



والمملكة الثانية هي مملكة علوة ، وهي أكثر اتساعاً وأوفر قوة وأشد غنى لأنها كانت تضم الأراضي الحصينة الواقعة بين النيل الأزرق والأبيض ، فضلاً عن اتساع وادي النيل في تلك الجهات ، وكثرة عدد السكان. وعاصمتها مدينة سوبة التي تقع إلى الشرق من الخرطوم بنحو خمسة عشر ميلاً ، وهي تقسم

بدورها إلى ولايات يحكمها نواب عن الملك أهمهم والى الأبواب وله من المكانة مثل ما لصاحب الخيل في مملكة مقرة (١).

هذه المهالك إذن هي التي وقفت في سبيل الفتح العربي ونظمت هذه المقاومة العنيدة التي صادفتها حملة عقة بن نافع من قبل عمرو ، والتي صادفتها حملة عبد الله ابن سعد رغم حصارها دققة . فقد نظم الملوك المقاومة وأوقعوا بالعرب من حصونهم ومعاقلهم الجبلية . وكبدوهم خسائر فادحة ، واضطروهم إلى الكف عن التقدم والعودة من حيث جاءوا .

ولعل أهم مقاومة هذا كان نابعاً من طبيعة البلاد وأحوالها الجغرافية، وكانت تضاريسها تتحج بالملوك ولعناصر المقاومة أن تعصم مواقع حصنة . وأن نخفي حيناً ونعاود الدهور أحياناً من حيث لا يتوقع المهاجمون .

ولعل هذا يفسر إحقاق انتصارات العسكرية التي كانت مصر تسيدها صوب الجنوب في إلخح مبدأ القرن الثالث عشر فصاعداً ، ولولا ذلك لتمكنت الجيوش المملوكية من سحق مقاومة المويين وإخضاعهم لفوذ مصر إخضاعاً تاماً .

ثم أحوالها المباحية لا يكاد تختلف عن أحوالها التضاريسية ، مظهرها العام الشدة والقمحط وحاجة المهاجمين إلى الاد والمؤنة ، ومقاساتهم في سبيل ذلك ألواناً من الشدة واللباس . لذلك كانت الحملات المصرية سريعة خاطفة لم تستطع أن تمتد طويلاً في البلاد . ولو طال مكثها لحققت ماتغية من أهداف (٢) .

ولم يكن هذه الحملات العربية الأولى نريد رحنفاً جاداً نحو البلاد السوبية ، فعمر بن العاص لم يكن يطمح في أكثر من تأمين حدود مصر الجنوبية، أو تعقب بعض الفارين من الجنوب أو الأفراد البيزنطيين . ولعلها كانت حملة استكشاف تريد أن تستطلع الأحوال في أقصى الصعيد .

وكانت حملة عبد الله بن سعد مجرد رد على عدوان مساح قام به أهل السوبة على حدود مصر الجنوبية

ولا ينبغي أن يكون البيزنطيون من وراء هذه الأحداث ، فقد حاولوا استرداد الإسكندرية ولعلهم دفعوا ملوك النوبة إلى مهاجمة مصر من الجنوب لشغل العرب عن مدافعة المهاجمين البيزنطيين (١) .

وكان العرب أشوق إلى القضاء على معقل المقاومة البيزنطية في بلاد المغرب فقد كانوا يحسون بالخطر جاثماً في هذه البلاد يريد أن يتهديهم في كل حين ، فما عاود الأمويون الهجوم كان انصرافهم بجاه نحو بلاد المغرب وليس نحو بلاد النوبة .

إذن عنف المقاومة مقترناً بطبيعة البلاد الجرداء التي لا تغرى بفتح أو احتلال ثم لرغبة في حماية ظهر القوات العربية في مصر وتأمين الحدود الجنوبية ، هي التي أملت على الطرفين أن يتفقا .

وكان النوبيون بدورهم لبسوا أقل من العرب رغبة في الاتفاق ، فقد كانت الكبيسة الأم في قبضة العرب ، وكذلك مسارب التجارة ومسالكتها ، ومن ثم تبلورت هذه الرغبات المتبادلة في معاهدة البقط الشهيرة التي عقدها عد الله بن سعد مع ملك مقرة النوبي (٢) .

وهي تفصّل بأن يدفع ملك النوبة إلى بيت المال في مصر ٣٦٢ رأساً من الرقيق كل عام ، يدفع للوالي ٤٠٠ رأساً أربعين رأساً ، وحاكم كورة أسوان الذي يتولى تسليم الرقة عشرين رأساً ومبعوث الوالي الذي يجيء إلى أسوان خمسية ، وللشهود العدول عن معاهدة البقط وعددهم اثنا عشر رأساً واحداً أيضاً .

وفي مقابل ذلك يقوم المسلمون بإمداد النوبة بألف أردب من الغلال ، ويهادى السفراء بثلاثمائة أردب ، كما يرسل المسلمون حبوباً أخرى كالعدس إلى جانب الأفضنة (٣) .

وتعهد النوبيون أن يحفظوا المسجد الذي ابتناه المسلمون في دنقلة لاهدموه (٤) وقد أخفقت النصوص التي وردت في المقريري وغيره من المراجع نصاً مقابل

(١) عد العرب عند الحيد - ١ ص ١٧ .

(٢) البلا روى ص ٢٣٧ .

(٣) أس حردده . امسالك والمالك ص ٩٢ .

(٤) عبد جريز عند الحيد - ١ ص ١٨ .

تعهد أهل النوبة بحماية المسجد ، : نصن ينظم التعاون الديني بين كنيسة النوبة وكنيسة الاسكندرية ووفود البطاركة والكهنة إلى مصر أو رحيلهم إلى النوبة ، لأن هذه المعاهدة أخذت وعطاء ، وليس بمعقول أن يعطى أهل النوبة ولا يأخذون .

ولم تكن المعاهدة معاهدة تبعية يفرضها غالب على مغلوب ، فالروايات التاريخية تجمع على أن البقظ ليس بجزيرة ولا خراج (١) .

وقد أورد المدائني مسألة البقظ تحت عنوان كتاب « موادة لنوبة » ونص عبارة البلاذري تعيد هذا المعنى ، ليس بيسا وبين الأسود عهد ولا ميثاق إنما هي هدنة بيننا (٢) .

إذن هي معاهدة مصالح مشتركة ، تأمين النواحي الاقتصادية والتجارية والدينية ، وتشجيع للتبادل التجاري ، وتنظيم طبيعي للعلاقات وإقرار السلام على الحدود المشتركة .

وهي نابعة من مصالح متبادلة ، لذلك ظلت سارية المفعول أكثر من ستمائة سنة ، وهي تحدد لنا طبيعة انتشار الإسلام في النوبة فإن يكون فتحاً إنما إذا قدر له أن ينسرب فليتنسرب سلمياً في ببطء ومن غير عنف .

وكانت هذه المعاهدة بمثابة فتح الباب أمام المؤتمرات الإسلامية لتنفذ إلى البلاد في هدوء وطمأنينة ، وكأني بملوك النوبة قد ذقوا أول مسمار في نعشهم حين فتحوا الباب أمام لتيار الإسلام ليغمر بلادهم ، وليعبر مصيرها الاجتماعي والديني ، وبؤذن بنهاية المسيحية ونهاية مملكة مقرة نفسها .

كانت هذه المعاهدة استهلالاً لتسرب الإسلام إلى بلاد النوبة تسرباً سلمياً في فترة استمرت حتى بداية العصر المملوكي في مصر ، تسرباً تشجعه وتقويه وتشدد من أزره عوامل عديدة : سياسة الدولة الإسلامية في مصر ، وموقفها من بلاد النوبة ، واتصال العلاقات التجارية بين القطرين في ظل هذا السلام ، وهجرات الأفراد أو هجرات الجماعات .

(١) ابن حمداذبة : المسالك والممالك ص ٢

(٢) البلاذري ص ٢٢٧ .

تظللت علاقات الدول الإسلامية بمصر ببلاد النوبة - يغلب عليها طابع المسالمة وكانت هذه العلاقات في الحقيقة يتحكم فيها عاملان (١).

أولها : معاهدة البقط ، التي نظمت العلاقات الملاحية والتبادل التجاري بين القبطيين وضمنت لمصر مورداً منتظماً من القمح والسلع المصرية الأخرى . وأصبحت بلاد النوبة من وجهة نظر الدول الإسلامية في مصر سوقاً كبيراً أو منطقة نموذج إسلامية ، وكانت العلاقات تنجح إلى الهدوء والمسالمة ، كما عملت ممالك النوبة على تنفيذ هذه الاتفاقية ومد مصر بما تحتاجه .

ويمكننا أن نعزو ما نقلته المراجع أحياناً من سوء العلاقات بين الطرفين إلى نقص اتفاقية البقط .

وكان نقص هذه الاتفاقية في الغالب يحىء من ملوك النوبة . فكانوا أحياناً يمتنعون عن الوفاء بهذه الشروط ، وكانت الدولة الإسلامية في مصر تضطر إلى إرسال الحملات التأديبية لإجبارهم على الوفاء بالعقد .

ويمكننا أن نرد أغلب الحملات التي أرسلتها مصر منذ الفتح حتى العصر المملوكي لهذا السبب . حملات الإخشيديين والفاطميين ، ثم حملة صلاح الدين المشهورة سنة ٥٦٨ هـ ، حينما أرسل أخاه توران شاه على رأس جيش توغل في بلاد النوبة حتى بلدة إبريم .

وكان ملوك النوبة يردون على هذه الحملات كلها واتهم الفرصة . ففي سنة ٧٣٧ م غزا ملك النوبة صعيد مصر في عهد والي مصر عبيد الله بن الجيحات ثم يسود السلام إذا زالت أسباب هذا الجفاء .

والعامل الثاني الذي كان يتحكم في هذه العلاقات ويوجهها ، الصلات الدينية بين بلاد النوبة ومصر . فقد كان مسيحيو النوبة على المذهب اليعقوبي ، فكانوا يتبعون الكنيسة المرقسية في الإسكندرية ، وكان بطريرك مصر يشمل تلك البلاد برعايته الدينية ، يرسل الأساقفة ، أو بتوسط لإعادة الطمأنينة والمحبة بين ممالك النوبة .

(١) انظر ما ذكرناه بالباب الثاني .

وكانت كنيسة مصر خاضعة للنفوذ الإسلامي، طوال هذا العهد . فكانت علاقة الدولة بالكنيسة تتأثر إلى حد كبير بعلاقة مصر بالدول المسيحية في النوبة : « وكلما ساءت هذه العلاقة زد الولاة هذا السوء إلى البطريك وحملوه المشولية، وطلبوا إليه إصلاح ذات البين ، وإن لم يفعل اضطهدوه أو عزلوه . مثلما حدث في العصر الفاطمي حينما قبض الوزير البازورى على البطريك وأتهمه بتحريض ملك النوبة على منع البقظ عن الخليفة المستنصر الفاطمي »^(١) ويبدو أن الكنيسة القبطية في مصر كلما تعرضت لحملة من الاضطهاد أو المصايقة استجذبت بملوك الحبشة أحياناً أو بملوك النوبة أحياناً أخرى ، وكانت اضطهادات الأحرار للمسلمين أو غارات ملوك النوبة هي من قبيل التأثير لما توهموا من اضطهاد الأقباط في مصر .

وكانت هذه العزوات تزداد على مصر لفترة التي يستشري فيها الفساد والوهن في الحكومة الإسلامية في مصر . أو تتعرض الأقلية المسيحية لبعض المضايقت. على كل حال لم تتخذ هذه العلاقات الطابع القوي العنيف الذي اتخذته في العصر المملوكي .

وكان هذا بدوره يؤدي إلى مزيد من العلاقات التجارية ومزيد من الرحلات والمحرات . وكان الدول الإسلامية بمصر كانت تشد أزر هذا التسرب السلمي دون أن تدري .

والعامل الثالث الذي كان يشد من أزر التسرب السلمى للإسلام هو التبادل التجارى بين البلدين . هذا التبادل الذى نظمته معاهدة البقظ ، ووضعت له اقواعد والأصول ، فقد اعترفت هذه المعاهدة بحرية المرور التجارى بين اقطرين « على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه . وعليكم حتماً من بلدكم أو بطرفه من مسلم أو معاهد حتى يروح عنكم (١) » .

ومعنى هذا أن تجار المسلمين كان يستطيعونهم أن ينفذوا إلى بلاد النوبة وأن يقيموا فيها متاجرين غير مستقرين فيه. وأن تؤمن أموالهم وأنفسهم في بلاد النوبة. ويبدو أن تجار المسلمين من العرب كانوا قد بدأوا يدخلون النوبة. وبما قبل إبرام المعاهدة. وأن هذه المعاهدة لم تكن تشرع المستقبل بقدر ما تقر حقيقة واقعة. يدل على هذا نصها على صيانة معجده المسلمين والحفاظ على عليه ومعنى هذا أن التجار المسلمين كان يسمح لهم بمزاولة شعائهم الدينية في حرية كاملة (١) وكان هؤلاء التجار يخالطون أهل البلاد ويتحدثون إليهم ، ولا ننسى أن التجار المسلمين عادة كانوا من حبر الدعاة إلى الإسلام ، وكانت أعداد التجار الوافدين على بلاد النوبة تزايد ويزيد نشاطهم التجاري والديني كلما تمت العلاقات وتطورت بين البلدين . هذه العلاقات التي بلغت الغاية من النمو في القرن الثالث عشر (٢) .

والتجار النوبيون المسحرون إلى بلادهم من مصر كانوا يتحدثون عن أحوال البلاد الدينية والثقافية ويتأثرون بما يشاهدون من معالم الحضارة والرفق . وكانت أكثر السلع رواحاً في أسواق مصر تجارة الرقيق ، وكان تجار الرقيق أوفر التحار مالا وأكثرهم ربحاً . واشتد طلب مصر على الرقيق منذ درج الولاية على تجنيدهم في جيش مصر الإسلامية بعد الاستغناء عن القبائل العربية . وضحت الحاجة إلى الجنود النوبيين منذ أيام الطولونيين واستمرت هذه الحاجة في عهد الأخشيديين وخاصة في عهد كافور ، ثم تضاعفت أعدادهم في عهد الفاطميين لاسيما عهد المستنصر بالله ، فقد كانت أمة سودانية الأصل وشارك هؤلاء السودانيون في حوادث العصر الفاطمي ، واستعان بهم الخلفاء في القضاء على الفتن والثورات (٣) هؤلاء الجنود كانوا يعتنقون الإسلام ، وكان بعضهم يقيم في مصر بعد تسريحه من الخدمة . ولا بد أن كثيرين منهم كانوا يعودون إلى أوطانهم لإنفاق

(١) عبد البربر عبد المجيد - ص ١٨

(٢)

Trimingham : Islam in the Sudan, p. 4

(٣) مصطفى - ص ١٤٨ .

ما جمعوا من ثروات ، وكانوا أحسن مثل لما يمكن أن يضعه الإسلام بالنوب
من حيث الارتفاع بمكانته الاجتماعية والاقتصادية .

ولا نستبعد أن يكون هؤلاء الجند العائدون إلى الوطن من أحسن الدعاة إلى
الإسلام بين ذويهم ، بل لعلهم كانوا يستحثون الناس على استبدال وطنهم
الأجرد بوادي النيل الخصيب والرحيل إلى القاهرة للمشاركة في المغامرات
السياسية .

أما العامل الرابع المؤثر في التسرب السلمي للإسلام في بلاد النوبة ، فكان
هجرة الأفراد واجتماعات :

فقد كانت هذه البلاد مفضية للنازحين من مصر بعد تغير الدول ، هؤلاء
كانوا يعتصمون ببلاد النوبة ، ويقيمون فيها ، ويتزوجون من أهلها .

وهناك من الشراهد ما يدل على أن سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية
قد صحبه فرار كثيرين من بني أمية (١) ، وإقامتهم ببلاد النوبة .

وأهل هذه الهجرات المردية قد تنابعت بعد هذا في أيام الطولوثيين والأحشيديين
والفاطميين ، وكان هؤلاء اللاجئين عاملاً هاماً في نشر الإسلام بين أهل هذه
البلاد (٢) .

ثم بدأت الهجرات العربية تطرق باب النوبة ثم تنتشر فيها ، كانت
القبائل العربية كما رأينا تفر إلى مصر ، ثم تتجه نحو صعيد مصر متجهة نحو
أسوان ، لأن منطقة أسوان وبلاد النوبة وشمال السودان تشبه إلى حد كبير
بلاد العرب في ظروفها المناخية ، بعكس بيئة القطر المصري التي لا تلائم طبيعة
البدو ، ولا بعد أن تكون بعض البطون العربية التي وفدت على مصر طوال
القرنين الأول والثاني الهجري قد استقرت بها المناطق الجنوبية فأقامت في أطراف الصعيد
أو نفذت إلى القسم الشمالي من بلاد النوبة (٣) .

ولكن هذا التيار المهاجر المنصرف صوب الجنوب بدأ يزداد عمقاً وشدة بعد

(١) ندوم شفيق - ٢ ص ٤٥ - ٤٦ .

(٢) عبد العزيز عبد المجيد - ١ ص ٢٠ . (٣) مصطفى سعيد ص ١٦٩ .

أن أصبحت أحوال مصر خاصة والعالم الإسلامي عامة لا تشجع العرب على الإقامة إنما تدفعهم ضوب الجنوب .

فقد أسقط العرب من العطاء ، وبدأت الدولة الإسلامية تقصمهم من الجيش مستعينة بعناصر أخرى من الفرس أو الترك أو العبيد السودانيين في العهدين الطولوقي والاحشدي ، أو البربر في العصر الفاطمي .

وبدأت الدولة في مصر ترى فيهم عنصراً لا تلبث قناته لاحتفاظه بمقومات العسكرية ، فهو أميل إلى الشعب والعصيان .

بدأ هذا العنصر العربي الوافد يظهر في بلاد النوبة من القرن الثالث الهجري فقد أثبتت الأبحاث الأثرية في منطقة مريس أن جاليات عربية قد استقرت فيها ووضح أثرها في القرن الثالث الهجري .

وقد عثر في بعض الأماكن بأرض مريس على كثير من الكتابات العربية ، يرجع تاريخ أقدمها إلى هذا العصر ، كما عثر على شواهد قبور تحمل أسماء عربية بتاريخ ٢١٧هـ / ٨١٣ ميلادية ، وفي منطقة كلابشة سنة ٣١٧ هـ / ٩٢٧ ميلادية (١) .

هذه العناصر العربية التي هاجرت ، ثم أقامت على هذا النحو سرعان ما تركت أثراً واضحاً في تاريخ البلاد وحياة السكان فقد أصبحت إلى أهل البلاد واختلطت بهم ، وعاشرتهم .

ولم يخل هذا الاختلاط من أن يترك أثراً في الوافدين وأهل البلاد على حد سواء ، والوافدون تسربت إليهم الدماء النوبية وغلبت السمرة على سلائهم ، وأهل البلاد خالطهم الدماء العربية واعتنقوا الإسلام وتعلموا اللغة العربية .

هذا التطور عظيم الأثر في تاريخ البلاد تنهض الأبحاث الأثرية لشبته إثباتاً لا يدع مجالاً للشك .

فالأبحاث التي قام بها دى فيار في جهة مريس تؤيد هذا القول . وقد عثر في مقابر نوبية على كتابات باللغة القبطية تحمل تاريخاً مزدوجاً من التقويمين القبطي

(١) مصطفى مسعد من ١٣٨ .

والهجرى . وترجع معظم هذه الكتابات إلى القرن العاشر الميلادى ، بل تظهر بعدها كتابات لا تحفل سوى التاريخ الهجرى ، وهى ترجع إلى نفس القرن (١) .

وهذا التطور منطقى وواضح فالجماعات النوبية إذا أسلمت وتأثرت بالعرب احتفظت بتقليدها القديمة ، وأضافت إليها بعض التأثيرات الجديدة ، فإذا مضى الوقت واشتد إسلامها تخلت عن التقاليد القديمة نهائياً متخذة تقاليد إسلامية صرفة .

واشتد تيار الهجرة على نحو أشد فى العصر الفاطمى ، فاستقدم الفاطميون بنى هلال وبنى سليم ووطنوهم فى صعيد مصر ، ثم دفعوهم إلى بلاد المغرب وساءت علاقتهم بالقبائل العربية إلى حد بعيد .

وشهد عصر المستنصر على وجه الخصوص هذا العداء المتبادل العنيف بين حكومة مصر وبين البدو النازحين إلى الصعيد ، فاندفعت بعض البطون إلى بلاد النوبة يغريها النجاح الذى حققه المهاجرون الأولون ، وتحفزها أنباء النجاح والاستقرار الذى أحرره إخوانهم بالأمس ، وانطلقهم بعيداً عن تضيق سلطات مصر واستدادها

واشتد تيار المهاجرين إلى النوبة ، ووضح نفوذهم فى صورة أقوى ، ودليلاً ابن سليم الأسوانى الذى رار بلاد النوبة آخر القرن العاشر . فقد ذكر أن المنطقة الممتدة من أسوان حتى الشلال الثالث ، يتصرف فيها المسلمون لانصرف المهاجرين اللاحقين . إنما تصرف الملاك وأصحاب البلاد ، وأن اضطراب العلاقات السياسية بين مصر والنوبة لم يحل دون هذه الهجرات . بل رأى المسلمين متمعين بكامل استقلالهم فى هذه المنطقة ، وقد اندمجوا فى حياة الناس وتعلموا لغتهم وفهموا عاداتهم وتقاليدهم (٢) .

ومصادق ذلك كله أن العصر الفاطمى شهد قيام إمارة عربية نوبية اتخذت مدينة أسوان مركزاً لها وامتد نفوذها جنوباً فى أرض مريس .

هذه الإمارات أسسها عرب ربيعة بزعامة أبى مروان شرين إسحاق ،

(١) مصححى مسند ص ١٤٠

(٢) المقربرى المخطوط ج ١ ص ١٩٨ .

وقد خلفه على زعامة القبيلة ابن عمه أبو عبد الله بن علي المعروف بأبى يزيد ابن إسحق ، واختلط عرب ربيعة بالنوبيين ، وتزوجوا من بنات رؤسائهم .

والراجح أن هذه العشيرة ، كونت طبقة حاكمة خضعت لها النوبيون من أهل مريس الذين زال عنهم السلطان الفعلي ملك النوبة المسيحي ، - لاسيما بعد أن تحول معظمهم إلى الإسلام .

وقد اعترفت الدولة الفاطمية بهذه الإمارة العربية النوبية ، واستعان الحاكم بأمر الله بأبى المكارم هبة الله أمير ربيعة (١) في القبض على أبى ركة الخارج على الدولة الفاطمية وهو يلوذ بالفرار من مصر ناحية الجنوب . ونجح أبو المكارم في القبض على أبى ركة سنة ١٠٠٦ م . فكوفي . باق كز الدولة .

وتوارث أبناؤه هذا اللقب ، وعرف بو ربيعة بنى كز ، وقصدتهم الشعراء والكتاب ومدحوهم ، وكان أحد زعماء هذه الإمارة من الرؤوس المدبرة للمؤامرة التى قصد بها إعادة الدولة الفاطمية وإقامة الأمير داود بن العاصد خليفة ، وهى المؤامرة التى استطاع صلاح الدين قمعها وقتل رعيصها من بنى كز وآلاف من أتباعه سنة ١١٧٦ م .

ومع ذلك استعاد بو كز نفوذهم . ومدوا سلطانهم على القسم الشمالى من بلاد النوبة ، وعملوا على إشاعة النفوذ الإسلامى ، ونشره فى البلاد وتشجيعه واستمر نفوذهم هذا حتى العصر المملوكى ، وهو صورة واضحة للحياة التى كان المهاجرون العرب يقيمونها فى مهجرهم الجديد .

ولم يكن المهاجرون الأوائل من ربيعة وحدها ، لا يبعد أن تكون المجموعة الجمعية قد بدأت هجراتها من مصر فى نفس القرن العاشر ، سالكة طريق العنمر لتجنب مملكة مقرة (٢) . وما لبث أن لحق بهم عدد كبير فيما بعد .

كانت هذه الهجرات تدخل النوبة دون أن يستشعر الملوك أى خطر . كانت هجرات مسالمة لاتعدو جماعات بريرة تلمس الإذن بالمقام وتخالط السكان ولا لاتسبى إليهم ولا تقلق بال الحاكمين .

(١) الفريدى : الخطط ص ١٩٩ ، ابن خلدون - ص ٢٨٨ .

نوم شقير - ص ٢٠١ .

(٢) مصطفى محمد ٢١٨

وكنوا يتركونها وشأنها لا يتعرضون لها بسوء وتتابع حياتها في حرية وهندسة
وطمأنينة (١).

وكان بلاد النوبة إسفنجية كبيرة تنص هذه العناصر الزائدة وتتشربها ولا يظهر
نعود العرب أو نعلو كلمتهم إلا حين تكثر أعدادهم ، وتضعف رقابة السلطة
الحاكمة . فتعجز عن كبح جماحهم ، وهي أقرب شياً بشييل لفولاني ،
وانشارهم في عرب إفريقية على النحو الذي رأيناه .

ثم قامت الدولة المملوكية في مصر في منتصف لقرن الثالث عشر وكان
لقيامها أثر عظيم في تاريخ النوبة وفي تسرب العناصر العربية إليها ، وفي
نشأة الإسلام بين أهلها .

فقد كان قيام هذه الدولة إيذاناً بتغيير السياسة السلية القديمة ، وبداية عهد
جديد من الاهتمام الإنجاني بشئون النوبة وبدأت العلاقات بين البلدين تتخذ المظهر
العسكري العف .

هذا التعبير مطهره أن ملوك النوبة اعلموا في المعركة الصليبية التي شهد
الممالك تقاياها في بلاد الشام .

وكان اشراكهم في هذه المعركة عن طريق التعرض للتجارة المملوكية التي
تسلك الصحراء الشرقية عن طريق عيلاب ، هذه التجارة التي تمت وازدهرت
في العصر المملوكي .

وكان هذا نتجاً بالسياسة للممالك خطيراً جداً إذا عرفنا ما أصبح للتجارة
الدولية من مكانة في الحياة الاقتصادية لمصر في العصر المملوكي . كما اتخذت هذه
العلاقات صاعاً صليبياً

وتنوع من المراجع اتجاهات ملوك النوبة إلى التعاون مع القوى الصليبية في الشام
حين هاجموا أسوان وعيلاب سنة ١٢٧٢ هجوماً يشف عن الرغبة في القسنى
من المسلمين . الأمر الذي لم يكن مألوفاً في الحملات السابقة (٢)

Trimingham Islam in the Sudan, p. 67.

(١)

(٢) شمسى > ٨ ص ٤٢

تمهيداً وقد أدرك المماليك هذا الخطر الصليبي السكّان في الجنوب ، وأدركوا احتمال طعن النوبيين لمصر من الخلف وهي منصرفة إلى ذلك ما تبقى من قلاع الصليبيين بالشام .

فتأبعت حملات المماليك في عنف فأنفذ الظاهر بيبرس في يناير سنة ١٢٧٦ حملة تحمل طابع هذه السياسة الجديدة متبراً فرصة استنجد ابن أخي ملك النوبة بمصر طالبا المساعدة وتوغلت الحملة جنوباً وأكرهت الملك داود على الحرب ، وانتهى الأمر بعقد اتفاقية جديدة تنظم العلاقات بين البلدين (١) .

وترسم قلاوون نفس الخطى فأرسل حملة التفت بملك النوبة فلاذ بالفرار وظل القائد المصري يتعقبه حتى جنوب دنقلة . والجديد هنا أن مصر أبقت حامية عسكرية في البلاد لتأمين الحدود الجنوبية وضمان القبط .

ثم أرسل قلاوون حملة أخرى سنة ٦٨٨ هـ . وتكررت الحملات المملوكية بعد ذلك في أيام الناصر محمد بن قلاوون سنتي ٧٠٥ و ٧١٦ هـ . واستمرت حتى بعد انتهاء الخطر الصليبي .

وقد تسببت الحملات المملوكية المتكررة في رضوخ النوبيين لمشيئة المماليك . يتمثل هذا الوضع الجديد في المعاهدة التي عقدت زمن الظاهر بيبرس بين مصر وملوك دنقلة ، وما ورد فيها من نصوص تتيح للمماليك الاستيلاء على أملاك الملك داود وفرض السيادة المملوكية الفعلية على الجزء الشمالي من البلاد ، وما ترتب على ذلك من امتداد السيادة المصرية على جزء كبير من بلاد النوبة امتداداً فعلياً .

بل نصت هذه المعاهدة على أن ما بقي من ملك دنقلة يصبح مناصفة بين المماليك وبين ملوك هذه البلاد . كما عرّضت على ملك النوبة الأسس الإسلامية الخاصة بمعاملة المغلوب ، وهي الإسلام أو الحزبة واحتار دفع الحزبة . وأنشأ سلطان مصر دواناً للنوبة لمراجعة جمع الحزبة والجراح (٢)

(١) الخطط - ١ ص ٢٢٦

(٢) القلقشندي - ٨ ص ١٢ .

وكانت الحملات المملوكية في عهد قلاوون وولده الناصر محمد كلها محافظة على هذا الكسب الخشفي^(١) .

وخضوع ملوك دنقة واعترافهم بالسيادة المصرية في ذلك العصر أمر تؤيده الوثائق المملوكية . قال قلقشندي ذكر أن تعريف صاحب دنقة هو الدقب بدنقة ، وكانت لمكانات إليه علي هذا النحو « إلى النائب الجليل المبجل مجد المملكة المسيحية وكبير الطائفة الصليبية ، غراس الملوك والسلاطين (١) » . وفي هذه الصيغة وفي تعريف صاحب دنقة باسم النائب ما يدل على هذه التبعية ، وعلى تدخل سلاطين المماليك تدخلًا فعلياً في شئونها .

وقد جاء في كتاب مسالك الأبصار أن صاحب النوبة رعية من رعانا مصر يحطب ببلاده لخليفة العصر وصاحب مصر . إذن ساهم المماليك عن طريق هذه الحملات العديدة وعن طريق التدخل في شئون دنقة في إضعاف هذه المملكة النوبية الشهيرة .

وإذا كان المماليك قد أسهموا في إضعاف مملكة النوبة على هذا النحو فإنهم قد أسهموا أيضاً في دفع القبائل العربية صوب الجنوب . وعملوا على زيادة تيار الهجرة إلى البلاد .

فقد ساء حال العرب في العصر المملوكي ، وكثرت اضطراباتهم . واشتد قمع المماليك وتكليفهم . فقد عمد المماليك إلى جانب الحملات التأديبية إلى مصاعقة الصرايب المعروضة عليهم ، فلم يجد العرب متنفساً لهم إلا الاندفاع إلى الجيوب مهاجرين وسرعان ما وجد المماليك في العرب أعداء الأملس خير من يعينهم على إخصاع ملوك النوبة . استغلهم بيرس وقلاوون في حملاتهم إلى بلاد النوبة ، وبعض هذه القبائل كان يدل المهاجرين على مسالك البلاد . ويقدم المؤن ووسائل المواصلات . وكثيرون من هؤلاء كانوا يفضلون البقاء في البلاد بعد انسحاب المماليك . مثل ما فعله بنو عمر وسو شيين وغيرهم . وكان المماليك يسرهم أن يستعينوا بالعرب في النوبة وأن يتخلصوا منهم في مصر (٢) .

(١) مسالك الأنصار ص ١٢٦ .

(٢) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ١٣٢ .

الهجرات :

ومن الهجرات العربية التي اندفعت إلى النوبة في العصر المملوكي هجرة جهينة ، وهي واحدة من خليط من القبائل العدنانية والقحطانية وبطونها المختلفة . تجمعوا أول الأمر في شمال النوبة ، ومضت بطون منهم موجلة نحو الجنوب ، فلما طاب المقام والمرعى بعثوا يستدعون إخوانهم . فاندفعوا في أثرهم ، وكذلك اشتركت قبيلة فزارة في هذه الهجرات الضخمة ، التي شهدتها العصر المملوكي (١) .

ووجد ملوك النوبة أنفسهم بين خطرين . عدوان المماليك وخطرهم الذي لم ينقطع ، ثم هجوم القبائل العربية من الداخل . هذه القبائل بعد أن كثرت أعدادها . وانتشرت بطونها في البلاد . وأصهرت إلى أغلب الأسرات ذات النفوذ خلعت رداء المسالمة ، وتنمرت وبشرت الهمة والقلق في البلاد .

ولم يكن باستطاعة هؤلاء الملوك . والمماليك بالمرصاد ، أن يقهروا العرب عسكرياً أو يكبحوا جماحهم ، فاضطروا إلى مصابعتهم بالإصهار إليهم ، ونتج عن ذلك أن أصبح لأبناء الكور وجهينة الحق في اعتلاء عرش النوبة ، لأن النوبيين بورثون البنت ملكهم إذا عز الولد .

وعن طريق هذه المعاهدة تسرب الإسلام إلى صفوف الأسرة المالكة نفسها ، وقد اختار السلطان الناصر عبد الله برشمبو سنة ٧١٦ هـ ليكون ملكاً على بلاد النوبة (٢) . فعلت كلمة بني كنز وزاد سلطانهم فقد كانوا أصهار هؤلاء الملوك . وادعى هؤلاء العرب آخر الأمر الحق في تولي هذا الملك . ثم اغتصبوه ، وبذلك سقطت مملكة مقرة نهائياً ، واختفت من مسرح الأحداث في تاريخ بلاد النوبة ،

وسيطرة القبائل العربية في بلاد النوبة واحتواء المملوكية لم يكن معناه أن تقوم دول منظمة ، إنما اضطرب أمر البلاد بسبب التناحر بين زعماء القبائل العربية الذين لم يحسنوا سياسة الملك .

ولم يتقد بعضهم إلى بعض ، فصاروا شيعاً ولم يبق لبلادهم رسم للملك إنما هم الآن رحالة بادية يتبعون مواقع لقطر شأن الوادي الأعراب ولم يبق في بلادهم رسم للملك (٣) .

(١) ابن خلدون - ج ٥ ص ٤٢٩

(٢) ابن خلدون - ج ٥ ص ٤٢٩

(٣) نفس المصدر السابق .

ومن هذا يتبين أن الهجرات العربية هي صاحبة الفضل الأول في انتشار الإسلام في بلاد النوبة .

وكان انتشار الإسلام ظاهرة بطيئة استغرقت وقتاً طويلاً منذ حملات عمرو وعبد الله بن سعد حتى بداية القرن الرابع عشر الميلادي . وببطء انتشار الإسلام على هذا النحو بسببه أنه كان يتوقف إلى حد كبير على عملية الاختلاط بين الوافدين وبين أهل النوبة الأصليين ، وهي عملية بدأت منذ طليعة الهجرات الأولى واستمرت في طريقها المرسوم في ببطء وأناة .

اختلط العرب بعامة أهل النوبة أولاً ثم أصبحوا بعد أن كثرت أعدادهم إلى الأسرات السبيلة . ثم انتهى بهم المطاف إلى الإصهار إلى البيت المالك نفسه ، وما ترتب على هذا من اعتصام الملك ، ودخول ملوك النوبة في الإسلام ، وكانت هذه الحقيقة تنويعاً للجهود التي بذلت من قبل ، وخاتمة لعملية الامتزاج هذه .

والسر في ببطء انتشار الإسلام على هذا النحو أن الهجرات العربية لم تكن فتحاً عسكرياً بقدر ما بالجهاد الذي أعلنه عبد الله بن ياسين في حوض السنغال ، إنما كانت هجرات سلمية تنسرب إلى الحياة في هدوء ، ونحتاج إلى عصر الزمن لتحقيق غاياتها وأهدافها .

ويمكن أن يفسر هذا البطء أيضاً بأن المهاجرين العرب لم يكونوا دعاة إلى الإسلام مخلصين في دعوتهم ، فقد كان يفتهم التهمس الديني الذي دفع المرابطين إلى نشر الإسلام في غرب إفريقيا في سرعة وقوة وكانت تنقصهم الثقافة الدينية العميقة ، كما أن أغلب المهاجرين كان يقف به المطاف إلى الاندماج في الحياة النوبية ، ونعلم لغة البلاد الأصلية .

مهما يكن من شيء فإن ظاهرة انتشار الإسلام اكتملت نهائياً في القرن الخامس عشر الميلادي ، وبحول جبهة أهل البلاد في هذا الدين .

وكان إسلام الملوك وسقوط مملكة مقرة المسيحية خطوة كبيرة في هذا الاتجاه ،

لأنه يسقط هذه المملكة إنتهت آخر حلقات المقاومة المسيحية وسيطر العرب على البلاد
ولا ندرى بالضبط هل وفدت الثقافة الإسلامية العربية على بلاد النوبة منحذرة
في ركائب المهاجرين العرب ، وإذا كانت قد وردت فعلى أي صورة حملت إلى البلاد ؟
ت يجيل إلينا أن وفود العلماء إلى بلاد النوبة يتوقف على موافقة ملوك دنقلة المسيحية ،
لذلك بدأنا نسمع برحيل العلماء ابتداء من القرن الرابع عشر الذي شهد إسلام الملوك ،
ثم اغتصاب العرب للحكم والسلطان ، وانتشارهم في البلاد على نطاق واسع ، وانتقال
الزمام إليهم ، ذلك أن أوراق النسبة التي لاتزال محفوظة عند ذويها من الأسرات
السودانية تدل على أن رجلاً يدعى غلام الله بن عائذ (١) . قدم من قرية حلية من
جزيرة نواوة التابعة لبلاد النوبة ، وسكن بجزيرة ساكية ، ثم رحل إلى أرض دنقلة وسكن
بها ، فلم يجد هذه العاصمة أي مظهر من مظاهر التعليم ، أو أية شبهة من حركة علمية ،
لذا يبدو أنه أول من دخل البلاد من أهل العلم ، وقد عمر المساحد وقرأ القرآن وعلم العلوم
مباشرة لأولاده وتلامذته أولاد المسلمين .

وكان قدوم غلام الله في النصف الأول من القرن الرابع عشر ، ومات ودفن
في دنقلة المعجوز (٢) .

ويظهر أن قدوم هذا الرجل كان استهلالاً لحركة علمية نامية ، ومحاولة لتثبيت
الإسلام في صدور من دخلوا فيه بالعلم والتفقه في الدين ، ففي كتب الطبقات ما يشير
إلى مساعد للعبادة والتدريس انتشرت بعد ذلك من النوبة السفلى إلى الجنوب حتى
قريتي الصافي وبندر .

وهناك ما يشير أيضاً إلى محاولات لاحقة لإد بشير ود صيف الله في طبقاته إلى
أن الشيخ صغيرون كان يدرس الفقه في مسجد أخواله بدنقلة ، ثم انتقل إلى القوز
حيث بنى له مسجداً وشدت إليه الرحال من سائر الأقطار وضربت إليه أكباد الإبل ،
وانتفعت به الناس . ومن أخذ عليه من الأجلاء الشيخ دفع الله بن الشيخ (أبو) إدريس ،

(١) Mac Michael : A History of the arabe in the Sudan, vol,

II. p. 35.

(٢) عبد العزيز عبد الحميد ١٨ ص ٦٠ .

والفقيه عبد الحليم ولد بخرجة ، وأولاد يري على والخاخ إبراهيم ونور المن الكاهلي البرقاني (١) . كما يشير هذا المؤرخ إلى مساجد أخرى وحركة علمية مشابهة .

وإذا كان فقهاء اليمن قد شدوا الرحال إلى بلاد النوبة لإسلامية ، فهل نستبعد رحيل فقهاء من مصر مع قرب المسافة وإمكان الاتصال ؟ لا يستبعد أن يكون علماء مصر قد رحلوا إلى النوبة بعد أن أصبحت بلداً إسلامياً كما رحل علماء اليمن ، وسكوت كتب الطبقات عن هذا الأمر ليس دليلاً على عزلة النوبة عن مصر ثقافياً .

والتسرب العربي لم يقف عند حدود مملكة مقرة ، إنما جاوزها جنوباً متدفقاً إلى المملكة المسيحية الأخرى مملكة علوة .

وكانت طبيعة هذا التسرب لا تكاد تختلف عن طبيعتها في مقرة ، فقد تسلل المهاجرون والتجار إلى بلاد علوة ، واشتد تسربهم في القرن العاشر الميلادي ، فارتفع شأنهم في نفس الوقت الذي وصح فيه مثل هذا النفوذ في دنقلة .

وقد أدرك هذا الغشط العربي الأول النيل الأزرق جنوباً ، ويبدو أن المهاجرين العرب قد ازدادوا عدداً وقوة ، فقد التمسوا الإذن ببناء مسجد في سوبة عاصمة المملكة المسيحية نفسها (٢) .

وتسربت تيارات عربية أخرى عن طريق الصحراء الشرقية والبحر الأحمر (٣) .

ولا بد أن المهاجرين العرب الذين تدفقوا على مقرة كانوا يوسعون أفق هجرانهم صوب الجنوب . دخلوا بلاد النوبة الشمالية لا ليتخذوها دار إقامة إنما كانت طريقاً يسلكونه بحثاً عن عايات أخرى .

غير أن التيار العربي الدافق قد انحدر صوب الجنوب بعد سقوط مملكة دنقلة في أوئل القرن الرابع عشر الميلادي .

وكان أسبق المهاجرين ابطلاً صوب الجنوب قبائل جهينة . فقد بدأت تدخل

(١) طبقات ووصف ص ٧٩ ، ٩٥ ، ١٣١ ، ١٦٥ .

(٢) أرنولد الدعوة إلى الإسلام ص ١٣١ .

(٣) مصطفى مستد ص ٢٠ .

أرض علوة عبر مسالك مختلفة ، أهمها الطريق الشرقي عبر أوطان البجة ثم عن طريق النيل واحتلت أقاليم موزعة بين الأنبرة والنيل (١) .

بل يبدو أن انطلاقها نحو الجنوب كان واسع المدى ، فقد وصلت إلى حدود الحبشة ، وأنشئت مدينة أربجي على الشاطئ الغربي لنيل الأزرق سنة ١٤٧٤ (٢) .

ويبدو أن جماعات المهاجرين من جهينة أو البطون العربية تسالت إلى أرض علوة تسلا سلمياً ، فلم يرو أنها لقيت مقاومة من ملوك البلاد .

ومن المرجح أن هؤلاء المهاجرين كانوا يتظاهرون بالولاء للملوك يصارعونهم ، ويدفعون الأتاوة التماساً لهذا الرضا . حتى كثرت أعدادهم فكشعروا عن نياتهم الحقيقية . وأدرك ملوك علوة فجأة ما تردوا فيه من أخطاء . ولم يكن باستطاعتهم أن يقاوموهم بالعنف بعد أن امتدت هجراتهم إلى كل ناحية .

وكانت مملكة علوة قد دهمها الانقسام ، وعانت الكثير من غارات الرعاوة المنحدرين من برنو عبر دارفور ، فلم يجدوا بداً من أن يصهروا إلى زعماء جهينة كما كما أصهر بنوكنز إلى ملوك دنقلة .

تحالف العرب مع الفونج :

ثم جاءت الخطوة الأخيرة في مستهل القرن السادس عشر ، حين تحالف العرب المهاجرون إلى علوة مع الفونج القادمين من الجنوب ، وقصوا على علوة نهائياً ، وحرروا عاصمتها سوبة ، وانتهت ممالك النوبة المسيحية .

وفي نفس هذا العصر كانت الهجرات العربية تشق طريقها إلى السودان منحدره عبر الباب الثاني ، باب البحر الأحمر وشرق السودان .

فقد استطاع فريق من العرب المنتسبين إلى كهل بن أسد بن حزيمة ، أن ينحلقوا من جزيرة العرب وأن يعبروا البحر الأحمر ، وأن ينزلوا بالأقليم الساحلي الممتد من سواكن إلى عيذاب .

كان نزولهم هذا في القرن الحادي عشر الميلادي على وجه التقريب . ثم أقاموا بهذا المهجر مدة ثلاثة قرون أو أربعة اختلطوا فيها بالبجة وتعلموا لسانهم وصاهروهم ،

(١) عبد العزيز عبد المجيد ج ١ ص ٣٤ .

(٢) عبد العزيز عبد المجيد ج ١ ص ٣٧ .

و عملوا على نشر الإسلام والثقافة العربية بين صفوفهم ولا زال البجة حتى اليوم ينتسبون إلى بنى كاهل هؤلاء الذين أقاموا في هذا الوطن حتى منتصف القرن الرابع عشر ، حين زار ابن بطوطة هذه الآفاق ، فوجدهم يخاطبون للبجة عارفين بلغاتهم (١) . ثم بدأ فريق منهم يغادر هذا المهجر منصرفاً صوب الغرب إلى نهر أنبرة والنيل الأزرق . أدركوا هذا المهجر الجديد في القرن الخامس عشر ، وأقاموا فيه بعض القرن السادس عشر مفيدتين من ضعف مملكة علوة ، ثم سقطها آخر الأمر في القرن السادس عشر في أيدي التتار الشرقيين المتقدمين من مملكة مقرة المسيحية ، كما ارتحل خلق منهم إلى النيل الأبيض ، واحتلوا جزءاً كبيراً منه على الضفة بين الشرقية والغربية (٢) . ثم لم تطب لحصنهم حياة الاستقرار على النيل فهاجروا إلى كردفان في أواخر القرن السابع عشر .

وقد نهجوا نفس النهج الذي التزمه العرب الدافعون من الشمال ، من حيث اختلاطهم بالسكان الأصليين ، أو بغيرهم من القبائل ، وتسربهم سلمياً ، ومقدريتهم على استيعاب العناصر الغربية عنهم

ولا يكاد ينتهي هذا الدور حتى يكون السودان قد تعرض بحكم موقعه الجغرافي لتيارات إسلامية أخرى وافدة من الشمال العربي إلى دارفور وكردفان ، ثم تيارات أخرى منبعثة من مسار ، ومتجهة صوب الشمال متعاونة مع العرب الذين أدلوا ملك المسيحية بعلوة .

استطاعت هذه التيارات الوافدة أن تسقط الحواجز وأن تفتح باب السودان على مصراعيه لتلقى الثقافة الإسلامية ولتقلها وتهيمه ليلعب دوره الإسلامى الذى لعبته الأوطان الإسلامية الأخرى .

٢ - دور الازدهار .

تاريخ السودان وادى النيل في هذا الدور يشه تاريخ غرب إفريقيا في نفس هذا الدور أيضاً من وجوه . ويختلف عنه من وجوه أخرى .

(١) محمد عوض محمد - السودان الشمال ص ١٤١ ، ابن بطوطة - ١ من ١٨٣

(٢) محمد عوض محمد - ١٤٢ .

أوجه الاختلاف هي هذه الهجرات العربية الجبال الصق التي - أخذت تمتد على البلاد تدفقاً مستمراً وتنشيراً في سهوله الفسيحة في الشرق والغرب انتشاراً واسعاً ثم استقر بها المقام واختلطت بالسكان الأصليين ، ونشرت في البلاد اللغة العربية والدم العربي والدين الإسلامي والثقافة العربية ، وطبعت السودان بالطابع العربي الواضح الباقي . وهذا تطور قل نظيره في البلاد الإسلامية الأخرى ، ربما لا يقاربه أو يذانيه إلا هجرات الملالين إلى المغرب في القرن الخامس الهجري ، وانتشارهم انتشاراً واسعاً ، وعملهم على نشر الدماء العربية والثقافة العربية . لكن هجرات الملالين ليست على هذا النحو من القوة واتساع الأفق وعمق الأثر .

وتاريخ الإسلام في السودان وادي النيل في هذه الفترة يشبه تاريخ السودان الغربي فيها . في أنه شهد قيام سلطنات إسلامية خالصة ، قد تكون الأرسقراطية الحاكمة فيها عربية الدم أو عربية النسب ، وقد تكون شعوبها قد خالطها بعض المؤثرات العربية ، إلا أنها تعتمد إلى حد كبير على جماهير أهل البلاد الأصليين الذين اعتنقوا الإسلام وتشربوا حضارته .

واختلطت المؤثرات الإسلامية بالمؤثرات المحلية ، وطهر طابع محلي أولون على من أولون الحصار الإسلامية اسلامی الشكل محي الطابع ، يتحلى في نظم الحكم وفي الحياة الإجتماعية .

وكان لإسلام هذه الشعوب إيذاناً ببرورها فجأة في دنيا الإسلام ، وإيذاناً باتخاذها مظهراً إسلامياً واضحاً ، وتعبيراً إسلامياً واضحاً ولعبت نفس الدور الذي لعبته سلطنات السودان الغربي . ملي - وسنغي - برنو - كانم - ومرت بنفس التطورات ، لنفس التأثيرات . وكانت الظاهرة واحدة في البلدين .

هذا الدور إذن شهد ظاهرتين فريدتين : الظاهرة الأولى استقرار العناصر العربية الواحدة بعد انتشارها على نطاق واسع ، ثم عملها على نشر الإسلام والثقافة العربية ، وتكوينها بعض الإمارات العربية الخاضعة لنفوذ أرفع مقاماً أو المستقلة بأمورها . والظاهرة الثانية ظهور السلطنات والإمارات المحلية ، والدور الذي لعبته في تاريخ الإسلام والثقافة العربية في الفترة الممتدة حتى آخر القرن الثامن عشر .

العنصر العربي الوافد على السودان :

كانت الجماعات العربية الوافدة تنقسمها ثلاث مجموعات قبلية كبرى :
أولها : مجموعة الجعليين : وهي مجموعة عدنانية الأصل ، وهي أكثر
المجموعات العربية نفوذاً وأوفرها عدداً . وهي تنسب إلى جد أكبر اسمه إبراهيم
ولقبه الجعل ، وتنسب الروايات إلى سعد بن فضل بن عبد الله بن العباس عم
الرسول ، لهذا يطلق عليهم أحياناً اسم المجموعة العباسية .

ولا أدري لماذا يميل أستاذنا الدكتور محمد عوض (١) إلى تأييد هذه النسبة
مخطئاً رأى مالك مايكل ، علماً بأن مسألة الانتساب إلى العرب دخولها الانتحال منذ
القرن الثاني الهجري . فما بالنا بالقرن العاشر الهجري ؟

ولا يبعد أن يكون الجعليون هؤلاء خديطاً من عدة قبائل تنسب إلى عدنان
حقاً ، ولكنها لا تنتهي إلى جد مشترك ، إنما تجعلها في صعيد واحد وحدة الغاية
والهدف ، ثم هي قد ترتبط برباط المصاهرة .

لهذا لا نؤمن بخرافة انتساب مثل هذه المجموعة الكبرى إلى أب مشترك هو
إبراهيم . ومن الغريب أن أستاذنا الدكتور يعترف بما كان يعتمد إليه هذا الزعيم
الجد بأن يدخل في قبيلته من ليس فيها ، إذ يقول لأهل البلاد : «جعلناكم منا» (٢) ،
فكيف نعيب على مالك مايكل ادعاؤه باختلاط أنسابهم !

هذه المجموعة القبلية حين دخلت السودان واتخذته مستقراً ومقاماً تركزت على
النيل بين بلاد النوبة وموقع الخرطوم اليوم .

ثم أخذت تنتشر من مكان التجمع هذا نحو البطانة والنيل الأزرق والنيل الأبيض
جنوب الخرطوم ، تخلف بعض منهم في بلاد النوبة ، وسار البعض مغرباً نحو
كردفان وكلما زادت أعداد هذه الجماعة كلما تعددت بطونها وعشائرها وقبائلها ،
فقد كان الجعليون إذن شعباً عظيماً (٣) .

(١) السودان الثامن ص ١٦٦

(٢) محمد عوض : السودان الثامن ص ١٦٦ .

(٣) محمد عوض : السودان الثامن ص ١٦٥

والدلالة على أثر هؤلاء في حياة السودان وطبيعة انتشارهم انتشاراً واسعاً يجب أن نوزع القبائل المنضوية تحت لواء الجعليين توزيعاً جغرافياً على النحو الآتي :

١ - الركابية : أكثر هذه الجماعات نظراً نحو الشمال فهم يعيشون وسط الدناقل ، ويقال إن قرانهم للجعليين جاءت عن طريق المصاهرة .

٢ - الجوابرة : نسبة إلى جد أكبر يدعى جابر ومركزهم الرئيسي في جزيرة بادين الواقعة وسط النيل إلى الجنوب من الخط الذي يفصل بين المحس شمالاً ودنقلة جنوباً . ويبدو أن وطنهم كان أكثر اتساعاً في عصر بركهارت ، فقد ذكر أنه يمتد بين الشلالين الأول والثاني .

٣ - الشايقية : ينسبون إلى شايق وهو كما يقول التسابون أخ لعانم جد الجعليين ، وتمتد أوطانهم على ضفتي النيل من نهاية الشلال الرابع إلى مصب وادي الملوك في مسافة تزيد على مائتي كيلو متر (١) .

٤ - المناصير : تمتد ديارهم من أبي حمد إلى آخر الشلال ، وقد هاجر فريق منهم في القرن الثامن عشر منحدرًا صوب الغرب إلى دارفور وكردفان (٢) .

٥ - الرباطاب : على ضفتي النيل من شمال عبيدية حيث يبدأ الشلال الخامس إلى أبي حمد ، ثم إلى امتداد النهر غرب أبي حمد بدحو من كيلومتر (٣) ،

٦ - الميرقاب : من مصب العطبرة إلى بلدة عبيدية حيث يبدأ الشلال الخامس وعاصمتهم بربر (٤) .

٧ - الجعليون الخالص : من خانق سيلوكة إلى العطبرة على الصفتين الشرقية والغربية (٥) .

٨ - الجموعية : فيما يلي الجعليين إلى جنوب خانق سيلوكة على الضفة الغربية

(١) نعوم شقير ج ١ ص ٥٣ .

(٢) نعوم شقير ج ١ ص ٥٧ .

(٣) نفس المرح .

(٤) نفس المرح .

(٥) نعوم شقير ج ١ ص ٤٥ .

للنيل الأعظم شمالاً أم درمان وجنوباً ، بل تمتد أوطاسهم إلى نحو ٤٠ كيلو متراً جنوب أم درمان الحالية ، وأهلهم على الضفة الغربية للنيل الأبيض والأعظم .

٩ - الجمعية : غرب النيل الأبيض إلى الجنوب من بلاد السكواهلة (١) .

١٠ - البديرية : منبها شعبة تعيش على النيل والأخرى في كردفان ويبدو أن انحدار بعضهم صوب الغرب لم يتم إلا في القرن الرابع عشر في الوقت الذي أдал فيه العرب مملكة مقرة .

١١ - الجوامعة : ينتسبون إلى جد اسمه جامع ، انطلقوا جنوباً حتى موضع أم درمان ، ثم بدأوا منذ القرن السابع عشر يتجهون صوب كردفان ودارفور .

١٢ - العدييات : هاجروا في عصر توسع الفونج وشاركوهم في حملتهم المشهورة في كردفان .

١٣ - البطاحين : في وسط سهل البطانة الشمالى (٢) .

هذا التوزيع يعطينا صورة للمد الفسيح الذى أدركته هجرة الجعليين بعد انطلاقتها من بلاد النوبة ، فقد بسطت نفوذها على هذه المنطقة الممتدة من وادى حلفا حتى جنوب أم درمان .

ثانياً - مجموعة جهينة :

يلى الجعليين وفرة في العدد وانفساحاً في مجال الهجرة المنتسبون إلى جهينة ، وهى قبائل قحطانية ، وفدت بطونها بعد الفتح (٣) ، ثم أقاموا بمصر زمناً ، حتى إذا كان القرن التاسع الميلادى ، اشتركوا في اجيش الذى غزا الصحراء الشرقية ، ثم بدأوا بطرقون أرض النوبة ، ويمضون في طريقهم جنوباً منذ القرن الرابع عشر الميلادى .

ولا أدري على أى أساس يرى أستاذنا الدكتور محمد عوض أن هذا الشعب

(١) محمد عوض ص ١٩٤ .

(٢) محمد عوض ص ٢٠٥ .

(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٧١ .

العظيم يتألف من مجموعتين عظيمتين : مجموعة شرقية وأخرى غربية في كردفان ودارفور ، هل على أساس التوزيع الجغرافي ؟

وعلى أى أساس أيضاً يرى أن المجموعة الأولى دخلت السودان من الطريق الشمال الشرقى ، على حين دخلت المجموعة الأخرى السودان من الشمال الغربى ، مخالفاً رأى ماك ماىكل القائل بتجمع جهينة في وطن شرقى واحد ، ثم انحدار بعض بطونها غرباً حتى وصلوا إلى بلاد برنو (١) .

ويعتقد أن رأى ماك ماىكل أنخلق بالتأييد لأنه لم ترد في تاريخ برنو إشارات إلى هجرات عربية جاءت من الشمال الغربى ، وكل ما نعرفه أن ملوك برنو استصرخوا الممالك ليحولوا دون تدفق القبائل العربية من الشرق ولم يسمع بقبائل عربية انحدرت عن الطريق اللبى ؟

نعرف أن غارات الهلالين في القرن الخامس الهجرى دفعت قبائل البربر مهاجرة نحو الجنوب ولم نسمع بقبائل عربية دفعت إلى هذا الطريق .

لذلك نرى أن جهينة تجمعت في الشرق ثم انطلقت بعض بطونها نحو الغرب ، ونص ابن خلدون (٢) الذى يستمد منه أستاذنا تأييداً لرأيه يؤيد هذا الانتشار الراسع لبطون جهينة بعد انحدارهم عبر الطريق الشرقى .

هذا وتنقسم القبائل الجهينة في السودان إلى ثلاث مجموعات مرتبة على النحو الآتى (٣) :

١ - رفاعه : كانوا مجاورين للبحجة ، ولهم أوطان على حدود الحبشة وفي عصر الفونج كانت مواطنهم تمتد على حانئ النيل الأزرق في السودان من سفوح الحبشة إلى المقرن .

٢ - اللحيون :

(١) محمد عوض . تاريخ السودان ص ٢١٢

(٢) ابن خلدون ص ٢٤٧

(٣) محمد عوض ص ٢١٤ .

هذا التوسع العربى فى مثل هذا النطاق الواضح الذى تم فى المدة الواقعة بين القرن الخامس عشر وأواخر القرن الثامن عشر تؤيده إلى حد كبير دراسات الرحالة بركهارت ورحلاته فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، أى سنة ١٨١٤ تقريباً قبل الفتح المصرى بعدة سنوات .

وقد شاركت هذه القبائل فى الأحداث السياسية التى شهدتها ذلك العصر واضطرت بسبب النزاع الذى نشب بينها حول مواطن الرعى والذى نشب بينها وبين أهل البلاد الأصليين وما صاحب ذلك كله من اختلال الأمن وتدهور الحالة الاقتصادية وتعطيل التجارة بين السودان ومصر واختلال سمر القوافل فى منطقة النوبة الشامية وعدم الخضوع لحكومة مركزية واحدة تستطيع أن تعزز الأمن ، وتصون طرق التجارة ، فاشتركت بعض هذه القبائل فى حلف الفونج ، حين حالف أحد رعاياها عبد الله حجاج شيخ عرب القواسمة ملك الفونج ، وتمكن الخليفة من القضاء على مملكة علوة المسيحية (١) .

وقد أدى هذا التحالف إلى قيام مملكة العبد اللاب ، التى اتخذت قرى حاضرة لها ، ثم انتقلت إلى حلفاية ، وشاركت الفونج فى السيطرة على القسم الشمالى من السلطنة .

وقد اتخذوا لقب « منجل » . وأصبحوا حكاماً إقليميين لهم السلطة التامة على القبائل التى تنزل الشطر الشمالى من مملكة سنار ، وتوارثوا الملك وجبوا الضرائب ، وامتد ملكهم من مصب دندير إلى بلاد دنقلة ، ثم استقلوا عن الفونج سنة ١٧٧٠ (٢) حينما ضعفوا وغلب عليهم الهمج (٣) .

وهناك أمثلة كثيرة على مشاركة هذه القبائل فى الحياة السياسية للبلاد فعرب الشايقية مثلاً بعد أن خصصوا زمناً لنفوذ العبد اللاب انتهزوا فرصة النزاع الداخلى بين العبد اللاب والفونج سنة ١٦٩٠ ، وثاروا بزعماء قائدهم عثمان ود حماد ، وظفروا بالاستقلال المنشود (٤) .

(١) نعوم شفيق - ٢ ص ٧٣ ، Trimingham : Islam in the Sudan p. 85,

(٢) عبد العزيز عبد المجيد - ١ ص ٣٨

(٣)

Trimingham : Islam in the Sudan, pp. 88-89

(٤) محمد عوض ص ١٨٦

وكان الجوامعة أنصار القونج وقد ساعدوهم على التوسيع في منطقة كردفان .
واشترك الغديبات في جيشهم (١) ، واتصلوا البقارة بسلطان دارفور ، دخلوا في
طاعتهم أحياناً ، ودفعوا الجزية أو خرجوا عليهم وفروا بأنفسهم - ليعاودوا الكرة
من جديد (٢) .

وأسس العرب هؤلاء مملكة تقلى (٣) في منطقة جبال النوبا بكردفان في
أواسط القرن السادس عشر .

وبرجع تأسيسها إلى هجرة رجل من زهاد الجعليين واستقراره سنة ١٥٣٠
في تلال تقلى . وقد اجتذب قلوب السكان بورعه ورهده ، واتصل بزعيم الإقليم
عن طريق امصاهرة ، فولى ابنه جيلي أبو جريدة منصب الرئاسة والملك سنة
١٥٧٠ (٤) .

ولم تلبث أن امتد ملكه على الإقليم الشرقي من الجبال وخلفه في الملك ١٩
من أبنائه وأحفاده .

وقد حافظت هذه المملكة على استقلالها حتى الفتح المصري وعدد نعيم
شقيير المشيخات التي أسسها العرب على هذا النحو (٥) .

١ - مشيخة خشم البحر : شرق النيل الأزرق بين وبة والروصير ص .

٢ - مشيخة الحمدة .

٣ - مملكة الجموعية .

٤ - مملكة الجعليين : ومركزها شندى .

٥ - مملكة الميرافات : في شمال الجعليين بين المقرن ووادي السقيير .

٦ - مملكة الرباطاب : من وادي السقيير إلى الشاغية .

٧ - مشيخة المناصير : من الشاغية إلى الشلال الرابع .

(١) محمد عوض ص ٢٠٣ .

(٢) محمد عوض ٢٢٨ .

(٣) Elles : The Kingdom of Tegali, S.N.R. vol. XXVI, pp. 37-42 (٣)

(٤) محمد عوض ص ٢٥٩ .

(٥) سرور شقيير - ٢ ص ١١ ، ١٠٨ .

٨٢ - مملكة الشايقة : تم هذا في جميع أنحاء السودان ، نسبة شائعة
 راجعاً إلى أن هذه الجماعات العربية تركت أثراً أبدياً في الميدان الاجتماعي والثقافي
 فقد عملت على نشر الدين الإسلامي (١) في منطقة فسيحة تمتد من حدود مصر شمالاً حتى
 خط عرض ١٢ جنوباً ، ومن ساحل البحر الأحمر شرقاً حتى منطقة بحيرة شاذ به
 وكانت وسيلتها في نشر الإسلام ليست التبشير أو الدعوة إلى الدين إنما توسلت
 بالوسيلة الاجتماعية والتدريب السلمي ، بالإضمار إلى الشعوب المحلية ، ثم إقناع هذه
 الشعوب في الدماء العربية الوافدة ، ثم اندماج هذه القبائل في الحياة القبلية الجديدة (٢)
 وكانت النتيجة الحتمية لهذا الاندماج الاجتماعي اعتناق جيل المولدين دين الأمهات
 ودين القبيلة صاحبة الفؤاد ، ثم إزداد التيار الإسلامي عمقاً مع الزمن .

وقد لعب الجمليون في هذا التطور دوراً هاماً ، وكانوا من أهم عوامل هذا
 الاندماج . وقد رأينا كيف كان إبراهيم يدخل في القبيلة من ليس فيها ولعل هذا
 يفسر النمو المطرد لهذه القبائل حتى أصبحت شعباً كبيراً يتألف من عدة قبائل
 وفيرة العدد .

وقد رأينا أيضاً قدرة الكو اهالة على مخالطة الشعوب الوطنية والاندماج فيها ،
 وإذا كانوا قد تركوا في أوطان البجة الأثر الذي أشرنا إليه فلا بد أنهم حملوا نفس
 الرسالة في الأوطان الجديدة التي انحدروا إليها .

ولا يبعد أن يكون الجهنيون قد أدوا نفس الرسالة ، وقاموا بنفس الدور ،
 واستطاعت هذه القبائل أن تكسب السودان النسب العربي والدم العربي واللغة
 العربية ، وأن تضيف إلى عالم الإسلام فطراً فسيح الرقعة بساهم في الحياة
 الإسلامية مساهمة الأقطار الأخرى (٣) .

وكانت هذه القبائل أداة لنشر الثقافة العربية في أرجاء السودان . وأحسن
 مثل للجهود التي بذلت في هذه السبيل الدور الذي اضطلع به الجمليون في حياة
 السودان ، خصوصاً عشيرة المخدوبين التي تنسب إلى الفقيه حامد بن محمد المخدوب .

هذه العشيرة كانت ذات أثر واضح في نشر الثقافة العربية في البلاد ، وكان الكثير من أبنائها يرحلون إلى القاهرة أو مكة طلباً للعلم ، ثم يعودون إلى السودان لمتابعة رسالتهم . فبنى المساجد ، وبنى الزوايا لتصبح مدارس ومعاهد للتعليم يفد إليها الطلاب من كافة الآفاق .

هذه العشيرة أسست مدينة الدامر فأصبحت حاضرة روحية للجمعيين ، بل للسودان كله . وقد زارها الرحالة بركهات سنة ١٨١٤ (١) ، ورأى فيها جواً من التقوى والصلاح والعلم ، وسبب ذلك أن الرئاسة والسيادة في الدامر كانت لرحال الدين من الجمعيين .

وامتد أثر الجمعيين إلى جبال النوبا حيث استطاع واحد من زهادهم وعادهم أن يؤسس مملكته نقي . وأن يذيع الثقافة العربية في هذه الآفاق النائية .

واتخذت هذه المملكة لنفسها سياسة مرسومة في نشر الإسلام والعروة في هذه المناطق الوعرة . وكانت تشجع القبائل العربية على الهجرة والاستيطان ، فهاجر كثيرون من الجمعيين والبديريه والجوامعة (٢) .

وكان نشر الثقافة العربية كان وقفاً على الجمعيين العرب ، فقبيلة الركابية كان أبنائها يرحلون إلى مصر في طلب العلم ، وفي طبقات ود ضيف الله ذكر لمشاهيرهم وكانت لهم شهرة في العقبة والدين حيثما نزلوا ، ونولى كثيرون منهم منصب القضاء . وكتبوا من أشهر العاملين على نشر الإسلام والثقافة الإسلامية في جنوب كردفان (٣) . وكذلك كان شأن الغديبات حين نشروا الثقافة العربية في النصف الشمال من دار النوبا (٤) .

ظهور السلطنات الإسلامية :

والظاهرة الدنية التي شهدتها دور الازدهار في تاريخ الإسلام في السودان هي قيام سلطنات إسلامية توجه الحياة الإسلامية في البلاد حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر . مثل سلطنة القونج وسلطنة دارفور .

(٢) نفس المصدر ص ٢٥٨ - ٢٥٩

(١) محمد عوض ص ١٧٢

(٣) نفس المصدر ص ١٩٢

(٤) نفس المصدر ص ٢٠٤

• وظهور هذه السلطنات في هذا الدور لا يخلو من مغزى، فهي تمثل دخول الإسلام إلى السودان من منافذ أخرى غير المنفذ النيل أو الشمال الشرقي بحكم موقع السودان وادي النيل واتصاله بأوطان إسلامية أخرى .

• ظهور دارفور يمثل نفوذ الإسلام من الغرب ، وظهور الفونج يمثل انبثاق حركة إسلامية كبيرة في منطقة سنار في الجنوب ثم تدفقها صوب الشمال متعاونة مع العناصر العربية الوافدة .

وظهور هذه السلطنات يدل كذلك على أن النشاط لإسلامي لم يكن وقفا على العصر العربي : إنما أسهم فيه فريق من أهل البلاد الأصليين بعد أن أسلموا ، وقاموا في تاريخ الإسلام بدور لا يقل عن دور العرب .

رستلزم في العرض لهذه السلطنات نفس المنهج الذي التزمناه عند حديثنا عن سلطنات السودان الغربي ، بإبرار العبرة من اعتناقها الإسلام وقيامها ثم توسعها ، والظروف التي أدت إلى ضعفها ثم انحلالها . ثم أثر الإسلام فيها ، ومع العناية بصفة خاصة بالنور الذي قامت به في الحركة الإسلامية في السودان .

سلطة الفونج (١) :

إلقاء الضوء على الحركة الإسلامية التي سمعت من سنار في هذا العصر يتطلب منا أن نعرض للظروف التي أدت إلى ظهور الفونج .

وظهورهم يقترن في أذهان المؤرخين بحدث بارز في تاريخ السودان ، وقع في مستهل القرن السادس عشر الميلادي (العاشر الهجري) ، أو على وجه التحديد

(١) عن الفونج انظر الأبحاث الآتية :

- Arkell : Fung Origins, S.N.R. vol. XV, pp. 201-250.
Arkell : More about Fung origins, S.N.R. vol. XXVII, p. 87.
Arkell : Fung Correspondence S.N.R. vol. XXXIII. pp. 181-182.
Chataway : Note on the history of the Fung, S.N.R. vol. XIII. p. 247
Chataway : Fung origins S.N.R. vol. XVII. pp 111-117
Henderson : Fung origins S.N.R. vol XXXII, pp 174-175 and vol. XXXIV, pp 315-310.
Robertson : Fung origins S.N.R. vol XVII, pp 260-265.

فقد اتخذ طابع الجهاد ضد الصليبيين ، والجهاد للقضاء على دولة المسيحيين في علوة (١) ، وهو مثل الانتفاضات الصليبية التي شهدها العالم الإسلامي في هذا الوقت ، جهاد العثمانيين في البلقان ، وحمض البحر الأبيض المتوسط ، جهاد المغاربة ضد الغزاة الأسبان والبرتغاليين ، جهاد مسلمي شرق إفريقيا لدفع الخطر الصليبي ، جهاد المسلمين في الحبشة لقهر النفوذ المسيحي في هذا الجهاد الذي تزعمه أحمد بن إبراهيم القرين .

هذا التحالف حقق أهداف الجهاد كاملة ، فقد تمخض عن القضاء على مملكة علوة المسيحية قضاء تاماً ، وإعلاء كلمة الإسلام في سودان وادي النيل . والدول لا تولد فجأة ، ولا يمكن أن تكون دولة الفونج قد استولدها هذا الحدث الذي وقع سنة ١٥٠٥ ، فقد كانت هذه الدولة في هذا الوقت قوة نامية ناضجة ، شاركت في إدارة دولة ذات سلطان وشاركت العرب في هذا الحدث البارز .

والمنطق يقضي أن نقرص ظهور الفونج قبل هذا التاريخ بوقت طويل ، متى كان هذا وكيف كان ؟ .

والذي نستطيع أن نؤكد أنه أرض سنار والنيل الأزرق لم تشهد نفوذاً للفونج قبل القرن الثالث عشر الميلادي ، لا ننكر أن اسليم الأسواني زار مملكة علوة في أواخر القرن العاشر الميلادي موفداً من قبل مصر ، وأنه ذكر أن الجزيرة السنارية سكنها قبيلة عرفت باسم كرتينا أو كرسة أو كرما أو كاسو .

لكن رسول قلاوون الذي زار هذه البلاد وأدرك منطقة الجزيرة في أواخر القرن الثالث عشر لم يعرض لأية قبيلة أو أية أسرة أو إمارة تحمل اسم الفونج (٢) .

إذن ظهر الفونج بعد انتهاء القرن الثالث عشر ، ونرجح ظهورهم بعد الأحداث التي أفضت إلى القضاء على مملكة دنقلة وتسرب العرب إلى بلاد علوة على نطاق واسع ، ولا بد أن ثمة نواة لهذه الإمارة ظهرت ثم اشتدت وتبلورت في الأحداث التي أفضت إلى القضاء على مملكة علوة .

(١) ندم شقير - ٢ س ٧٢ .

(٢) الشاطر نصيل - معالم تاريخ سودان وادي النيل ص ٢٤ .

وتحديد مكان هذه الإمارة وظهورها يتطلب منا أن نناقش المشكلة المستعصية !!
مشكلة المكان الذي انحدر منه القويج .

هل هم من الشلك على نحو ما يذكر بروس الرحالة الاسكتلندي الذي مر
بهذه الجهات في أواخر القرن الثامن عشر ؟ . وأنهم يمثلون غارة من غارات
الشلك المهاجرة على منطقة النيل الأزرق ، حين تغلبوا على ود عجيب شيخ
العرب في معركة فاصلة بالقرب من أريجى ، الأمر الذى حمل العرب على الخضوع
لهم ومصالحتهم على نصف الماشية ، ثم تعهد هؤلاء العرب بتأديب القبائل العربية
الأخرى البعيدة التى قد تفكر فى العصيان (١) .

لا يريد أن يساق فى معارضة رأى دون أن يستقى منه العبرة فالعبرة
أبلغ دلالة من الحقيقة ، والأسطورة لا تخلو من عبرة تاريخية . فهذا الرحالة مهما
قبل فى رأيه فإنه صور حقائق رآها وسمعها من الرواة فى القرن الثامن عشر ،
وهى استخدام القويج عناصر ليلوتية فى الجيش ، عناصر من الشلك أو غيرهم ،
وهذا ليس عربياً . وهامى دولة إسلامية قامت فى القرن العاشر الميلادى تجند
الروح فى جيش المسلمين . فلم لا يجندهم القويج وهم قريبون من ديارهم ومواطنهم ؟
وكيف يفوت أن نعيد من رأى بروس أو على الأقل من ادعائه من أن
كلمة الفصح فى لغة الشلك معناها الواقدون العرباء ؟ ؟ واشتقاقها من كلمة بون
Bown فى لغة الشلك ، أو من كلمة فون Fon فى لغة النوير أو من كلمة Buny
ومسألة إبدال الباء بالفاء أو إحلال حرف محل الآخر أمر مألوف فى كل لغات
العالم . وهو أكثر شيوعاً فى لغة النوبة والشلك ، خصوصاً إبدالهم الباء بالفاء ،
والعبرة أن رأى بروس صحيح من حيث أن القويج قوم غرباء وفدوا على
هذه المنطقة من حيث لا يعلم بروس ؟ (٢)

هل جاء القويج من الغرب من منطقة بحيرة شاد ؟ كما يرى بالمر وآركل (٣) .

Bruce : Travels to discover the Sources of the Nile vol IV, (١)
, p. 548.

(٢) انظر بصيل ٢٤
Arkell . Fung origins . S N R vo XV pp. 201 250 and (٣)
vol. XxVII, pp. 27-97

فَسَنَارُ كَمَا يَقُولُونَ لَمْ يَنْقَطِعْ اتِّصَالُهَا بِدَارِ فُورَ وَبِرْتُو، فَمِنْهُ أَنْ تَارِيخُ بَرْنُو الَّذِي كَتَبَهُ
الإمام أحمد أخذ العلماء في عهد ماى إدريس ملك برتو (١٥٧١ - ١٦٠٣)
بشير إلى امتداد نفوذ برتو شرقاً إلى وادى النيل ، وأن الروايات المحلية في هذه
البلاد تشير إلى أن سلطنة سنار أسستها الملك عثمان ، الذى طرد من برنو عام
١٤٨٦ ، وأن عميرة دونقسي من سلالة ماى عثمان ، لا سبل إذا عرفنا أن لفظ
عمارة يتردد في جدول أسماء ملوك برنو .

وهذا اللاحيء الغريب صجبة أفواج من البرنو ، وقد نزلوا على النيل
الأبيض في أرض نزلها الشك فحالفهم واستعانوا بهم في محاربة العبد اللاب
عد أربجي .

ثم ينساق آر كل وبالم في هذا النسيج العجيب بقولهم إن كلمة فونج من
Fune ومعناها اللثام لباس الطوارق .

حتى كسمة هج وجدوا لها شبيهاً في لغات برنو فهي عندهم تدل على من
ليسوا من أصل عربي ، وكأنهم افترضوا أن أهل برنو من أصل عربي ! ...

بل براهم يحددون الطريق الذى سلكته هذه الفئة الزاحفة من برنو ، إنه الطريق
الغربي الكبير بين الصحراء ومنطقة الغابات ، بل افترضوا حصولها على أسلحة
نارية من نوس في القرن الخامس عشر . ؟ . ثم يتلمسون الأدلة الأخرى ...
فالسارية كانوا مالكية وأهل برنو مالكية ... إذن فالسناريون من أصل برنوي !!

ولسنا بحاجة إلى أن نبين ما في هذا الرأي من مغالاة . فالتفسير الفيلولوجي
لكلمة فونج لا يسند رأيهم ، فالتبادل اللغوي ظاهرة مألوفة في الميدان الثقافي
والناس ينادلون الألفاظ والأفكار دون أن يتصلوا اتصالاً بشرياً .

وما يروونه من هرب ماى عثمان بعد سنة ١٤٨١ أى قبل ظهور الفونج بنحو
٢٠ سنة قد يكون صحيحاً (١) ، ولكن هل يستطيع معاصر غريب أن يقيم دولة
وأن يجد حبشاً وأن يبدو في مثل هذه القوة التي ظهر بها الفنج في عشرين سنة ٢٢ ؟

ثم كيف يفوز هذا المغامر الغريب بوجد العرب وصيداقتهم وتحالفهم الأبدي؟ !
والعرب في المألوف بطعنون لمخالفة العرب فكيف يخالفون البربر؟ ! انظر إلى
الصلاب القومية والوشاح المتينة التي قامت بين عبد الله حجاج وبين عميرة دونقس ،
أما اتحادهم في المذهب فلا يتطلب بداهة اتحادهم في الجنس ... فالملكبة
أصلاً دخلت المغرب من مصر ... ثم جبهة أصل الصعيد الملكبة ، ولا يبعد
أن تكون جبهة قد حملت هذا المذهب إلى سنار ، ولا يبعد أن يكون فقهاء
المغرب قد حملوه إلى تلك البلاد ، فهذا التأثير على الأقل تأثير ثقافي ... ولم
نسمع عن أن ثمة علاقة ودية متصل قامت بين سنار وبربر بحكم الأصل المشترك أو
الثقافة المشتركة ... فلا يمكن والحالة هذه أن ينحدر القونج من المغرب على نحو
ما يصوره بالمر أو آركل .

إنما انحدرهم من الشرق من المنطقة الممتدة من النيل شرقاً إلى البحر الأحمر
أمر طبيعي جداً بحكم الصلات الوثيقة بين الماطق النيلية وبين هذه الآفاق الشرقية
اتصالات بشرية وتجارية وثقافية قديمة وعريقة في قدمها

والرأى الذي انتهى إليه أحد الباحثين (١) من أن القونج انحدروا من الشرق من
المنطقة التي تقوم على المداخل بين حوض النيل وأثيوبيا رأى مقبول وسلم :
وأن عاصمتهم القديمة في إقليم « الملم »

وأوضح ما في هذا الرأى تحديده الجغرافي لمنطقة الملم بأنها في جنوب غرب
إريتريا ، وتحديد العاصمة القديمة في « أوم هجر » المعروفة الآن بأوم هجار .

من أجل هذا الموقع اتخذت القوافل هذا الإقليم منفذاً لها بين تلك البلاد وساحل
البحر الأريتري ومختلف مرانيه من مصوع وباضع وسواكن ، كما اتخذته
الهجرات المختلفة معبراً لها نحو مهاجرها (٢) .

يستخلص إذن من هذا الرأى أن ثمة إمارة إسلامية ظهرت في هذه المناطق قبل
بداية القرن السادس عشر ، وأن منطقة نفوذها كانت تنفسح غرباً ، فتصل إلى
أطراف الجزيرة ، وتصاقب أملاك علوة من الشرق .

(١) الشاطر بصيل : معالم تاريخ السودان وادي النيل ص ٢٢

(٢) الشاطر بصيل ص ٣٣

وقد تم التحالف إذن بين هذه الإمارة النامية وبين العرب الذين توافدوا على بلاد علوة وبكثرت وإرفها ووصلوا إلى أوج قوتهم ونفوذهم في آخر القرن الخامس عشر من حين عزلة علوة واضطراب أمورها الداخلية وضعف مذهبها الرسمي واختلال شئونها الاقتصادية.

هذا التحالف أملت ضرورات إسلامية ، تحالف للجهاد في سبيل الإسلام ومداقة مسيحي علوة والقضاء عليهم إذا استطاعوا سبيلا ، كما أملت ظروف اقتصادية ، فقد تدهورت العلاقات بين النوبة السفلى ومصر للعداوة التقليدية بين العرب زعماء المشيخات في النوبة وبين المماليك في مصر : فاضطرت هذه الإمارات والمشيخات إلى الاتجاه صوب الجنوب ، والاتصال بالسلطان عميرة الذي كان مسيطرا على تحارة ذلك القطاع الذي كان مركز تجمع التجارة وانطلاقها صوب الشرق (١) .

وقد تحققت أهداف الحلف ، صرعوا علوة واقتسموا أملاكها ، وامتد نفوذ هذه الإمارة الإسلامية حتى النيل الأزرق والنيل الأبيض باسطار وواقه فوق أرض الجزيرة (٢) . بل كانت لهم السيادة الاسمية على جميع أملاك علوة حتى الشلال الثالث ، بسبب ما قاموا به من جهد في مدافعة علوة والقضاء عليها سنة ١٥٠٥ .

وقد ظلوا بعاصمتهم القديمة حتى ديسمبر سنة ١٥٢١ ، حين رار هذه البلاد الرحالة داود روين الذي اخترق قافلته الطريق الساحلى إلى مصوع ومنها إلى منطقة للم حيث السلطان عميرة ، الذي كان قد فرغ من مد نفوذه على البلاد الواقعة على حوص النيل الأوسط .

غير أن هؤلاء السلاطين انتقلوا إلى سنار لأسباب تختلف عن التي ذكرت إذ أن الظروف التي ذكرت على أنها دفعتهم إلى الانتقال كانت على العكس تشجعهم على البقاء (٣) .

(١) الشاطر بصيل ص ٢٢ .

(٢) محمد عوض ٢٥٣ .

(٣) الشاطر بصيل ص ٢٢ - ٢٣ .

لا ننكر أن الظروف التي شادت قبل ظهور أحمد القرين كانت تشجع على الرحيل ، أما بعد ظهوره وجهاده وتوقيفه فلما كانت تحمل على البقاء (١) .

بل الثابت أن عميرة شارك في هذه الحركة الإسلامية العامة حين حارب البلو في المنطقة الشمالية الغربية لأثيوبيا ، فالروايات المتواترة بين سكان شرق السودان تشير إلى قتال حدث بين الفونج وبين قوة مشتركة من البلو والأرتيقة (٢) ، وذلك في السنوات العشر الأولى من القرن السادس عشر . وقد خرج منها هؤلاء السلاطين ظافرين كما انتصروا على مملكة علوة .

وقد اشتد أزر المدافعين عن الإسلام في شرق إفريقية بظهور العثمانيين في البحر الأحمر ودخولهم سواكن سنة ١٥١٧ واتصال عميرة بهم ، وكان الأخلق أن تتعاون هذه القوى الإسلامية جميعها في عمل مشترك .

ويحتمل أن عميرة انتقل إلى سنار بعد سنة ١٥٤٣ وهي السنة التي قتل فيها أحمد القرين وفترت حركته الإسلامية بعد وضوح التدخل البرتغالي واشتداد أزر المسيحية في الحبشة وعملها على استرداد ما فقدته على يد أحمد القرين وزملائه من المجاهدين .

ثمّة اعتبارات أخرى أملت هذا الانتقال ، منها قرب هؤلاء السلاطين من مناطق النفوذ الجديدة ، فقد كان سلطانهم قد امتد على وادي النيل إحتى لأشلال الثالث ، وكان عليهم إذا أرادوا أن يثبتوا أركان هذه السيادة أن ينتقلوا إلى مسرح الحوادث نفسها .

ويحتمل إلى أيضاً أنهم اتخذوا اسم (فونج) بعد انتصارهم سنة ١٥١٠ هـ / سنة ١٥٠٥ م ، وامتداد نفوذهم على سنار وما جاورها جنوباً ، وأن الشك خلعوا عليهم هذا الاسم باعتبارهم وافدين فأصبح علما عليهم .

بقيت مسألة انتسابهم لنبى أمية ، ورغم أن الانتساب إلى العرب كان ظاهرة شاعت في السودان كله وامتدت من البحر الأحمر حتى المحيط الأطلسي حين ادعى البرنوية والسفنى وغيرهم مثل هذا النسب العربى ، انتسب بعضهم إلى نبى أمية أو نبى هاشم وارتبط آخرون بالقحطانيين أو العدنانيين .

رغم هذا نعتقد أن نسب الفونج لا تخلو من الصحة ، يحملنا على هذا الاعتقاد مخالفهم الوثيق بين القواسمة العرب ، تخالفاً أبعد من أن يكون قد أملت مصلحة مادية مشتركة ، وهل تبقى هذه المصاحبة المادية أكثر من ثلاثة قرون ؟ .

يخيل إلى أن عرب القواسمة قد حالفوا عرب الفونج وأن ثمة مصاهرة تمت بين اليتيم مصاهرة لم نتحدث عنها كتب التاريخ ، ولكننا نستوحياً من هذه الصلات الوثيقة التي تنشأ بين ذرية عبد الله جماع وعميرة دونقس !!

وأرجح بأن الفونج أرسقراطية عربية ذات نسب أموى نزلت في المنطقة الشرقية التي حددناها ، ونشرت الإسلام وتأملت حولها القلوب بحكم هذا السبب الأموى ، ثم احتللت هذه الأرسقراطية بالعناصر المحلية عن طريق المصاهرة ، وظروف قيام هذه الإمارة أشبه بقيام الأدارسة في المغرب الأقصى ، أرسقراطية عربية قرشية بين بربر مسلمين (١) .

بدأ دور الازدهار في تاريخ هذه السلطة الإسلامية بعد الانتصارات المتلاحقة في معركة الجهاد الإسلامي ، الانتصارات على البدو في الشرق والانتصارات على المسيحية في حوض النيل ، وانتقال العاصمة إلى سنار .

وقد نتج عن مخالفهم عبد الله جماع وعرب القواسمة أن امتد نفوذهم الاسمي حتى دنقلة في الشمال ، فقد أسس القواسمة مشيخة قرى إلى امتد سلطانها الحقيقي من أربجي في الجنوب حتى دنقلة في الشمال ، تدب هذه القائل والمشايخ بالولاء لمشايخ قرى ، ويعترف هؤلاء بالسلطان الاسمي لسلاطين الفونج في سنار .

هذه التبعية الاسمية مظهرها تولية سلاطين سنار لشيوخ قرى ثم اعتراف هؤلاء الشيوخ بالسيادة الاسمية ، ثم دفع الجزية لسلاطين سنار ، وكان هؤلاء المشايخ والملوك يحتفظون بهذا الاستقلال المحلي في نطاق هذه السيادة السنارية العامة (٢) .

وقد مضى سلطان الفونج في طريقه نحو الامتداد طوال القرن السابع عشر ، وفي عهد الملك بادى الثاني على وجه الخصوص فقد امتد نفوذ الفونج إلى فازوغلى النيل الأزرق ، بل أخضعوا الشك وحاربوهم ومثلوا بهم .

(١) نوم شقير - ٢ - من ٧٢ .

(٢) عبد العزيز عبد المجيد من ٣٨-٢٩ .

نوم شقير - ٢ - من ٧٢ ، محمد عوض من ٢٠٣ .

ونفسح نفوذهم ممتداً إلى جبال تقلى ، وجنوب كردفان ، واستمر توسع الدولة طيلة القرن الثامن عشر ، فقد استطاعت في عهد الملك بادى الرابع أن تستعين بحيشها من الشلك والهمج وحلفائها من العرب في القضاء على أمراء المسبغات أقرباء سلاطين دار فور ، فانتصرت جيوش سنار تحت إمرة محمد أبو النكيك سنة ١٧٤٧ (١)

وبدأت امراطورية الفونج في آخر هذا القرن ممتدة على هذه الرقعة الفسيحة من أرض السودان من البحر الأحمر حتى كردفان غرباً ، ومن الشلال الثالث حتى فرة على حدوداً ونحصر لها هذه العوالم من العرب وغير العرب .

غير أن هذا القرن الذى شهد هذا التوسع العظيم حمل معه عوامل المرفقة ولا سيما ، وقد بدأت عرى التحالف الوثيق بين الفونج والقواسمة تتصدع حينما رغب شيوخ قرى فى الاستقلال منذ عام ١٦١٠ وحققوا ما يريدون فى غمرة الأحداث التى شهدتها السربخ الداخلى للبلاد فى النصف الأخير من القرن الثامن عشر ، واستقوا سنة ١٧٧٠

من استطاع الشايقية أن يخرجوا على نفوذ العبد اللاب فى هذا العصر ، وظهر نفوذ حمص (الهمق) بعد الانتصارات المتلاحقة التى حققوها ، فقد استطاع محمد أبو كنسور سنة ١٧٧٦ أن يعزل الملك بادى الرابع وأن يولى غيره .

وحل الحال على هذا النحو ، ملوك ضعاف يستبد بهم وزرأؤهم وقوادهم من الهمج حتى ابتلعهم المتعصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر (٢) .

ومن لا يهمنا تاريخ الفونج أنفسهم ، بقدر ما يهمنا أن نبين مدى مساهمتهم فى النشاط الإسلامى فى السودان وادى النيل ومدى عميق شعورهم الإسلامى ، مدى دفعهم بحركة الإسلامية ومساهماتهم فى تشجيع الثقافة الإسلامية .

وقد ظهرت دولة الفونج منذ فجرها الأول فى مظهر إسلامى عميق واضح فقد أسست حياتها الأولى مساهمة فى حركة الجهاد الإسلامى ، كانت مشاركتهم العرب فى نصاء على مملكة علوة المسيحية مساهمة فى الجهاد فى سبيل الإسلام ،

١٠١ : دولة شمر ٢ ص ٧١

١٠٢ : امراء شمر ٢ ص ٧٤

لأنه القضاة على علوة كان بمثابة القضاء على دخول عقبة في سبيل انتشار الإسلام ولولا مساعدتهم للعرب وتأييدهم ووقوفهم إلى جانبهم لما تحقق هذا النصر العظيم .
أيضاً وقد رأيتهم غير متخلفين عن ركب الجهاد في شرق إفريقيا حيث جاهدوا البلو
والتوكولا في حركة أحمد القرين وجهادة . لأنهم لم يكن من المعقول أن يقفوا
بجانب هذه الأحداث الهامة التي كان تاريخ الحبشة يتمخض عنها ، وقد أسهموا
في تجارية الوثنيين في داخل السودان نفسه ، فقد ألقى العلماء بالجهاد النوبيا بسببه
غاراتهم على كردفان حتى يؤمنوا بالله ، فتألفت من أجل ذلك جماعات كان يتولى
قيادتها بلوى أبو صفية البديري .

واستمرت تلك الحروب زمناً طويلاً حتى انتشر الإسلام في كثير من مناطق
جبال النوبا (١) .

وكان البقية بدوى يأتي ببعض أهل النوبة إلى الأبيض فيعلمهم القرآن والضروري
من الفقه والتوحيد ، ثم يعيدهم إلى بلادهم ليتولوا نشر الدين بين قبائلهم .
كما حاربوا الشلك لنفس هذه الأغراض ، بل شاركوا في حركة الجهاد
الإسلامي ضد الأحباش في القرن الثامن عشر ، وتبين أنهم كانوا على اتصال
بالمسلمين في مصر لتحقيق هذا الغرض ، إذ يروى أن لويس الرابع عشر ملك
فرنسا أرسل سنة ١٧٠٣ هدايا فاخرة إلى ياسر ملك الحبشة مع مبعوث اسمه
لأنوار دي رول ، فرحل من مصر في ١٩ يولية ١٧٠٤ قاصداً أن ينفذ إلى
الحدشة بطريق ابييل ، فوصل سنار في آخر مايو سنة ١٧٠٥ ، ومعه سبعة من
الأتباع وخادم وترجمان وستون من الإبل محملة بالهدايا ، دخل سنار وأقام فيها
زماً حتى جاءت الأخبار من مصر مشككة في حسن قصد البعثة ، وأنها ماضية
لتدريب جيش الأحباش على الحرب الحديثة ، فقاتلهم القونج واشتبكوا مع
الأحباش في عهد الملك بادى الرابع أبو شلوخ سنة ١٧٤٤ .

وكانت حيوش القونج بقودها الأمين ود سمار ود عجيب شيخ قرى ، وكان
أمير الهرسان الشيخ محمد أبو الكيليك كبير المميج ، وكان لهذا النصر دوى هائل

(١) عبد المجيد عابدين - ٢ ص ٥٣ - ٥٤ .

في العالم الإسلامي المعاصر ، بلغت هذه الأخبار مصر والشام والحجاز وتونس والقسطنطينية والهند (١) .

ولم يسهم القونج في نشر الإسلام متوسلين بالجهاد فحسب ، إنما استعانوا بالوسائل الساحية ، فعملوا على تنشيط الدعوة الإسلامية ، واشتدت رغبتهم في المهصة بالدين ، ومصادق ذلك تشجيعهم للجهود التي بذلها الفقيه بدوي البديري في حال النوا ، والجهود التي قام بها الشيخ إسماعيل الوالي في جبال كندكرو .

وقد ساهم في هذه الحركة الإسلامية الكبيرة الدعاة الوطنيون والدعاة الوافدون من البلدان الإسلامية المختلفة ، وتميز عهد الملك نأدي الثاني أبو دقن بالنشاط الإسلامي الدافع .

وقد دفعهم هذه الروح الإسلامية الخالصة إلى الاتصال بالقوى الإسلامية المعاصرة اتصالاً دينياً وثقافياً .

وصح اتصالهم بمصر في حربهم مع الحبشة ، كما كان اتصالهم بمصر في الناحية الثقافية أيضاً وتطلعوا إلى الأزهر الشريف وعلمائه ورجاله ، وكان الملك نأدي الأول ، المعروف بسيد القوم ، (١٦١١ - ١٦١٦) ، على صلة بعلماء مصر . وكان يرسل إليهم الهدايا مع خبيرة أحمد علوان واشتهرت مناقبه عدمه حتى مدحوه بقصائد عدة (٢) .

و تعلقوا بالحجاز عن طريق الحج والتجارة وشجعوا علماء الحجاز ومتصوفيه على الرحيل إلى سنار (٣) .

وتوطدت صلاتهم بالمغرب الإسلامي ، وود صيف الله يذكر عدداً من علماء الصويع يرجع أصلهم إلى المغرب والأندلس ، واتصلوا بالعراق .

ولم تنقطع صلاتهم بدارفور ؛ فكانت هذه السلطنة تستعين بفقهاء جزيرة سنار وشجع سليمان سولويج فقهاء سنار عن اله ورح إلى بلاده (٤) .

(٢) نعيم شفير ص ٨١ .

(٣) نعيم شفير ص ٧٧ .

(٤) نعيم شفير ص ٨١ .

(٤) نفس المصدر ص ٧٣ .

وكان اتصالهم بالبasha التركي في موانئ البحر الأحمر وثيقاً ، وتنظيمات القونج
الديوانية تكشف لنا عن تغلغل الآراء والنظم العثمانية (١) وتأثيرها في سنار ،
ولاسغور فقد كان لباشوات سواكن ومصوع وكلاء في سنار وأرجي ،
وكذلك اتصلوا باليمن وغيره من الأمصار الإسلامية .

وتظهر هذه الروح الإسلامية الواضحة في معاملتهم لرجال العلم ، وفي
احترامهم وإحاطتهم بالرعاية والتكريم . فكان إذا زارهم فقيه أو عالم يدخل
باسطاً يديه بالدعاء فيقول الفاتحة ثم يتقدم ويقبل يد الشيخ ، ويرجع القهقري
فيأمره الشيخ بالجلوس فيجلس على فراش فوق الأرض احتراماً للدين (٢) .

وكان للعلماء الصالحين نفوذ كبير ، لم يكن يرد لهم طلب إذا ما توسطوا في
أمر ومن استجار بهم فهو آمن غضب السلطان . ونعنع الصوفية في زمانهم
بسلطان كبير ، بل كانت لبعضهم سلطات زمنية وروحية .

هنا فضلاً عن تشجيع الحركة العلمية بكافة السبل ، بإنشاء المساجد واستخدام
العلماء ، والإغداق عليهم ، وإحاطتهم بصنوف الرعاية والتكريم .

سلطنة دارفور :

ظهور هذه السلطنة يمثل دخول الإسلام إلى السودان من منفذ آخر غير المنافذ
السابقة ، دخوله من المنفذ الشمالي الغربي .

وكان انتشار الإسلام في هذا الجزء من السودان نذيراً بقيام هذه السلطنة وبروزها
على مسرح الأحداث في السودان ، فكما أن ظهور عمارة دونقس كان نذيراً بظهور
سلطنة القونج واشتراكها في الحياة الإسلامية ، كذلك كان ظهور سليمان سولون
مقترناً باكتمال شخصية دارفور الإسلامية .

على أن الإسلام تسرب إلى بلاد دارفور قبل سليمان بكثير ، فقد كانت بلادا
أول الأمر مستقراً لشعب الداجو الذي وفد على البلاد في مصر غير محدود على
وجه التقريب (٣) .

(١) نوم شقير - ٢ ص ٩٤ . (٢) نوم شقير - ٢ ص ١٠٠ .

(٣) Trimingham : Islam in the Sudan. p. 89.

و يرى ماك مايكل في أنهم هاجروا إلى دارفور من مخدريين من قبائل النوبال الواقعة غرب النيل الأبيض جنوب تخطيط عرص (١) ، وأقرضوا نفوذهم على المنطقة الوسطى والجنوبية من دارفور (١) ، واستطاع هذا الشعب معتمداً على الجبال مرة أخرى أن يؤسس سلطنة محلية تشبه من وحوه كثيرة سلطنة غانة في غرب إفريقيا ، أو ممالك النوبة في وادي النيل .

ثم كان على دارفور بحكم اتصاله ببلاد المغرب عبر المسالك الصحراوية التي تنحدر من طرابلس نحو الجنوب أن تتأثر بالأحداث التي تعرضت لها بلاد المغرب فتعرضت لهجرة جديدة ، هجرة شعب الطنجور (٢) Tungari .

ولا أدري على أي أساس ينسب هذا الشعب إلى العرب ، ولم نعلم أن ثمة هجرات عربية ذات شأن دخلت السودان عبر هذا الطريق الشمال الغربي في هذه الفترة (القرن الثاني عشر) والاعتقاد بأن الطنجور من العرب وهم لا يقوم على أساس ، لأن الغارات العربية التي تركت في حياة الغرب آثاراً باقية هي غارات العرب الهلاليين منذ القرن الحادي عشر فصاعداً .

والروايات التي جمعها بالمر من علماء وادي تين في وضوح أن الطنجور يمثلون هجرة من قبائل البربر تدفقت إلى دارفور ووداي نتيجة لتطور الأحداث في بلاد المغرب بعد غارات الهلاليين وأن هذه القبائل منها من ينسب إلى البلاة والبديات وغيرهم .

هذه القبائل الهلالية الغازية المنتشرة كانت تندفع في بلاد المغرب منحدرة من الشرق إلى الغرب في غارات متصلة ، ولم يرها أبداً متدوقة نحو الجنوب عبر هذه المسالك الصحراوية .

إنما الذين دفعوا للهجرة نحو الجنوب هم من العناصر المستضعفة ، التي لم تقو على الوقوف في وجه هذا التيار العربي الوافد ، وكان عليها إما أن تستذل أو تهاجر . وهذه العناصر أغلبها إن لم يكن كلها من البربر ، ومن المثلثين . وقد رأينا

Palmer : op. cit. p. 212.

(١)

Becker : Darfur.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية

هلمه الممويين تندفع في تفتل هذه العصور إلى أكثر من موضع في غرب إفريقيا ،
الطنجيلاء هؤلاء يمثلون اندفاعاً من هذه الإنديقات (بكمالاتيين ملة جمعه بالمرا قبل
أخبار وادي وبرنو) .

١٨٤١ لا نتمكن أن نبعض البيوت الغربية رقدت وصلت إلى أطراف المغرب ووجدت
منطقة السنغال ، حدث هذا في القرن السادس عشر عقب الاحتكاك المعروف بين
العرب وبين الموحدين ، أوبين الأسيرات التي خلفهم في حكم المغرب

كان الطنجي (١) إذن عنصر من البربر اندفع إلى دارفور في القرن الثاني عشر
أو الثالث عشر (٢) ، أي على أثر الغارات الهلالية ، وما يذكره ترمينجهام من
حدوث هذه الهجرة في القرن الرابع عشر يخاف الحقيقة إلى حد كبير .

ثم خالطت هذه الشعوب الوافدة العناصر السابقة من الداجو وصاهروهم
وأستطاع الطنجي الوافدون أن يشبوا إلى الحكيم اعتماداً على هذه المصاهرة فقد كان
الداجو مثل أهل النوبة يجعلون ثمناب وذرايين حقا معلوما في الوراثة . كان أول
هؤلاء السلاطين المولدين من الداجو والطنجور أحمد المقفور (٣) ، فهو ثمرة
الاختلاط بين الداجو والطنجور .

وقد دخل الإسلام مع البربر الوافدين كما دخل إلى عرب إفريقيا مع البربر
الذين وفدوا إليها . ويبدو أن هذا التيار الإسلامي لم يترك أثرا يذكر في حياة الناس
والسبب في ذلك أن الهجرة لم تكن كبيرة العدد فصبت في الزمن في العناصر
الأصلية ، ونتج عن هذا الاختلاط أو هذا التقاء عنصر حديد جامع بين دماء
البربر ودماء الداجو وهو شعب الفور .

وكان ظهور هذه السلطنة بصورة أوضح يتوقف على عمق التيار الإسلامي
وعلى صبغ البلاد بالصبغة الإعلامية الرضحة .

(١) بلر نفسه يشك فيما يقال من انتساب الصحر للهلالية ويرى أنه ليس ببعيد أن يكونوا قد

اتصلوا بهم بعد هجرتهم إلى دارفور

(٢)

Palmer : op cit p. 213

(٣) نعوم ٢ - ٢

يذكر بالمر أن لقب المقفور المسمى بدماء الداجو وهو ينسب إلى شيب الطنجور

هذه النقطة الهامة في تاريخ السودان تلت في عهد السلطان سليمان سولون (العربي بلغة الفور) - هذا التحول الجديد جلبه العرب الذين بدأوا يغدون على دارفور منحدريين من وادي النيل .

وهذا بدوره يجعلنا نخطئ الرأي القائل بأن سليمان سولون حكم من سنة ١٥٩٦ إلى سنة ١٦٣٧ (١) على نحو ما يذكر ترمينجهام .

ونميل إلى تأييد نعوم شقير الذي ذكر أن سليمان الأول هذا تولى من سنة ١٤٤٠ إلى سنة ١٤٧٦ (٢) ، لسبب واضح هو أن العرب في القرن السابع عشر كانوا قد استقروا في وادي النيل منذ قرون ، إنما موجة تدفقهم العظمى وقعت في القرن الخامس عشر على وجه الخصوص .

نفس الموجات التي اندفعت نحو الجنوب وأسهمت في تأسيس دولة الفور ، اندفعت موجة منها نحو الغرب تحمل الدماء العربية والدين الإسلامي ، وبدوا أن العرب الوافدين قد فعلوا في دارفور مثل ما فعلوه في الأوطان الأخرى ، أصهروا إلى السكان الأصليين وأصهروا إلى سلاطين الفور مثل إصهارهم إلى ملوك النوبة من قبل .

وكان سليمان سولون وليد هذه المصاهرة ، وهذا النسب حب فيه العرب الأوائلين فاستعان بهم في إخضاع الخارجين عليه من سلاطين الفور في جبال مرة ، أو المناطق المحيطة بها ، وانتشر الإسلام في ركايبهم فصنع السلطنة بالصبغة الإسلامية الواضحة ، وأتم توحيد عناصر السكان تحت لوائه ، وعمد تثبيتا للحركة الإسلامية إلى استقدام الفقهاء من الشرق لتعليم الناس أصول دينهم ، وبدأ العرب يلعبون في تاريخ البلاد دوراً بارزاً (٣) . ومن هذه القبائل الهبانية والزبقات والمسيرية والتعايشة وبنو هلية والمعالبة في الجنوب والحمر في الشرق والزبادية في الشمال والمهريّة والحاميد وبنو حسين في الغرب (٤) .

(١) والدور الذي قام به السلطان سليمان في تاريخ دارفور لا يكاد يختلف عن الدور المنعني - موسى وإسكني - محمد في أغرب إفريقيا ، أو دور عميرة دونقسله في سنارة ، في عهده برزت هذه السلطنة في سماء الحياة الإسلامية .
وتأكيداً لهذه الروح الإسلامية الواضحة نسب سلاطين الفور أحفاد سليمان أنفتشهم إلى بني العباس ، كما نسب القونج أنفسهم إلى بني أمية ، وهذه النسبة تكاد تجعلنا نحدد القبيلة التي انتسبت إليها أم السلطان سليمان ، ولعلها كانت من المجموعة الجعلية ، هذه المجموعة التي اتخذت نسباً عباسياً حتى سميت المجموعة الجعلية العباسية (١)

وبدأت الدولة تخلص من طابعها المحلي وتؤكد نفسها في حياة السودان منذ القرن السابع عشر فصاعداً ، فقد امتدت سلطتها على كردفان حيث قامت إمارة فورية تسمى إمارة المسبعات

وبدأت في عهد السلطان تيراب (١٧٦٨ - ١٧٨٧) تخطو في طريق الظهور خطوات أبعد ، فقد استعان بعرب البادية من أبالة وبقارة في تأكيد سلطانه على كردفان (٢) .

وبدأ يحتك بالقوى الإسلامية الأخرى في السودان ، فقد أوقع بميش العبد اللاب من قبل ملك سنار قرب أم درمان وكان على استعداد لأن يعبر النيل منطلقاً إلى سنار (٣) .

وبلغت الدولة أقصى اتساعها ، فقد كان حدها من الشمال بئر النرون في الصحراء الكبرى ، ومن الجنوب بحر الغزال ومن الشرق نهر النيل ، ومن الغرب منطقة وداي ، ثم اكتمل هذا السلطان الفعلي والرسامي في عهد عبد الرحمن الرشيد سنة ١٧٧٨ - ١٧٩٩ وقد انتقل إلى عاصمته الفاشر ، واتصل بالسلطان العثماني واعترف بسيادته ، ومنح لقب الرشيد .

وخلصت السلطنة من أي أثر من آثار العزلة ، واتصلت البلاد بالأوطان

(١) محمد عوض ص ١٦٤

(٢) نعوم لقير ص ١١٩ .

(٣) المصدر السابق ص ٣٠

الإسلامية الأخرى اتصالاً وثيقاً (١) : وقد امتد نفوذ هذه السلطنة إلى وادي
في عهد محمد الفضل حين هزم السلطان آدم وحمله إلى الناس أشراراً وولي محمد
شريف سلطاناً على وادي (٢).

وكان من الممكن أن تتوسع إلى آفاق أبعد لولا التوسع المصري في القرن التاسع
عشر ، وانتزاع كردفان ثم فتح دارفور آخر لأمر سنة ١٨٧٥ ، والقبض على
البقية الباقية من نفوذ هذه السلطنة .

ولنحس نريد أن نعرف عن سلاطين دارفور ما عرفناه عن سلاطين القونج من
حيث مساهمتهم في النشاط الإسلامي في السودان وادي النيل ، ومدى عن شعورهم
الإسلامي . وتشجيعهم للثقافة الإسلامية .

وما كادت هذه الدولة تستكمل طابعها الإسلامي الخالص حتى بدأ سلاطينها
يعملون على ربط بلادهم بالعام الإسلامي المعاصر في الساحتين الثقافية والدينية .

وانصلوا بمصر اتصالاً وثيقاً في المادية التجارية والثقافية ، وشجعوا طلاب
دارفور على الرحيل إلى مصر لطلب العلم حيث أنشئ لهم رواق بالأزهر خاص
بهم سمي رواق دارفور . ولا يستبعد أن يكون بعض علماء مصر قد شدوا
الرسائل إلى النواشر لمناصرة رسالتهم العلمية . واتصلوا بالأماصار الإسلامية الأخرى .

ومن آيات حرصهم على هذه الروح الإسلامية اشتراكهم في إرسال صرة
الحرمين (٣) . فكان موكب المحمل يأتي إلى مصر ومعه الريش والسن والضمغ
وغیره من حيرات البلاد ، ثم تباع هذه السلع وتزسل أثمانها في صرة إلى الحجاز
مع ركب الحجاج المصريين .

وانصلوا كذلك بالسلطان العثماني باعتباره خليفة المسلمين فقد أرسل عبد الرحمن
الرشيد إلى الأسنانة هدية من العاج والريش ، وتلقى هدية من الخليفة كتاباً يخلع
عليه لقب الرشيد (٤) .

وكان هؤلاء السلاطين يرغبون ندرية أخبارهم فيهمجون نهجاً إسلامياً واضحاً ، حين يسرون ويقتلون العتالدين ، ويلتزمون أحكام الكتاب والسنة . يتبين هذا الاتجاه من سلسلة كثير من السلاطين مثل سليمان الأول أو عمر الثاني فيمكن أن من أشد الملوك محافظة على الكتاب والسنة ، وروى أنه بعيد توليته بثلاثة أيام خرج إلى مجلس خاصته ، وسألهم أن يولوا أحد أعمامه مكانه ، فعلاً ، طاعة الملك ثقيلة ، وكان عبد الرحمن الرشيد لا يقل في سيرته عن هؤلاء السلاطين . كما عمل هؤلاء السلاطين على تشجيع العلماء وتقديم الهدايا لهم حرصاً على نشر العلم في بلادهم ، ويروى التونسي كيف أن عبد الرحمن سلطان دارفور لما ظهر عدله وحببه للعلماء وأهل الفضل وقد عليه الأشراف والعلماء . وكان والده أول من وفد عليه ، فيما بلغ الخبر السكان ، اجتمع أكابرهم وطلبوا منه قراءة مختصر خليل ، فقرأ لهم . ربح العبادات (١) .

ثم يدكر التونسي أيضاً أسماء بعض العلماء الذين اجتذبهم إلى دارفور كرم السلطان عبد الرحمن ، ومن هؤلاء الشيخ التمر (٢) والفلافي والشيخ حسين عماري الأزهرى ، ومن مكة الشريف مساعد .

طابع الحضارة الإسلامية في هذا العصر :

رأينا كيف أن « دور الأزدهار » هذا يتفرد بطابع معين يتمكس على الحضارة الإسلامية ، فهو الدور الذي يتم فيه الامتزاج الكامل بين التقاليد الإسلامية المرافقة وبين التقاليد المحلية السائدة في جميع النواحي ، في نظم الحكم وفي الحياة الاجتماعية وفي الثقافة الإسلامية ، وما يصحب هذا من نشأة لون من الحضارة الإسلامية على الطابع ؛ برز في مصر وفي بلاد المغرب وفي غرب السودان (٣) .

وكان على السودان أن يستجيب لهذا التطور بعد أن سادته المؤثرات الإسلامية على نطاق واسع ، وقد رأينا يشهد ظهور سلطات إسلامية وإمارات إسلامية كالتى شهدتها الأمصار الإسلامية الأخرى .

(١) عبد العزيز عبد الحيد - ١ ص ١١٧ .

(٢) نوم شقير - ٢ ص ٢٢١ .

(٣) Hileson : The Anglo-Egyptian Sudan, Islam to day, p. 90

تم في بلاد السودان في هذه الفترة الامتزاج الكامل بين التقاليد الإسلامية التي
نقلت عن طريق دارفور ، وأول وفودت من سنار ، وبين التقاليد المحلية التي سادت
أكثر جهات السودان ، وبروز الطابع المحلي في الحضارة الإسلامية ، إسلامي الصورة
والبيئة سوداني الطابع والانتجاء ، وهذا التطور أكثر وضوحاً فيما يعرف من تقاليد
ورسوم ونظم حكم عرفتها القونج أو عرفت بها سلطنة دارفور .
فالقونج لم يهملوا التقاليد الإسلامية ، وما كان لهم أن يفعلوا ذلك ، وهم
مسلمون ، عملوا بالكتب والسنة ، وسعى هؤلاء الملوك جهدهم لتطبيق الشريعة
الإسلامية في الأحوال الشخصية وفي الأموال وفي جمع الزكاة والعشور ، وإقامة
الحدود الشرعية على الجناة .

وقد كان علماء القونج يقيمون حد السرقة والمظف وغيرها من الحدود الإسلامية (١)
ولكنهم مع هذا انهمجوا في نظم الحكم نهجاً محلياً صرفاً يتميز باللامركزية الصرفة ،
حين كانوا يسمحون للأمراء المحليين بالاحتفاظ باستقلال ذاتي كامل .

ولم يكن سلطان سنار يحفظ بأكثر من حق تعيين الأمراء أو فرض الجزية
وكانت سيادته إسمية . لانكر أن المرشحين (للمنجلية) كانوا يحضرون إلى سنار
ليختار السلطان أحدهم فيمنحه الككر والطاقيّة ذات القرنين أو يمنحه سيفاً .
ولكن هذا المرشح إذا تم اختياره على هذا النحو مضى إلى إمارته لممارسة سلطته
الحالية الكاملة .

وهذا اللون من نظم الحكم أكثر الألوان موافقة لأحوال السودان وطبيعته في
هذه الرحلة من تاريخه . هذه القبائل العربية القوية التي انتشرت هذا الانتشار
الواسع كيف ترضى بتبعية مطلقة وهي التي لانفتاً تسمى وراء المرعى والماء ؟ وهذه
المشيخات المتنافرة كيف تندمج في حكم مركز قوى في هذه البلاد الفسيحة إلى أبعد
الحدود وكيف تستطيع دولة أن تبسط عليها سيادة سنار أو الفاشر أو قرى (٢) ؟ .

ولم يكن القونج يستطيعون أن يهملوا التقاليد المحلية التي ورثوها عن علوة والتي
وحدوها تسود منطقة مسار والنيل الأزرق مادامت لا تعارض مع العقيدة أو
تقاليد الإسلام .

وكيف يمكن أن يبقى التتويج معمول عن البائر بالبيئات المحلورة . فكلمة مايجل نفسها يرى مالك مايجل بأنها من أصل سوداني إن لم تكن قد استعربت من الجميع ، ثم طريقة التتويج ووسيلتها حين يحضر الأمير إلى سنار فيمنحه السلطان الكبر ويلبسه طاقية لها ذؤابتان عن اليمين والشمال محشوتان بالقطن كأنها قرنان قبل أن تقاليد نوبية قديمة شاعت في الممالك النوبية في الإقليم الواقع بين أسوان وكوزسكو . وكان لهؤلاء الملوك يلبسون الطاقية ذات القرنين والسوار (١) .

بل أبغى المرنج على تقاليد غربية أقرب إلى التقاليد الوثنية من أى شيء آخر في مراسم ولاية الحكم ، يظهر منها مدى الارتباط الوثيق بين الماضي البعيد والحاضر ، وتصور مدى ما أحرزته التقاليد الموروثة من انتصار في صراعها مع التقاليد العربية الإسلامية .

فالسultan لا تتم بيعته إلا إذا خضع لمراسم معينة تتم على المراحل الآتية (٢) :

١ - مراحل الاختيار بين المرشحين للعرش من أقرب الناس للحاكم السابق .

٢ - ينتقل إلى ساحة التتويج حيث الأمراء وأكابر الدولة فيلبس الطاقية ويسلم السيف ويجلس على الككر .

٣ - بعد انتهاء مراسم التتويج يذهب السلطان إلى مكان معين في انتظار خروج دابة من الأرض يتفاهل بخروجها .

ولا تريد أن نفيض في هذا الوصف ، ويمكن أن نقول أن زعماء المشيخات المحلية كانت لهم مراسيمهم وتقاليدهم في ولاية الحكم ، ألا يصور لنا هذا كله هذا اللون المحلى من الحضارة الإسلامية ، ويعطينا صورة واضحة عن هذه للنولة الإسلامية التي جمعت بين عناصر مختلفة عربية وحامية وشبه زنجية ، وما صاحب هذا الجمع من اختلاط التقاليد ؟؟ (٣) .

والحياة الإسلامية في دارفور خضعت لنفس هذا التطور واستجابت لمثل هذه المؤثرات .

(١) محمد عوض ص ٢١٩ .

(٢) شرحها الشاطر بصلي مقتباً من رواية صاحب مخطوطة تاريخ سنار . انظر : معالم تاريخ

سودان وادي النيل ص ١١١ - ١١٩ . (٣) المصدر السابق .

فهم من ناحية تمسكهم بالكتاب والسنة وطبقوا الشريعة الإسلامية تطبيقاً تاماً ،
انظر إلى سلطانهم محمد - الفضل - وهو يطالب محمد بن علي بمشيروته إلى أحكام الدين
وأثرها في نظريات الحكم ، وأورد الشاذلي من الله نجد فيه ما كثر أم ذور ذلك
حديث من رسول الله - عليه السلام - بدين بكتاب الله وسنة رسوله ونؤدى
الفرائض وترك المحرمات ونأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، والذي لم يوصل
أمره بالصلاة والذي لم يترك تأخير صلاة الزكاة ، وتضعها في بيت المال ، ولا تدرجها
ونرد الأمانات إلى أهلها ونعطي كل ذي حق حقه (١) .

وهذا بين مدى تمسكهم بالتقاليد الإسلامية ، حتى نظام البيعة نفسه كان نظاماً
إسلامياً فيعة عبد الرحمن الرشيد حصرها الأعيان ورؤساء الجيش والعلماء وجلف
أناء السلاطين على الكتاب (٢) .

ولكنهم رغم هذا لم يهملوا التقاليد المحلية ، تقاليد الداجو والطنجور وغيرهم
وقد جمعت هذه الأحكام العرفية في كتاب واحد يعرف بقاتون دالي يقوم بتنفيذ
حكام الأقاليم ، والقاضي الأعظم في هذا القانون هو كبير الحصيان الملقب بأبي شيخ .
وإليك بعض المبادئ التي تضمنها هذا القانون لتعرف مدى مطابقتها للقوانين
الإسلامية .

فهى تنص على وراثة الملك ، وعلى أن قصاص السارق ست بقرات أو ما
يعادل ثمنها ، وإذا لم يدفع السارق حبس حتى يفديه أهله . القاتل قصاصه القتل
إذا كان عامداً أما غير هذا فيدفع الفدية ومقدارها مائة بقرة إذا كان من البقرة أو
مائة بعير إذا كان من الإبل ، الراني إذا زنا بمحصنة فعقوبته ست بقرات ، وإذا
كانت أما فقرة واحدة والبكر بقرة واحدة . وقصاص الضارب إذا أحدث جرحاً
ثوب من الدمور وإذا لم يحدث جرحاً فصف ثوب . أما شارب الخمر فجلده
ثمانون جلدة (٣) .

وكانت لسلاطين دارفور نظمهم الحماية الخاصة في الحكم : فوالى الإقليم

(١) لغوم شقير - ٢ ص ١٣١

(٢) المصدر السابق - ٢ ص ١١٢

(٣) المصدر السابق - ٢ ص ١٣٧ - ١٣٨

«يتضمن مفهومنا» وهو، يلحق بفرمان خياطين أو سجاد الحاشية منهم، أبو شيخ كبير الحصان، وهو يطبق دألي ومقامه أكبر مقام في السلطنة هناك.

ثمة من رجال الإدارة المركزية ملك النحاس خير وملك الدادات السلطان وملك القاشير وملك الخجاعة وملك الحدادين ولكل سلطان باوكيل. رسمى من درية السلطان يسمى «الكامنة» (١).

لهم، ويتبين لنا مدى تغلغل تقاليد البربر وتقاليد الملثمين من الدور الممتاز الذي تحتله المرأة في هذه السلطنة. خصصا نفوذ الميازم، أخوات السلطان والحبوبات، حداث السلاطين.

ول هذه السلطنة تقاليد خاصة في ملكية الأرض. فاللاد كلها ملك السلطان وهو يقسمها إلى «حوا كبير» أو إقطاعات يوزعها على أهله وأخصائه وكبار قومه فنجح محتومة يعيشون من ريعها، وكذلك قسموا قبائل البادية على أبناء السلاطين نجح لهم زكاتها (٢).

وكانت لهم تقاليد خاصة في جلوس السلطان على الككر في يده اليمنى صولجان، وفي يده اليسرى سيف مستقيم. وعلى جنبه الأيسر شيف محذب وفي الدخول عليه حين يخضع الداخل الطاقية والسلاح «ويلقي بنفسه على الأرض» ثم يجبر على الركب، والأيدى كالسلاحفة، مما يوحى بتقاليد دارفورية خالصة (٣).

وقد أشار نعوم شقير إلى تقاليد غريبة يتبعها السلاطين ورثوها عن أجدادهم من الداجو والطنجور أو غيرهم مثل عادة كسر الضلع. حين يأخذون ضلعاً من أضلاع الثور ويجعلونها حتى تصبح قابلة للكسر. ثم يحملها السلطان ويصرب به المحاس فإذا كسر تفاعل (٤).

لكن هذا الالتقاء بين التقاليد الإسلامية والتاليد المحلية إذا كانت قد وضحت

(١) نعوم شقير ص ٢ ص ١٣٦.

(٢) المصدر السابق ص ٢ ص ١٣٦.

(٣) المصدر السابق ص ٢ ص ١٤٢.

(٤) المصدر السابق ص ١٤٥.

آثاره في بعض أوجه نظم الحكم أو الحياة الاجتماعية أو العادات الموروثة ، فإنه لم يظهر في ميدان الثقافة الإسلامية .

فقد كانت هذه الثقافة عربية خالصة في جوهرها ومظهرها ، كانت ثقافة حملت إلى أرض سودانية لا تكاد تختلف عما رأينا في الباب الثالث عند عرضنا للثقافة العربية في غرب إفريقيا .

وتفسير ذلك واضح فأرض السودان لم تشهد ثقافة قديمة عريقة كالتى شهدتها أرض مصر أو الشام أو العراق ، ثقافة مغلوقة تؤثر في الثقافة الوافدة العالمة . وبهذا من هذا الالتقاء نمط جديد من الثقافة اللغة العربية أداته في التعبير والثقافات الموروثة أداته في التفكير ، لم تجد الثقافة العربية الوافدة إلى السودان ثقافة قديمة من النوع الذى أشرنا إليه . لم تتأثر بأية تقاليد محلية إنما بدت عربية خالصة .

والثقافة الإسلامية في السودان في ذلك العهد تأثرت بعاملين بارزين :

أولا : العصر الذى ولدت فيه ، فقد خطت خطواتها الأولى في القرن الخامس عشر ثم اشتد ساعدها نوعا ما في القرن السادس عشر ، ثم بدأت تتضح معالمها وتنوع مظاهرها في القرن السابع عشر فصاعداً .

ثانياً : موقع السودان الجغرافى بين بيئات إسلامية توطلت فيها الثقافة الإسلامية منذ عهد بعيد ، واتصاله بهذه الأوطان ، بالحجاز أو اليمن أو الحبشة أو غرب إفريقيا .

هذان العاملان إذن أثرا في هذه الثقافة طبعها طابع خاص ونحكما في نموها وتطورها ، أو هما مشولان عن تفسير ما خفى من معالمها .

دخلت الثقافة الإسلامية إلى السودان في أصيل النهضة الإسلامية ، كانت مصر قد اكتمل نضجها الثقافى في القرن الخامس عشر الميلادى ، ثم وقف التيار الفكرى عند للغاية الى إليها انتهى إليها ، ثم خضعت مصر للنفوذ العثمانى في النصف الأول من القرن السادس عشر .

وخضوع مصر على هذا النحو أو انتهاء العصر المملوكى الذى أسهم في رفع شأن الثقافة ، وإيصالها إلى المستوى الذى وصلت إليه أثر في طابع هذه الثقافة

وإنما هم ، فقد انجذبت إلى العلوم الثقيلة ، ولا يقول إنها عرفت عن العلوم العقلية فقد كانت تدرس ، ولكنها تدرس آلية صرفة القصد منها حفظ المائل الشائعة واستظهارها دون العمل على استنباط قواعد جديدة .
وكان التأليف في هذا الميدان يكاد أن يكون نادر الحدوث ، والمشتغلون بهذه الثقافة لم يستخدموا قواعم الإدراكية في الاجتهاد والتخريج ؛ إنما انجسوا نحو الاختصار وجمع الفروع الكبيرة في عبارات ضيقة تشبه الألفاظ ؛ وأصحاب تلك الشروح غلبت عليهم الرغبة في الاختصار أو مست الحاجة إلى الشروح والحواشي وحراشي الحواشي .

ولم تكن حالة الثقافة الإسلامية في مصر بحير منها في البلاد الإسلامية الأخرى ، كانت الثقافة الإسلامية في المغرب الأقصى نصب في مجارى مشابهة ؛ وكانت مدارس غرب إفريقية قد تعرضت للاحتلال المركشي . وبدأت تنبكت وجنى بصيها الضعف . وكذلك كان شأن العراق والشام والحجاز (١) .

وفي هذا العصر الذي برز فيه السودان الإسلامي في سماء الحياة الإسلامية العامة كانت المذاهب الصوفية قد سادت وسيطرت على عقائد الناس وتفكيرهم ، وامتزجت بالدراسات الإسلامية ، وصار كثيرون من العلماء يعتقدون أن علم الظاهر لا يتم إلا بعلم الباطن ، بل اعتبر بعضهم هذا العلم الباطن هو الذي لا علم غيره .

كانت الأمم الإسلامية إذن غارقة في لجة الصوفية بطرقها المختلفة وآدابها ونظمها وتقاليدها وأذكارها وكراماتها ، لم بعد أهل العلم والفقهاء يحتلون المرتبة الأولى من نفوس المسلمين ، إنما هذه المرتبة احتلها رجال الطرق الصوفية الذين ارتفعوا إلى مكان التقديس أحياء وأمواتاً (٢) .

ظهور السودان الإسلامي في ذلك الوقت ، يكاد يحدد طبيعة الثقافة التي دخلته ، أو التي كانت في سبيلها إلى اندخول .

وموقع السودان وانصالة الطبيعي بأمم إسلامية مجاورة ، كان يحتم تبادل

(١) عبد البرير عبد المجيد - ٢ من ٢٠

Trimingham : Islam in the Sudan p. 120

(٢)

الثقافة ، كما تبودلت السلع والمناجزة ، وكان لكل قطو من هذه الأنظار يحمل إلى السودان حصيلة الثقافة وطائفة من منتهج الخاص في الدراسة والتفكير ، لا أن اتصال السودان بمصر اتصالاً وثيقاً أملت الطبيعة ، وأملاته التبادل التجاري بين البلدين .

فقد كانت قوافل السودان تنحدر إلى مصر إحداراً متصلاً من سنار ودارفور لتحمل إلى أسواقها سلع السودان ومحاصيله . وكانت مثل هذه تعود بحاصلات مصر وحاملات آسيا وأوروبا .

هذه القوافل كانت تصل إلى شندى ثم يصل بعضها إلى سنار وكيسلا أو إلى النفاشر وما جاوزها عرباً ، ولا ننسى الطريق الشرقي الذي سلكته التجارات منذ القدم (١) .

بل كانت مصر أوثق الأنظار الإسلامية اتصالاً بالسودان فكانت المصدر الأساسي للثقافة الإسلامية التي بدأت تظهر في هذه البلاد منذ القرن العاشر فصاعداً ، بل نستطيع أن نقول إن مصر هي التي غرست البذور للثقافة الإسلامية الواحدة إلى البلاد (٢) .

هذا الاتصال كانت أهدافه معروفة وطبيعته ووسائله واضحة ، رحلة علماء مصر إلى بلاد السودان وإقامتهم به مشغولين بالتعليم ، أو رحلة طلبة من السودان والإقامة بمصر وتلقي العلم بالأزهر والتأثر بالاعتبارات الفكرية الإسلامية في القسم الشمالي من الوادي ، ثم العودة إلى السودان لتابعة الدرس والتحصيل مستعينين بنفس الوسائل ، متجهين إلى نفس الأهداف .

وكتب الطبقات هي أفضل من يصور لنا هذه الرحلات المتبادلة ، ويحدد لنا طبيعة هذه العلاقة ونتائجها ، أول من قدم من مصر على نحو ما تذكر كتب الطبقات رجل اسمه الشيخ محمود العركي ، تعلم في الأزهر على شيخين من أعلام شيوخ المالكية هما شمس الدين اللقاني وأخوه ناصر الدين : انطلق هذا الشيخ إلى منطقة النيل الأبيض ، وبني قصرأ يعرف الآن بقصر محمود ، ثم أقام بجزيرة

(١) نوم شقير - ٢ ص ١٤٨ - ١٤٩ .

(٢) عبد العزيز غند المجيد - ١ ص ٧٠ .

سنار، وأيسر بن نحو أن من سبع عشرة سنة لمدرسة بين الخيرية واليسر، وسواها مثل
بتعليمه بالقبلة (١).
ثم اشتد وفود العلماء من مصر في النصف الثاني من القرن العاشر، بعد أن
توطئت دولة الفونج وبسطت ظلها على السودان، وظهورت مكانة سنار بين عواصم
الإسلام،

وتعددت كتب الطبقات أسماء الواقفين وتعرض لإنتاجهم، وتحدثت عن أثرهم
في ميدان الثقافة، فقد حضر الشيخ إبراهيم جابر المعروف «بالولادة» بعد أن
تعلم على الشيخ محمد بنوفري، واشتغل بفقهاء المالكية بتدريسه مختصر خليل.
أقام بديار الشافعية أول الأمر. وانطلق إلى أرض الفونج متابعاً رسالته (٢).

هؤلاء قوم تعلموا في مصر ثم عادوا إليها ولكن فريقاً من علماء مصر الخالص
وفدوا على السودان، منهم الشيخ محمد القناوي المصري الذي تنقل في السودان
بين سنار وأرجي، وعاد إلى بربر وبى مسجداً وعلم الفقه والعقائد والنحو، وولى
القضاء وتعلمه عليه كثيرون منهم محمد بن عيسى سرار الذهب، ثم الشيخ محمد
ابن علي بن قرم الذي استقر بمدينة بربر تعلم فقه الشافعية، ثم اختلف إلى أرجي
وتعلم عليه القاضي وشين قاضي أرجي (٣).

واختلاف طلاب السودان إلى مصر حقيقة ليست في حاجة إلى توضيح،
ويكفي أن نذكر أنه أنشئ بالأزهر رواق السنارية لطلبة سنار ورواق لطلبة
دارفور، واستمرت هذه العلاقات متصلة غير متقطعة حتى اشتدت بعد التفح
المصري (٤).

والأثر المصري في ثقافة السودان واضح كل الوضوح، يتمثل في الطابع العلمي
لهذه الثقافة، من تدريس الفقه والمنطق والتوحيد ونشر المذهب المالكي والمذهب
الشافعي.

(١) محمد سعيد آفة ص ٤

(٢) نفس المرحوم ص ٦ : عبد العزيز عبد المجيد - ١ ص ٦١ ، ٦٢

(٣) طبقات ص ١٥٧ ، انظر نعوم شقير - ٢ ص ١٧٦ : ١٧٧

(٤) المخطوط - ٤ ص ٥٤

و اتصل السودان ببلاد الحجاز اتصالاً أمتته العلاقات الاقتصادية بين البلدين . ثم اختلف السودانيون إلى هذه البلاد المقدسة طلباً للحج والزيارة . كما وفد كثير من علماء الحجاز وأناموا في السودان .

فقد قدم من الحجاز شيخ من شيوخ الصوفية يسمى تاج الدين بهاري من خلفاء الشيخ عبد القادر الجيلاني . قدم من الحجاز مع داود بن عبد الجليل أحد التجار الذين كانوا يسافرون إلى الحجاز كثيراً . أقام في أم شعير يشتغل بالتصوف ويذيع مبادئه بين الناس .

هذه الصلات التجارية الدينية الثقافية لم تنقطع طوال هذا العصر ، بل كان تيارها يشتد بمضي الزمن (١) . واتصال السودان بالحجاز حمل إلى السودان وادي السبل طامع الثقافة الإسلامية في الحجاز في هذا العصر ، حمل إلى هذه البلاد مبادئ الصوفية ، والطامع الصوفي للثقافة الإسلامية غذى الحجاز في الداحية العملية في الوقت الذي كانت فيه مصر تعزى الداحية العلمية وتنميتها (٢) .

ولم تنقطع صلة السودان بالمغرب الإسلامي ، وتحدثت كتب الطبقات عن بعض علماء المغرب الذين رحلوا إلى السودان في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي ، مثل الشيخ التلمساني المغربي ، الذي قدم على الشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب واشتغل بتدريس القرآن وعلم الكلام والتجويد .

بل بمضي ود صيف الله إلى أبعد من هذا حين يتحدث عن بعض علماء القونج ويرجع أصلهم إلى المغرب والأندلس . ويضرب لذلك أمثلة بعبد الكافي المغربي وحسن ود حسونه ودفع الله بن مقبل وسعدود شوشاي والبلدي ، وهما صوفيان من المغاربة (٣) .

كما اتصل أهل دارفور بتونس ، وذهب كثير منهم إلى كانو وتنبكت طلباً للعلم (٤) .

هذا الاتصال بالمغرب ترك أثراً في الثقافة الإسلامية في السودان ، فقد كان

(١) صفات ص ٤٢

(٢)

Trimingham : Islam in the Sudan. p, 195.

(٣) صفات ص ٤٥ - ١١٩ .

(٤) عبد العزيز هداية ص ٢١ .

المغاربية مالكية لذلك نراهم ينهمون في تدريس هذه مالكة التي تخصص في أهل المغرب وفيه تعددت تواليفهم وعُزِّز إنتاجهم ، كما جعل المغاربة إلى السودان التأثير الصوفي كما حمله أهل الحجاز .

وإذا كانت سنار أو دارفور قد اتصلتا بمراكز العلم في الإسلام على هذا النحو ، فقد اتصلت مدارس السودان بعضها ببعض بتبادل الأساتذة والطلاب .

فكثرت الرحلة من دنقلا وبربر إلى سنار وأربنج . وكذلك تأثرت دارفور بالحركة العلمية المزدهرة في سنار (١) . رحل كثيرون من علماء القونج إلى دارفور ، أقاموا بها واشتغلوا بالحياة العلمية ، كما رحل طلبة دارفور إلى سنار لاستكمال الدراسة وتلقي العلم .

هذا عن العوامل التي أثرت في طبيعة الحياة الثقافية في السودان ، وهناك عوامل أخرى انبعثت من الحياة السودانية نفسها ، كان لها أثر عظيم في نمو الحركة الفكرية ، والأخذ بين هذه الثقافة النامية ، والعمل على دفعها إلى الأمام . أهم هذه العوامل قيام السلطنات الإسلامية في السودان ، ثم تبنى هذه السلطنات للحركة الفكرية الوليدة وتشجيعها بكافة السبل ، ثم مساهمة شعب السودان نفسه في هذا التشجيع . وإقبالهم على هذه الثقافة إقبالا عظيما .

وإذا كان قد قدر للثقافة الإسلامية في السودان أن تنمو وتزدهر فإن الفضل في ذلك يرجع إلى قيام سلطنات القونج ودارفور . لأن القبائل البدوية التي انحلت إلى السودان سعيا وراء المرعى والموطن كانت تمارس نفس الحياة التي مارسها في بيئاتها القديمة ، ولم تكن كثيرا بالأمور الدينية والثقافية (٢) .

إنما ظهور سنار في عهد القونج وندفج التجارة إليها ، وارتفاع مستواها الاقتصادي ، ثم ما حققه القونج أنفسهم من سلام وطمأنينة ، هو الذي بعث الثقافة الإسلامية من مراقدها .

فقد كان ملوك القونج يشجعون العلماء على القدوم إلى سنار والإقامة فيها ،

(١) ر. د. ضيف الله ص ١٢ .

(٢) عبد العزيز عبد الحميد ص ١٠١ .

وكانوا يقدرونهم ويبسطون عليهم ظلي الطمأنينة والحماية ويمنحونهم الأعطيات ويعفونهم من الضرائب، وييسرون لهم أسباب الراحة (١). هذه إلى بناء اللدائيز والمساجد، والإنفاق عليها وتشجيع الطلاب على القدوم إلى سسنا، أو تيسر أسباب السفر لمن يريد منهم الرحيل إلى الأمصار الإسلامية المجاورة.

وكانت المشيخات الداخلية في نطاق سلطنة القونج تحذو بحذوهم، والشيخ عجيب المانجيك مثلاً كان يقطع الإقطاعات الواسعة للعلماء والباحثين، ويجيبهم في الإقامة في قرين بكافة الطرق (٢).

ولم يكن سلاطين دارفور أقل من القونج احتراماً للعلماء وتشجيعاً للعلم، إذ تمتع المشتغلون بالفقه بمكانة ممتازة في حياة دارفور تنبئ هذا مما يذكره كل من الرحالة براون الذي زار هذه البلاد في القرن الثامن عشر، ومما ذكره محمد بن السيد عمر التونسي.

رأى براون ما كان للعلماء من مركز مرموق وصرب مثلاً بالفقيه، سراج وحطوته عند السلطان عبد الرحمن الرشيد (٣) وذكر التوسى أن الفقيه في دارفور كانت له أعلا منزلة بعد رجال الشيطان.

وأشار التونسي لمكانة الفقهاء من نفوس السلاطين، فقال إن أحد تجار دارفور وشى به عند السلطان عبد الرحمن وكاد يقبض عليه، ولم يجرؤ أحده على أن يستشفع له عند السلطان إلا السيد عمر التوسى نفسه. هؤلاء العلماء كانوا يمنحون الأعطيات الكبيرة، والإقطاعات الواسعة. فأدى هذا إلى تشجيع الرحلة إلى الفاشر.

وذكر التوسى أسماء بعض العلماء الذين اجتذبهم إلى دارفور كرم السلطان عبد الرحمن منهم الشيخ التمر والقلائي والشيخ حسين عماري الأهرى ولشريف مساعد من أهل مكة (٤).

(١) عبد العزيز عبد المجيد ص ١١٤.

نوم شقير ص ٢ - ٧٤ - ٧٦.

(٢) عبد المجيد عيسى. تاريخ الثقافة العربية في جردان ص ٥٢.

(٣) Browne : Travels in africa, Egypt and Syria. p 240.

(٤) التوسى : تشيد الأديان ص ٥٥ - ٥٦.

ن... ولم يكن هذا التشجيع يوقف على السلاطين إنما يشارك فيه الشعب، فقليل كان
سكان الرحلة التي بها منسجداً لولا أن خلقوا قد يستضيفون الطلبة والعزباء في بيوتهم كأبنائهم أو
ذوو قريباتهم. كما... يعتات بنت... هذا هو...
ويشير بر كهات إلى هذه العادة بقوله: «كلما أرسلت الجهات المجاورة لقبيلة
الشايقية صبياتها ليتعلموا في خلوانها ومساجدها قام كبار الفقهاء بتوزيع هؤلاء
الضفيان بين الإخوان والأصدقاء ليقوموا في بيوتهم، طاعين كاسين ويبقوا معهم
كما يشاءون». ويقول في موضع آخر: «إن كثيراً من أولاد السكوت والمحسن
يرسلون إلى مدارس عرب الشايقية حيث يقيمون عشر سنوات أو أكثر يعلمهم
فقهاء القبيلة (١)».

وكانت لهذه الحياة الثقافية مراكز في السودان تبعث منها هذا الإشعاع الثقافي.
من أقدم هذه المراكز مدينة دنقلة، التي دخلها الإسلام في منتصف القرن
الرابع عشر الميلادي، وارتفعت مكانتها بعد سقوط علوة وقيام سلطنة الفونج
وانشرت بها المساجد والمدارس.

وقد رأينا علام الله النبي بعد إليها في القرن الرابع عشر، وينشئ فيها مدارس
لتعليم القرآن والفقه والحديث ثم انتشرت هذه المراكز في المنطقة الممتدة من دنقلة
في الشمال إلى أرجمي في الجنوب (٢).

وظهرت ديار الشايقية وانتشرت في القرن الثامن عشر، وقد ذكر الرحالة
بر كهات أنه وجد بها الكثير من المدارس والمساجد التي تدرس فيها علوم الدين
الإسلامي، وكذلك مدينة كورتي وبربر.

على أن أعظم هذه المراكز في هذه المنطقة الشمالية وأوسعها نفوذاً أو أبعداها
أثراً مدينة الدامر مركز الجعليين وكعبتهم الثقافية.

وقد رآها بر كهات وتحدث عنها طويلاً، مشيراً إلى مكانتها العليا وتقديس
النامس لثقافتها وانتشار نفوذهم في جميع أرجاء السودان. وصف مسجدها ونحت

عن أقميته العلمية فقال **مجلد** وفي الدار مسجد كبير حسن البناء له عقود من القوالب وأرضية مغطاة بالزمن النظيفة ، ويلجأ إليه أبناء السيل والغرباء ، ولهذا المسجد صحن يحيط به عدد من خلوات التعليم . كما أن للفقهاء مساجد صغيرة قرب منازلهم (١) .

وتحدث عن الحركة العلمية المزدهرة ، عن المدارس الكثيرة وعن الطلاب الوافدين من دارفور وسنار وكردفان ، وعن الكتب الكثيرة في علوم الدين التي اشترت من القاهرة ، وعن معاهد العلم التي تعلم التجويد والتفسير والتوحيد ، والفقهاء لهم مكانة سامية في نفوس أهل السودان كلهم ترقى إلى مرتبة التقديس تنسب إليهم الخوارق والمعجزات ، وتنسب إليهم الأعاجيب ، يخافهم أهل السودان كلهم حتى البشاريين لا يجروؤن على إيذاء أحد من فقهاء الدامر .

وذكر بركهارت أنه سافر من الدامر إلى شندى يوم ١٥ إبريل سنة ١٨١٤ ، وكان في قافلته معهما لبحر ، القافلة ، وكان وجودهم كافياً لأن يبعث في قلوب الناس المحبة حتى أنهم كانوا يفتدون إليهم لتقبيل أيديهم (٢) .

وسنار أعظم المراكز الثقافية في ديار القونج كانت مركزاً تجارياً قبل كل شيء . عرفت بفتحها الوافر وتجارها الراجحة ، وكان التجار يجلبون إليها البضائع من مصر والحجاز عن طريق النيل والبحر الأحمر .

وكان يجلب إليها من كردفان التبر والحديد والرقيق ، ومن فازو غلي الذهب والجلود ، وجلت إليها تجارة الحبشة ، وأصبحت مركزاً علمياً تتطلع إليه جميع المناطق السودانية شرقاً وغرباً ، وطبقات ودضيف الله حافلة بأبناء العلماء الراحين إليها أو الصادري عنها .

ثم أصبحت العاشر بعد إنشائها من المراكز الثقافية الهامة في غرب السودان وإن كانت أقل شأنًا من سنار .

وقد لاحظ التونسي انخفاض المستوى العلمي في هذه المدينة ، فقراءة القرآن متأخرة نوعاً ما . وكذلك شأن العلوم الأخرى أكثر قراءتهم للفقهاء والتوحيد ،

والعلوم العقلية قليلة... جلاله، والقليل من النخون والمعاني والبيان والهدى والمنطق

والعروض (١) (٢٨١) في ذلك العصر فقد عديها وضيع الله على هذا النحو، المسجد - المدرسية - الخلو - المكتب -

وكانت المساجد معاهد للعلم انتشرت في جميع أرجاء السودان، والخلوة لتعليم القرآن وهي منتشرة في جميع قرى السودان. وقد استعمل وضيع الله كلمة مدرسة، وأراد بها مكان اجتماع الطلبة في المسجد لتلقى العلم (٢).

وبرامج التعليم تتضح صورتها من كتب الطبقات كما انضحت معاهد التعليم، كان التعليم يبدأ أولاً بحفظ القرآن ولم تكن هناك مصاحف مخطوطة كان المدرس يلى من الذاكرة والدروس تكتب ثم تحفظ لوحاً فلوحاً (٣).

وكان الفقه المادة التي تلى القرآن في الأهمية : ثم يلي علم الفقه علم الفرائض وعلم الكلام أو علم التوحيد أو علم العقائد (٤).

أما التصوف فقد كان شائعاً علماً وعملاً. وكان معظم العلماء صوفية والتصوفية أدب خاص وأوراد وأذكار تحفظ وتردد، من أجل ذلك كانت دروس الصوفية تعلم وتلقن مع العلوم الأخرى في المساجد والخلوى (٥).

فقد انتشرت الطرق الصوفية في السودان كله في ذلك العهد، عملت هذه الطرق على التقريب بين القبائل والأجناس، إذ دخل الناس في مختلف أنحاء السودان إلى الربط والزوايا للاتصال بالشيوخ وتلقى العلم عنهم.

ولعل هذا الانتشار الواسع يعزى إلى الفوائح الذين شجعوا رجال التصوف وأعانوهم، ونالوا من رعايتهم الشيء الكثير.

وقد انتشرت القادرية التي أسسها عبد القادر الجيلاني في القرن الثاني عشر،

(١) تشييد الأذهان ص ١٠٧، نعوم شفيق ص ٢ من ١٢٢، ١٤٦، ٣ - ٧٦.

(٢) عبد العزيز عبد المجيد ص ٩٤ - ٩٨.

(٣) نفس المصدر ص ١٣٥.

(٤) نفس المصدر ص ١٤٣.

(٥) نفس المصدر ص ١٤٤.

والتي دخلت إفريقيا الغربية في القرن الخامس عشر، ثم دخلت السودان سنة ١٥٤٠ .
ثم الطريقة الشاذلية المنسوبة إلى أبي الحسن الشاذلي (١١٩٦-١٢٥٨) ^{هـ} التي
انتشرت في مراكش في القرن الخامس عشر ثم رُسخت في السودان في هذا العصر
على يد الشيخ خوجلي عبد الرحمن المحمدي المتوفى سنة ١٧٤٣ .
وأصبحت الصوفية في ذلك العصر ممتاز بظاهرين ^١ : "قلة الحصومة التقليدية بين
الفقهاء والصوفية لضعف سلطان الفقهاء ثم الاتجاه إلى الجانب العملي من التصوف"
وإذا كانت الصوفية في ذلك الوقت قد انحدرت إلى مستوى الخرافة والشعوذة
فذلك لثمة حظ السودان من المدارس الشفافية الراقية أو الطبقة الواعية من الفقهاء
الذين لم يمكنهم أن يماربوا الخرافة ، وأن يحنبوا الإسلام في السودان ماوقع فيه
فقد أصبح الصوفي يابغ دوراً شبيهاً بدور الساحر في المجتمع الوثني القديم (١) .
هذا ولم تهمل دراسة المواد الأخرى ، كالنفسير والحديث والنحو والمطبخ
والأصنوع ومصطلح الحديث وعلوم اللغة والمعاني والبيان والبديع والعروض .

٣ السودان وادي النيل في القرن التاسع عشر

أطل القرن التاسع عشر السودان وادي النيل وأحواله لا تكاد تختلف عن أحوال
المصادر الإسلامية الأخرى ، وكأن الأقدار قد شاءت بأن يخضع الوطن الإسلامي كله
في مطلع هذا القرن لأحداث متشابهة . وأن يفعل انفعالا متشابهاً وأن يستجيب لمؤثرات
متشابهة

في مطلع هذا القرن ظهرت بعثته السياسية واصحة جليلة ، فالأمارات والسلطات
التي صهرت على مسرح الأحداث لم تستطع واحدة منها أن تظهر وأن تقوى وأن تلم
الشمول وتحقق ببلاد وحدة سياسية كاملة .

سطع لتويع نفوذهم شمالاً حتى الشلال الثالث ، غير أن سلطانهم الحقيقي لم
يمحاور مدينة ^٢ . كان سلطانهم شمال هذه المدينة سلطاناً اسمياً ليس غير ،

(١) عبد الله ر عبد المجيد ، ص ١٤٤ .

حاولوا بأن ينتزعوها، كردفان. وأن يملأوا بها، دار فودو، ولكنهم لم يستطيعوا إنعام
 وحيدة السودان رءوسهم لم يفكروا فيها، بل كانت رءوسهم رءوساً واحدة،
 وكذلك كان شأن دار فودو شيطرت على كردفان، وقاوت ضد الفونج ومنه
 ولكنها لم تستطع تحقيق هذه الوحدة، وانتقل السودان إلى القرن التاسع عشر وقد
 زاد فريقة على فريقة، ولم تستطع هذه السلطات أن تتشك برمتها بل نهأت نحو الضعف الواحدة في
 إثر الأخرى، اصمحل سلطان المروج وتفرق شمل ملكهم إلى

قد استطاعت سلطة الفونج على إثر تحالفها مع العرب أن تفيد من التجارة
 وأن تشغلها، وأن تشاطر الإمارات العربية الأخرى هذه الأرباح الطائلة،
 ومن أجل تحقيق هذا الكسب خالفت العرب، ووطدت علاقاتها مع باشوات البحر
 الأحمر من العثمانيين، واتصلت بمصر وأشأت بالبلاد ثلاثة مراكز جمركية هامة
 في دنقلة وفي قري وفي تشلحة.

وكان الملوك يحصلون المكوس من القوافل، فيستولون على نصيب منها،
 ويبدون بالباقي إلى حزام السلطان في سنة (١)، وكان احتفاظ هذه السلطنة
 بقوتها ونفوذها متوقفاً على هذه التجارة ومدى الاستفادة منها.

لكن الأحداث في القرن السابع عشر تمحضت عن تطورات لم تكن في
 الحسبان. وقد اشتدت المنافسة بين العثمانيين والفرجة، واكتشف طريق الرأس
 وتحولت مسالك التجارة وسيطر العثمانيون على أسواق مصر، ونزل الأوربيون
 في غرب إفريقيا، فأشأوا بها المراكز التجارية، وأخذوا يتوسعون منها إلى
 قلب القارة، وكان لا بد أن تصيب هذه الأحداث تجارة السودان، وأن تقلل
 من شأنها.

وكانت الإفادة من هذه التجارة أيضاً تتوقف على مدى كبح جماح القبائل
 العربية وإجبارها على الطاعة فلا تخرج من القوافل ولا تقطع طريق التجارة وكان
 الاحتفاظ بنفوذ الفونج يتطلب المال الوفير وقد قل هذا الأمر.

فكان من الطبيعي أن يضعف هذا النفوذ ثم يتهاوى ، واستطاعت القبائل أن تسترد سلطانها وأن تغير على القوافل ، وراخ البشاريون يغربون على هذه القوافل ويفتكون بالمسافرين ، فاضطربت أحوال السلطنة الاقتصادية ، قل كسبها وتناقصت مواردها .
وما زاد الحالة الاقتصادية سوءا نظام الجباية الإقطاعي فقد كان زعيم كل قبيلة يجمع العشور والضرائب ، يدفع جزءا منها لزعيم القرية ويقوم هذا بدفع نصيب الخزانة السلطان .

وكان طبيعياً أن تنسرب إلى هذا النظام مساوئ تخرج به عن حدوده المعقولة وأن يضاعف العمال الجباية ، وأن يبتلعوا أغلبها وأن يزيدوا من الالتزامات المفروضة على القبائل والعشائر (١) .

ثم امتدت يد الاضطرابات إلى السلطنة نفسها فتغلب الهمج على سياسة الدولة بوجهونها كيف يشاءون ، فقد استطاع محمد أبو كتمور أن يهزم الأحباش ، وأن يرد هزيمة الفونج في كردفان إلى نصر ، فلما عاد إلى سنار عزل الملك بادى الرابع واحتكر السيادة ونوارثها بنوه حتى زمن الفتح المصرى .

هذا بالإضافة إلى عيوب أخرى تابعة من نظام ولاية العرش والتنافس بين الزوجات والأمهات ، فشعل الفونج بأمورهم الداخلية عن الأحداث الكبرى التي كانت تجرى في السودان (٢) .

وكان معنى هذه التطورات الاقتصادية وهذا الضعف الذى أصاب نظام السلطنة في الصميم أن تنفك هذه الامبراطورية ، وأن يستقل الملوك الواحد في إثر الآخر . استقل العبد اللاب منذ سنة ١٧٧٠ ، ولم تنقطع المناوشات بينهم وبين الفونج وكان آخرها حرب عام ١٨٠١ ، وما كان من هزيمة الشيخ عبد الله بن عجيب ، حتى العبد اللاب نضال نفوذهم حين استقل الشايقية في هذا العصر .

وانتهت سيادة الفونج الإسمية على ثقل . فقد استغل أميرها اسماعيل بن محمد فرصة الضعف الذى أصاب سلطنة سنار وأعلن استقلاله (٣) .

(١) الشاطر يعيل ص ٩٦ . (٢) نعم شقير ج ٢ ص ٨١ .

(٣) نعم مفاد : أحوال السودان الاقتصادية نبيل الفتح المصرى ص ٤٤ .

ولم تكن أحوال دارفور خيراً من أحوال سنار ولم تستطع الاحتفاظ بكم دقان
أورنجي ظهرها من ناحية الغرب .

والتمائل العربية لم يكن من المعقول أن يوجد لها وطن مشترك أو لغة مشتركة
أو دين مشترك ، ولم يعصها سلطان الفونج ، فعادت حياتها البدوية التقليدية من
النقلة والبغضاء .

واشتعلت الحرب بين أحياء العرب ، بين البطاحين والشكرية سنة ١٨٠٣ هـ
أوبين السعداب والجمعيات سنة ١٨١٢ (١) . وكانت هذه العداوات تزداد عمقاً
وعنفاً كلما ضعفت سلطة سنار وبدت عاجزة عن أن تؤكد نفوذها وسلطانها .

وشهد السودان في ذلك العصر ميلاد طراز آخر من الزعامة كان خليقاً بأن
يوحد السودان . وأن يلم الشمل . فقد ظهرت الزعامة الدينية ، زعامات الفقهاء
والصوفية ، وكان من الممكن أن تعيد إلى المجتمع توازنه ، وأن توفر للوطن
استقراره وأن تحفظ التوازن بين المشايخ والولاة .

لكن تفرقت الزعامات الدينية كما تفرقت الزعامات السياسية ، وعدمت العلاقات
الطبية بين الفقهاء ، بل عملوا على إشاعة روح التعصب والتنافس ، فلا عجب
إذا كان أحد الأجانب الوافدين على السودان في ذلك القرن قد رأى الحياة الإسلامية
تسودها العاطفة والخرافة ، ينسب الناس إلى الفقهاء اخواق ويقدسونهم أكثر مما
يقدسون الرسول ، في الوقت الذي انحدر فيه مستواهم العلمي فلم يستطيعوا أن
يميزوا بين الخرافة والإيمان (٢) .

وقد تعرض السودان لنفس الأخطار التي تعرض لها العالم الإسلامي المعاصر :
فقد خضعت بعض بلاده للنفوذ العثماني ، فقد امتد النفوذ العثماني إلى بلاد النوبة بعد
فتح مصر : إما حماية لحدود مصر الجنوبية أو استغلالاً للنزاع بين الجوابرة وغيرهم
من أحياء العرب .

فقد أرسل السلطان العثماني سنة ١٥٢٠ سرية من عساكر البوسنة بقيادة حسن
موسى طردت الجوابرة وبسطت النفوذ العثماني .

(١) نعيم شقير - ٢ ص ٩٠ .

Hilleson : Anglo Egyptian Sudan, pp. 101, 102.

(٢)

وَمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعُثْمَانِيَّيْنَ كَانُوا يُولُونُ حِمَايَةَ حُدُودِ مِصْرَ بِإِحْتِلَالِ الْجُزْءِ مِنْ بِلَادِ النُوبَةِ ، أَنَّ هَذِهِ الْجَمْلَةَ لَمْ تَعُدْ إِلَى مِصْرَ بَعْدَ طَرْدِ الْجَوَائِزَةِ بِإِثْمَانِهَا أَفَالَتْ فِي الْبِلَادِ وَمِنْجْهِمْ اسْلُطَانُ سُلَيْمٍ . هُمْ يُؤْذِرُهُمْ مِنْ رِغْدِهِمْ أَمْتِيزَاتٍ عِدَّةٌ بِمَنْعِهَا لِإِعْفَاؤِهِمْ مِنَ الضَّرَائِبِ وَفَرَضِ الْأَعْظِيَّاتِ لَهُمْ ، وَلِأَمَّا مَا كَانَ حِينَ قَوْسِ تُولِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ بِالْحُكْمِ مِنْ بَعْدِهِ مَتَخَذِينَ الدَّرَ عَاصِمَةً لَهُمْ . وَبَقِيَتْ السُّلْطَةُ بِتَقَاسُمِهَا ثَلَاثَةً مِنْ هَؤُلَاءِ الْكُشَافِ حَتَّى الْفَتْحِ الْمِصْرِيِّ (١) .

بَلْ تَوَغَّلَ الْمَمَالِكُ (٢) فِي بِلَادِ النُوبَةِ بَعْدَ أَنْ فَرَّ بَعْضُهُمْ مِنْ مَذْبَحِ الْقَلْعَةِ سَنَةِ ١٨١١ ، هَاحَرُّوا إِلَيْهَا وَحَاحَلُوا السَّيْطِرَةَ عَلَى دَنْقَلَةٍ وَالْإِنْتِقَالَ مِنْهَا تَدْرِجِيًّا نَحْوَ الْجَنُوبِ حَتَّى تَمَّ لَهُمُ الزَّعَامَةُ الْكَامِلَةُ .

فَقَدْ حَاحَلُوا الدَّخُولَ إِلَى كَرْدِفَانِ وَبِلَادِ الْعُرُرِ حَيْثُ زَحَلَ بِمُحَمَّدِ بَكِ الْمَنْفُوحِ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بَكِ ، وَحَاحَلُوا الْمَمَالِكُ فِي مَهْجَرِهِمُ الْإِتِّصَالَ بِالْوَهَابِيِّينَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ عَنْ طَرِيقِ مَنَدَرِهِمْ حَسَنَ جَوْهَرَ الْكَاشَفِ .

بَلْ وَضَحَتْ أَهْمِيَّةُ السُّودَانِ فِي نَظَرِ الْمُسْتَعْمِرِينَ ، وَبَدَأُوا يَطْمَعُونَ فِيهِ وَيَنْتَظِعُونَ إِلَيْهِ ، ذَلِكَ أَنَّ الْإِنْجِلِيزَ بَعْدَ احْتِلَالِ الْفَرَنْسِيِّينَ لِمِصْرَ قَدَّمُوا أَطْمَاعَهُمْ إِلَى شَرْقِ أَمْرِيْقِيَّةٍ ، وَاهْتَمُّوا بِهَا بَعْدَ خُرُوجِ الْفَرَنْسِيِّينَ مِنْ مِصْرَ .

وَصَحَّ هَذَا الْأَهْتَامُ بَعْدَ رَحْلَةِ هَنْرِي صَوْلْتِ فِي صَحْبَةِ اللُّوردِ فِلنسِيَا عَامَ ١٨٠٥ - ١٨٠٦ . وَرَحْلَتُهُ الثَّانِيَّةُ سَنَةِ ١٨٠٩ - ١٨١٠ ، قَامَ بِالرَّحْلَةِ الْأُولَى لِمَا وَضَعَهُ الْحَبْشَةُ حَتَّى نَوَافِقَ عَلَى مَنْحِ بَرِيطَانِيَا قَاعِدَةً بِحَرِيَّةٍ فِي أَرْضِ الدَّنَاقِلِ بِمَكْنِ اسْتِخْدَامِهَا لِنُزُوحِ مِصْرَ إِذَا قَامَتِ قُوَاتُ فَرَنْسِيَّةٍ بِإِغْلَاقِ الْبَحْرِ الْأَبْيَضِ أَوْ احْتِلَالِ مِصْرَ مَرَّةً أُخْرَى ، أَوْ إِذَا وَقَعَتْ مِصْرُ فِي يَدِ دَوْلَةٍ قَوِيَّةٍ تَخْشَى انْجِلَازًا مِنْهَا سَنَهَا (٣) .

وَكَانَ عَلَى السُّودَانِ أَنْ يَنْتَفِضَ كَمَا انْتَفَضَتِ الْأَقْطَارُ الْإِسْلَامِيَّةُ الْأُخْرَى حَيْثَا سَعَتْ إِلَى الْإِصْلَاحِ وَانْجَهَتْ إِلَيْهِ .

(١) مَوْمُ شَقِير - ٢ ص ١٠٨ - ١١٠

(٢) رَابِر . The Mamlukes in the Sudan S.N.R. vol. V. pp. 88-94.

(٣) الشَّاطِرُ بَصِيلِي ص ١٢٦ .

تدخل يكل أمام السودان غير بطريقين : أن يجي على انقضاء مهلة هذه المهلة التي كان
السودانيون أنفسهم ، أو تحمل كإلهم منادى الأصلاح بوقوفهم على كبريتهم
فيو بطان جغرافية وثيقة ، ولم يكن السودان مهية لأن تبت من عيشة الرعية في
الاصلاح ، فلم يبق إلا الحل الثاني الذي حققه الفتح المصري في سنة ١٨٢١

سنة فقد بدأت حيوش محمد على بغزو بلاد النوبة ، واستطاعت في آخر سنة
١٨٢١ أن تقضي على نفوذ الكشاف وعلى الإمارات والمشيخات التي قامت في
البلاد ، إمام مستقلة بأمورها أو خاضعة للمونح . وفي ٤ نوفمبر سنة ١٨٢٠ هزمت
قوات محمد على الشايكية ، وكانوا عقة في سبيل الرحف المصري المنطلق صوب
الجنوب .

و استطاع المصريون أن يتموا فتح بلاد النوبة . وأن يخضعوا هذه البلاد للنفوذ
المصري المباشر ، وكان دخولهم بربر سنة ١٨٢١ تأكيداً لفتح بلاد النوبة .

ولاول مرة في تاريخ العلاقات بين مصر والسودان يتجاوز النفوذ المصري حدود
بلاد النوبة . فقد عزأ عمده على القونج في معاقبتهم عن طريق الحملة التي أعدها
لفتح سنار . وقد استطاعت هذه الحملة أن تضع حداً لسلطنة القونج ففتحت سنار
في ١٢ يونيو سنة ١٨٢١ .

بل بدأ أن المصريين يريدون مجاوزة سنار في طريقهم نحو الجنوب ، ثم توقف
الزحف عند فازو غلى في يناير سنة ١٨٢٢ .

ولم يهل محمد على غرب السودان ، إذ دخل جيش الدفردار كردفان سنة
١٨٢١ ، وبدأ يصطدم بسلطنة دارفور ، وامتد نفوذ محمد على إلى شرق السودان ،
وحصفت هذه البلاد لحكمه المباشر منذ إنعام الفتح سنة ١٨٢٥ .

ولا نريد أن نخوض أكثر من هذا في أحداث الفتح ، أو أن نعرض عرضاً
مفصلاً لتاريخ السودان في هذه الفترة المليئة بالأحداث ، الحافلة بالتطورات .

إلما الأمر الذي نريد أن نوضحه هو كيف كان هذا الفتح امتداد لحركة التجديد
التي بدأت منذ ظهور محمد على ، وإلى أي حد أثرت هذه الحركة الإصلاحية التي
شهدتها شمال الوادي في مطلع القرن التاسع عشر في الثقافة العربية الموروثة . ومقدار

ما وصلت إليه هذه الآفاق من ضخامة أو عمق . ومدى تأثيرها بالأحداث التي تعرضت لها مصر منذ ذلك الوقت حتى وقوعها في قبضة الاحتلال ، ومدى مساهمة النفوذ المصري في انتشار الإسلام والثقافة العربية ، ومدى إسهامه في نهضة السودان للدور المرسوم في تاريخ الإسلام في القرن التاسع عشر والعشرين .

وقد عرضنا في الباب الثاني لأهداف الحركة الإصلاحية وبراميتها ورأينا كيف عملت على الإفادة من تجارب الغرب فيما لا يتعارض مع تقاليد الإسلام وروحه لتحقيق هدفين : القضاء على أنظمة المصوّر الوسطى ومخلفاتها بإصلاح النظام الإداري ، والاقتصادية ، وخلق أداة صالحة للحكم تستطيع أن تكون أمانة على حركة الإصلاح توجهها الوجهة التي يريدونها المصلحون ، مع الإفادة من التجارب العلمية والإدارية التي أحرزها الغرب بعد أن نهض بهضته المعروفة ، ثم خدمة أهداف هذا الإصلاح بإدخال التعليم الحديث على غرار المؤلف من نظام الغرب وتقاليدها ، مع عدم المساس بمراث القرون الماضية في التعليم الإسلامي المعروف . وتدعيم ذلك كله بالاقتراب من نظم الغرب لإنشاء قوة عسكرية تحقق أطماع صاحب هذه الأفكار ونمحي تجاربه في الإصلاح ونظريته في إيجاد الدولة الصالحة على النحو الذي يريد . وبهنا أن نعرف إلى أي حد امتدت هذه الآراء إلى السودان بعد ارتباطه بمصر . وما تركته من آثار في حياته الإسلامية .

لم نعد حكومة مصر بعد فتح السودان مباشرة إلى إنشاء المدارس على النحو الحديث الذي شهدته مصر ، إذ يبدو أنها كانت تؤثر أن تبعث من أبناء السودان من ترى أن الحاجة تتطلب إرسالهم إلى مدارس مصر لتلقى هذه التجربة الحديثة في التعليم .

وضح هذا في عهد محمد علي نفسه ، فقد اختير ستة من أبناء السودان ألقوا بمدرسة قصر العيني التجهيزية ، التي تؤهل الطلاب لتلقى التعليم في المدارس المختصة .

وفرض عليهم بعد إتمامهم هذه المرحلة أن يلتحقوا بمدرسة الزراعة ، التي نقلت من نبروه سنة ١٨٣٩ (١) يستدل على هذا بما ذكره رفاعة الطهطاوي (٢) ، من

(١) عبد العزيز عبد المجيد ج ٢ ص ١٦ - ١٧ . (٢) منابع الألباب المصرية ص ٢٦٣ .

أن هؤلاء المبعوثين نقلوا إلى مكتب الزراعة ثم إلى مدرسة جبال الكسح ليقيموا طعم المعارف المدنية لينشروها في بلادهم وقتها شاهدت بعضهم مستخدمين مديرية الخرطوم بوظيفة كاتب ٩٩ ،

في هذا إذن أول عهد سودان وادي النيل بهذا النسق الجديد من التعليم الذي شهدته مصر في القرن التاسع عشر

ولا بد أن عدد المبعوثين لتلقي هذه الدراسات كان يتزايد بمضي الوقت إذ يبدو من الوثائق ومن مراسلات ديوان المدارس ، أن مدرسة المبتدیان كان بها نحواً من مائة طالب سنة ١٨٢٥ ، وأن الحكومة في ذلك الوقت كانت ترى إلى أن يمزج المصريون بالسودانيين في ثقافة موحدة تخدم أهدافها ومشروعاتها .

ومضت هذه السياسة خطوة أبعد من هذا ، فالحكماء ممتاز باشا يقترح إرسال مائة من طلاب مدرسة الخرطوم لإتمام تعليمهم في مصر في مدارس العمليات الميكانيكية والزراعية حتى إذا عادوا للسودان استخدموا في إدارة آلات حليج القطن وكبس (١) .

ثم رأت الدولة أن تنقل تجربة التعليم الحديث إلى ميدان السودان نفسه ، بدأت هذه المحاولة في عهد عباس الأول حين قرر إنشاء مدرسة تجهيرية في الخرطوم في ٦ رجب سنة ١٢٦١ هـ لتعليم مائتين وخمسين من الطلاب على أن يتولى رقابة الطهطاري إدارتها والإشراف عليها .

ويختار هؤلاء الطلاب من أولاد المشايخ والأهلين بدقنقلة والخرطوم وسنار والتاكة ، ومن أولاد الأتراك اللذين استوطنوا السودان .

وافتح مدرسة الخرطوم في شوال سنة ١٢٦٩ هـ ، ورغم أنها بدأت متواضعة ولم تستمر الدراسة فيها أكثر من سنة واحدة ، ورغم موتها بموت عباس ، إلا أنها تجربة لا تخلو من دلالة تاريخية ، فهي أول محاولة تشهدها أرض السودان لإدخال التعليم المدني الحديث (٢) .

(١) عبد العزيز عبد المجيد - ٢ ص ٧٨ - ٩٧ .

(٢) عبد العزيز عبد المجيد - ٢ ص ٣٦ .

ثم امتد أفق هذه التجربة في عهد إسماعيل . وفي ولاية موسى فيصملى باشا
فقد كانت حكومة السودان في حاجة إلى طائفة مدربة من أبناء السودان
لاستخدامهم في وظائف الحكومة ، ليتعلموا فن الكتابة والحسابات والتجويرات
وقد أنشئت خمس مدارس من هذا النوع في مديريات الخرطوم وكندقلة
والناكح ، ألحق بكل منها مائة تلميذ ، وضحت أهداف الحكومة حينئذ
أو كمر ، وحيث أن تأسيس خمس مدارس في المديريات المذكورة انشر
العرف والمعارف والحضارة على الوجه المشروح موافق لفس المصلحة ، بناء
عليه بادروا إلى إجراء إيجاه واسعوا في تعليم سكان الجهات المذكورة ،
وتقدمهم بأحسن وجه

وبقي من طريقة تعيين المدرسين . وتفيد البرامج الدراسية . وتقرير
الكتب اللازمة أن هذه المدارس كانت تحت الإشراف العمى الديوان المدارس
وأنها كانت تعامل معاملة المدارس المصرية ، من حيث البرامج وخطط التدريس
والاجازات والامتحانات .

وتظهر وثائق سنة ١٢٢٨ هـ نجاح التجربة وإقدام الحكومة على إلحاق
بعض الخريجين بمدارس التلغراف ومدارس الهندسة . أو إلحاقهم بخدمة
الحكومة ، بل اختير فريق منهم لتعلم هندسة المواخر وآخرون لتعلم الطب
والصيدلة ، وأرسل كثيرون منهم إلى مدارس مصر الفنية للاستزادة من
الخبرة الفنية المطلوبة .

والوقائع المصرية تكشف لنا في صوح عن خايا هذه النهضة التعليمية
فقد جرت العادة منذ العقد السابع من القرن التاسع عشر أن تنشر هذه
الجريدة إحصائية للمدارس والمكاتب الأهلية كما ترد من ديوان المدارس .
وقد أشارت إلى مدرسة كردفان وتلاميذها السبعة والعشرين وذكرت أن طلبة
السودان يتعلمون اللغات الأوربية . الفرنسية والإنجليزية والألمانية والعلمانية
بحسب رغبة كل متعلم .

وتذيع الوقائع نتيجة مدرسة الخرطوم فتذكر أنه تقدم ستة وعشرون طالباً
نجح خمسة عشر طالباً بدرجة أعلى وعشرة بدرجة عال وواحد بدرجة وسط (١) ،
وهناك تفاصيل كثيرة عن الإمتحانات ونظمها وكيفية عقدها ، وهي تدل
على اتساع هذه النهضة العلمية الحديثة بالقدر الذي سمحت به ظروف مصر
وميزانيتها .

وأجمع الدارسون لهذه الحركة العلمية الحديثة على نجاح هذه المدارس في نشر
الوعي الحديث وأنها حققت الغرض منها ، وقد أضيفت إلى هذه المدارس مدرستان
واحدة في مصوع والثانية في سواكن .

ولم يتوقف هذا اللون من التعليم الحديث في السودان واستمر إلحاق الخريجين
بوظائف الحكومة ، واستمرت المدارس مفتحة الأبواب يزيد عددها سنة بعد
سنة ، بالرغم من اضطراب أحوال مصر المالية وفرض الرقابة الأجنبية على
الإيرادات والمصروفات .

بل أنشئت مدرسة للطب في عهد توفيق ، وظلت مدارس السودان تؤدي
وظيفتها ، ظلت مدرسة الخرطوم حتى سنة ١٨٨١ ، وكذلك مدرسة بربر واستمرت
مدرسة كردفان حتى حصار الأبيض ، ثم أغلقت هذه المدارس أثناء حركة المهدي
التي قامت بالسودان (٢) .

ولم تكن هذه التجربة الإصلاحية قاصرة على شمال السودان ، إنما امتدت
إلى مديرية خط الاستواء . فقد وضع أولو الأمر في مصر سنة ١٨٦٤ لائحة
للاصلاح تشتمل على مقدمة وثمانية عشر بنداً وخاتمة ، وتعتبر دستوراً لما يجب
أن تسير عليه الحكومة في المنطقة الجديدة .

وهي تهدف إلى تعليم أهل الجنوب الصناعات الحديثة وتشويقهم إلى التعليم
ومحاولة نشر اللغة العربية ، وإرسال المعلمين إلى المحطات التي أنشئت هناك لتعليم
الأطفال القراءة والكتابة (٣) .

(٢) نفس المصدر ص ٢٤ .

(١) عبد العزيز عبد الحميد ص ٨٥ .

(٣) عبد العزيز عبد الحميد ص ٨٧ .

بل أرادت بمصر أن تأخذ بيد الرقيق المحررين لترفع من روحهم المعنوية ،
وتشعرهم بإنسانيتهم ، وقد أدخلت أطفال هؤلاء الرقية في المدارس المصرية ،
وأنشأ محافظ بنك السودان وسواحل البحر الأحمر مدرسة لمن حرروا من العبد
في سواكن ، ويبدو أن مدرسة أخرى أنشئت في سنار (١) .

ولم تقف محاولة الإصلاح عند إدخال المنهج الحديث في التعليم في السودان ،
بل امتدت يد الإصلاح إلى انعاش اقتصاديات البلاد بقدر ما تسمح به الطاقة ،
وإخراجها من اقتصاديات العصور الوسطى القائمة على الرعي والاستغلال البدائي
لثروات البلاد ، وتطوير الزراعة البدائية ، والقضاء على النظام التجاري العتيق ،
القائم على المقايضة بإدخال النقد الحديث .

وقد عبت الهيئات القائمة على الإصلاح بالزراعة عن طريق تطبيق نفس
الأسس التي طبقت في مصر ؛ من حيث توسيع الرقعة الزراعية وإدخال محاصيل
اقتصادية جديدة .

وصبحت هذه الرغبة منذ عهد محمد علي بإيقاد المبعوثين لتعلم وسائل الزراعة
الحديثة ، فأصلحت مساحات واسعة من الأرض كانت مهجورة ، وانتظمت
الأحول الاقتصادية ، وأنشئت مصانع في الحندق والمتمة والكاملين وغيرها (٢) ،
وأدخلت زراعة القطن في دلتا خور بركة ، وفي حوض القاش ونهر العظيرة ،
وأصلحت أرض دنقلة (٣) .

واستخدمت وسائل منظمة للنقل ؛ وأنشئت الخطوط الحديدية ، ودبت الحياة
في المدن والقرى ، وامتدت سياسة التعمير والإنشاء إلى مختلف مرافق الحياة بمساعدة
القيين الذين أرسلوا من مصر للمساهمة في تقدم البلاد واستغلال مواردها الطبيعية .

وامتدت محاولة الإصلاح إلى النواحي الإدارية بإدماج المشيخات والإمارات في
سلطنة مركزية واحدة ؛ ثم جرت محاولة للملازمة بين أوضاع البلاد والنظم الإدارية
في عهد سعيد ، ومحاولة لتخفيض الضرائب ؛ وشهد هذا العهد طائفة من الولاة

(١) المرجع السابق ص ٨٧ .

(٢) الشاطر بصيل ١٤٣ .

(٣) نفس المرجع ص ١٩٧ .

الصالحين عملوا بقدر الطاقة على رعاية هذه الحركة الإصلاحية ودفعها إلى الأمام بقدر ما تيسر لهم من جهد أو مال (١).

لكن هذه التجربة في التجديد والإصلاح التي شهدتها مصر في القرن التاسع عشر لم تمتد إلى السودان على نطاق واسع ، ولم تستطع في السنوات الست والخمسين أن تحقق إلا قدراً محدوداً من النجاح .

فالإصلاحات التي شهدتها مصر في عهد محمد علي لم تمتد إلى السودان على نطاق واسع ، لم تنشأ مدارس على السن الذي رآته مصر ، واكتفى بهذا العدد اليسير من المبعوثين .

وكان التوسع في التعليم بعد محمد علي ونبدأ لا يتماشى مع ما ينبغي أن تكون عليه الحركة الإصلاحية من الانطلاق وسعة الأفق . فلم تنشأ إلا مدرسة واحدة في عهد عباس تعثرت ثم أغلقت ، وفي عهد إسماعيل لم تنشأ إلا سبع مدارس في هذه الرقعة الفسيحة الواسعة من أرض السودان .

حتى هذا القدر الضئيل من التعليم كان موجهاً ، أريد به إمداد الحكومة بالموظفين وتدريب السودانيين بالقدر الذي تحتاجه حكومة مصر في السودان .

لم توضع برامج للتعليم تناسب أحوال السودانيين . أو تتماشى مع مستوياتهم الثقافية . أو تفتح أمامهم آفاق التعليم على نطاق واسع ! لذلك لم تكن هذه الحركة العلمية عميقة الجذور ولم يكن من المعقول أن تترك في حياة السودان أثراً قوياً .

فقد كانت الصبغة الدينية عالية على التعليم في السودان . وكاف السودانيون يرون في هذا التعليم خير ما يحقق أهدافهم ومثلهم . ولم يروا في هذا العلم الحديث إلا لونا من الثقافة فرضت عليهم لخدمة الحاكمين وتحقيق أطاعهم .

حتى الإصلاحات الإدارية التي رأبها تمتد إلى السودان كانت محدودة الأثر . فنقص منها الحاجة الملحة إلى الاستقرار . فقد كثر عزل الولاة . وفي الفترة الواقعة بين سنتي ١٨٢٥ و ١٨٧٧ تولى من هؤلاء الولاة خمسة عشر في نحو واحد وثلاثين عاماً . أي بمعدل سنتين وشهر تقريباً لكل واحد منهم .

ولم يكن هذا التغيير الدائب يتيح لأمثال هؤلاء الوقت الكافي لدراسة الأحوال ومحاولة علاجها . بل إن بعض هؤلاء الحكام لم تكن له سابق خبرة وتجربة ودراية بأحوال السودان وشعبه وقبائله . لم يحاولوا وضع لون من الحكم يناسب أحوالهم وأوضاعهم واستعدادهم . أو نقل السودان من عالم العصور الوسطى إلى عالم القرن التاسع عشر (١) .

بل تركت سياسة ولاية الأمر في مصر القاضية بفتح أبواب البلاد على مصراعها للنفوذ الأوربي لتندفق طليقاً من كل قيد طامعاً يعرق البلاد أثرها في السودان . فقد بدأت حكومة مصر تستخدم الأجانب في الأعمال الادارية على نطاق واسع . استخدم إسماعيل صحويل بيكر في تنظيم مديرية خط الاستواء . وعين غوردون حاكماً على السودان .

هياً للمطامع الأوروبية الفرصة بأن تندفق إلى السودان كما تدفقت إلى مصر ، وأثار استخدام هؤلاء المسيحيين هلع أهل السودان وذعرهم واشتمزازهم وهم يفكرون تفكيراً إسلامياً صرفاً ، الأمر الذي جعلهم ينظرون إلى مصر نظرة الشك والريبة .

ولكن المتع المصري وما أعقبه من مصاد مع هذا كله ترك آثاراً باقية في مستقبل الحياة الثقافية في السودان وفي انتشار الإسلام . فقد استطاع الحكم المصري أن يقضى على الدولة التي ضربت ظلها عليه في العهد السابق ، وأن يعيد اتصاله الوثيق بحوض البحر الأبيض المتوسط وحصارته

بل استطاع هذا الحكم أن يفتح الطريق أمام المؤثرات الأوروبية لتندفق إلى السودان ، وأن يهيء له اتصالاً مباشراً بالعالم الأوربي ، وسيزيد من اهتمامه بالسودان وأهميته وثروته ومستقبله .

يتمثل هذا في انسياب الدافع من الرحالة والمستكشفين الذين وفدوا على السودان بعد الفتح ، فقد وفد عليه ،

هر دريك كابو F Caillaud (١٨١٩ - ١٨٢٢) إدوارد ربل E. Rueppel

(١) الشاطر بصير ص ١٤٥

(١٨٢٥ - ١٨٣٦) بريم Brehm (١٨٤٧ - ١٨٥٣) كومب Combes (سنة ١٨٤٦) - روبرت هارتمان (١٨٥٩ - ١٨٦٠) فون هونجلين Von Henglin (سنة ١٨٥٧) - جيوم ليجان G. Lejean (١٨٦٠ - ١٨٦٤) - مارنو Marno (١٨٦٩ - ١٨٧٣) فرن F. werne (١٨٤٠ - ١٨٤١) - دهران Dehergine (سنة ١٨٩٨) (١) .

وما نجمع عن هذه الرحلات من دراسة شاملة للسودان في النواحي الاقتصادية والاجتماعية والاثنوجرافية، وتعريف الناس بشعوبه وقبائله وكشف ما خفى من تاريخه .

فكان التقاء السودان بالثقافة الغربية تم عن طريقين . طريق غير مباشر قامت به الحكومة المصرية بتوسيعها في التعليم ومحاولتها استخدام الوسائل العلمية الحديثة في استغلال ثروة السودان والإفادة منها ، وطريق مباشر وسيلته الرواد والرحالة والمكتشفون والتجار والقناصل الذين تدفقوا على البلاد في ظل الحكم المصري .

ولم يقف أثر مصر عند هذا الحد ، بل امتد إلى الثقافة العربية التقليدية . ذلك أن فتح السودان وثنق من الصلات بين مصر والسودان إلى أبعد الحدود وأصبحت الرحلة بين القطرين سهلة ميسرة ، تمكن طلاب العلم السودانيين من إرواء عطشهم إلى العلوم الدينية كيفما طاب لهم ، كما تمكن رجال العلم في مصر من أن يرحلوا إلى السودان إذا شاءوا .

يشهد بوفرة عدد الراحلين إلى مصر من الطلاب السودانيين إنشاء رواق السنارية بالأزهر سنة ١٨٤٦ ، يدل على ذلك أن طالباً سودانياً يسمى محمد على وداعة التحق بالأزهر سنة ١٢٥٣ هـ ، فوجد بهذا الرواق الجديد نحو ستة من أهل السودان وقد حصصت الدولة لطلبة هذا الرواق الإعانات والهيئات اللازمة .

وتضاعف عدد الوافدين عليه طوال عهد عباس وسعيد . واشتد وفود أهل السودان في عهد إسماعيل . تدل على هذا زيادة الميزانية المخصصة لطلبة الرواق . وتخصيص حصة من وقف برلته هانم للإعانة على الطلاب السودانيين (٢) .

(١) عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية في السودان ص ١٠٠ - ١٠٤ .

(٢) عبد العزيز عبد المجيد : ص ٢ من ١٩ . ٢٠ .

وتدل الوثائق على كثرة رحيل السودانيين إلى مصر التماساً للتعليم بالأزهر ، وهي تشير أيضاً إلى عودة أغلبهم إلى بلادهم لتابعة الحركة العلمية أو إقادة بعضهم بمصر واستقرارهم بها نهائياً ، ولم تكن الدولة تبخل على هؤلاء الوافدين بالرعاية والتشجيع (١) .

كما رحل العلماء المصريون ووصل بعضهم مع جيش الفتح ، فقد صاحب جيش اسماعيل بن محمد على نخبة منهم القاضي محمد الأسنوطي الحنفي والسيد أحمد البقلي والشيخ السلاوي (٢) ، واشتد وفود هؤلاء العلماء بعد ذلك .

وقد أسست مصر مدارس للعلم في المدن الكبيرة يتولى العلماء تدريس العلوم العربية فيها ، هذا النوع من المدارس كان يغذيه علماء السودان الذين تعلموا في مصر ، ولم تكف الحكومة عن تشجيع هذا النوع من التعليم بقدر ما تستطيع : أصلحت المساجد وأقامت مساجد أخرى جديدة ، وأوقفت عليها الأوقاف ، ومنحت المشتغلين بالعلم المنح والهبات

وهيأ الحكم المصري للسودان مركزاً جديداً من مراكز الثقافة الإسلامية أضيف إلى المراكز القديمة ، فقد أنشئت مدينة الخرطوم ووضحت أهميتها منذ عام ١٨٣٣ ، حينما عسكرت في موضعها حامية مصرية ثم اتخذها خورشيد عاصمة للحكم المصري في السودان سنة ١٨٣٠ ، ثم أخذت تنمو نمواً مطرداً . فحينما زار محمد علي السودان سنة ١٨٣٩ ، كانت منازل الخرطوم لا تزيد على خمسمائة ، وأصبح سكانها سنة ١٨٥٦ نحو ٤٥ ألفاً زادوا سنة ١٨٨٣ فأصبحوا نحو ٥٥ ألف نسمة .

وكما أصبحت الخرطوم مقراً للحكومة المركزية وضحت زعامتها الثقافية ، أنشئت بها أول مدرسة حديثة في عهد عباس ، ثم تتابع إنشاء المدارس والمعاهد ، وأصبح مسجدها العتيق مركز التعليم الديني في السودان .

وكان من بين الذين درسوا فيه الشيخ إبراهيم عبد الدافع مفتي الديار السودانية وتلميذ الشيخ محمد أحمد نور السروراني والشيخ الأمين الفرير والشيخ شاكرا المعني والشيخ مصطفى السلاوي والشيخ السيد حسين المجدي والشيخ المحروني وأصبحت

(١) نفس المرجع ص ١٢ .

(٢) نفوس نفير - ٣ ص ٢٧ .

هذه المدينة على حد تعبير Emile Bourgeois .
"La tête du pont de la civilisation en Afrique"

وكذلك أصبحت كبسلا منذ أن اتخذتها (١) مصر عام ١٨٤٠ مركزاً للثقافة
العربية في شرق السودان (٢) .

بل ساعد الحكم المصري على انتشار اللغة العربية والدماء العربية في السودان
كله ، فقد أسقط الحواجز السياسية القائمة بقضائه على السلطنات والإمارات
والمشيخات وأدججها كلها في وطن سوداني موحد يخضع لحكم مركزي مستقر .

فالقبائل العربية التي كانت تخذ من هجراتها هذه الحواجز انفسح أمامها المجال
لتنضي في هجراتها إلى حيث يطيب لها المرعى والمقام . بعضها مضى غرباً إلى أقصى
ما يريد ونفذ بعضها إلى جنوب السودان ، ومضى بعضها الآخر إلى أقصى الشرق ،
ساعدت على هذه النقلة سهولة المواصلات من ناحية واستتباب الأمن من ناحية أخرى .

يؤكد هذه الحقيقة استطاعة الرحالة الأجانب التجول في السودان دون أن يتعرض
لهم أحد ، ففي كردفان حيث كان التاجر لا يأمن على نفسه أن يسير منفرداً :
استطاع الرحالة بالمر أن يجتاز البلاد من غير أن يصحبه سوى خادم واحد ، ولم
يصب أحد باعتداء أو أذى ، وتمقل فيه الرحالة كوتشى مطمئناً سنة ١٨٣٩ ،
وكذلك الأمير الألماني بكلم مسكاو ، وحامت أسرة الميسو مولى إلى الخرطوم سنة
١٨٥٠ للزفة كما لو ساحت في ربوع إيطاليا (٣) .

وفي ظل هذا الأمن وهذه المواصلات الميسرة اختلطت الدماء والأنساب ،
وانتشر النفوذ العربي إلى أبعد مدى ممكن ، ونهياً السودان الموحد ليحتل مكانه
الحق في العالم الإسلامي .

والحكم المصري حين أسقط هذه الحواجز ، ومكن القبائل أن تختلط وأن
تنتشر وتعارف ، أتاح للطرق الصوفية التي شملت في القرن التاسع عشر إلى أبعد

Sabry : Le Sudan Egyptian. p. 111.

(١)

Ibid p. 108.

(٢)

(٣) عبد العزيز عبد الحية - ص ٢٤

الحدود أن تبسط من نفوذها في السودان ، وأن توسع من أفق نشاطها في الدعوة إلى الإسلام ، مستفيدة من هذه الظروف الجديدة .

اشتد نشاط الطريقة السامانية التي كانت قد دخلت السودان سنة ١٨٠٠ على يد أحمد الطيب تلميذ محمد بن عبد الكريم الساماني . وقد انتشرت هذه الطريقة على الخصوص بين الكواهلة وغيرهم من عرب الجزيرة .

لكن الرجل الذي أثر في السودان أكثر من سواه هو السيد أحمد بن إدريس الفاسي ، فقد كان صوفياً ومصلحاً دينياً متأثراً بالإصلاحات الوهابية واتخذت طريقته طابعاً تبشيراً محضاً . وقد تتلمذ عليهم من رجال السودان محمد المخبوب الصغير (١٧٩٦ - ١٨٣٢) والشيخ إبراهيم الرشيدى (١٨٧٤) (١) :

غير أن أهم هؤلاء المريدن السيد محمد عثمان الأمير غنى الذي أرسل عام ١٨٣٥ لشرع تعاليم الإسلام . عبر البحر إلى القصير وانطلق حتى أدرك النيل يدعو إلى طريقته . ونجحت دعوته من أسوان حتى دنقلة جنوباً . وأسرع النوبيون إلى الانخول في طريقته .

ثم انطلق إلى كردفان وأقام فيها دماً ثم رحل إلى سنار وعمل على نشر الإسلام بين القبائل الوثنية على وجه الخصوص ، ونشأت بعده طريقة جديدة هي المبرغنية التي انتشرت في ظل الحكم المصري انتشاراً عظيماً الشأن .

وقد شجع محمد على طرقاتاً صوفية أخرى كالطريقة السعدية وهي فرع من الرفاعية والطريقة الرحمانية وهي فرع من الدرقاوية . كل هذه الطرق انتشرت في ظل الحكم المصري انتشاراً واسعاً . وعملت على نشر الإسلام بين من لم يدخل فيه بل عملت على شد أزر النعامة الإسلامية إلى حد بعيد (٢) .

وأهم من هذا أن الحكم المصري كسب الإسلام منطقة جديدة لم يكن يتيسر له أن ينفذ إليها . فقد بدأ النمو المصري يتجاوز سنار نحو الجنوب متجهاً إلى منطقة أعالي النيل والمنطق الاستوائية . وبدأت المحاولات الأولى في عهد محمد

Trimingham : Islam in the Sudan. pp. 212-226.

(١)

(٢) عبد المجيد حامد الثقافة العربية في السودان ص ٩٦ - ٩٧ .

علي ، فقد أرسل بعد فتح سنار عدة حملات من الخرطوم لاكتشاف منابع النيل
وصلت آخر حملة منها سنة ١٨٤١ إلى غندوكرو ولم تتعدإها إلى الجنوب (١) .

لكن المحاولات الحقيقية بدأت في عهد الخديوي إسماعيل . ذلك أن السير
صمويل بيكر أراد أن يسهم في الجهود المبذولة لاكتشاف منابع النيل بالتعاون مع
غيره من المستكشفين الإنجليز ، و متمماً للجهود التي بذلها كل من سبيك وجرات
لاكتشاف هذه المنابع عن طريق زنجبار والتدقيق منها إلى مضبة البحيرات ، وما أدت
إليه هذه الجهود من اكتشاف بحيرة فكتوريا في ٢٨ يوليو سنة ١٨٦٢ .

وكان بيكر يريد أن يسلك طريق الخرطوم ويستأنف الرحلة من غندوكرو عسى
أن يلتقي بهذين الرجلين ، فخرج من الخرطوم في ديسمبر سنة ١٨٦٢ ، ووصل
غندوكرو في فبراير سنة ١٨٦٣ : ونمخضت جهوده عن اكتشاف مخرج النيل من
بحيره فكتوريا (٢) .

وقد أفاد إسماعيل من هذه الجهود وأذن لبيكر سنة ١٨٦٩ بفتح مناطق خط
الاستواء ، وفي فبراير سنة ١٨٧٠ قام في ثلاثين مركباً من الخرطوم قاصداً خط
الاستواء ، ونزل عند ملتقى السوبات بالنيل الأبيض ، وبني معسكر التوفيقية ،
واكتشف طريق بحر الزراف ونشر النفوذ المصري من السوبات حتى منطقة فكتوريا .

وقد تكللت هذه الجهود بالنجاح ، وانتشر النفوذ المصري في عهد إسماعيل
إلى منطقة البحيرات ، وتتابعت هذه الجهود على يد غوردون (١٨٧٤-١٨٧٧)
الذي ثبث أركان النفوذ المصري في هذه الآفاق : وأنشأ عشر محطات في السوبات
والنصرية وشامبة ومكركة وبوز واللاتوكة والداد والرجاف والدفلاي وفانيكو .
كما أسس مركزاً في مرولي على نيل فكتوريا . ووقع في ١٩ يوليو سنة ١٨٧٤
مع متيسا ملك أوغنده معاهدة يعترف فيها بالحماية المصرية (٣) .

وقد فتحت هذه المناطق أمام التيار الإسلامي ، لا نتكر أن اتساع تجارة الرقيق
في ظل الإدارة المصرية قد عاق إلى حد كبير الجهود المبذولة لنشر الإسلام في هذه
المناطق ، فقد استغلت تجارة الرقيق بعد الفتح المصري وتسليح الجلابة بالأسلحة

(١) نفوس شقير - ٢ ص ١٠ .

(٢)

Sabry ; op. cit. pp. 35-46.

(٣)

Sabry : op. cit. pp. 40-44.

النارية ، وتوغلوا في النيل الأبيض حتى وصلوا إلى أعاليه ، ودخلوا مناطق
بحر الغزال وخط الاستواء .

لكن مصر استجابت للحملة الإنسانية في أوروبا في ذلك العصر لوقف تجارة
الرقيق حين عقدت في ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ معاهدة مع إنجلترا في هذا الشأن .
ورافق إسماعيل على إقفل أسواق الرقيق في مصر والسودان ، وعمل غوردون
أثناء ولايته على السودان على تنفيذ هذه الاتفاقية ، وكان الممكن أن تثمر هذه
الجهود كلها ، وأن يستأنف الإسلام طريقه نحو الانتشار لولا الحركة المهدية
وتدخل الإنجليز .

المهدية في السودان :

غير أن النصف الأخير من القرن التاسع عشر شهد تطورات كانت بالغة الأثر
في الحياة الإسلامية في كل من مصر والسودان على حد سواء .

فقد أدت حركة التجديد في مصر بعد عصر محمد علي إلى فتح الباب أمام
النفوذ الغربي بيجاور النفوذ الثقافي إلى الميدان الاقتصادي والسياسي .

وشهدت مصر في هذه الفترة مظاهر الانحراف التي أشرنا إليها في الباب الثاني
وشهد السودان أيضاً بحكم ارتباطه بمصر نفس هذه الظروف ، وشهد هذه المساوئ
التي كان لها الأثر الواضح في مستقبل الحياة الإسلامية ، مساوئ امتدت إلى جميع
نواحي الحياة السودانية .

امتدت إلى الميدان الاقتصادي ، وبدأ السودانيون بعد حكم دام أكثر من نصف
قرن يحسون ثقل وطأة الحكم المصري ، فقد كانت الحياة الاقتصادية صورة من
الحياة الاقتصادية في العصور الوسطى ، كانت المبادلة أساس هذه الحياة ، فكانه
قضاء الحكام المصريين على هذا النظام قضاء عنيقاً له أسوأ الأثر في نفوس السودانيين
وكانت بعض مناطق السودان تعتبر الرقيق عملة ، تدفع بها أثمان السلع والمربيات .
فلما عمدت حكومة مصر إلى إلغاء تجارة الرقيق ثم الإلحاح في هذا الإلغاء متوسلة
بالعنف والخروج عن المألوف ، عجز هؤلاء الناس عن دفع الضرائب المطلوبة
نقداً (١) .

وهذه السياسة الضريبية رغم إنحرافها عن وسائل السودانين لم تراع العدالة في فرضها . فقد كانت الحكومة تعنى بعض الطوائف وفق هواها ، وتثقل على بعض الطوائف الأخرى فكان إعفاء الشايقية من الضرائب أمرا لا يقبله الجعليين ويرون فيه مذلة وهوانا ، لذلك كان هؤلاء الجعليون ممن أبدوا المهدي ، وساروا في ركابه وأثره أنهم كانوا يقولون (١) .

« يانعم العباسية . القامت المهديّة ... والله ما في ربة غنيمة الشايقية » (٢) .

وامتد هذا التمييز حتى إلى ميدان الطرق المصرفية فتميز المبرغنية على سائر الطوائف الأخرى ، كثر أتباعهم ، وعظم جاههم .

ثم عمدت الحكومة فوق هذا إلى العنف في جباية الضرائب المفروضة . وكانت فظائع الباشبوزق الشايقية والأكراد والمغاربة أعظم مما يتحملة السودانيون العرب .

لذلك نجد المهدي في منشوراته يندد « بسحب الناس في الحديد والسلاسل من أجل الضرائب (٣) » ثم المضاعفة في الجباية عن طريق فرض ضرائب إضافية ، وفرض أنواع كثيرة من الجبايات غير المشروعة لإرضاء المديرين ومن في حكمهم ، وليس أدل على سحق الناس من مثلهم الشائع « عشرة في تربة ولا ريال في طلبة » (٤) .

وكانت لهذه السياسة أثرها في المجتمع ، شاعت ظاهرة هجرة الدبار والاعتصام بمناطق الأطراف كالثلاثاء وبحر الخزال ودارفور فرارا من هذا الظلم . . . انظر إلى قصيدة الشيخ محمد شريف المشهورة :

وما أبت السودان حكم حكومة	إلى أن أتى ضيف المطالب من مصر
فكالثالث والثلاثين للمير وحده	ولشيخ والنظار أضعافه قادر
بضرب شديد ثم كتف مؤلم	ومن بعده الالتقاء في الشمس والحر
وأوتاد ذى الأوتاد من بعض فعلهم	واشنع من ذا كله عمل الحر

وكانت محاولة إلغاء الرقيق قاصمة الظهر في الحياة الإجتماعية في السودان فقد

(١) وما بعدها . Sabry : op. cit. p. 68.

(٢) نغم شقير - ٢ ص ١١٢ .

(٣) نغم شقير - ٢ ص ٣٦٦ .

(٤) المرجع السابق - ٣ ص ١١٠ .

كان الرقيق مستبشرين في حياة الناس لا يكاد يخلو بيت من بيوتهم إلا وكانوا الأيدي العاملة في الزراعة والرعي والصناعة فكان هذا الإلغاء المماثل للتقويض العنيف لهذه الأسس ، ثم كان الإمبراطور في تعقب الجلالة وتحرير الرقيق بالقوة ، والحملات العنيفة التي قام بها صمويل بيكر وغوردون في بحر الغزال وخط الاستواء وتنكيلهم بالتجار أشنع تنكيل قضى على ما بقي بنفوس الناس من ظل من الولاء للحكومة المصرية . (١)

ذلك كانت المناطق التي ألغت تجارة الرقيق أشد أقاليم السودان سخطاً على حكومة مصر ، وأكثرها تأييداً للحركة المهديّة ، مثل المناطق الواقعة في دارفور عرب وفي النيل الأزرق . وكان عثمان دقنة في شرق السودان من أكثر الناس تأييداً للمهدي وسخطاً على الحكومة .

وامتدت مظاهر الفساد إلى الميدان الديني كان تفكير الناس في السودان تعكيراً إسلامياً عميقاً إلى أبعد الحدود ، فاهتزت مشاعرهم أبلغ اهتزاز لاستخدام المسيحيين الأجانب في وظائف الحكومة ، وإطلاق أيديهم في أمور الناس ، وإسرافهم في استخدام الأجانب وإبدائهم للشعور الإسلامي خصوصاً في عهد غوردون هذا المعهد الذي أطاح ببقية ولاء الناس للخديوية .

وقد بلغ السخط مداه عندما أنهى غوردون حكمادريته في سنة ١٨٧٩ بمقتضى سليمان الزبير ورجاله ، بعد أن قبلوا عرض غوردون بالتسليم فقام جسي بإعدامهم ربما بالرصاص (٢) .

فراى أهل الوعي من السودانيين كيف عمات هذه الفئة المأجورة على إهدار كرامتهم ، وإبداء شعورهم ، وانتجر سخطهم في الحركة المهديّة المعروفة .

ومما يدل على عمق الشعور بالأسى لاندخل هؤلاء الأجانب ما ورد في كتب المهدي من إشارات إلى سحقه على الدخلاء المغتصبين ومن لوم توفيق على تسليمه الأمر لأعداء الدين (٣) .

ولم ير السودانيون في حركة المجديدين التي انحسرت إليهم لونا من ألوان

(١) المرجع السابق - ٣ ص ١١١ .

(٢) الشاطر بصيل ص ١٩٢ .

(٣) نعوم شقير - ٣ ص ٢٤٧ - ٢٥١ .

الإصلاح ، وما كان أعظمهم عن الإصلاح الذي يشهد في كتاب الأوربيين ،
إنما رأوا في ذلك كله رجساً وبدعة يجب أن تنطهر منها البلاد .
وقد أشار المهدي إلى هذه البدعة وندد بكتب « القانون » التي تتعرض للنبي ،
وأظهـر يشير إلى الكتب الدراسية المترجمة عن الفرنسية التي كانت متداولة في المدارس
الحديثة في السودان .

لذلك اعتبر الترك كفرًا أهل بدعة يجب قتالهم وجهادهم حتى يرتدعوا ، وأبلغ
دليل على نقيض هذا السخط وهذا القلق هو استجابة السودانيـن السريعة العميقة
للدعوة المهدية ، فكانت هذه الدعوة تنتشر انتشار النار في الهشيم .

وكان لابد أن ينتفض المصريون وأن ينتفض السودانيون لوقف هذا التيار
ولإصلاح ما أفدسه ، ولكن لابد لكل من هاتين الانتفاضتين أن تخضع لظروف
البيئة التي ظهرت فيها وانبعثت منها ، تخضع لطبيعة الحياة وميراث القرون ،
وتتجاوب مع آلام الشعب وآماله .

ظروف مصر قضت بأن تكون انتفاضتها دستورية الطابع غرضها الأخذ بيد
الشعب عن طريق الإصلاح الدستوري ومراقبة الحكام وإلزامهم بأن يسيروا سيرة
العدل والإصلاح ، وذلك لأن مصر استطاعت بعد تطور دام أكثر من ثمانين
سنة أن تتلوق تجارب الغرب ، وأن تفيد من آرائه وأفكاره ، وأن تقتبس من
نظمه بالقرن الذي يلائم حاجتها .

أما ظروف السودان فقد فرضت نفسها على طبيعة الانتفاضة وأهدافها وخططها
لا يمكن أن يستجيب السودان إلا لحركة دينية تلعب من تفكيره الديني العميق
المتأصل . صوفية متمشية مع التصوف الذي غلب على حياة الناس ، تكره الغرب
وثقافته وتعاديه وتحارب البدعة التي فشت في البلاد في ظل الحكم المصري ،
الانتفاضة المصرية تمثلها الثورة العربية والانتفاضة السودانية تمثلها الثورة المهدية (١)
هذه الثورة التي كانت ذات طابع سياسي ، ديني واجتماعي .

ولا يعنيها منها إلا أنها تمثل رأياً في الإصلاح ، وإنما انبثقت من نفس البنايع

التي انبثقت منها حركات مماثلة في أقطار أخرى ، ولا يعنينا أبصمًا إلا أثرها في الحياة الثقافية ، وأثرها في الحياة الفكرية وفي انتشار الإسلام في السودان ، ونريد أن نعرض لصاحب هذه الحركة ، ونشأته وثقافته والآراء التي نادى بها والمبادئ التي أعلنها .

ولد محمد أحمد في جزيرة ضرار من أعمال دنقلة سنة ١٨٤٣ في أسرة متواضعة تنسب إلى نجم الدين جد الكنوز ، فهمي من العرب المولدين الذين اختلطوا بالدماء النوبية .

وسمه هذا في طرى كان بلغ الأهمية ، في النجاح الذي أحرزته دعوته في السودان ، لم يكن إذن ينتمي إلى المجموعتين العربيتين ، الجعلية أو الجهينة (١) لأن انتماءه إلى واحدة منها سيوجب له عداوة الأخرى بسبب المنافسات القبلية والحزرات الأسرية .

وأصبح في مكنته إذن أن يوحد بين الشعبين ، ويؤلف بين الحيين ، وانحداره من الكور كان له أهمية خاصة في حياته ، فالكنوز ينتمون إلى آل البيت ، ومن هنا كان انتماء المهدي إلى البيت النبوي : وكان لنفسه هذا أثر كبير في نجاح دعوته وتأليف القلوب حوله .

ولم يبط المقام لأسرته في دنقلة فشدد الرحال إلى الخرطوم ، فأتيح له في هذه الحاضرة الثقافية الكبيرة أن يجد حظه من العلم ، وأن يقبل عليه ، فدرس القرآن في مدرسة كرري والخرطوم وأخذ يتعلم الفقه على الشيخ الأمين الصويلح في مسجد ود عيسى ثم على الشيخ محمد الخير في الغبش تجاه بربر ، ودرس النحو والتوحيد والفقه ، واشتهر بالتعبد والتقوى والزهد حتى قيل إنه كان يمتنع عن أكل راد أستاذه محمد الخير ، لأنه كان يحرم عليه من مال الحكومة ، ويرى أنه مال الظلم . هذه الدراسة الفقهية كانت لها انطاعات في نهجه وتفكيره ، بل جلبت له تأييد طلبة الفقهاء ومناصريها ، وهي طبقة ذات أثر ونفوذ عظيم في حياة أهل السودان (٢)

ثم مالئت أن اساق في التيار الصوفي الذي شمل البلاد في هذا العصر فانتسب

إلى الطريقة السامانية على يد الشيخ محمد شريف حفيد الشيخ الطيّب.

ودخل في السامانية سنة ١٨٦١ ، ثم تشرب المذهب الصوفي فتغلغل في نفسه وأظهر التقشف والزهد والخشوع ، فارتقى إلى مصاف الشيوخ ، وأصبحت له رايته ، وأصبح في مكائنه أن يتجول حيث طاب له ، وأن يدعو باسم السامانية ، وأن يعطى ما شاء من العهود .

ثم إلى رحل جزيرة أبا سنة ١٨٧١ حيث بنى جامعاً للصلاة وخلوة للتدريس فاجتمع عليه الناس وزادت شهرته حتى قيل أن المسافرين بالنيل ، كانوا يقفون بالمراكب والوابورات فيقدمون إليه الهدايا ويطلبون البركة .

فلما وصح نفوذه وكثر أتباعه نهس عليه شيخه السابق هذه المكانة التي وصل إليها ، فالتجأ إلى شيخ آخر هو الشيخ القرشي وجدد عليه عهده ومشيجته . وكان لهذا كله أثره الواضح في حياته وفي نهجه في التكبر ، ووسيلته في التعبير . مكنته كثرة أسفاره داعياً إلى طريقته من أن يختلط بالناس من جميع المستويات ، وأن يطلع على آلامهم ، ويستمع إلى مطالبهم ، ويلمس ما يعانونه من شقاء . فوصح به أن الوزير يقع على عاتق الحكم المصري في السودان . وأنه مسئول عما آل إليه الحال . وثقافته الصوفية التي اكتسبها في هذه الفترة انطعت في عقيدته وتقاليده .

وقد تبلورت في نفسه الرغبة في الإصلاح في مارس عام ١٨٨١ . حينما خرج سائراً نحو الغرب في زى الدراويش . وبدأ يوجه دعوته إلى أبناء السودان . بدأ أولاً بمخاطبة الخاصة من الفقهاء والأعيان ومشايخ الطرق والقائل ثم أعلن دعوته على الناس كافة (١) .

ونحن نريد أن نبين منهجه في الإصلاح وأن نحدد مكانه بين جمهرة المصلحين الذين حفلت بهم الحياة الإسلامية في القرن التاسع .

وخير ما يعيننا على هذا منشورات المهدي ومكائنه التي ذكرها نعوم شقير

في كتابه تاريخ السودان . فهي تصور أهدافه . وتنفض بأحاسيسه . وتكشف النقاب عن آرائه (١) .

وفي هذه المنشورات ثورة جاذبة على النفوذ الغربي الذي انتشر في وادي النيل كله شماله وجنوبه في عهد توفيق . وهو يرى في هذا النفوذ سر البلاء ومصدر البسطة . يتبين هذا من كتابه الموجة إلى الخديوي توفيق وإمارة ما حدث من البدع والفساد والإفلال والإفناء إليه تعالى . في كل الأحوال وقد تأكد في هذا الزمان الذي عم فيه الفساد سائر البلدان . فإن دسائس أهل الكفر التي أدخلوها على أهل الإسلام وضلالاتهم التي مكنوها من قلوب الأنعام ، قد أفضت إلى اندراس الدين . وعطلت أحكام الكتاب والسنة بيقين . فصارت شعائر الإسلام غريبة بين الأنعام . ونراكت الظلمات وانتشرت البدع وأبيحت محارم الإسلام .

وهو يلومه على تسليم أمور المسلمين للإنجليز . وأنه أحل لهم الدماء والأموال والأعراض . فجاءت الإنجليز بكبرهم وخيلائهم .

وهو يرى أنه لا خلاص إلا بالوحدة لطردهم العدو ونظهير البلاد من نفوذهم . وهو يدعو هذا الخديوي إلى أن يكون الجميع بدأ واحدة على إقامة الدين . وإخراج أعداء الله من بلاد المسلمين . وأن هذا النفوذ (٢) قد ظلم أمة محمد . وأنه لا يرد هذا الظلم إلا بالقضاء عليه . إذن حركة المهدي رد فعل للتجديد الذي دخل السودان في ظل الحكم المصري (٣) .

والطابع الصوفي يبدو في طابع الزهد والبساطة الذي عرف به أتباعه منذ البداية ويبدو في اعتماده على المعرفة الإلهية . فالصوفية يرون أن درجة الكشف لا بالكتب والتعليم والاستلال . إنما هي إلهام ينفث في الروح .

لذلك نرى المهدي يحتفظ إلى جانب القرآن والصحيحين بكتب لتصوف كإحياء علوم الدين للغزالي . وكتب الشعراني . وتفسير روح البيان للألوسي (٤) .

(١) انظر أيضاً : Holt ; Mahdiys, S.N.R. vol. XXXIIJ. :

pp. 182-186.

(٢) نكرم شفيق - ٣ من ٣٧٤

Hilleston ; op. cit. p. 102.

(٣)

(٤) عبد المجيد عابدين : الثقافة العربية في السودان من ١٢٤ .

كما يتضح هذا الانطباع الصوفي من لغة المهدي . ومن طريقته في التعبير ، فهو يكثر من الإشارة إلى الأقطاب وإلى الحضر . وينعت الرسول بأنه سيد الوجود (١) ويشير في رسالة بعثها إلى يوسف باشا الشلالى إلى القطب الدردبى (٢) . وكانت هذه اللغة تجذب قبولاً من أهل السودان . وتتجاوب مع عواطفهم . وكان يكتب هذا كله عن عقيدة وإيمان دون تظاهر أو ادعاء .

وإذا بمنهج في الإصلاح يتجه وجهة سلفية واضحة بمحضة . العودة بالتشريع إلى عهود الزاهرة . وإلى عصر الاجتهاد الأول قبل افتراق الكلمة وظهور المذاهب الأربعة .

فهو يفتح باب الاجتهاد في الإسلام ويحض عليه . وما العيب إلا الأعمال الموافقة للسنة والكتاب من لم يجتهد على ذلك بشق الأنفس خسر الدارين (٣) وإن هذا الاجتهاد هو الوسيلة الوحيدة لتقويم السنة والهجرة بالدين مما عليه من الانطاعات الزمنية (٤) .

ودفعه هذا إلى إبطال المذاهب الدينية ، والخروج بمذهب خاص يوحد بين هذه المذاهب ويسوى ما بين بعضها من الخلاف ، ويعود بالناس إلى الاستنباط من الكتاب والسنة مباشرة .

لذلك أحرق كل كتب الفقه والتفسير ، وجمع الكتب العلمية والدينية فلم يبق بالسودان إلا الكتاب والسنة وكتب التصوف .

ثم يقيم الحدود الشرعية : من قطع يد السارق ، ورحم الزاني ، بل ينهج طريقة المراطيين حين يعاقب على ترك الصلاة (٥) ، بل لقد يقتل المرء على ترك الصلاة .

وفي نفس الوقت يفتح باب الجهاد في سبيل الدين ، ولكنه بضيف شيئاً جديداً هو أن الكفر بمهديته كفر ، من شك في مهديتنا وأنكر ونخالف ، فهو كافر ودمه هدر وماله غنيمة (٦) .

(٢) نوم شقير ج ٣ ص ١٣٧ .

(٤) نفس المرجع ج ٣ ص ١٢٧ .

(٦) نوم شقير ج ٣ ص ١٣٧ .

(١) نوم شقير ج ٣ ص ١٣٢ .

(٣) نوم شقير ج ٣ ص ١٤٥ .

(٥) عبد المجيد عابدين ص ١٣٣ .

إذن هذه الإصلاحات ليست اختيارية ، إنما تفرض على الناس بالقوة ، كما فرضت الوهابية آراءها الإصلاحية ، وكما فعل عثمان بن قودي من قبل .

تتجلى هذه المبادئ من نص البيعة « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الوالى الكريم ، والصلاة على سيدنا محمد وآله ، أما بعد : فقد بايعنا الله ورسوله وبايعناك على توحيد الله ، وألا نشرك به أحداً ، ولا نسرق ، ولا نزنى ولا نأتى بهتان ولا تعطيل فى معروف ، وبايعناك على زهد الدنيا وتركها والرضى بما عند الله رغبة بما عند الله والدار الآخرة وعلى أن تفرض الجهاد (١) » .

ثم هو يقيم حكومة على أسس سليمة صرفة ، بنشئ بيت المال ، ويفرض الزكاة والعشور ، ويوزع الغنمة والفىء توزيعاً شريعياً . ويقسم رايات الجيش تقسيماً إسلامياً . وتعيينه الشيخ أحمد ود حارة قاضى الإسلام ، يساعده قضاة يحكمون فى الأمور الشرعية ونواب للمحكم فى الغنائم والحقوق المتعلقة ببيت المال .

وهذه كلها محاولات مخلصه للإصلاح لكنها كانت تتطلب الاستعانة بالعلم الأصيل والدراسة الفقهية العميقة والتعمق فى فهم النصوص التى وردت فى القرآن والسنة ، ومحاولة الاستسقاط استسقاطاً يعوق حمهرة التابعين ، وكيف يتوفر ذلك فى السودان وحال الثقافة الإسلامية كما رأينا ٩ .

وقد لاحظت فى تعاليم المهدي وآرائه تأثيرات وهابية واضحة ، فقد لاحظ المؤرخون وجود شبه بين الحركة المهدية والحركة الوهابية ، هذه الحركة التى امتدت آثارها فشملت العالم الإسلامى كله .

هذا التشابه واضح فى تشدد المهدي فى مبادئ التوحيد . وجعل التعبد لله وحده . وتحريم التطلع للأولياء وزيارة قبورهم . والامتناع عن شرب (الخمير) . ودعوته تشبه السنوسية من وجوه كثيرة . فى تبسيطها لبعض مظاهر الحياة الاجتماعية خفص المهر . ومنع النساء من لبس الذهب والفضة والنهى عن شعر اعيرة . أو حروج النسوة مكشوفات الرؤوس . وتوجيه الناس إلى الكتاب والسنة ومحاربة السخ . وعدم الاحتمال بالأعراس ومع البسكاء وراء الميت وإبطال السحر والتعريم .

بل جاوز المهدي ذلك بتفريير المحافظة على الصلوات الخمس بجماعة، وإبطال
الترتّب والألقاب ، ومساواة الغنى بالفقر وتوحيد الأزياء ، وإبطال الرقص والغناء،
بل نراه يفرض على الشّام عقوبة إذ يضرب سبعة وثلاثين سوطاً (١) .

إذن أراد المهدي أن يوجد في السودان نوعاً من الوحدة ثلاثية طبيعة الحياة
فيه . الحكم المصري أزال الفوارق السياسية ، والمهدي أراد أن يزيل الفوارق
المنهجية بجمع السودان على دين واحد ومذهب واحد وطريقة واحدة . فألغى
المذاهب الأربعة ، وألغى الطرق الصوفية أخيراً . وروض الناس على الزهد في
الدنيا ومجاهدة النفس .

وإذا وسما المهديّة بميسم المحلية نكون قد ظلمناها ، ونعطيناها حقها فلم تكن
نزعة محلية تريد إصلاح السودان وحده ، إنما كانت حركة عالمية تريد أن تمد يد
الإصلاح إلى الوطن الإسلامي كله بعد تحرير السودان وتخليصه من غلله وأدوائه .

تظهر هذه المسحة العالمية من كتابه إلى الخديوي توفيق وكتابه إلى أهل مراكش
ثم من الكتب التي بعثها خليفته التعايشي إلى السلطان عبد الحميد ، وقبائل نجد
والحجاز والسوسى ووداي وسلطان سكت .

وقد اهتز لحركته المسلمون جميعاً ، ورأوا فيها رغبة مخلصّة لإصلاح أحوال
المسلمين ، وقد جاءته الوفود من مصر والحجاز والهند وبلاد المغرب بل يذكر
آدم أن جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده كانا ينظران إلى حركة المهدي نظرة
عطف وتشجيع وكان غرضهما العمل في الخفاء على تنظيم قوات المهدي لتحرير
مصر (٢)

ولعل الحملة التي أعدها المهديون لم تكن لغزو مصر إنما لتحريرها من يبر
الاحتلال . وهذا يدل على مشاركته العالم الإسلامي المعاصر آماله وآلامه وانجاساته
وأحداثه .

كان الجهاد وسيلة المهدي في الإصلاح وإقامة هذه الحكومة العالمية الإسلامية ،
اعتبر حكّام مصر من التّرك كفرًا يجب جهادهم ، واعتبر كل من خرج عنه

(١) د. محمد عابدين ص ١٢٨

(٢) آدمز : الإسلام والتجديد ص ١٢ - ١٥ .

طاعته كافرين على قتاله ، لذلك تولى قمعونه الإصلاحية تتسم بالطابع العسكري منذ البداية ، وقد أحرز نصرته سريعاً متتابعاً ، أبدته أهل البادية أول الأمر ، ثم أبدته غالبية أهل السودان .

وقد ساعده على إحراز هذا النصر أمور أربعة : عددتها نعوم شقير على هذا النحو : استخفاف الحكومة بشأنه واشتغال مصر بثورة عراقية وضعف الحاميات العسكرية ، وتردد الحكومة في إرسال قواتها ، وشملت دعوته ربوع السودان كله ، وكان يقدر لها لو نجحت أن تتمكن للإسلام والثقافة العربية وأن تصبغ السودان بالصبغة الإسلامية العميقة وتنتشر الإسلام في جنوب السودان ، وربما في آفاق أخرى .

فقد بدأ المهديون يتجهون صوب الحبشة لفتح ميدان الجهاد .

ومن يدرى ربما استطاعت أن تغير من اتجاهات الإسلام ، وتوسع من أفقه ، لولا أن الرجعية في مصر تحالفت مع الاستعمار في ظل استرداد السودان ، وما أعقبه من قهر المهديية ووأد هذه الحركة الإصلاحية وامتداد رواق النفوذ البريطاني إلى السودان كما امتد إلى مصر من قبل .



الباب الخامس



انتشار الإسلام والثقافة العربية
في بلاد الحبشة وشرق أفريقيا

4. 1

5. 1

6. 1

منطقة الحبشة وبلاد الصومال وأقسامه الثلاثة وساحل كينيا
وجزيرة زنجبار ، تكاد أن تؤلف عالماً إسلامياً مستقلاً له أوضاعه الخاصة ،
ومقوماته الخاصة أيضاً . بل يكاد هذا العالم أن يكون منفزلاً عن بقية القارة .

هذه الحقائق نابعة من طبيعة هذا الإقليم ، ومن طبيعة الشعوب النازلة به ،
والتي شاركت في أحداث التاريخ الإسلامي في هذه المنطقة . هذا الإقليم تنتشر
به سلسلة من الهضاب والمرتفعات أهمها الهضبة الحبشية التي يبلغ ارتفاعها نحو
٦٥٠٠ قدم ، والتي تأخذ في الارتفاع كلما سرنا نحو الشرق ، حتى يبلغ ارتفاعها
في أقصى الشرق ثمانية آلاف قدم ، ثم تنحدر تدريجياً صوب الغرب متجهة صوب
سهول السودان ، ثم يقل ارتفاع هذه الهضبة بالتدريج في الجنوب الشرق حيث
تتخللها الوديان العميقة فتتسلسل إلى طائفة من الهضاب الصغرى ، ثم هضبة البحيرات
العظمى ٥

هذه الهضاب المنتشرة من الشمال إلى الجنوب تكاد أن تكون حاجزاً يمنع أو يقلل
من اتصال هذا الجزء ببقية العالم الإفريقي المجاور ، واستطاعت أن تحصر التيار
الإسلامي وأن تتحكم فيه ، فلا تدعه يتخذ منها متجهاً صوب الغرب (١) .

وهي تترك بينها وبين ساحل البحر الأحمر أو المحيط الهندي سهولاً فسيحة
تغلب عليها الطبيعة الصحراوية أو شبه الصحراوية .

في هذه المنخفضات نزلت طائفة من الشعوب البدوية التي تشتغل بالرعي
والنقلة في هذه السهول الفقيرة ، وأصبح تاريخ هذا الجزء من إفريقية صراعاً بين
البدو سكان هذه السهول ، وبين المستقرين سكان هذه الهضاب المرتفعة .

فلما نفذت المسيحية إلى هضبة الحبشة ، بقيت أغلب الشعوب البدوية على
الوثنية ، أصبح الصراع في الحقيقة صراعاً بين الوثنية والمسيحية . ولما انتشر الإسلام
بين هذه القبائل الرعوية أصبح النزاع بين الإسلام والمسيحية .

ونج عن ذلك أن هذه الشعوب البدوية لم تستطع أن تحرق هذا النطاق الهضي متوسلة بالقوة والعنف والغزو . قد تتقدم قليلا ، ولكنها سرعان ما تصطدم بمراكز المقاومة في الهضبة ، فتنهزم وترتد على أعقابها .

لذلك فشلت جميع الجهود التي بذلت لنشر الإسلام بقوة السيف ، ووقفت الهضبة الحشوية شامخة محتفظة بقوتها ، غير أن الوسيلة الوحيدة للتسرب إلى هذا النطاق الهضي هي التسرب السلمى عن طريق الهجرة الوثيدة ، أو الاتصال التجارى . عن هذا الطريق دخلت المؤثرات السامية القديمة ، وبنفس هذا الطريق تسرب الجلا إلى الحدشة . وأوغلوا فيها ، ثم اعتنقوا الإسلام ونقلوه إلى قلب الهضبة نفسها . وكان للتجارة والعلاقات السلمية الأخرى أبلغ الأثر في نشر الإسلام في هذه الآفاق

هذه الحواجر الهضبية المحتدة من الشمال إلى الجنوب على هيئة حاجز ضخيم عزلت المناطق الساحلية عن الداخل كما قلنا . لكنها فرصت على هذه المناطق أن تتجه وجهة شرقية نحو عالم الجزيرة العربية والمحيط الهندي . وأن تتصل بهذه العوالم عن طريق البحر عبر مصيق باب المندب ، أو عن طريق المسالك الملاحية في المحيط الهندي .

لذلك تأثرت هذه المناطق بالحياة في جزيرة العرب منذ فجر التاريخ ، ونشطت العلاقات التجارية بين هذه المناطق الساحلية وبين آسيا ، وعملت الطبيعة بدورها على تيسير الاتصال بين هذه المناطق الساحلية بشرق إفريقيا ، وبين بلاد العرب وأشد

والرياح الموسمية تهب في شهر ديسمبر من كل عام متجهة إلى الشمال الشرقى ، وتظل تهب في هذا الاتجاه حتى آخر فبراير ، ثم يتكرر هبوب الرياح مرة أخرى من أبريل إلى سبتمبر في اتجاه مضاد نحو الجنوب الغربى . ومعنى هذا أن هذه الرياح تحمل أهل ساحل شرق إفريقيا إلى شواطئ الهند ، ثم تحمل أهل الهند إلى ساحل جزيرة العرب الجنوبي ومضيق عدن (١) .

هذه الخصائص الطبيعية عرفها أهل الشرق منذ وقت بعيد ، وعرفها الإغريق

والرومان والتجارب التي مر بها الإغريق والرومان سجلت في كتاب مشهور هو
(1) Periplas of the Erythrean Sea

١ - دور التكوين

هذا الوطن الإسلامي يشبه الأوطان الإسلامية الأخرى من بعض الوجوه
خصوصاً في فترة التكوين هذه من تاريخه الإسلامي.

فقد كان انتشار الإسلام في ربوعه يتوقف على عدد من القبائل البدوية ،
تنسب هذه الدعوة ، فتكسبها روحاً جديدة تدعى فيها . رغبة ملحة نحو الهجرة
والتوسع ، نشراً لهذا من ناحية ، والتماساً لمواطن أخرى أكثر أمناً وطمأنينة
وحصوبة من ناحية أخرى .

ويتوقف انتشار الإسلام على نضال هذه القبائل مع مملكة مسيحية عريقة في
حضارتها ، وكان مصير الإسلام في هذه القعة يتوقف على مدى قدرة القبائل
البدوية على الاتحاد والإلحاح في الهجوم ثم قدرة هذه المملكة القديمة على المقاومة .

وهذا يشبه ما عرفناه في غرب إفريقيا من الصراع بين البدو المثلثين وبين
مملكة غانة . أو ما رأيناه في السودان وادي النيل من صراع بين القبائل العربية
المهاجرة ، وبين مملكتي مقرة وعلوة المسيحيين . وفهمنا لانتشار الإسلام في
مرحلة البداية يتوقف على فهم طبيعة البدو هؤلاء ، ثم طبيعة المملكة المسيحية
حاملة علم المقاومة .

هذه الشعوب البدوية التي لعبت الدور الأول في تاريخ النضال من أجل الإسلام
هي البجة والأعفار (أو الدناقل) والصوماليون ثم الجلا .

قبائل البجة تقع مواطنهم في المنطقة الواقعة بين النيل والبحر الأحمر وقد حفل
تاريخهم بحركات توسعية اتجهت صوب حدود مصر ، أو تدفقت على سهول شرق
السودان ، أو أوغلت في الأطراف الشمالية من هضبة الحبشة ، حين استطاعت
قبيلة الزنفاج البحاربة في آخر القرن السابع أن تخترق هضبة أرتيرية عن طريق

وادي بركة ، وأغارت على حدود الحبشة ، وخربت أغلب إقليم الحاسين ، وهاجر كثيرون من الأحباش صوب الجنوب (١) .

بل كان هؤلاء البجة قبل ذلك قد أسسوا مملكة البلمين على النيل بين مصر والنوبة ، وهي المملكة التي قضى عليها سلكو ملك النوبة سنة ٥٤٣ م .

ويبدو أن هؤلاء البجة استطاعوا في القرن التاسع الميلادي أن يعمقوا هجرة صوب الجنوب ، إذ يتبين من رواية اليعقوبي ، أن البجة استطاعوا في هذا الوطن الفسيح المتد من حدود مصر شمالاً حتى مملكة أكسوم جنوباً أن يؤسسوا خمس إمارات أو خمس ممالك .

منها مملكة بقرين من النيل عند أسوان إلى خور بركة ، وأشار اليعقوبي إلى عاصمتها محرق قرب سيكات الحالية ، شاركت في تكوين هذه المملكة قبائل الحدارب والحباب والأمرار والكوبار والمناسا والرسيفة والزنفاج .

ثم مملكة البقلين في ساحل أرترية ومنطقة رورا من الهضة والمجري الأوسط لواء بركة .

ثم مملكة بازين بين مملكة علوة النوبة ومملكة بقرين ، ومملكة الجازين التي امتد بعمقها من مدينة ناصع حتى خور بركة ، ومن مملكة البقلين حتى موضع يقال له ويكون (٢) الأمر الذي يدل على عمق تسرب شعوب البجة في هذا الإقليم ومدى مشاركتهم في أحداثه .

من هذه الشعوب البدوية أيضاً شعب الأعفار ، ويسمى الأحباش والعرب باسم الناقل . وقد وردت هذه التسمية في أحبار ابن سعيد ، وتمتد ديارهم من خط حديد حيوتى - درداو في الجنوب إلى شبه جزيرة بوري في الشمال ، ومن البحر الأحمر حتى الحافة الشرقية لهضة الحبشة .

وقد كان هؤلاء الأعفار من البدو أكثر الناس مشاركة في حركة الجهاد العظمى التي قام بها أحمد القرين في القرن السادس عشر ، وكان هؤلاء الناس تدفعهم ظروف بيئتهم ومصاعبها إلى الخروج في هجرات موسمية ، منطلقين نحو الغرب

إلتامساً لا استدالاً أوطانهم الجرداء بأوطان أخرى فيها استقرار وطمانينة في قلب
هضبة الحبشة .

إلى الجنوب من هؤلاء نزل شعب حامى آخر هو الشعب الصومالى ، كان وطنه
القديم في ما هو الصومال اليوم (١) ، وكانوا في وطنهم هذا يعبشون عيشة النقلة
والبداءة والشظف ، فاندفعوا في هجرات مطردة نحو الجنوب والشمال والغرب .
وبلغت هذه الهجرات أقصاها في عهد أحمد القرين ، واشترك الصوماليون
في حركة الجهاد وأشار المؤرخ عرب فقيه (٢) إلى القبائل التي شاركت في الحرب
مثل قبيلة عبر مقدى وحرى وزربة ، كما أشار إلى المغنم الوفيرة من الخيل والبغال
والبقر والدقيق والقماش التي حاروها بفضل تأييدهم لأحمد بن إبراهيم الغازي (٣) .
وفي هذا الوطن الفسيح عاش قوم من البدو والرعاة يطلق عليهم الأحباش اسم
والقالة ، أو المهاجرين ، وهم يطلقون على أنفسهم اسم أوروما (Oroma) .

وكانت هجرات الصوماليين التي أشرنا إليها في القرن السادس عشر قد أخرجتهم
من مواطنهم ودفعتهم نحو الغرب (٤) ، وقد استغلوا فرصة الضعف الذي أصاب
الحبشة بعد غزوات أحمد القرين ، وهاجروا إليها وأوغلوا فيها وخالطوا أهلها .
إلى الجنوب من هؤلاء وهؤلاء نزلت شعوب البانتو (٥) وانتشرت بعض قبائلهم
في ساحل إفريقية المواجهة لجزيرة رنجبار ، وكان الكتاب العرب يخلعون عليهم اسم
الزنج فسمى الإقليم بر الزنج .

هذا عن الشعوب البدوية أما عن أطراف الآخر ، من أطراف النضال الممثل
في مملكة الحبشة المسيحية ، فالمعروف أن شعب الحبشة خليط من شعوب حامية
قديمة سكنت الهضبة منذ وقت بعيد ، وهجرات سامية تدفقت من بلاد العرب عبر
بوغاز باب المندب ، ونشرت في البلاد الحضارة السامية والدم السامى (٦) .

(١) Ermio Cerulli : Somaliland : Enyc. of Islam.

(٢) عرب فقيه . دوح الحبشة . ص ٢٢ - ٨١ .

(٣) نفس المصدر ص ١٢٩ .

(٤) Trimingham . op. cit. pp. 195-199.

(٥) Trimingham . op. cit. pp. 220-221.

من هذه القبائل : ود - حوشا ، جويابوين - وابوين - ريفي - جنو - دوبي .

(٦) Guddi ; Abyssinia, Encyclopaedia of Islam.

غير أن الحدث البارز في تاريخ الحبشة الذي أخرجها من عزلتها ، وهياها لأن تلعب دوراً بارزاً في سياسة العالم الوسط هو تدفق المسيحية على البلاد منذ وقت بعيد منذ القرن الرابع الميلادي ، القرن الذي شهد غلبة المسيحية على مصر وشمال إفريقيا ، بدأت التيارات المسيحية تنفذ إلى بلاد الحبشة نتيجة لإصلاحتها البحرية والاقتصادية بالدولة البيزنطية ، على أن المؤسس الأول لكنيسة أكسوم هو فرومستيسوس وأبديسيوس .

كما بدأت الرهائية تتدفق على البلاد منذ عام ٤٨٠ ، ثم دخلها المذهب المونوفيرتي ، وأصبحت كنيسة الحبشة وثيقة الصلة بكنيسة الإسكندرية ، بل أصبحت تابعة لها .

ويؤكد CosmanIndico pleustes أن المسيحية تمكنت من البلاد في مستهل القرن السادس ، وأدى ذلك إلى إعادة صلة بلاد الحبشة بالعالم الهليني وبندنيا البحر الأبيض المتوسط (١) .

وانتشار الإسلام في هذا الجزء من إفريقيا في هذا الدور وفي الأدوار التي تلت كان متوقفاً على إسلام القبائل البدوية أولاً ، ثم تبنيها للدعوة الإسلامية ثانياً ، ثم صراعها مع المسيحية التي اعتصمت ببلاد الحبشة ولاذت بهضبتها المنيعه فرى كيف انتشر الإسلام بين عوالم البدو هؤلاء واطرق التي سلكها في تسربه إلى هذا الإقليم .

الظروف الجغرافية التي حددناها تعيننا على معرفة الطرق التي سلكها الإسلام . وهي لا يمكن أن نعدو طريقين لا ثالث لهما : الطريق الأول الطريق البري الذي يتعدى من مصر على طول ساحل البحر الأحمر مخترقاً ديار البجسة ومتجهاً إلى ساحل أرترية ، ثم الطريق البحري المتصل بجزيرة العرب مهد الإسلام .

أما الطريق الأول فقد بدأت المؤثرات الإسلامية تتعدى عبره بعد أن أتم العرب فتح مصر . وأدخلوها في دائرة النفوذ الإسلامي ، فكان طبيعياً أن لا يقطع

الإسلام الصلات التجارية القديمة بين الحبشة ومصر عبر الساحل الشرقي لإفريقية، أو يقطع الصلات الوثيقة بين السكستين المصرية والحبشية.

و. وكان من الطبيعي أن يقوم البجة الذين تمتد ديارهم من شمال الحبشة حتى حدود مصر بدور الوساطة في المبادلات التجارية بين مصر الإسلامية وبين الحبشة، وكان طبيعياً أيضاً أن يتصل البجة هؤلاء بالعرب في مصر منذ اللحظة الأولى.

ويبدو أن العرب عرفوا هؤلاء البجة للمرة الأولى في حملة عبد الله بن سعد، فابن عبد الحكم يشير إليهم، ويذكر أن ابن سعد تركهم بلا عقد ولا صلح، الأمر الذي يدل على أن الصلات لم تكن قد توثقت بعد بين البجة والعرب، أو على الأقل كان هم العرب في هذه الفترة منصرفاً لبلاد النوبة، لتأمين حدود مصر الجنوبية.

ويبدو أن الدولة الإسلامية في مصر بدأت تدرك أهمية البجة، وتقدر الدور الذي يضطلعون به في التجارة بين مصر والحبشة، وأرادت أن تعيد الصلات التجارية القديمة التي كان البجة قد قطعوها في مسهل القرن التاسع الميلادي.

فقد روى أن عبيد الله بن الحجاج قد عقد معهم صلحاً يجيز لهم أن يواصلوا نشاطهم التجاري، وأن ينزلوا الريف عتازين فلا يقيمون فيه، ولا يتعرضوا لأهل مصر بسوء، سواء أكانوا مسلمين أو ذميين، هذه إذن بداية الاتصال بين البجة وبين الإسلام (١).

ولم يسترع البجة أنظار الولاة فحسب، بل استرعوا أنظار العرب الذين وفدوا على مصر مع جيوش الفتح أو بعد ذلك بقليل.

بدأ هؤلاء العرب يهتمون بأرض البجة بحثاً عن المعادن وسعيًا وراء استغلالها والإفادة منها، أو اشتغالا بالوساطة التجارية بين مصر وشرق إفريقية، وبدأ فريق من تجار العرب من ربيعة وجهينة لا يختلفون إلى ديار البجة ثم يعودون إنما يقيمون بها إقامة دائمة متصلة.

بل بدأت بعض البطون العربية تجد في أرض البجة ما يشجعها على الهجرة

إليها فخرجت جماعات من بلي ومن قيس عيلان ودخلت ديار البجة ، وأقامت فيها واختلطت بأهلها ، وأصهرت إلى الناس .

وعن طريق هذه الإقامة وهذه المصاهرة بدأ الإسلام ينتشر بين البجة ، وفي رواية ان حوقل (١) ، ما يشير إلى أن أفراد من البجة بدؤا يدخلون في الإسلام مد أواخر القرن السابع الميلادي .

وتوثقت عرى هذا التعاون بمضى الزمن ، وكان العرب يندفعون صوب الحروب في هجرات مستمرة لأسباب سياسية أو اقتصادية ، وبدأت هجرات العرب إلى أرض البجة تشد في أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي ، بل بدأت جماعات من الأمويين تأوي إلى أرض البجة وتقيم فيها (٢) .

ويبدو أن القبائل العربية المهاجرة أو الأفراد العرب المهاجرين لم يقنعوا بمناطق قريبة من أرض مصر ، إنما أوغلوا نحو الجنوب ، فقد أثبتت الأبحاث الأثرية وحود حاليات إسلامية في منطقة خور نبت الواقعة على مسافة سبعين ميلا غرب سواكن ، فقد عثر على شواهد قبور عربية يرجع تاريخها إلى منتصف القرن الثامن الميلادي ، ودل البحث الأثري كذلك على وجود مسجد في سنكات يرجع تاريخه إلى سنة ٨٣١ م ، بل تطرقت هذه الهجرات العربية إلى هجر عاصمة شاككة النجاوية . وإلى مدينة صنجات (ولعلها سنكات الحالية) (٣) .

وكانت الظروف التي رأيناها تدفع العرب نحو الهجرة إلى بلاد النوبة وتستحثهم على حجرة صوب الجنوب مساحلين للبحر الأحمر . وكان العرب الوافدون يخاطبون أهل البلاد ويعيشون بينهم ، ويتعاونون معهم ، ويتعلمون لغتهم ، وكلما أمعن العرب في الإدماج في البجة ومخالطتهم ، كلما اشتد أثر الإسلام وتمكن من تدريس أهل البلاد .

ويبدو أن القرن الثالث الهجري ، قد شهدت تطورات بعيدة الأثر في أوطان البجة . شهد تعامل النموذج العربي ومضيه نحو أقصى الجنوب ، واقترابه من

(١) ابن حوقل ص ٥٠ - ٥١ .

(٢) الحمودي ، التضييق والإتراء ص ٣٠ .

Trimingham . Islam in Ethiopia, p. 50,

(٣)

حدود الحبشة . كما شهد وضح التأثير العربي في حياة البجة وسياستهم ، فقد
تأثروا بالعرب واندمجوا في الحياة العربية .

ونحيل الى أن - عبدوان البجة على حدود مصر في عهد ابن الجهم (١) كان
يتحريض من القبائل العربية التي سامت علاقتها . بأولى الأمر في مصر منذ ذلك
العهد ، كما أن العهد الذي عقد بين أمير البجة وأمير مصر (١) يصور لنا هذا
التفوذ العربي الواضح .

ويكفي للدلالة على وضح التأثير لعربي أن أمير البجة قد اتخذ اسماً عربياً
فالمرجع تطلق عليه اسم كنون بن عبد العزيز ، وقد نص هذا العقد على أن
تكون بلاد البجة من أسوان إلى دهلك وباضع ملكاً للخليفة ، وأن كنون بن
عبد العزيز وأهله عبد من عبد الخليفة ، على أن يبقى ملكاً على البجة .

ولا أدري كيف يبيح كنون للخليفة مثل هذا التفوذ الواسع ؟ إن هذا يوحي
بأن ثمة إمارة إسلامية قد قامت في بلاد البجة في ذلك الوقت وأن هذه الإمارة
اعترفت بسيادة الخليفة ونفوده شأنه شأن الإمارات الإسلامية الخاضعة .

وقد نص هذا العقد على أن يؤدي ملك البجة الخراج كل عام ، وقد قدر
هذا الخراج بنحو مائة من الإبل ، أو ثلاثمائة دينار ... ولماذا لم تفرض الجزية
مثلاً ؟ ألا يدل هذا على أن رعية كنون هذا كانت على الإسلام ؟

ثم رسم هذا العقد أسس التعاون المشترك بين مصر وشعب البجة ، ففرض
بالأبطل البجة مسلماً ولا ذمياً حراً أو عبداً ، وألا يعينوا أحداً على المسلمين
بل يؤمن هذا العهد التجارة المتبادلة بين القطرين ، فإذا دخل أحد المسلمين في
بلادهم للتجارة مجتازاً أو مقيماً فهو آمن لآخر حدهم ، ويؤمن البجة على هذا النحو
إذا رحلوا الى مصر .

ويشير هذا للعهد إلى المساحد التي بناها المسلمون في صنيعة وهجر ، وأنها
آمنة لا تهديم ، ولا تمتد إليها يد بسوء ، ويؤكد هذا العقد تبعية إمارة البجة
هذه للخلافة العباسية ، فقد أباح لعمال أمير المؤمنين أن يدخلوا البلاد لقبض

صدقات من أسلم من البجّة ، وهل نخصّص الدولة عمالاً لتحصيل الزكاة إلا إذا كانت الجالية الإسلامية عظيمة الشأن وفيرة العدد (١) ؟

ولم يستقم الأمر بين البجّة وحلفائهم العرب وبين الدولة الإسلامية في مصر ، فقد عاودوا الإغارة على حدود مصر في عهد الخليفة المتوكل العباسي سنة ٢٠٢ هـ وسير عنبسة بن إسحق القمي ، على رأس حملة كبيرة لإخضاع البجّة وحلفائهم من العرب وأجبروهم على دفع الحراج واحترام العقد ، وكان أمير البجّة في هذا الوقت على بابا (٢) .

ورغم ما ذكره المؤرخون من أنه كان على الوثنية ، فإننا نعتقد أنه كان مسلماً من ذلك الطراز من المسلمين الذين لم تعمق هذه العقيدة في نفوسهم بالقدر الذي يجعلهم يقطعون صلّتهم بعقائد الماضي وحرافاته دفعة واحدة .

على كل حال أكد العقد من جديد حق العرب في الإقامة بأرضه واستغلال مناجم الذهب والزمرد ، هذه الثروة المعدنية التي كانت قد احتست من اقتصاديات مصر في ذلك العهد مكانة رفيعة . فما يستخرج من المعدن كان يبعث به إلى والى القسطنطينية حيث يتولى أمره ديوان خاص ، وقد اتخذ هذا الديوان على نحو ما يذكر المقرئى ضمانات لصيانة هذه الثروة ، بتفنيش القلعة عند الخروج من كل يوم حتى تفتش عوارثهم (٣) .

بل هذا العقد الذي جدد سنة ٢٤١ هـ بعد حملة القمي أباح لمصر أن تعين من قبلها عاملاً حفيظاً على هذه الثروة . الأمر الذي يدل على أن الاستغلال بلغ النهاية القصوى بالدرجة التي أثارت هذا الاهتمام البالغ .

وقد زادت رغبة العرب في الهجرة عن ذي قبل ، بعد أن ضمنت الدولة إسلامهم . وبعد أن أثمرت الجهود السابقة في التقريب بين العرب والبجّة . وكان كثيرون من حدود الحملات الحربية المسيرة لقتال البجّة يعجبهم الحال فيفضلون المقام في البلاد ويتحلمون عن العودة (٤) .

(١) عبد العزيز عبد المجيد - ١ ص ٢١

(٢) مرجع السابق - ١ ص ٢٢

(٣) المقرئى المخطوط - ١ ص ٢٢٢ .

(٤) ابن سوتل - ٥٣ .

وضيحت هذه التأثيرات للعربية بعد هذه الأحداث بنحو قرن من الزمان ، ذلك أن المسعودي (١) الذي زار مصر سنة ٣٣٢ هـ يتحدث عن البجة واختلاطهم بريعة وازدياد صيغتهم العربية ، وعن الأمير ربيعة أبي مروان بشر بن إسحق وجيشه الذي بلغ ثلاثة آلاف فارس من ربيعة وأحلافها ، وثلاثين ألفاً على الإبل من الحدارب وهم من مسلمي البجة .

واعتقد أن هذه الإمارة البجاوية قد أصبحت لربيعة ولجليل مولد من آباء عرب وأمّهات بجاويات ، وأن هذا الطراز من الأمراء استطاع أن يؤلف بين البجة المسلمين وبين العرب الوافدين ، وأن يوحد بين أحياء العرب من مصر وتميم . ويبدو أن هذه الإمارة البجاوية العربية (الحدارب) استطاعت في النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي أن تتخذ مدينة سواكن قاعدة لها (٢) . فالمرجع التي تعرضت لمشروعات الممالك في شرق إفريقيا تتحدث عن أمير حدرى مقره في مدينة سواكن ، وأن هذا الأمير تعرض للقوافل المصرية الذهبية إلى الجنوب ، وهذا التعرض كما نعتقد يمثل سوء العلاقات بين العرب والممالك ، حتى في بلاد النوبة نفسها عمد السكتوز وغيرهم من العرب إلى الثورة على الممالك والوقوف في وجههم .

وقد أراد الظاهر بيبرس أن يؤكد نفوذ مصر القديم الذي وضع منذ أيام علي بن الجهم ، وأن يؤمن تجارة مصر الدولية . فأرسل تجريدته المشهورة إلى سواكن ، التي ثبتت نفوذ مصر ، وجعلت أميرها الحدرى نائباً خاضعاً للسلطان المملوكي ، كما جرد الناصر للناصر محمد بن قلاوون حملة مشابهة لتأمين طرق التجارة وتأديب العناصر العاصية (٣) .

ويبدو أن الإسلام كان قد بدأ منذ منهل القرن العاشر الميلادي يقطع خطوات في طريقه صوب الجنوب . إذ يتبين من رواية اليعقوبي أنه بدأ ينتشر بين البقلين في وادي بركة . فهو يذكر أنهم من البدو وأنهم خاضعين إسماعيل ملك علوة ، غير أن ملكهم مسلم يتكلم العربية وأن كثيرين من مسلمي البقلين يحججون إلى مكة .

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٢١ - ٢٤ . (٢) ابن بطوطة - ١ ص ١٤٨ .

(٣) حاتم عمار ص ٨٩ .

وهذا بدوره يحدد لنا الخطوات التي كان الإسلام يقطعها في طريقه نحو الانتشار فهو ينتشر بين أفراد الطبقة الحاكمة ، يعتنقه ملوك من أمهات مجاويات وآباء عرب ، ثم ينتشر بالتدريج بين عامة الناس (١) .

ويجبل إلينا أنه لولا البليين الذين انتشروا في ساحل إرتيرية وشمال الحبشة واعتنقوا المسيحية لاستطاع هذا النفوذ الإسلامي المنحدر من الشمال أن ينطلق متدفقاً إلى أرض الحبشة نفسها في صورة قوية واضحة (٢) .

ودعم هذا فإن هذا الطريق البري قد أدى رسالته المرسومة ، وأمههم بطريق غير مباشر في شر الإسلام في بلاد الحبشة نفسها ، وقد رأينا كيف لعب التجار المنحدرين من مصر عبر هذا الطريق دوراً عظيماً في تسرب الإسلام تسرباً سلمياً (٣) . هذا عن طريق البري فلننظر إلى أي مدى أمهم الطريق البحري في شر الإسلام في هذا الجزء من إفريقية .

لم يكن من المعقول أن يقطع الإسلام الصلات البحرية الوثيقة بين شرق إفريقية وجزيرة العرب ولم يتسب الإسلام في جميع الأقطار التي تسرب إليها في إحداث تغيير معاشي في حياة الشعوب . أنقى على الصلات الشريفة القديمة ، بل نماها وصاعقها .

وصلات شرق إفريقية بعوالم البحر الأحمر والمحيط الهندي صلات قدممة موعلة في قسمها ، ترحع إلى أيام الساميين القدماء وتدفقهم إلى بلاد الحبشة وتركهم أثراً في حياة البلاد نافي حتى اليوم .

ولم تنقطع صلات الحبشة ببلاد العرب طوال العصور التاريخية ، بل كانت الأيام تربدها توطداً ، لأنها علاقات أملت لها الظروف الطبيعية المتسادلة وتوطدت الصلات استحارية إلى أبعاد الحدود . وامتدت هذه الصلات إلى بعض القبائل العربية الشمالية ، وصلة قريش بنجاشي الحبشة ، أوضح من أن يعرف بها .

وكان العرب قد عرفوا أسرار المحيط الهندي ، وكثرت رحلاتهم إلى شرق

Trimingham : Islam in Ethiopia. p. 60.

Ibid p. 51

Ibid p. 60

(١)

(٢)

(٣)

إفريقية وإلى بلاد الهند ، وإذا كان الإغريق والرومان قد عجزوا أسرار هذا البحر ، ونفذوا من البحر الأحمر جنوباً ، وأدركوا شرق إفريقيا مبحرين بحذاء الساحل ، متعاملين مع بعض المدن الساحلية القائمة عند مصبات الأنهار ، فإن العرب عرفوا هذه الأسرار قبلهم بنحو قرنين (١) ، وارتادوا هذه الأسواق النائية قبل أن يعرفها الإغريق أو الرومان .

عرف العرب تجارة هذه المناطق وحملوا العاج والرقيق وزيت النخيل وغيره من الحاصلات الاستوائية .

والأستاذ كوبلاند (٢) يرى أن هذا النشاط قد بلغ العاية في مستهل القرن السابع الميلادي ، حين خرج المحيط الهندي من ظلمة الجهول ، وبدأ يزدهم بالتجار الآسيويين خصوصاً التجار العرب ، الذين أوصلوا شرقاً فوصلوا إلى الصين ، وكانت لهم علاقات وطيدة مع جزر الهند الشرقية والفلبين ، كما أنشأوا المحطات التجارية في فالقوطة وساحل ملبار وملقا وشبه جزيرة الملايو ، وأنشأوا مستعمرة في كنتون ، وحملوا سلع الشرق الأقصى وبلغ إفريقيا إلى أسواق أوروبا فكيف يغير الإسلام من هذه العلاقات التي وطنتها الظروف ؟

لا ننكر أن التوسع العربي العظيم الذي امتد في سرعة مذهلة إلى بلاد الشام والعراق ومصر قد أذهل الحبشة ، وقطع صلتها القديمة بالعالم الهليني والبيزنطي ودنيا البحر الأبيض المتوسط ، وأقبل مؤقتاً الأسواق التي اعتاد تجار الأحباش أن يتعاملوا معها .

وتعرضت الحبشة لأخطار حسية تهدد كيانها ، فعاش البجة في السهول الواقعة بين الهضبة والبحر ، وقطعوا الطرق وأغاروا على المدن . وعطلوا الحياة الاقتصادية ، وتعرض الأحباش لمتاعب داخلية جمّة منذ هجرات اليهود عام ٦٤٠ م (٣) وتوارت طوائف من الوثنيين من أهل البلاد ، غير أن هذه الظروف الطارئة لم يقدر لها أن تبقى طويلاً .

Hourani ; Arab sea faring. p. 51 (١)

Coupland : East africa, p. 16. (٢)

Trimingham : Islam in Ethiopia pp. 43-44 (٣)

واتصال الحبشة بالمسلمين قديم يرجع إلى السنة الخامسة من الهجرة حين آوى المسلمون إلى النجاشي اعتصاماً بعدله وبجاجة من أذى قريش وعدوانها .

غير أن هذه الهجرات الإسلامية الأولى لم تترك أثراً في حياة البلاد ، وإن كانت قد تركت أثراً في نفوس الناس ، وأطلعهم على الذبوع الروحي الجديد المنعرج بالقوة والحياة ووطدت الصلات بين الدولة الإسلامية في عهد الرسول وبين الأحباش . إذ لم ينس الرسول عليه الصلاة والسلام مكرمة الأحباش : كان بكرم الوافدين منهم . ويحمل لهم أطيب الذكريات وأحبها .

ثم بدأت الدولة الإسلامية تحتك بالحشة في عهد عمر بن الخطاب وفي سنة ٢٠هـ على وجه التقريب . إذ تذكر الأخبار أن الخليفة أرسل سرية من المسلمين بقيادة علقمة بن مجزر المدلجي فلم توفق ، الأمر الذي جعل الخليفة يأخذ على نفسه عهداً بالآي يحمل في البحر أحد للغزو (١) .

وأخبار هذه الحملة لا تتفق مع علاقات الود التي سادت بين الأحباش والمسلمين منذ أيام الرسول . ولم يكن عمر بالرجل الذي يخرج على أمر قرره الرسول . بل قيل إن الخليفة قضى ألا تعتبر أرض الحبشة أرض جهاد .

والتعليل الصحيح لإرسال هذه السرية أنها أرسلت لرد عادية قرصان البحر من الأحباش ، لأن هؤلاء الأحباش عاودوا الإغارة على جدة ، سنة ٨٣هـ فلم يجد المسلمون بداً لدفع أذاهم وحماية شواطئ بلاد العرب من أن يتحلوا لهم في البحر قاعدة قريبة من الشاطئ الإفريقي ، فنزلوا أرخبيل دهلك على مقربة من مصوع (٢) .

ويبدو أن السيادة الإسلامية على هذا الموقع الاستراتيجي قد بقيت طوال العصر الأموي ، بدليل أن صاحب الأعاني (٣) يشير إلى ما كان من نفى الأحوص الشاعر والفقيه ، عمال بن مالك إلى هذه الجزر .

واستمرت هذه السيادة حتى عصر المأمون . فالطبري يذكر أن هذه الجزر تعرضت لغارات الهند في النصف الأول والثاني من القرن الثامن ، سبب نفى ابن

(١) ابن الأثير ٢ - ص ٢٨٠

(٢) صح الأعشى ٥ - ص ٣٣٦

Basset : Les Inscriptions de l'île de Dahlak.

(٣) الأعاني ٤ - صفحات ٢٣٩ - ٢٤٦ - ٢٤٨ - ٢٢٠

غلبة الجبار حاكم خراسان من قبل المأمون . ووجدت بهذه الجزر نقوش عربية تازنحها منتصف القرن التاسع الميلادي (١) .

ويبدو أن الدولة الإسلامية إنسحبت بعد ذلك ، ولكنها تركت في هذه الجزر جالية من المسلمين من أهل البلاد ، فكانت جزر دهالك أول رأس أجسر بقيمه الإسلام على الساحل الشرقي لإفريقية .

ويبدو أن هذه كانت آخر محاولة للتدخل الرسمي في شرق إفريقية فقد ترك الإسلام ينسرب إلى البلاد تسرباً سلمياً بطيئاً في ركاب المهاجرين إلى إفريقية من التجار والغامرين عبر المسالك البحرية المعهودة .

ثم استطاعت بلاد الحبشة أن تخلص من عزلتها ومن مناعها الداخلية التي شغلتها منذ النصف الأخير من القرن السابع الميلادي ، فقد استأنفت نشاطها المألوف ، وعادت إلى عالم التجارة توطد صلاتها بالأسواق التجارية القديمة في بلاد العرب وفي مصر .

عادت توطد علاقتها باليمن بعد أن انقطعت في غمرة الأحداث الماضية ففقدت معاهدة صداقة مع إبراهيم ابن زياد المعروف بالصاحب الحرملی (٩٠١ - ٩٠٢) (٢) ، وبدأت سفن اليمن تبحر من زبيد في طريقها إلى موانئ شرق إفريقية ، واستطاعت الحبشة أن تعيد صلتها بمصر في النواحي الاقتصادية ، ولعل هذا يتفق مع ما شهده القرن الثالث الهجري من اتعاق بين البجة والعرب لمواصلة التجارة مع الحبشة ، وقد وطدت أيضاً صلتها الدينية بالكنيسة القبطية في مصر . فأرسلت مصر بطريركاً جديداً إسمه دابال (٣) (٩٢٣ - ٩٣٤) .

عوده هذه العلاقات التجارية كان معناه اتساع أفق المبادلة التجارية بين الحبشة وبين وبلاد العرب . وقد توسع الطرفان في تجارة الرقيق إلى أبعاد الحدود بسبب إقبال الإمارات العربية المستقلة على الاستعانة بالجنود السوانيين عوضاً عن جنود العرب الذين تفرقوا في الأمصار .

Trimingham, op. cit. p. 45.

Trimingham, op. cit. p. 51.

Ibid p. 53.

(١)

(٢)

(٣)

واتساع التجارة المتبادلة والتوسع في تجارة الرقيق بصفة خاصة كان معناه كثرة الوافدين على شرق إفريقيا من التجار والمغامرين والوسطاء ؛ فشهد هذا القرن نمو المدن الساحلية بهؤلاء الوافدين من تجار المسلمين والمشتغلين بتجارة الرقيق وغيرها من التجارات .



وظهرت في هذا العصر حالات إسلامه قوية في دهلوك وسواكن وباصع وزيلغ وبربرة وكتاب القرن العاشر جميعهم مجمعون على ظهور هذه المدن زاخرة بالحياة الإسلامية .

ر. المسعودى (٩٣٥) وابن حوقل (٩٣٧) وغيرهم. يتحدثون عن دهلج باعتبارها مركزاً هاماً للتجارة وعن علاقتها ببلاد اليمن وبأبي الجيث بن زياد ملكها . فقد كان يتلقى العبيد والعاج . وعمارة اليمنى يقدرو عدد العبيد بسحو ألف رأس نصفهم من الأحاش : ونصفهم الآخر من نساء النوبة (١) .

ويذكر هؤلاء أيضاً أن دهلج كانت تدفع الأتاوة للملك الحبشة . ولم تقطع دهلج صلتها ببلاد اليمن وظهت أهمية زيلع كمرکز من هذه المراكز التجارية الهامة (٢) واليعقوبى (٣) أول مؤرخ عربى يشير إلى هذه المدينة فى الـصف الثانى من القرن العاشر ، كما نجد إشارات فيها ذكره الإصطخرى وابن حوقل والمقدسى .

وقد رادت هذه المدن سعة من المدل وريادة فى أعداد الجاليات الإسلامية الواحدة . وفى دخول النارجين إليها من أهل البلاد فى الإسلام . فالرحالة بنيامين التيطلى السائح اليهودى الإسائى الذى رحل من عيذاب إلى أسوان سنة ١١٧١ ، يشير إلى الحياة الإسلامية الحافلة التى شهدتها فى هذه المدن الساحلية الهامة (٤) ، ولا بد أنها مضت فى طريق النمو طوال القرن الثانى عشر والثالث عشر ، فإس سعيد يذكر أن ملك دهلج حشى مسلم ، وأنه أراذ الاستقلال عن ملك اليمن (٥)

على كل حال شهدت الفترة الواقعة بين القرن العاشر ومتصف القرن الثالث عشر توطد النفوذ الإسلامى فى السهل الساحلى . و ظهور ونمو مدن إسلامية منتشرة على طول الساحل الإفريقى كأنها العقد أو الطراز (٦) .

هذه المدن المشتعلة بالتجارة لم يكن بعينها أن تخضع للأحاش وأن تدفع الجزية ، أو تخضع للملوك اليمن إذا أرادوا أن يؤكدوا نفوذهم منتهزين فرصة ضعف الأحاش وانصرافهم إلى مشاكلهم الداخلية .

ولم يكن من المعقول أن يظل النفوذ الإسلامى حبيساً فى هذه المدن الساحلية ،

(١) عمارة قاريح اليمن (نشره وترجمه كاي سه ١٨٩٢) ص ٨

(٢) Trimmingham , op. cit. p 61.

(٣) اليعقوبى كتاب المدن

(٤) Trimmingham , op. cit p. 57.

(٥) صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٣٥ .

(٦) المقرئى . الإلمام ص ٣ .

بل كان لا بد أن ينفذ إلى المناطق الداخلية . فما هي الوسيلة ؟ . وما هو المدى الذي وصل إليه ؟

كان هؤلاء التجار الوافدين هم عدة الدعوة الإسلامية في تبجيلها نحو الانتشار . فقد كانوا يخالطون أهل البلاد الأصليين ويتزوجون من نسايتهم ، ويوطدون صلاتهم بهم إلى أبعد الحدود : بل كان هؤلاء التجار يفتحون الكتاتيب لتحفيظ القرآن ، ويرسلون الطلاب المتفوقين إلى الحرمين أو القاهرة أو دمشق .

وكانت هذه المدن الساحلية أسواقا ضخمة يقصدها أبناء البلاد الأصليين من الصوماليين أو الدناقل أو البجة لبيع حاصلاتهم ، وشراء ما يحتاجونه أو بقصد الإقامة والتماس فرص العمل ، فكان اختلافهم إلى هذه المدن يتيح لهم الاحتكاك بالحياة الإسلامية عن كسب ، ويدفعهم إلى اعتناق الإسلام لينشروه بين ذويهم إذا عادوا إلى بلادهم (١) .

ثم كان نفوذ هؤلاء التجار يتجاوز المناطق الساحلية ممتداً إلى الداخل ، فكانوا يرحلون إلى المناطق الداخلية التماساً للتجارة ، ويقيمون بها بعض الوقت ثم ينحدرون إلى الساحل من جديد ، وفي أثناء إقامتهم يخالطون الناس وينشرون الإسلام .

وأهم من هذا أنهم كانوا يوطدون صلاتهم بالطبقة الحاكمة ، وكان الأمراء والحكام يرحبون بهم نرحيباً عظيماً ، فهم وسيلتهم للكسب والثراء . فقد كانوا يساعدون هؤلاء الناس على نصريف مستجاتهم ، وشراء ما يحتاجون إليه .

وكانت الصدقات تملب إلى دعوة إلى الإسلام ، وكثيراً ما كانت تنجح فيسلم الأمير وتبعه حاشيته ثم تناسى به الرغبة . فقد كان هو ولشجع أمراء أوقات من نبلاء البلاد الأصليين ، وكذلك كان حكام الإمارات الإسلامية التي ظهرت في في داخل البلاد .

ويبدو أن الإسلام نفذ إلى الداخل في وقت مبكر . ربما في القرن الثالث الهجري ، حين نظرق إلى شرق منطقة شوة حيث قامت سلطنة إسلامية عملت على توطيد العقيدة الإسلامية في جنوب شرق الحبشة ، وقد ألقى ضوء جديد على تاريخ

هذه السلطنة حينها عثر Cerulli (١) على مختصر لتاريخ سلطنة شوة الإسلامية في نهاية القرن الثالث عشر .

وقد تبين أن هذه السلطنة أسستها أسرة عربية تسمى بأسرة بني مخزوم سنة ٨٢٨٣م (سنة ٧٩٦م) . وليس من شك في أن بني مخزوم هؤلاء مهاجرين عرب نقلوا إلى هذه الجهات في هذا الوقت المبكر ، وليس بعيداً أن يكونوا قد نزلوا أول الأمر في ضيافة إمارة محلية ، ثم اختلطوا بالأمراء عن طريق المصاهرة ، حتى آل إليهم الملك آخر الأمر .

ومما يؤسف به أن هذه الوثيقة التي نشرها تشيرولى لا تعرض إلا للمرحلة الأخيرة مرحلة اضمحلال هذه الامارة ، حينما مزقتها الفتن الداخلية والصراع مع الامارات الإسلامية الأخرى . وفي سنة ١٢٧٧ استطاع ولشمع أمير إحدى هذه الامارات أن يهاجم شوة (٢) ويسقط بني مخزوم سنة ١٢٨٥ .

بعد ذلك بسنوات استطاع هذا القائد أن يفرض سلطانه على الامارات الأخرى عدل - مورة - هوبت - جدابة ، في الوقت الذي انتهت فيه الأسرة الحبشية القديمة وخلفتها الأسرة السلماية . هذه الامارة الجديدة التي قامت على أنقاض شوة هي إمارة «أوفات» .

وفي نفس الوقت تقريباً كان التيار الإسلامى يتسرب إلى ممالك سدامة جنوب بلاد الحبشة ، وفي مرتفعات شرق شوة . وفي الوثائق التي اكتشفها تشيرولى ما يشير إلى جهود بذلها سلاطين شوة في نشر الإسلام صوب الداخل سنة ١١١٨ في بلاد أرجبه argobbs فأضيفت إلى أملاكهم .

وقد تحولت المراكز التجارية التي انتشرت في الداخل إلى إمارات إسلامية نامية : هدية - فطجار - أوفات - دارة - بالي وأرايبي وشرخا (٣) .

(١) Cerulli; II Sultanato dello Shoa nel secolo XIII, R.S.E.I.

1941. pp. 5-42

(٢) المقرئى : الإمام ص ١٦ وما بعدها .

Trimingham, p. 58.

(٣) المقرئى : الإمام ص ١٢ - ١٣ .

وامتدت هذه الإمارات إلى هرز وبلاد أروسي جنوباً حتى البحسرات .
مطوقة الحبشة ألن الحبشة من الجنوب والشرق .

وقد وجدت نقوش عربية ببلاد أروسي جمعها p. azais في مقال له عنوانه

Cinq années de recherche Archéologique en Ethiopie (1931).

قد وجد نقشان عربيان بتاريخ ٦٦٦ و ٦٧٥ هـ (١٢٦٧ - ١٢٧٦) (١) .

وامتد التيار الإسلامي فدخل الهضبة الحبشية نفسها ، فأبو صالح الأرمي يذكر أنه قد أسلم كثيرون في بلاد الحبشة في مستهل القرن الثالث عشر ، وكان المسلم يدع الحزبة . وقد اكتشفت قبور بها نقوش عربية في حبوب نجرى عند Wager Hariba . واحد تاريخه ٨ ذى القعدة سنة ٣٩٦ هـ

وبميل ترمنجهام (٢) إلى أن ينسب ذلك إلى شاط الآباء المسيحيين أنفسهم متعاونين مع ولاية مصر ، فكانوا في الحقيقة دعاة إلى الإسلام ، ففي سنة ١٠٤٧ استطاع مغامر يدعى عبدون أن يزور الوثائق ، ويتولى منصب مطران الحبشة ، وتسخر بدر الجمالي وزير المستنصر وعين أبا ساويرس مطراناً على هذه البلاد . فلما رحل إليها بدأ ينفذ الاتفاقية التي عقدها مع بدر الجمالي ينشر الإسلام ، وإنشاء المساجد .

وهنا تعليل ضعيف لا يتفق مع المنطق ، فكيف يصدق أن ينقلب المطارنة دعاة إلى الإسلام إلا إذا كانوا قد أسلموا فعلاً : الأولى أن يرد تسرب الإسلام على هذا النحو إلى قلب الحبشة إلى جهود الدعاة المسلمين وجهود التجار على الخصوص .

* * *

هنا عن الجزء الشمالي الشرقي من إفريقية فلننظر كيف قامت مراكز إسلامية مماثلة على طول ساحل الصومال جنوباً حتى زنجبار .

هجرة العرب وإقامتهم في ساحل شرق إفريقية لم تكن أمراً أمتحدث بعد ظهور الإسلام . فقد اكتشف المغامرون من البحارة العرب بحر الزنج وكثر

ولم يكد القرن الأول - ينقضى حتى كان هؤلاء المغامرين قد انتقلوا من مرحلة الرحلات الخاطفة إلى مرحلة الإقامة والاستقرار . فقد أنشأوا مستعمرات على طول هذا الساحل . أقاموا فيها المنازل وجلبوا أهلهم وذريهم وطاب لهم المقام .

كانت هذه المدن العربية القديمة تنشأ على جزر قريبة من البر يمكن الدفاع عنها إذا أراد السكان الأصليون المنتشرون في الساحل أن يتعرضوا لها بسوء ، ولانعرف عن هذه المدن القديمة شيئاً يذكر (١) ، وكل ما نعرفه أن ظهور الإسلام وانتشاره في بلاد العرب كلها وامتداده إلى الشرق الأدنى والأوسط امتد أثره إلى هذه القمة الباقية من إفريقية فخرجت من ظلمة الجحول إلى وضوح التاريخ ، حين أسلم المقيمون فيها والمختلفون إليها .

وكان إسلام المغامرين من البحارة العرب أو الحرس كان مديراً بمرور هذه المدن ، وبظهورها في سماء الحياة الإسلامية ، وبدأت هذه الآفاق الباقية تتأثر بأحداث الشرق ، ولم يعد يقصد إليها التجار مقيمين أو مسافرين ، إنما بدأت طوائف أخرى من المهاجرين تشد الرجال إلى الجنوب فراراً من ضغط سيامي أو مذهبي ، أو تفرجاً لضائقة اقتصادية ، أو التماساً لمهجر جديد يطيب فيه المقام وتستقيم الحياة هؤلاء المسلمين الراحلين إلى الجنوب هم الذين تسبوا في بروز هذه المدن ، وظهورها في ميدان الحياة الإسلامية .

ويبدو أن أول هجرة من هذا القبيل حدثت في القرن السابع الميلادي أو في سنة ٦٩٥ على وجه التحديد . وقد ألقى الأستاذ هنشتر Hichens المزيد من الضوء على أخبار هذه الهجرة ونتائجها حين عثر على كتاب ألفه شيبو فرج بن حمد الباقري (عنوانه اختار لا مو) (٢) ، يعرض فيه لتاريخ هذا البلد والمجترات الأولى التي تدفقت إليه ، فيذكر أن هذه الهجرة الأولى تمثل فريقاً من أهل الشام لم يرضوا عن سياسة الحجاج بن يوسف ، فرحلوا إلى الجنوب . ويبدو أن أعداد هؤلاء المهاجرين كانت

Hichens : Islam in East africa p. 115.

(١)

(٢) شيبو فرج بن حمد الباقري : حبر لا مو .

Trans : W, Hichens Witwatersand press, Johannesburg. 1938,

عظيمة لأنهم استطاعوا إخضاع السكان الأصليين وأقنعتهم ميناء ويوني الحظي ، وكانت به جالية تزيد عن عشرة آلاف من الرجال المسلمين . ثم وقد في هذا الوقت أيضاً فريقاً من أهل عمان ، وبمن هاجر منهم سليمان وسعيد أبناء عباد الجندي . وهم من أرد عمان الذين أعلنوا الثورة في وجه الخليفة عبد الملك ، وطلوا يقاتلون قوات الأمويين حتى غلبوا على أمرهم ، واضطروا إلى الفرار إلى بلاد الزنج .

وإذا كان الأستاذ كوبلاند (١) لا يعرف أين انتهى بهم المطاف فإن صاحب تاريخ لامو يلقى المزيد من الضوء على هؤلاء العمانيين . فقد كانت هذه الأرستقراطية العربية الوافدة سبباً في ظهور إمارة إسلامية في هذا العصر في مدينة لاموشال ممبسي ، إذ استطاع حفيد هؤلاء وبسمى الحاج سعيد في مسهل القرن الثامن الميلادي أن يؤلف حكومة ديمقراطية تستلهم تعاليم مذهب الحوارج الذي تفشى بين أزد عمان .

وصاحب تاريخ لامو يذكر كيف أن المهاجرين من الشام والهند بمدينة حديو ، وأهل مدينة ويوني قد بايعوا سعيداً بالزعامة ، ورسم لهم أن تقسم المدينة إلى أحياء صغرى ، لكل منها شيخها ، وشيوخ الأحياء كلهم يؤلفون مجلساً استشارياً يشاركه المسؤولية .

وأصبح المواطنون جميعهم أحراراً لكل منهم الحق في أن يلبجاً إلى هذا المجلس طالبا الإنصاف إذا مسه سوء . فكانت إمارة لامو هذا أقدم الإمارات الإسلامية ظهوراً في ساحل شرق مريقية (٢) .

ثم انحلت حرة ماثلة لأسباب دينية هذه المرة ، فقد حدث انقسام في صفوف الشعة . واضطر كثيرون من الزيدية إلى الإعتصام ببر الزنج . خرجوا سنة ٧٢٩م واستقر بهم المقام في شنجابا shanguya ، ويحدد كوبلاند موضعها ، فيذكر أنها في موضع مدينة Port Dunford (٣) الحالية ، ويبدو أن هذه المدينة لم تبرز في هذا المجتمع ، ولم تنظر بالشهرة والنجاح الذي ظفرت به الإمارات السابقة .

Coupland : East africa p. 20.

Hichens : Islam in East africa p. 110

Coup Land : East africa p. 21

(١)

(٢)

(٣)

وكان كل هجرة من هذه الهجرات كانت مقدمة لظهور مدينة جديدة ونشأة إمارة إسلامية جديدة .

في القرن العاشر الميلادي أو في سنة ٩٠٨ على نحو ما يذكر صاحب كتاب خبر لامو ، أو سنة ٩٢٠ على نحو ما يذكر كويلاند خرج سبعة أخوة من الأحساء خلال الصراع الدموي الذي اشتد بين الخلافة وبين القرامطة .

ومما يذكر في هذا الصدد أنهم هاجروا في ثلاث سنين ، ونزلوا على ساحل الصومال . وأسسوا مدينة مقدشو وطردهوا الزيدية إلى الجنوب ، وتحالفوا مع أهل البلاد الأصليين من الصوماليين ، وطهرت مقدشو كركز تحارى يشتغل بتجارة الرقيق على الخصوص ، ثم أنشأوا براوة ويسمى الإدريسي (١) بروات كما أشار إلى مركة التي تقع عند نهر وبي ، بل يشير الإدريسي إلى مواضع أخرى يشير إلى قرقاوة ومركة والنجا وبذونة . ويضيف هتشنز (٢) إلى هذا قوله أنه ظهرت مدن أخرى مثل ماندا في جزيرة ماندا ، وأوزي وشاكة قرب دلتا تانا ثم جاءت هجرة ثالثة تمخضت عن ظهور مدينة أخرى . وإمارة إسلامية جديدة . حرحت عدة سفن من شيراز على الخليج الفارسي ، بل نرى الشيخ محي الدين الزنباري الذي تلخص كتاب السلوى في تاريخ كلوا يذكر (٣) أن هذه السفن كانت سعاة عدداً . وأنها حملت حسن صاحب شيراز وأبناءه لستة فاربس بأنفسهم ملتصقين مهجراً جديداً يأوون إليه .

لكن يختلف في تحديد تاريخ هذه الهجرة . فصاحب هذا التاريخ يردها إلى القرن العاشر ، أو على وجه التحديد إلى سنة ٩٧٥ م ولكن هتشنز (٤) اعتماداً على بعض التواريخ المحلية ، يذكر أن هذه الهجرات تمت بين سنتي (١٠٥٥ - ١١٠٠) ، وأن الشيرازيين المهاجرين كانوا من الشيعة ، وأهم فروا من وجه طنزل بك السلجوقي الذي فتح شيراز سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) وهذا الرأي أقرب إلى الصحة .

(١) انظر الإدريسي . كتاب المهج وروض القرص

R.S.O. IX, 450, 452.

Hichens : Islam in East africa p. 116.

S.A. Strong - History of Kilwa, J.R.A.S. 1895.

Hichens, 117.

(٢)

(٣)

(٤)

استقر السلطان الفار بمدينة كاسوا ، وتفرق أبناؤه على الساحل . كل ينزل بالموضع الذى يحب . وظهور هذا السلطان كان نذيراً بظهور إمارة كلوا الشهيرة وكان ظهورها كان رهناً بهجرته . وقد نمت جزيرة كلوا فى عهد الشيرازيين هؤلاء وتوطدت علاقاتها بزنجبار (٢) وأنشئ بها مسجد آثاره باقية حتى اليوم (١) . وفى آخر هذا العصر نمت آخر هذه الهجرات فظهرت آخر الإمارات . ففى منهل القرن الثالث عشر (سنة ١٣٠٣) استطاع سليمان بن سليمان بن ظفر النبهاني صاحب عمان أن يتزوج أميرة سواحيلية ابنة إسحاق حاكم باتا Pate (٢) ، ثم ورث الملك وأصبح أميراً شرعياً ، ثم نقل بلاطه من عمان إلى شرق إفريقية وتأسست الأسرة النبهانية فى مدينة باتا Pate وستقوم هذه الإمارة فى ظلهم بدور بارز فى تاريخ الإسلام فى شرق إفريقية .

إذن لم يكد القرن الثالث عشر ينصف حتى كانت المدن الإسلامية قد انتشرت على طول الساحل الشرقي لإفريقية . من سواكن شمالاً حتى موزمبيق جنوباً ، أو كما يقول داورتي باربوسا (٣) .

From the dawn of the fourteenth century the fair citadels of Islam Lay Like a string of lustrous pearls along the green cushion of the verdant coast ' their marts busy with merchants and seafarers and caravans, trafficking in ivory, spices gums slaves and gold'.

هذه المدن اشتغلت بالتجارة فى المثل الأول ، لكنها كانت مركزاً لحياة إسلامية قرينة ، وأماكن وثوب تتجمع بها المؤثرات الإسلامية لتنتقل إلى ماورائها وليس ببعد أن يكون الفقهاء ورحال العلم قد اقتفوا أثر التجار غير أن الثقافة العربية فى هذا الدور لم تتضح معالمها بصورة كافية .

• • •

Dorman : The Kiliva Civilisation, T.N.R. 1938. (١)

Flury : The Kufic inscriptions of the Kismkazi. (٢)

Mosque, J.R.A.S., 1922.

Werner : History of pate, J.R.A.S. 1915. (٣)

M.L. Dames : The Book of Duarte Barbosa (٤)

٢ - دور الازدهار

يبدأ هذا الدور عند منتصف القرن الثالث عشر ، حين وضع ثمر هذه المدن التجارية التي تنافرت على طول ساحل إفريقيا الشرق ، زادت ثروة وغنى ، وزاد الإسلام وسوخاً بين أهلها . وبدأت تنعم رفعتها بالتدريج ، ممتدة إلى المناطق الداخلية ونحوها إلى سلطنات إسلامية واضحة المعالم .

غير أن هذه السلطنات تختلف عما رأينا في أقطار إفريقيا الأخرى في نفس هذه المرحلة من التطور . لم تكن هذه السلطنات إفريقية خالصة ، أسسها أسرات من أهل البلاد الأصليين الذين أسلموا ، إنما أسسها أسرات عربية الأصل أو عربية النسب

فلاطين أوفات وسلاطين مقدشو وغيرها من السلطنات الإسلامية يمثلون أرستقراطية عربية مهاجرة استقرت بهذه الجهات ونمت ثرواتها واتسع نفوذها وكثر أتباعها وتسلمت مقاعد الحكم في هذه السلطنات . وإذا كانت السلطنات عربية على هذا النحو فإن الرعية المسلمة كانت من أهل البلاد الأصليين ، من الأعفار والصوماليين ، أو من قوم خليط من العرب الوافدين وأهل البلاد الأصليين ويمتاز هذا الدور أيضاً بأن السلطنات ما كادت تكتمل نمواً وتزداد قوة حتى خاضت غمر حرب صليبية شديدة الوطأة استنزفت موارد هذه السلطنات ، وقللت من نشاطها الثقافي ، وشغلت عليها كل وقتها .

وكان انتشار الإسلام في شرق إفريقيا بل بقاء الإسلام بتوقف على نتيجة هذا لصراع الدموي الذي لم تهدأ تأثيرته ، وعلى نصيب هذه السلطنات من النجاح في حماية المسلمين ، وصيانة التراث الذي توطد في البلاد منذ عهد بعيد .

ولم تنج سلطنة أو إمارة من الاشتباك في هذه الحرب الضروس ، الإمارات الواقعة إلى الشمال من مقدشو اشتركت في حرب الأحباش وفي مدافعهم واشتركت الإمارات الجنوبية في مكافحة الخطر البرتغالي المتدفق من الجنوب .

فلنعرض للخطر الصليبي الذي ظهر في ميدان شرق إفريقيا ، الخطر الحبشي والبرتغالي .

انتقل الأحباش من التعاون والمسالمة إلى العدوان السافر الصريح . هذا العدوان وطبيعته واتجاهاته وآثاره في حاجة إلى أن نقف عنده بعض الشيء مختارين تفسيره تفسيراً مقبولا .

شهد هذا العصر ما في ذلك شك خروج الحبشة من متاعبها الداخلية ظفيرة منتصرة ، استطاعت في ظل الأسرة السليمانية أن تسرد وحدتها الداخلية كاملة (١) وكان ظهور هذه الأسرة السليمانية مقترناً بجهود ضخمة لصيغ البلاد بالصيغة المسيحية الواضحة والقيام بمجهود واضح لنشر المسيحية بين الوثنيين من أهل البلاد ، تزعم هذه الحركة القديس الحشيش أوسيطا طيوا س (St.E wastatewas) (٢) أو بدكت الحبشة الذي قاد هذه الحملة التبشيرية الواسعة في غرب شوة وبلاد داموت ، واقترن ذلك بجهود دبرية ضخمة ، بنى دير في شوة ونشطت الحركة الديرية في البلاد لإصلاح العقيدة المسيحية وبعث الحياة الإجتماعية بعثاً جديداً .

فلما أفاقت الدولة من متاعبها الداخلية بدأت تتطلع إلى هذه الإمارات الإسلامية التي حفت بها من الشمال والشرق والجنوب .

وقد يعمل هذا العدوان تعليلاً اقتصادياً ، حين وجد الأحباش أن المسلمين استطاعوا في العصور السابقة أن يسيطروا سيطرة كاملة على الحركة التجارية بين موانئ البحر الأحمر وداخل البلاد .

بل سيطروا على التجارة الخارجية كذلك ، وأصبحت موارد البلاد وعلاقاتها بالعالم الخارجي في قبضة المسلمين ، وقد نجم عن هذا اختفاء بعض المدن الأثيوبية التي كانت مزدهرة بالتجارة من قبل مدينة أكسوم . فقد فقدت نشاطها القديم بسبب احتكار المسلمين لتجاره البحر الأحمر ، وما خلفه ذلك من نتائج اقتصادية

Trimingham : Islam in Ethiopia p. 65.

(١)

Budge, pp. 216, 217, 218, 278, 284, 285, 318, 465, 287, 155, 337, 348, 574, 604, 356, 375.

Trimingham : Islam in Ethiopia p. 66.

(٢)

كان على البيت السليمانى أن يعرض لها بالإصلاح ، كما عرض لإصلاح نواحي الحياة الحشبية الأخرى (١) .

وقد يرد هذا الصراع إلى أن القوى الإسلامية قد جاوزت دور النشأة والتكوين وظهرت السلطنات الإسلامية في سماء الحياة العالمية ، زادت ثروة وقوة ، وتضاعف أنصارها تضاعفا مضردا . فلم تشأ أن تبقى على سياسة التعاون القديمة ، إنما أرادت أن تتحدى مملكة الحشبة وأن تباديها بالعنوان .

قد تكون هذه الأسباب كلها مقبولة إلى حد ما ولكنها لا تفسر عمق هذا الصراع الذى لا يكاد منطوق حتى يشتعل بأشد ما كان ، وهذه الحروب اندموية العنيفة التى لم تهدأ أبدا طوال هذا العصر ، واستمرت إلى حد ما طوال القرن التاسع عشر .

ولا نردد في القول بأن هذا العالم الإسلامى في شرق إفريقيا كان مسرحاً لحركة صليبية ضخمة ، لا تستمد أسبابها من داخل الحشبة نفسها ، إنما تستمد أسبابها من قوى عالمية ذات أهداف مرسومة تدفع الأحباش دفعا نحو الالتحام بالمسلمين ومحاولة إحصاعهم والقضاء عليهم .

فما كان الأحباش على اتصال بالحركة الصليبية الدائرة الرحي في بلاد الشام ، يعرفون حماها . ويتشعرون أخبارها ، وكانت حركة الاتصال بين الأحباش وبين هذا التيار الصليبي دير أقامه الحجاج الأحباش في بيت المقدس أبقاه صلاح الدين الأيوبي ولم يعرض له سوء ، وكان الأحباش يعينون رئيس المدير ويتفقون على الرهبان (٢) .

كان الأحباش يتابعون الحركة الصليبية عن طريق هذا الدير ، وكانت مشاركتهم عاطفية لا أكثر ولا أقل . فقد كانت أحوالهم الداخلية والاقتصادية قبل القرن الثالث عشر لا تمكنهم من المشاركة الفعلية في هذه المعركة ، والقوى الإسلامية تحيط بهم كل صوب .

وما كادوا يفيقون من مناعهم حتى تلاشت الإمارات الصليبية في بلاد الشام

(١) الشاطر بصيل ص ١٠ - ١١ .

(٢) ريادة : مصر والحروب الصليبية ص ١١٩ .

بوقوع عكا آخر معاقل الصليبيين في يد السلطان خليل في مايو سنة ١٢٩١ (١) ، ولكن المنظمين لهذه الجهود الصليبية لم يأسوا ، إنما كانت تراودهم أحلام الرجعة إلى بيت المقدس ، وعمل كثيرون من قادة الفكر والدعاة السياسيين والرؤساء الدينيين على التفكير في الأسباب التي أدت إلى هذه الخاتمة ، والوسائل التي تمكنهم من العودة وضرب الوطن الإسلامي في قلبه وكان الأجلش في ظل السليانيين قد أفاقوا من متاعبهم الداخلية فانساقوا في هذه الفكرة الصليبية المتأخرة ، وقد وفد على الشرق بعض الرجال الأوربيين لدراسة أحواله وكتابة تقارير عن أوجه القوة أو الضعف فيه . ومن وفدوا فليب دي ميزير وزير بطرس الأول ملك قبرص ، وجلبرت دي لانوى موفداً من قبل فيليب الطيب دوق بروجنديا ، وهنرى الخامس ملك إنجلترا ، كذلك أوفد ملك فرنسا شارل السابع أسقف مدينة شالون ، الذي اقترح قيام حلف من القوى المسيحية في الشرق (٢) الدولة البيزنطية - أرمينيا - دولة الحشنة .

ولم تكن دول أوروبا بقادرة على معاودة نضال القرن الثاني عشر ، فقد كانت مشغولة بمشاكلها السياسية والاقتصادية ، فلتكن الوسيلة إذن الإتصال بالأجلش والاستعانة بهم على مهاجمة الوطن الإسلامي من الجنوب .

وكانت جهود المعاصرين منصرفة إلى الوصول إلى مملكة القديس يوحنا الموعودة وتحقيق الحلف المنشود ، فأرسل البابا بقولا الثاني إلى ملك الحشنة سفارة على رأسها Jean de Monettecaine . فلم توفق في الوصول إلى أرض الحشنة ، كما أرسل البابا يوحنا الثاني والعشرين سنة ١٣١٦ سفارة الدومنيكان قضى على أعضائها في مصر (٣) .

وكانت الحشنة تستجيب لهذه التيارات الصليبية ، فقد ذكر dele Broquière أنه عندما علم الأجلش بأنباء غزو بطرس لوزجان ملك قبرص لغزو الإسكندرية بادو ملكهم بأعداد الجيش للاشتراك في هذا الصراع . وكان على وشك أن يهجم بالتنفيذ أو لا أن علم بارتداد حملة بطرو إخفاقها (٤) .

(١) Lane-Poole : Egypt in the Middle ages p. 285.

(٢) حامد عمار ص ١٠٦ .

(٣) Kammerer ; La Mer Rouge, I, p. 294.

(٤) حامد عمار ص ١٠٥ .

بل أراد إسحاق الأول (١٤١٤ - ١٤٢٩) أن يدخل هذه الحرب باستعداد أتم وقوة أوفر ، فاستخدم بعض الجراكسة ممن لم تنهيا لهم الإقامة بمصر ، مثل الطنغا وإلى قوص الذى اتصل بملك الحبشة ، وأسند إليه شئون الجيش ، فقام بتنظيمه وتدريبه على استخدام السيوف والرمح والزرديات والتفط كما ضبط الأمور الإدارية بمملكته كاتب قبلى اسمه فخر الدولة نظم الدواوين (١) وحماية الأموال .

ولم يعد الأحباش ينفذون خطة تضعها القوى الصليبية الأوربية بل أرادوا أن يكونوا النادين ، وأن يظهروا فرسانا فى هذا العصر الصليبي المتأخر .

فما كاد إسحق يعلم نبأ استيلاء المماليك على جزيرة قبرص سنة ١٤٢٧ ، والقصر على ملكها جانوس ، حتى يادر بالانصال بملوك أوربا للقيام بهجوم مشترك . وكان رسوله إلى هؤلاء تاجر فارسى اسمه نور الدين التبريزى . كان قد استقر ببلاد الحبشة ، وتنوعت مشروعاته التجارية ، والثابت تاريخياً من أرشيف نابلى ومن المرجع الإدارية أن ثمة سفارة حبشية وصلت إلى بلاط الفونس ملك أرغونة حول ذلك التاريخ (٢) .

ونتم الاتفاق بأن يساهم ملك أرغونة بأسطول على نفقته الخاصة . وعمرت تلك الاتفاقية بمشروع مصاهرة متبادلة بين الطرفين يتزوج ملك الحبشة من الأميرة الأرغونية Dona Juana (٣) ، كما يتزوج ولى العهد البرتغالى من أميرة أثيوبية .

وبعث ملك أرغونة سفارة من قبله لإجراء مراسم الزواج ، ولبت فرسان بلاد ملك الحبشة إسحق رغم انشغالها بحرب المائة عام ، فبعث دوق دى بارى سفارة لم يصل منها إلى بلاد الحبشة سوى شخص واحد من أهل نابلى . وقد ذكر دى لا بروكبير أنه انتهى ذلك الشخص عام ١٤٣١ ، يجمع مهره الصناعات لى السن استعداداً لذلك المشروع الصليبي .

لكن ظروف فرنسا لم تدع لشارل للسابع مجالاً للمشاركة فى ذلك المشروع غير أن التقرير الذى بعثه رئيس هيئة الاسبنازية برودس إلى ملك فرنسا يدل

(١) مفريرى . الايلام ص ٦

(٢) ساندعمار ص ١٠٧ .

(٣) Wiét : Relations Egypt abyssines pp. 128-129.

على إهتمام هذا الملك نفسه بالهوض مع ملك الحبشة لمهاجمة القوى الإسلامية (١).

وقد عرض هذا الرجل لما أصاب المسلمين الأحباش من هزائم شنيعة كما أشار إلى أن ملك الحبشة قد وجه إنذاراً نهائياً إلى سلطان مصر يهدده ، ويطلب إليه معاملة المسيحيين في بلاده بالحنى ، وإلا فإنه سيهاجم بلاد العرب والأماكن المقدسة ، وبحول مجرى الليل . وفي ١٨ ديسمبر سنة ١٤٥٠ وصل رد ملك أرغونة يبدى خوفه من مغبة الصريق ، وبعد بأنه يمدد بحاجته من الصناعات وأرباب الحرف (٢) .

وتضمنت هذه المشروعات إعلان الحرب الاقتصادية بإغلاق طرق التجارة المملوكية ، وإقفال البحر الأحمر (٣) لذلك دأب سلاطين المماليك على مراقبة هذا البحر وعدم السماح للأوروبيين بجتيازه إلا بإذن خاص من السلطان .

ألا يفسر ذلك كله الحروب الدامية التي شهدتها مسرح شرق إفريقية بين المسلمين والأحباش ، والعلاقات ذات الطابع العيب التي امتاز بها العصر المملوكي فقد كان المماليك أكثر الناس إحساساً بهذا الخطر الصليبي الذي يهدد بلادهم من الجنوب .

ثم ظهر في ميدان شرق إفريقية خطر صليبي آخر هو خطر البرتغال ، فقد أثمرت حركة الكشوف الجغرافية التي استهلها هنرى الملاح ، فاكتشف الطريق إلى الشرق ، ودار البرتغاليون حول رأس الرجاء الصالح . ودخلوا ميدان شرق إفريقية سنة ١٤٩٩ .

وتعرضت الإمارات الجنوبية لخطر أهدح من الخطر الحبشي الذي تعرضت له الإمارات الشمالية ، فقد كان هذا الخطر بحرياً يهدد تجار المحيط الهندي بقطع أرزاقهم ، ويصيب تجارتهم باليوار ، ويعزلم عن العالم الخارجى .

وكان هجوم البرتغاليين على مدن شرق إفريقية تحدوه هذه الروح الصليبية

Wiet ; op. cit. p. 129.

(١)

De la Ronciere ; La decouverte de l'Afrique I.II p. 119,

(٢)

Trimingham : Islam in Ethiopia, pp. 76-77.

(٣)

المتحصنة ، فغزبوا مقتدرين بالقنابل ، واستولوا على جزيرة سوقطرة في مدخل البحر الأحمر .

والدول الإسلامية المحيطة بتبحر العرب لم تفلح في القيام بجهد مشترك لقهر البرتغاليين ، وفشلت جهود الغوري في مدافعة الخطر البرتغالي ، واستطاع Lope Suarez أن يستولى على زيلع وبحرفها سنة ١٥١٧ على حين قام Saldanha بالإغارة على بربرة في العام التالي .

وقد أراد الأحباش أن تتصل هذه الجهود الصليبية . الجهود البرية التي يضطاعون بها ضد الإمارات الشمالية ، والجهود البحرية التي يصططلع بها البرتغاليون ضد الإمارات الجنوبية

وكان البرتغاليون أنفسهم أكثر إحساساً بضرورة هذا الاتصال ، حتى لقد وسمت جهود المكشفين هذا الميسم الصليبي ، وقيل أنها كانت تهدف إلى كشف طريق للاتصال البحري بالقدس يوحنا صاحب الحبشة .

وكان البرتغاليون في فورة حماسهم الديني بعد طرد المسلمين من الأندلس وضعف القوى الإسلامية في المغرب ، ففي سنة ١٤٦٠ وصل إلى الحبشة برتغالي اسمه Peres Ioao Covilham . وكان من أكفأ الضباط البرتغاليين ، وأقدرهم ، وعرف بمهارته في عقد المعاهدات المشهورة مع المغاربة .

وقد صطحب معه Aiphonse de Payvo وكانت له خبرة تجارية فائقة ، وقد انصبا لإحدى القوافل المنطلقة من مدينة فاس بالمغرب الأقصى ، وانتهيا إلى مدينة الطور شبه جزيرة سيناء حيث افترقا ، تجول كوفلهام ببهار الهند ، وجمع معلومات كثيرة أرسلها للملك البرتغالي وشفعها بخريطة تبين امكان الوصول إلى الهند عن طريق الرأس .

أما رميته الآخر فقد مضى إلى سفالة بحثاً عن مناجم الذهب ، ولكنه قتل في موضع يحثوب الحبشة ، وسمع كوفلهام بمقتل صديقه فغادر مصر إلى الحبشة وعاش بها ثلاثاً وثلاثين سنة (١) . وقد اتخذ ملك الحبشة من كوفلهام هذا أداة للسفارة بينه وبين يوحنا الثاني ملك البرتغال ومفاوضته للإطباق على مصر من للشمال والجنوب

.. كذلك انتهزت هيلاية ملكة الحبشة فرصة ترص الأسطول البرتغالي بالمسلمين في البحر الأحمر والمحيط الهندي ، وأرادت أن تفاوض ملك البرتغاليين عما نوبل في عقد محالفة معه . وفكرت في إرسال سفارة من القساوسة الأجباش ، لكنها أدركت أنهم لا يستطيعون القيام بها ، فأوقدت أرميتياً يدعى ماتيو في مايو سنة ١٥١٠ (١) .

وأرسلت إلى ملك البرتغال رسالة (٢) فيها إشارات متعددة إلى أن الذي دفع الحبشة إلى الرغبة في محالفة البرتغال ما أحررته هذه الدولة من انتصارات باهرة في المحيط الهندي ، وحاجة الحبشة لسفن لنقل قواتها لغزو مكة ، وإقفال البحر الأحمر عند الطور شمالاً أو باب المندب جنوباً . وقد عرج هذا السفير أول الأمر على مياه الهد لمقابلة البوكرك قائد الأسطول البرتغالي . ثم سافر إلى مملكة البرتغال حيث استقبله ملكها عما نوبل (٣) .

هذه الرغبة المتبادلة بين الحبشة والبرتغال لعقد تحالف ضد المسلمين فصل من قصة الحروب الصليبية في هذا الميدان الجغوي .

ومما يشهد بتحسس البرتغاليين أن عما نوبل ملك البرتغال رد على طلب البابا إيقاف الحملات إلى مياه الهند رغبة في تحسب العلاقات بين دول البحر الأبيض والدولة المملوكية بأن أكد أنه سوف يجعل من مكة هدفاً لجوده ومدافعه .

وقال لوب سواريز خليفة البوكرك أنه في حاجة إلى معاونة ملك الحبشة للاستيلاء على جدة والقضاء على دولة المماليك (٤) . لذلك هرع أحد رجاله إلى بلاد الحبشة للمباحثة في الحصول على معونتها : هذا المنعوث هو Francisco Alvarex الذي كتب تقريراً عن رحلته سنة ١٥٢٠ ترجم إلى اللغات الأوروبية كلها . وستعرف كيف أن هذا التدخل البرتغالي سيضع حاتمة لحركة الجهاد التي قام بها المسلمون برعامة أحمد بن إبراهيم القرين (٥) .

Trimingham ; Islam in Ethiopia p. 83. (١)

Kammerer : La Mer Rouge, T. II. p. 253 (٢)

Wiet : op. cit., pp. 131 132 (٣)

حامد عمار ص ١١٠ (٤)

Budge, I. p. 189. (٥)

ولم تغف الدول الإسلامية الأخرى مكتوفة الأيدي أمام هذه الجهود الصليبية التي شارك فيها الأجناس والبرتغاليون ستملوك النوبة المسيحيون .
فقد كانت مصر تشد أزر القوى الإسلامية بوسائلها الخاصة ، بالضغط على الكنيسة القبطية في مصر أو تهديد تجارة البحر الأحمر كما يتنا في الباب الأول .
وكان أمراء شرق إفريقية يفرعون بدورهم إلى مصر طلباً للمساعدة ، فقد سعى الفقيه أبو عبد الله الزيلعي لدى سلطان مصر حتى يستكتب البطريرك رسالة إلى ملك الحبشة يطلب إليه أن يكف عن أذيته للمسلمين ، وصدرت المراسم السلطانية للبطريرك ، فكتب إليه كتاباً بليغاً شاملاً فيه معنى الإنكار لهذه الأفعال (١) .

وكان هؤلاء الملوك يفرعون أيضاً إلى بلاد اليمن إذا أحسوا إضطهاداً من جانب المسيحيين ، فقد اعتصم أبناء سلطان أوفات بالملك الناصر بن الأشرف إسماعيل ، وقد ساعدهم في العودة إلى البلاد أخرى لاستئناف الجهاد (٢) .

ثم ظهر الأتراك العثمانيون على مسرح الأحداث . فنفثوا في المجاهدين المسلمين قوة بعد ضعف ، ومدوا يد المساعدة لأحمد بن إبراهيم الغازي ، وحاولوا أن يتخذوا إخوانهم مسلمي الجنوب ، فقد بدأ القراصنة الأتراك يعملون في الخليج الفارسي والمحيط الهندي .

وقام أحد المغامرين الأتراك بالتقدم إلى موالي شرق إفريقية على ظهر سفينة واحدة ومعه حفنة من الملاحين الأتراك ، واتصل بالمسلمين ، وأفهمهم أنه مبعوث الخليفة وأن الأسطول التركي على الأبواب ، وقد قوبل بحماس شديد في كل مدينة نزل بها ، في مقدشو وبرائة وغيرها ، وهرع الناس إلى الدخول في طاعة مراد الثاني ، ولكن هذه المحاولة العثمانية انتهت بالإخفاق وهزم المغامرون الترك قرب ممسنى (٣) .

. . .

لم تكن هذه الجروب حروباً محلية ، وإنما كانت حروباً صليبية واسعة

(١) القلقشندي - ص ٢

Trimingham. op. cit. p. 74.

(٢) الإللام ص ٢٠

Coupland : op. cit. p. 58.

(٣)

المبدى بعيدة الأثر ، وسنحاول أن نصور كيف لاقى مسلموا الشمال الأحياء وكيفية لاقى مسلمو الجنوب البرتغاليين ، والنتائج التى تمخض عنها هذا اللقاء فى مصير الإسلام فى شرق إفريقيا .

الإمارات الشمالية والأحباش :

وجهاد الإمارات الشمالية ونضالها من أجل نشر الإسلام ومداومة الجهود الصليبية الحبشية مرثاً دوار ثلاثة : دور أوقات دور عدل - ثم دور هرد أو الجهاد الإسلامى الأعظم .

وبدأ دور أوقات منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادى . ولكى نستطيع أن بين طبيعة هذا الدور واتجاهاته يحسن أن نستعرض القوى الإسلامية فى مستهل هذا العصر .

وأول ما يطالعنا من استعراض القوى الإسلامية فى ذلك العصر أن التوسع الإسلامى صوب المناطق الداخلية قد باغ النبوة . وأوعل كثيراً صوب الغرب . يدل على هذا أن إمارة إسلامية تسمى هدية قد نشأت بين حواش وجبى ، واحتلت رقعة مسيحية من الأرض ، ويبدو أن هذه الإمارة كانت أحدث الإمارات الإسلامية عهداً فى هذه المنطقة ، فالطبقة الحاكمة قد اعتنقت الإسلام .

أما غالبية الناس من السداما والجوارجى والشاسو فقد كانت لانزال على الوثنية وكان الإسلام لا يزال فى طريقه نحو الانتشار (١) . وقمت هذه الإمارة بمحاولات كثيرة لمد نفوذ الإسلام إلى المناطق الواقعة إلى الغرب من هر جيبى . وعرفت إمارة هدية فى عالم الإسلام فى شرق إفريقيا با تحارها بالرقين وتخصصها فى تجارة الحصيان (٢) .

وظهرت إمارة أخرى عند الانحاء الغربية لنهر حواش : أو فى النهاية الجنوبية الشرقية من هضة شوة .

ثم إمارة دوارو جنوب شوة ، تمتد حدودها حتى الضفة اليمنى لنهر حواش ،

Trimingham, op. cit. pp. 67-68.

(١)

(٢) القلقشندى - ص ٢٢٨ ، المديح ص ١٢ - ١٣

وتوغل جنوباً حتى نهر وبي . وكانت هذه الإمارات من أقوى الإمارات الإسلامية في هذا النطاق الداخلي كله ، ويقال إنها كانت تستطيع أن تجد جيشاً لا يقل من حيث عدده أو عدته عن جيش إمارة أوفات (١) .

إلى الجنوب منها ظهرت إمارة أخرى هي إمارة بالي (٢) بين نهر الوبي في الشمال وجبال دوربا في الجنوب . فهي بحكم هذا الوضع تتحكم في سهول الصومال ، وتجاور أوطان شعبي السداما والحلا .

وفي أقصى جبال أمرة ظهرت مدينة مرر كركز من مراكز النفوذ الإسلامي في هذه البلاد ، وهي مدينة قديمة النشاط أسسها المهاجرون الساميون القدماء ولا زال أهلها حتى اليوم يتكلمون لساناً سامياً ، وقد اعتنق أهلها الإسلام . وأصبحت من أهم مراكز التجارة (٣) .

وكانت سلطنة أوفات أقوى هذه الإمارات وأعظمها رفعة ، ونهيات لتولى زعامة الحياة الإسلامية بحق .

وقد استطاع تشيرولي Celruli (٤) بعد اكتشافه لخصائص سلطنة شوة الخزومية أن يلقي مزيداً من الضوء على نشاط هذه الإمارة وتطورها .

إد يبدو أنه قد أسسها مهاجرون من الغرب ملذوا إلى هضبة شوة مشغلين بالتجارة . واستقروا في منطقة أوفات ويبدو أن هؤلاء العرب بعد أن طاب لهم المقام أصهروا إلى الأسرة الحاكمة .

من هذه المصاهرة ظهرت طائفة من أمراء أوفات يدعون نسباً عربياً قرشياً وينتسبون إلى بني عبد الدار أحياناً أو إلى بني مخزوم أحياناً أخرى (٥) ، في الوقت الذي يقال إنهم من أصل حبشي . وظهر من هؤلاء الأمراء المسلمون عمر المعروف بولشمع . كانت هذه الإمارة تدين بالطاعة لأمراء داموت ، ثم انتقل هذا الولاء إلى

Trimingham, op. cit pp 67-68

(١)

(٢) القلقشدي - ص ٢٥٩ .

(٣) المقريري : لإلام ص ٧ .

Cerulli, R S E. 1, 1941, 1941, pp ٩-52.

(٤)

(٥) المقريري . لإلام ص ١٦

الأحباش بعد قضائهم على إمارة دابوت (١) ، فالمقریزی يشير إلى أن عمراً هذا
ولاه ملك الحبشة مدينة أوفات وأعمالها .

ثم تمت هذه الإمارة الصغيرة حتى برزت في صورة أقوى في أواخر القرن
الثالث عشر ، حين استطاع أحد أمرائها ويدعى علي بن ولشمع أن ينهز فرصة
ضعف إمارة شوة المخزومية وأن يهاجمها سنة ١٢٨٥ ، وأن يقضي عليها قصة
مبرما ، وأن يرث ما كان لها من ملك ونفوذ (٢) .

حدث هذا في عصر ابن سعيد ، فهو يشير إلى أوفات وإلى أنها عاصمة ملك
مستقل . ويصف المدينة نفسها ، وفوقها على ربوة عالية مشرفة على مجرى
ماء ، ويصف قصر الملك وقلعة التي أقيمت على التلال . رخصوة الأرض
وغنى الإقليم وراثته (٣) .

واستطاعت أوفات في ظل بني ولشمع بعد أن ورثت ملك بني محزوم أن
تبسط نفوذها على هذه الإمارات الصغيرة التي أشرنا إليها بلى استطاعت أن تنسبط
هذا النفوذ حتى ساحل البحر الأحمر ، حتى منطقة زيلع ، بل امتد نفوذها إلى
سهل أوسا . ودان لها الأعفار بالطاعة والولاء ، تحكمت في رقعة مسيحة من
الأرض متنوعة الموارد كما تحكمت في كثير من الطرق التجارية الغنية (٤)

يدن شهد القرن الثالث عشر ظهور حلف إسلامي ضخم بزعماء أوفات وأمرائها
من بني ولشمع ، وامتد نفوذ هذا الحلف على جزء كبير من حوض شرق
الحبشة وساحل البحر الأحمر ، وأوغل في بلاد الصومال .

ويذكر ترمينجهام أن هذا الحلف الإسلامي بزعماء أوفات كانت مساحة أرضه
أكبر من مساحة مملكة الحبشة المسيحية نفسها (٥) . كان تكوين هذا الحلف
وظهوره على هذا النحو متفقاً مع التطورات التي شهدتها بلاد الحبشة بظهور

(١) Trimingham : p 59.

(٢) Cerulli, op cit.

(٣) بلا عن الفلفشتى - د من ٣٢٥

(٤) Trimingham : p. 67.

(٥) Trimingham, p. 69

السليمانيين ووضوح الاتجاه الصليبي ، فكان لابد من أن تبدأ المرحلة الأولى من مراحل الجهاد .

ولاندرى كيف كانت البداية على وجه التحقيق ، وإنما نرجح أن سلاطين أوفات بعد أن استشعروا العزة والمنعة والكثرة أعلنوا استقلالهم ، وطرحوا تبعيهم الاسمية للملك الحبشة .

ورأى ملوك الأحباش في هذا تحريشاً إسلامياً لا يمكنهم أن يفلتوا . وكانوا في قرارة أنفسهم يخشون أن تؤدي هذه الجهود الإسلامية المتحدة إلى عرقلة المشروعات الصليبية التي كانوا قد أوشكوا أن ينعموا فيها .

وعلى الرغم من أن الحلف الإسلامي كان على اتصال دائم بشعب الأجوا لثائر على سلطان الأحباش إلا أن موقفهم كان أضعف من موقف الأحباش .

كان الأحباش باستطاعتهم أن ينسحبوا إلى مناطق داخلية ، على حين كانت ديار المسلمين مهيبة الرقعة مينة المواصلات تنتشر فيها مجموعة من البدو . على حين كان السداما سكان المناطق الزراعية أميل للمسألة والهدوء .

ولم تكن البلاد الإسلامية منظمة تنظيماً دقيقاً لم تكن تستطيع جمع الجند وترحيلهم ، ولم تكن حركة المقاومة التي نزعها أوفات منبعثة من شعور إسلامي دافق يغمر الشعب كله ويدفعه إلى القتال عن عقيدة وإيمان ، فهزمهم الأحباش من أول لقاء (١) .

وكان من الممكن أن تكون هذه الحروب هي القاضية ، لولا تدخل الظاهر بيبرس الذي حدد بقطع العلاقات وعدم الموافقة على تعيين المطران الذي طله الأحباش وأمر هذا التدخل . فعقد الأحباش الهدنة مع أوفات ، وأعادوا فتح بلادهم للتجار المسلمين . وعين لهم مطرانهم الجديد ، واستعادوا مراكزهم بالبلاد المقدسة (٢) .

ركان العدوان بتربصان مستهزأ أية فرصة صعد أو بادرة نحاذل . فقد استمر

المسلمون. فرصة وفاة ملك الحبشة سنة ٦٩٨ هـ وقام شيخ مجاهد يدعى محمد أبو عبد الله بمهاجمة أطراف الحبشة يؤيده نفر من المجاهدين (١).

ولم تعتمد الحبشة على المقاومة ، بل كانت بسبب بعض المتاعب الداخلية أميل إلى المهادنة . ولم يكن سلاطين أوقات ليقتنعوا بالهدنة ، وقد اتحنوا الجهاد ديناً وعقيدة . فلنقلب السلطان حق الدين (٢) من الإغارة غير المنظمة إلى الهجوم السافر المنظم . غزا أطراف الحبشة وأحرق بعض الكنائس ، وحمل بعض الأحباش على اعتناق الإسلام ، وقبض على أحد سفراء الأحباش المنحدر في طريقه إلى بلاده وقتله ، فعزا ملك الحبشة بلاد أوقات سنة ١٢٢٨ ، وأسر حق الدين (٣) ، ودخلت أوقات وفطحار في طاعة المجاشي .

ولم تكن هذه الحركات الإسلامية الدافقة لتهدأ بوفاة ملك أو أمير فقد عادت الإمارات الإسلامية تلتف حول سعد الدين أحد سلاطين أوقات . آزرت إمارتنا هدية ودوارو .

وكانت خطة هذا الحلف الجديد أن ينصلوا بالأجوا المعارضين للأحباش فيشقوا عصا الطاعة لبشغل الملك ، ثم يعتمد المسلمون إلى مهاجمة الحبشة من ثلاث جهات ، فتسربت الخطة إلى الأحباش ، وأخضعوا هذه الإمارات الواحدة في أثر الأخرى ، دخلوا هدية وطرودوا سلطانها أمانو ، ثم خضعت دوارو وفطجار « وتلاشت مدينة أوقات واتضعت حتى خربت (٤) » .

وتشرد أبناء سعد الدين وامتدت حدود الحبشة إلى حافة الهضبة إلى نهر حواش وضمت بعض مناطق من إقليم شوة .

وفي غمرة هذا الصراع الدوي استنجد أهل أوقات بالمماليك وأرسلوا أبا عبد الله الزيلعي ليطلب من سلطان مصر الناصر محمد أن يتدخل لدى الأحباش ليخففوا الوطأة عليهم .

Idem.

(١)

(٢) المقيري . الإلام ص ١٩

(٣)

Trimingham, p 71.

(٤) المقيري . الإلام ص ١٨ .

وهمت إمارتا مور وعدل لتجدة إخوانهم في الدين ، وحانموا بعض القبائل البدوية . طيفوا وباحومة وليكالا وورجار وجيالا ، ولعلمهم من قبائل الأعفار التي كانت تدين الطاعة لسلطين أوفات ، فلم يستطيعوا وقف قوات الحبشة الزاحفة . فقد قضت على هذه المحاولة وأتبع ذلك بالقضاء على محاولة أخرى نظمها الإمام صالح أحد أبناء شرفاء مكة الذين آووا إلى مدينة هرر منذ وقت بعيد ولم تكن هذه الإمارات الإسلامية رغم صدق إيمانها بالجهاد بقادرة على مواجعة الأحباش الذين اتحدت كلمتهم . ووحدت صفوفهم حركة دينية دافقة فضعت هذه الإمارات كلها لتعود الحبشة حضوء مطلقاً ، وبدأ كأن روح المقاومة الأولى قد انتهت تماماً .

وان فصل الله العسرى يصف هدد الحال من الضعف والفرقة التي سدت المجمع الإسلامي في القرن الرابع عشر أو بين سنتي ١٣٤٣ - ١٣٤٨ .

فهو يستفي أخيار هذا الوطن الإسلامي من الشيخ أبي عبد الله الزيلعي . ويعدد إمارات المسلمين السبع ويعرض لأسباب ضعفها وتفرق كلمتها . في كلمات عميقة الأثر « وجميع منوك هذه الممالك وإن توارثوها لا يستقل منهم بملك إلا من أقامة سعدن أمحرا وتقربوا إليه جهد الطاقة فيحترار منهم رحلا بوليه : فإذا ولاه ، سمع لفيته له وأطاعوه مهم له كالنواب . . ثم هذه الممالك السبعة ضعيفة البناء قليلة العدد الضعف تركيب أهلها ، وقلة محصول بلادهم وتسلط المصلي عليهم . مع ما بينهم من عداوة الذين ومباينة ما بين النصارى والمسلمين . وهم على ما هم عليه من اذلة والمسكنة للحطى سلطان أمحرا عليهم قطائع مقرررة تحمل إليه في كل سنة من القمشر والحريير والكتان (١) . . »

وأيقن هذا النصر ملك الحبشة . سيف أرعد فادعى أنه حامي حمى كنيسة الإسكندرية فأرسل إلى مصر يندر بالكف عن إيذاء المسيحيين وقض على بعض التجار المصريين سلاده ، فقتل بعضهم وسجن البعض الآخر (٢) .

وانتمصت سلطنة أوفات إنتعاسة تشه الانتعاصه لى تسبق الموت . فعاد

(١) ديلا عن القنشدى - ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

Budue, pp. 209, 313, 361, 574

(٢)

حق الدين الثاني القتال ، فهزم ومات في المعركة سنة ١٣٨٦ هـ ، والتف المسلمون للمرة الأخيرة حول خليفته سعد الدين الثاني ، وأعلنوا الجهاد ، واشتركت طوائف الناس كلهم في هذه الحرب المقدسة .

يدين هذا من قول المقريري ، فلقبه سعد الدين بنفسه ومعه الفقهاء والفلاحون وجميع أهل البلاد ، وقد تحالفوا جميعاً على الموت ، فكانت بينهما وقعة شنيعة استشهد فيها من المشايخ والعلماء أربعمائة شيخ ، كل شيخ منهم له عكاز وتحت يده من الفقراء والسالكين عدد عظيم (١)

ولم تكن المسألة مسألة تحمس للدين ، إنما مسألة عدد وعده وقوة ، لم تتوفر لهؤلاء المحاضرين ، ولم تقدم القوى الإسلامية المعاصرة المساعدة الحدية التي تعينهم على الصمود ، فانتهت هذه الانتفاضة الأخيرة ، وفر سعد الدين الثاني إلى جزيرة زيلع حيث حوصروا وقل (سنة ٨١٧ - ١٣١٥ م) في عهد الجاشي بسحاق ،

وكان احتلال زيلع بمثابة إسدال الستار على مملكة أوقات التي احتلها الأحباش نهائياً . ولم يعد يسمع بها أحد ، وانتهى دور أوقات في الجهاد (٢) .

وكان سلاطين أوقات ومسلمو شرق إفريقيا من عميق الإيمان والتمسك بأهداف التراث الإسلامي ، بحيث لم يكن من المستطاع أن يتخلوا عن سياسة الجهاد ، ومدافعة الأحباش ماوسعهم ذلك ، وتركزت المقاومة حول الأمراء المماريين من أبناء سعد الدين ، الذين سيستهلون الدور الجديد من أدوار الجهاد ، وهو دور عدل (٣) .

كان هؤلاء الأمراء العشرة قد اعتصموا باليمن في ظل سلطانها أحمد بن الأشرف إسماعيل . وأعانهم على العودة إلى إفريقية ، إلى مسرح الأحداث مرة أخرى ، وقد اتخذوا لقباً جديداً ، لقب سلاطين عدل ، وآووا إلى عاصمة جديدة تسمى دكر (٤) . لعلها على أطراف حدود الصومال بعيداً عن متناول الأحباش . وقد ورد ذكر عدل للمرة الأولى في أخبار سلطنة شوة اخزومية ، هـ - ٨٠٠

(٢) المقرئى : - الإلام ص ٢٣ - ٢٤ .

(١) المقرئى : الإلام ص

(٢)

Littmann : Adal Encyc of Islara.

(٢) الإلام ص ٢٥

الأخبار التي نشرها تشير إلى (١) : فعرض لإمارة عدل وكيف فتحت سنة ١٢٨٨ ، فتحها بنو واشمع مؤسسو سلطنة أوقات ، كما أشار إليها ماركو بولو في رحلة ١٢٨٥ . وإن كان قد خطط بين عدل وبين عدن ، وتاريخ عمدا صيون يصير إلى عدل ومودة وكثرة عدد سكانها . ، والعمرى يكتب في نفس العصر في القرن الرابع عشر ، فيتحدث عن عدل ويسميه عدل الأمراء .

إذن عدل إقليم من الأقاليم التي خضعت لسلطين أوقات ، وليس بعيداً أن قد تأسست بها إمارة محلية تدعى بالولاء لنى واشمع ، ويبدو أن موقعها المتطرف قد ساعدها على نجاتها من التوسع الحبشى الذى أطاح بالإمارات السابقة .

وكان طبعاً أن يأوى بنو سعد الدين إلى إقليم قريب من البحر ، يتيح لهم الاتصال ببلاد اليمن بعيداً عن مناطق النفوذ الحبشى ، والفاريز (٢) تحدث عن مملكة عدل بين سنتي (١٥١٧ و ١٥٢٠) وذكر أنها قرب فطجار وشوة أعني أن حدودها الشرقية تمتد إلى حافة الهضبة على حين تمتد نفوذها جنوباً حتى رأس غور دافوى ، وسميت هذه البلاد بر سعد الدين تخليداً لسعد الدين الثانى الذى مات بزيلع ودفن بها (٣) .

وستأنف سلاطين عدل الجهاد مرة أخرى في عهد صبر الدين الثانى (سنة ٨٢٥ هـ - ١٦٢٢ م) والملك يسحق صاحب المشروعات الصليبية المعروفة . فلم يحالفه التوفيق ، كما هزم خليفته منصور من بعده (١٤٢٤ - ١٤٢٥) . واستمر الجداد في عهد جمال الدين (١١٣٣) . وفي عهد بدلاك ابن سعد الدين (١٤٤٥) (٤) ، دون أن يتمكن سلاطين عدل من قهر الأحباش أو استرداد أملاكهم القديمة .

لكن الأحباش تغلبوا على هذه الحركات كلها ، وخرجوا من الصراع ظافرين . واستطاعوا في عهد زرع يعقوب (١١٣٤ - ١١٦٨) أن يكونوا

(١) Cerulli. R.S.E 1.9.

(٢) Stanley of Alderley : Narrative of the Portuguese embassy to abysinia, p. 340,

(٣) Burton , First foot steps in East Africa pp. 72-73

(٤) الإلام ص ٢٧ - ٢٩ .

إمبراطورية عظيمة ، امتدت شمالا حتى مصوع وتمهول السودان ، وسيطرت على القبائل البدوية من النخراى والبيجة فى منطقة الساحل و وادى بركة ، وضمت أوفات وفطجار ودوارو وبالى ، وفى المنطقة الحصينة فى الجنوب الغربى سيطرت على إمارة هدية السابقة وبعض ممالك سدانة ، ومنحت هذه الولايات استقلالها الذاتى ، يحكمها عامل يسمى الجرادينحدير من البيت المالک القديم .

وكانت هذه الولايات وزائية : واحتفظ المساحون بدينهم ، وكانوا لا يزالون ينتشرون فى شوة (١) ، وفى تجراى الشرفية كما يتبين من رواية الفاريز (٢) .

وطبق الأحباش ما يحلو لهم من سياسات فى هذه الإمارات الخاضعة ففرضوا على أمير هدية جزية من نوع غريب ، أن يقدم كل عام فتاة عذراء تنصهر ، وأن لا يلس المساحون عدة الحرب ، ولا يستخدموا السيوف ، إنما يركبون الخيل بغير سروج ، وإذا أرسل إليهم من يتقبل البنت والمال ، أخرجنا له البنت على سرير ونغسلها ونكفها بثوب ونصلى عليها ونحسب أنها ميتة ونعطيها له فإذا وجدنا آباءنا يفعلون ذلك ، (٣)

ويبدو أن الرغبة الصادقة فى الجهاد قد عرف بها الجيل الأول من سلاطين أوفات قد فترت عند أحفادهم سلاطين عدل . فقد ستموا القتال ، وجنحوا إلى المسألة ، فأرسل محمد بن بدلاى سنة ١٤٤٥ بعثة لملك الحبشة فى مستهل عهده يعرض دفع جزية سنوية (٤) وعقد هدنة بين سلاطين عدل والأحباش .

كما حاول محمد بن أزهري الدين الذى حكم عدل مدة ثلاثين سنة (١٤٨٨-١٥١٨) أن يسير فى نفس الطريق ويسالم الأحباش (٥) .

لكن إذا كان سلاطين عدل قد جنحوا إلى الراحة ، ومالوا إلى المسألة وركنوا إلى التخاذل ، فإن الشعب المسلم لم يتخل عن سياسته التقايدية من مقاومة

Trimingham : pp, 81-77

Alvarez : Narrative p. 95.

(٣) حرب نقيص ص ٢٨٥ - ٢٧٦

Trimingham, p, 81.

Alvarez : Narrative: p. 95.

(م ٢٧ - الإسلام فى إفريقيا)

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

الأحباش ومدافعهم ، وكان محمد بن عبد الله وتحمس الشعب للجهاد مؤذناً ببداية الدور الأخير من أدوار الجهاد : دور حرر (١) ، أو دور الفتح الأعظم .

هذا الدور يتميز بظواهر ثلاث : انتقال الزمام من سلاطين عدل التقليديين الذين جنحوا إلى السلم إلى طائفة جديدة من الأمراء أشربت حب الجهاد ، واتخذت لقب الإمام . وانتشار الإسلام على مدى واسع ، وسيطر الفقهاء والدعاة على حياة الناس ، ودخول الشعوب البدوية ميدان المعركة الإسلامية بعد أن تم إسلامها في النصف الأول من القرن السادس عشر بإسلام الدناقل والصوماليين .

هذه العناصر الثلاثة منخرج الجهاد من سلبته القديمة إلى حركة دافقة ضخمة تندفع كالسيل الحار نحو قلب المقاومة الحشية .

لم يعد الجهاد وفقاً على السلاطين ، مرتها بإشارتهم ، محمفاً لمطامعهم وأهدافهم فقد أثبتت الأحداث أن سلاطين عدل لم يكونوا أمناء على هذا الجهاد .

ويدو أن السلطان انتقل إلى طائفة من رجال الدين علت كلمتهم وارتفع شأنهم في الحقبة الأخيرة من تاريخ عدل . فقد ظهرت طائفة جديدة من الأمراء المسلمين متخذة لقب إمام متفرعة للحرب والجهاد ، ثم بدل على أنها كانت تمثل حركة دينية عميقة الجذور .

وأصبح هؤلاء المرء من الأمراء الأئمة يشرفون على سياسة الجهاد ، ويجندون لها الأنصار من الأعفان والصوماليين

وكان هذا الطرار من الأمراء الدينيين أكثر ملاءمة لروح العصر ، وأقدر على إغاث شعور الجماهير هؤلاء الأئمة كانوا يمثلون الحركة الإسلامية الشعبية الدافقة . وكان سلاطين عدل يمثلون السلطة الاسمية ، التي تستمد وجودها من ملك قديم ، تؤيدهم طائفة من الأرستقراطية منهم بالتجارة أكثر من اهتمامها بالجهاد ، وتدفع السلاطين دعماً نحو مساهمة الأحباش والتشام معهم .

وأصبح المجتمع عدلي به حز . هذا الحرب الديني الشعبي الذي يزعج

الأمراء الأئمة ، وهذا الحزب المحافظ الذي يريد أن يستلم الأحباش ويتزعمه سلاطين عدل التقليديون (١) .

هؤلاء الأئمة تسللوا إلى المدن العدلية ، وانتشروا فيها ، ووثبوا إلى حكمها ، وكونوا إمارات محلية في أرض السلطنة الممتدة بين هرر وماسل الحر . هذه القسمة أو هذا التطور يصوره عرب فقيه بقوله : وعاد ابن سعد الدين أن كل أمير يكون له التقديم والتأخير وانغزو والجهاد وأكثر العساكر إلى وجهه . . ولم يكن للسلطان غير خراج البلد يأكله (٢) .

لم يكن هؤلاء الأئمة يتصارعون لرغبة السلاطين ، إنما كان بينهم إعلان الجهاد عندما يريدون . وقد كانت بأيديهم القوة الحقيقية في البلاد منذ أواخر القرن الخامس عشر .

وكان أول هؤلاء الأئمة ظهوراً الداعي عثمان حاكم زيلع الذي أعلن لجهاد بعد وفاة محمد بن بدلاى مباشرة سنة ١٤٧١ .

ثم ظهر في هرر أمير من هؤلاء الأئمة يسمى محموط . اضطلع بسياسة الجهاد في أيام ملك الحشة ناعود ، وتحدى سلطان محمد بن أزهر الدين . واشتبك مع الأحباش كما يقول ألفاريز منشزاً فرصة ضعف المسيحيين إثر شهور الصيام . وعلت كلمة محموط حتى أصبح صاحب الأمر الفعلي في البلاد وقد حاه اندعاة من بلاد العرب . وأمدوه براية خضراء وقبة من مخمل أزرق وأعانوه بالرجال والسلاح . واندفع محموط نحو الجهاد .

غير أن البرتغاليين ظهر وأعلى مسرح الحوادث وتقدم أسطول Lope Suarez وفاجأ زيلع في عينة محموظ وأغار عليها . ولم تنجح حركة محموظ . على كل حال يكفى أن هذه الحركات كانت تقف حجر عثرة في سبيل سلاطين عدل الاسمين وانتهى الأمر باغتيال السلطان محمد سنة ١٥١٨ (٣) .

ومن هذا الطراز من رجال العصر المشتغلين بدفع الحركة الإسلامية وإعلان

Trimingham . pp 82 83.

(١)

(٢) عرب فقيه ص ١٢ .

Trimingham p. 84

(٣)

الجهاد آيود بن آدشن * ملك سبع سنين وأقام الحق وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وقتل قطاع الطريق وأبطل الخمر واللعب والرقص على الطبول ، وعمرت البلاد وأحب الأشراف والفقهاء والفقراء والمشايخ واستولى على ملكه وأصلح الرعية (١) . ولم ترق سياسته هذه في نظر سلطان عدل الرسمى أبى بكر بن محمد ، فقد هاجم آيود في زيلع وقتله سنة ١٥٢٥ .

وعرب فقيه يقارن بين حكمه وحكم آيود بقوله ، « وبعد ذلك أن الجراد آيود وصل إليه السلطان أبو بكر بن السلطان محمد بن آذر من درية سعد الدين . وجمع عليه الجموع من الصومال من المفسدين وقطاع الطرق ، وأحربوا الجراد آيود . واقتلوا قتلاً شديداً وقتل الجراد آيود ، آذر في وطنه على بلاده وعياله . قل شهيداً رحمه الله ، ونولى السلطان أبو بكر البلاد بعد الجراد آيود . وأحرب البلاد ، وظهر قطاع الطرق ، وظهرت الخمر » (٢) . وكان أعظم هؤلاء الأئمة وأقاهم أثراً الإمام الغازى أحمد بن إبراهيم صاحب الفتوح العظيم

ويمثل هذا الدور أيضاً نمو الحركة الإسلامية نمواً عظيماً بعد نحو أربعة قرون من التطور ، ونمو الحركة العلمية إلى أبعد الحدود ، واتصال هذه الإمارات الإسلامية بالأوطان الإسلامية الأخرى ، وغلبة الفقهاء على المجتمع .

إلى هؤلاء الفقهاء والدعاة يرجع الفضل في إسلام قبائل البدو وانضمامها إلى الحركة الإسلامية . وكان هؤلاء الفقهاء من وراء الأمراء الأئمة يؤيدونهم ويشدون أزرهم ، ويدعون الناس إلى الجهاد دفاعاً . وقد شاركوا في جهاد أحمد بن إبراهيم محرضون على اقتدار (٣) . ويشدون أزر المجاهدين .

أهم من هذا كله أن القرن السادس عشر شهد دخول قبائل البدو في حركة الجهاد الإسلامى . وكان دخولها يشبه إلى حد كبير ظهور شعب الملثمين وتبنيهم حركة الجهاد في عهد عبد الله بن ياسين ، أو تأييد قبائل القولاني لعثمان

(١) عرب فقيه ص ٦٠

(٢) نفس المرجع والصحة .

(٣) عرب فقيه ص ٣٨ - ٤١ .

ابن فردي ، فقد كان لإسلام الأعفار والصومال يمثل نصراً للحركة الإسلامية في شرق إفريقيا .

فقد كانت هذه القبائل قوية شديدة المراس ، تريد أن تندفع صوب الغرب إلى المناطق الحصنة ، وتغادر هذه الأوطان القاحلة ، وحاء إسلامهم بمعاصراً لحركة الجهاد والفتح التي استلها أحمد بن إبراهيم .

بل لعل بداية الجهاد ومشاركتهم فيه نتيجة الجهود السابقة التي بذلت لإدخالهم في الإسلام دليل على نجاح هذه الجهود ، وقفنوا من وراء هذا الفتح يؤيدونه وكادوا يأتون على ملك الأحباش لولا تدخل البرتغاليين (١) .

هذا الإمام الذي رشحته الأحداث لترغم حركة الجهاد الإسلامي في الدور الحرري هو أحمد بن إبراهيم الملقب بالقرين أو الأشول ، قضى أيامه الأولى في إقليم هوبت بين قلديسى وهرر .

وقد عهد أبوه لعبد تخرر اسمه على فأصبح من أوفى أتباعه . وقد تنقف ثقافة دينية غزيرة ووقر في نفسه ما رآه من ضعف المسلمين وتفرق كلمتهم واستشرأب الأحباش وعدوانهم . فتأقت نفسه إلى ترغم الجهاد . وقد إدخرته العناية لإعادة القوى الإسلامية ، وإنقاذ المجتمع الإسلامي مما أصابه .

والمعاصرون (٢) له ارتفعوا به إلى مرتبة القدسية ، وسجوا حوله الأساطير ، وأحاطوا مقدمه بالرؤى التي تمهد له وتبشر به . فهو إمام آخر الزمان في رعمهم « لا نسموه السلطان ولا الأمير ، ولكن سموه إمام المسلمين » قال فقلت لها إمام آخر الزمان فقال لي نعم (٣) .

انظر إلى رواية عرب فقيه : « حدثني من أثق به علي س صلاح الجبلي وأحمد بن طاهر الرعوى ، أنهما سمعا رجلا يسمى سعد بن يونس العرجي يقول : بينا أنا راقد ذات ليلة من الليالي ، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم وعن يمينه أبو بكر الصديق . وعلى يساره عمر بن الخطاب وبين يديه

Trim. nghan p 81

(١)

Ibid : p. 86.

(٢)

(٣) عرب فقيه ص ١٣ .

على بن أبي طالب رضي الله عنهم ، وبين يدي على بن أبي طالب كرم الله وجهه الإمام أحمد بن إبراهيم ، فقلت له يا رسول الله من هذا الرجل الذي بين يدي على بن أبي طالب ، فقال صلى الله عليه . هذا رجل يصلح الله تعالى به بلاد الحبشة (١) .

وقد بدأ حياته بالانساب إلى أمرة الإمام محفوظ . فتزوج ابنته فكسب تأييد أنصاره . ولما قتل الإمام أبو بكر المجاهد آيون نزع أحمد إلى مسقط رأسه هويت بجمع الأنصار وبرزت المجاهدين .

وم كدد يتم به ذلك حتى عمل على مقاومة أبي بكر سلطان عبد الأسمر واقتسم السلطة في البلاد على النحر الذي كان يفتنهم به الإمام محفوظ ولكنه قتل السلطان وولى بلامه أخاه عمر دين كسلطان اسمى للبلاد .

فلم يوطد سلطانه وكثر أتباعه استهل حياة الجهاد . فامتنع عن دفع بلخزية التي كان يدفعها سلاطين عدل . وانحدر الأحباش لقتال المسلمين سنة ١٥٢٧ ، وهم يعتقدون أنهم سيتفرقون كما تفرق المسلمون من قبل . فهزم الأحباش لأول مرة منذ بداية الجهاد . وبدأ أحمد بنجادور الطاق التقليدي القديم : فلا يكتفى بإعادة الحظوظ على الحدود ثم العودة . إنما أراد هذه المرة أن ينفذ إلى قلب الخصم نفسه . وبصع حداً لملك الأحباش

ولم يكن المسلمون . بتحيلون أن يقدم مسلم على اقتحام هذا الميدان ، فقرر أنه إذا كان ملك الحبشة معه قوة عظيمة . وخيله لا تحسب . وعنده من اندروع واخود والرجال والذوق لا يحسبهم إلا الله تعالى ، وآناؤك وأحدادك والأمير على والأمير محمود صهرك والحراد إبراهيم والسلاطين المتقدمة ممن ملك بر سعد يدين . لم يكن منهم أحد يقصد ملك الحبشة إلى بلده وسكنه ، ولكن يعرفون أطراف البلاد ويعلمون ويرجعون . وإذا تبعهم أحد من الكفرة فبؤس عذابهم . وأنت تريد تقصد ملك الحبشة إلى وطنه . والآل لا تهلك منهم . فقرر الإمام : الجهاد في سبيل الله ما هو نعت على المسلمين . فقالوا نحن ما نرد إلا الجهاد . من قتل ما نرد إلى الجنة (٢) .

وفي سنة ١٥٢٩ أحرز أحمد نصراً حاسماً على الأجباش في موقعة شنبر كور ثم بدأ في غزو بلاد الحبشة نهائياً . وأصبحت قصة الفتح منذئذ سلسلة من الانتصارات المتلاحقة .

في سنة ١٥٣١ دخل دوارو وشوة وأحجرة ولأستا ، وفي سنة ١٥٣٣ استعاد الإمارات القديمة ، بآلى وهديّة وسلامة ، وبات هذا الفتح مدّاً لا يحصى مقاومة (١) .

وفي سنة ١٥٣٥ سيطر المسلمون على جنوب الحبشة ووسطها ، وعراى بحراى للمرء لأولى وتقدمت قواته في كل سبيل ، في الساحل وفي السهول ، في الشمال العربي . متصلاً سلطنات مزجة وولقيت وهي إمارة نوبية يحكمها العرب وكانت تحصر ملك الحبشة ، ومات ملك الحبشة لبناء نقل طريدا (٢) .

وبينا الجهاد الإسلامي يمضي في طريقه المرسوم ظهر الجناح الآخر من الثورة الصليبي متقدماً من الجنوب ، فقد ظهر البرتغاليون في المحيط الهندي . وودوا زيلع وأحرقوها سنة ١٥١٧ .

ثم ظهرت قوة إسلامية فتية هي قوة العثمانيين ، فقد ضموا بلاد الشام ومصر وسيطروا على البحر الأحمر ، واستولوا على عدد عظيم من المراكز البحرية والعسكرية . وكان ظهور العثمانيين في هذا الوقت بالذات مما أنقذ العالم الإسلامي من خطر ماحق . فقد كان البرتغاليون يطمعون بالاتفاق مع الأجباش في مصر من طريق السويس ومهاجمة البلاد المقدسة ، وتحقق الحلم الصليبي المعظم وقد أدرك العثمانيون هذا الخطر الصليبي ، وارتاعوا لاسفارات البربرية المروءة فوافدت على بلاد الحبشة واحتلوا سواكن وزيلع ، واتصلوا بالمسلمين في مصر . وكان المسلمون في زيلع يتلقون المساعدة من القطلان أعداء البرتغاليين فتدافعوا يساعدهم في بناء أسطولهم ، هذا الصدام المسلح بين القوتين البحريتين البرتغالية والعمانية سيؤثر في مصير الصراع بين المسلمين والأجباش (٣) .

(١) عرب فقيه ص ٤٢ .

Trimingham, p. 88.

(٢)

Trimingham, op. cit. pp. 76-77.

(٣)

استنجد الأحباش بالبرتغاليين سنة ١٥٣٥ ، وأرسل John Bermadez إلى ملك البرتغال بكتس المون ، فأرسل ملك البرتغال نجدة قوامها أربعائة من حملة النادق ، فوصلوا بلاد الحبشة سنة ١٥٤١ .

والتقى المجاهدون بزعماء أحمد بالبرتغاليين في المنطقة الواقعة بين أميا آلاجي وبحيرة الشانجي وذلك في سنة ١٥٤٢ ، وقد جرح القرين ونجا من الأسر ، وآوى القرين إلى جبل زبل المطال على بلاد الدناقل لتنظيم قواته .

واستنجد بالباشا التركي في زبيد ، فأرسل إليه تسعمائة من حملة النادق وعشرة مدافع ، وعاود أحمد الهجوم والتقى بالبرتغاليين في وادي أفلا . فحال القائد البرتغالي Christovao do Gama بينه وبين الاتصال بجده .

ثم هزم قواته وقضى على أغلبها الأمر الذي حمل القرين على الاعتقاد بأن الأمر قد استتب له ، فأعاد النجدة التركية بعد أن أدركت قواته بحيرة تانا ، واشتدك مع النجاشي قلاوديوس وحلفائه البرتغاليين فهزم عند ويناداجا قرب بحيرة تانا ، ومات وتفرقت جموعه ونجت الحبشة من كارثة عميقة (١) .

كان الإسلام ينتشر في ركاب هذا الفتح ، وعرب فقيه الذي أفرد كتابه كله للتاريخ لهذه الفتوح يذكر أن غالبية سكان الحضبة اعتنقوا الإسلام اقتناعاً أو رغبة . بعض الناس كان يدخل في الإسلام خوفاً ، أما أهل حان رلق فإنهم ما أسلموا . وكان غمضين في الدسوت والجبال ، والآن أسلموا قبل ما يجري القتل . وقد أسلم أكثر الحبشة والمسلمون متعرقون فيها وإذا سمعوا بنا إن نحن قد خالفنا لم يفلت منا أحد (٢) .

والمؤرخون الأحباش يؤيدون هذه الأقوال فيذكرون أنه لم يحتفظ بدينه أكثر من فرد واحد من كل عشرة ، فمن استسلم وأحب الاحتفاظ بدينه فرضت عليه الجزية ، ومن اختار المقاومة قوتل . وكان الفقهاء يسبرون في ركب الفتح بحرصون على الجهاد أو يفهمون الناس الدين .

وإذا كانت هذه الحركة لم تحقق أهدافها بالقضاء على مملكة الحبشة نهائياً

إلا أنها أثبتت أن الدولة واهية الأساس بنظمها الإقطاعية العتيقة ونظامها
السياسي والإداري المختل .

كما أثبتت أنه من المستطاع أن يتمكن البدو سكان السهول من فتح هذه
الخصبة إذا اتحدت صفوفهم وألفت بين قلوبهم أهداف سامية . وهذا الجهاد
يدل على مدى عمق الشعور الإسلامي في نفوس أهل شرق أفريقيا وتمسكهم
بالإسلام إلى أبعد الحدود ، فقد دأبوا على الجهاد وأصروا عليه طيلة ستة قرون .

وكانت خسائر الأحباش في الرجال نفوق الوصف وإذا كان الأحباش الذين
أسلموا كرها قد ارتدوا إلى دينهم القديم ، فليس من شك في أنهم تأثروا
بالعقيدة الإسلامية التي ظلوا يعتنقونها طيلة الخمس عشرة سنة الماضية .

وهذه الدفعة الإسلامية لم تمت بموت أحمد ، بل استمرت من بعده فترة
طويلة ، فقد حاول الوزير عباس أن يكون إمارة من دوارو وفطجار وبالي
ولكنه هزم سنة ١٥٤٥ .

وانتفضت هرر مرة أخرى واتف الناس حول أرملة القرين للأخذ بالنار ،
واجتمعت قوات عمر دين وعلى الجراد بن الإمام أحمد ، وعزت دوارو ولكنها
هزمت وأسر زعمائها .

ولم يبدأ المسلمون دعم هذا ، فقد بدأت محاولة جديدة بقيادة نور بن الوزير
مجاهد ابن اخت أحمد القرين وانتخب إماما سنة ٩٥٩هـ (١٥٥١/١٥٥٢ م) وأسموه
(صاحب الفتح الثاني) .

ولكن أوان الجهاد الأعظم كان ولي ، ولم يعد الأحباش بعد مصرع الامام
أحمد يخشون أحدا ، فغزوا هرر وخربوا أسوارها (١) .

وقامت هرر قومة أخرى سنة ١٥٥٩ ، اشترك فيها نور أمير هرر بعد أن
اتخذ لقب أمير المؤمنين ، وشاركه الجهاد سلطان عدل الاسمي الذي خلف عمر
دين واسمه على وغزوا فطجار ، غير أن هذه الجهود كلها انتهت بالانحطاق
في عهد ملك الحبشة سر صاد نجل (٢) . وإن كان مجاهدوا هرر ظلت تراوهم

Trimingham : p. 91.

Budge, pp. 359—374.

(١)

(٢)

أحلام الجهاد حين حالفوا الزعيم الحبشي الثائر بحر نجش ، والتقى محمد الرابع أمير هرر بالأحباش سنة ١٥٧٧ عند نهر وبي ، فهزم وأسر وقتل زهرة رجاله .

وانتهت هرر كنوة سياسية ذات شأن في الوقت الذي استطاع فيه الأحباش أن يستبعدوا هذا الخطر الإسلامي ، وأن يخلصوا من التهديد العثماني ذلك أن العثمانيين في سنة ١٥٧٧ استولوا على مصوع وأركيكو وتقدموا نحو سهل أرترية ، وأنشأوا حصناً في دباروا .

وأعد القائد العثماني أزدمر بعد نفوذ العثمانيين في هذه الجهات ، ولكن رعاء الولايات الشمالية مثل يسحق وبحر نجش هزموا القوات العثمانية ، وحاولوا بسبها وبيس احتلال جزيرة بوري .

ثم انهر الأحباش فرصة اشغال القائد العثماني واستولوا على دباروا ، واضطروا العثمانيون إلى التراجع نحو سواكن ومصوع وأركيكو ولما أنهى الأحباش المقاومة في هرر ، استداروا للعثمانيين وحليفهم الجديد بحر نجش فهزموه . وقبل الناشا العثماني في هذه المعركة . وانتهت هذه المعارك بعقد الهدنة سنة ١٥٨٩ (١) ، ثم بدأ العثمانيون طول القرن السابع عشر والثامن عشر يشعلون عن اسحر الأحمر

الامارات الجنوبية والبر تغاليون :

فلننظر إلى الامارات الجنوبية كيف واجهت خطر البر تغاليين . هذه الامارات في بداية هذا العصر أعنى منذ منتصف القرن الثالث عشر فصاعدا اكتمل نموها . ووضعت شخصيتها الإسلامية ، وبدأت تتحول من مجرد مدن تجارية قائمة على ساحل المحيط الهندي إلى سلطنات إسلامية ذات نظم وراثية في الحكم وذات عادات وتقاليدها . بعد أن كثر عدد المهاجرين العرب وانتشر الإسلام بين الشعوب النازلة على الساحل الشرقي . وعظمت الثروات بتنوع مظاهر النشاط الاقتصادي .

(١) Conti Rossini La Guerra Turco-Abissinia, del 1578, oriente
Moderno, Rome, 1923.

فالأُسرة النهائية التي رأيناها نقوم في جزيرة (بانا) Pate برزت في هذا العصر بروزاً واضحاً ، خصوصاً في عهد عمر الأول (١٣٧٢ - ١٣٥٨) نجحت مشروعاتها الاقتصادية ، وامتد سلطانها على شطر كبير من ساحل شرق إفريقيا ، وكشفت دراسات الأستاذ هنتشر عن سلطنة إسلامية نهائية مكتملة النمو ذات نظم إدارية وتقاليدها سياسية ، فقد انفردت بتقاليدها الجديدة في الملاحة بين الضرائب وبين النشاط الاقتصادي للشعب ، فقد كانت ضريبة الإنتاج مقدارها ١٠ ٪ إذ تتقاضى الدولة وسقي من كل عشرين وسقا تنتجها كل جماعة من العبيد مشغلة بالزراعة (١) .

وقد ترجم هنتشر قطعة من الأدب لسواحيلي من عصر بني نهان تدل على تدمير الناس من هذه السياسة الضريبية (٢) .

« وفي بيجوريلا ند أولح قطعتي من الأرض . وانتج عشرين حملاً أخذت الدولة منها حمليين .. ماذا أفعل . قل ماذا أفعل ؟ زوجتي تطالب بالملابس الجديدة وأنا غارق في الديون إلى أدنى » .

بل كشف مخطوط تاريخ لامو عن جانب آخر من النظم السياسية . ففي عهد عمر الأول كانت دار الشورى Junbe في بانا مقراً للحكومة المركزية للبلاد التي خضعت لهؤلاء السلاطين وكان السلطان النهائي يتخذ له عاملاً في كل مدينة من المدن التي حصصت له . هذا العامل يشاركه السلطة مجلس شورى محلي ، كما يستعين هذا الوالي بكبراء المدينة ودوى الوحاهة فيها .

وكما ظهرت سلطنة النهانيين في بانا وبررت على هذا النحو تمت سلطنة كلوا وسنطاعت هي الأخرى أن تخضع عدداً من مدن الساحل الإفريقي .

وقد وصل سلطان كلوا الغاية في القرن الخامس عشر ، فعندما ألقى فاسكودا جاما مراسيه في مورمبيق وجد أن حاكم هذه المدينة يخضع لسلطان كلوا .

وكانت المكوس تجمع باسمه وتحمل إلى خزائنه (٣) . وكان يفوذ كلوا قد امتد

W. Hichens : Islam in East Africa, p 118

(١)

Werner : Khabar al-Pate : J.R.A S. 1915.

(٢)

Coupland : East africa, p 26.

(٣)

إلى مناجم الذهب في سفالة ، بل امتد هذا النفوذ حتى ممسى على إثر مصاهرة تمت بين البيتين الحاكمين في كل من كلوا ومبسي (١) .

وفي نفس هذا العصر تقريباً كانت مقدشو في أقصى الشمال تمر في تطور مشابه وقامت فيها سلطنة إسلامية ذات نظم ورسوم أصابت قدراً كبيراً من الثروة والجاه زارها ابن بطوطة في القرن الرابع عشر . وكان سلطانها يدعى أبو بكر بن الشيخ عمر . ويظهر أنه من مسلمي الصومال . ويبدو من وصف ابن بطوطة أنها كانت سلطنة تباورت تقاليدها ونظمها . فهو يتحدث عن جلوس السلطان بقوله « ودخل إلى مشوره على تلك الهيئة وقعد لوزراء والأمراء ووجوه الأحناد في سقيفة هنالك ، وفرش للقاضي بساط لا يجلس معه عليه غيره ، والفقهاء والشرفاء معه . ولم يزلوا كذلك إلى صلاة العصر فلما صلوا العصر مع الشيخ أتى جميع الأحناد ووقفوا صفوفاً على قدر مراتبهم ثم صربت الأطبال والأنفار والأبواق (٢) » .

ثم يتحدث عن جلوس الفقهاء والعلماء ودوى الرأي ، وعن كيفية نظرهم في شكاوى الناس وتسايقهم للشريعة الإسلامية ، كما يفيض في وصف الحياة الاقتصادية ومدى ما وصلت إليه السلطنة من اتساع في النفوذ ونمو في التجارة (٣) .

لا ينكر أن بعض هذه السلطنات مثل سلطنة بنى بهان في بابا استطاعت أن تبسط نفوذها على أغلب مدن الساحل الشرقي طوال القرنين الثالث عشر والرابع عشر . واستطاعت كلوا أن تحقق مثل هذا النفوذ في القرن الخامس عشر . غير أن هذه الجهود لم تتمخض عن إيجاد وحدة سياسية تجمع شمل هذه المدن التجارية .

والعجز عن تحقيق هذه الوحدة يرجع إلى تكوين هذه الإمارات من بطون عربية مختلفة ، لم تتحد في شبه جزيرة العرب . فكيف تندمج في وحدة واحدة في شرق إفريقية ؟ فضلاً عن اختلاف المذاهب الدينية من زيدية إلى إباضية إلى سنة مذاهب لا يمكن أن تأتلف أو تقترب ، ثم التوجيه الجغرافي للمدن نفسها لم عمل عليها أن تندمج في نظام سياسي موحد .

(١) ابن بطوطة - ١ ص ١٥٥

(٢) نفس المصدر - ١ ص ١٥٣

(٣) ابن بطوطة ص ١٥٤

فهي مجموعة من المدن التجارية تستقل كل واحدة منها بنشاطها التجاري ، وتكاد تتخصص في تجارة من التجارات ، فهي أممها بالمدين الفينيقية التي تناثرت على ساحل الشام ، أو على ساحل شمال إفريقية ، وكانت العداوات لا تفناً تشتعل بين هذه المدن المختلفة مذهبياً وجنسياً ! مثل النزاع المعروف بين مالتده ومبسى (١) الذي استمر حتى قلوب البرتغاليين . وسارت مالتده في ركابهم مع اختلاف الدين رغبة في الانتقام من مبسى .

هذه المدن والإمارات والسلطات كان طابعها اقتصادياً صريحاً وتاريخها الاقتصادي يكشف تاريخها السياسي . ويؤثر في حضارتها وفي حياتها الاجتماعية ، بل يؤثر في نشاطها الإسلامي

هذه المجتمعات تنوعت مشروعاتها الاقتصادية . واشتغلت بالزراعة في المناطق الخصبة ، زرعت محاصيل لم تألفها أبلاد : جلبوا زراعة البرتقال والذرة والفلفل والأرز والقمح . وبجحت هذه الزراعة نجاحاً بعيد المدى . ويكفي أن يذكر أن القرنفل أهم المحصولات التي يعتمد عليها أهل زنجبار حتى اليوم .

وكان لهم نشاط صناعي ، فقد عرفت مقدشو صناعة المسوجات الرفيعة التي كانت تصدر إلى العالم الإسلامي كله ، وذكر ابن بطرطة أنها كانت تحمل إلى مصر . وكذلك استخراج الذهب من منطقة سفالة ، هذا إلى جانب التجارة التقليدية في العاج والذهب وجوز الهند والدقيق (٢) .

واستطاعت هذه المجتمعات بعد أن تنوعت مصادر الثروات فيها على هذا النحو أن تصل في الغنى والترف إلى ما يقرب من الحيال . تظهر هذه الحقيقة من وصف ابن بطوطة (٣) لمدين مقدشو وكلوا ومبسى في القرن الرابع عشر ، وهذا الرحالة كان على معرفة وثيقة بمستوى الحياة العربية في البلاد الواقعة في حوض البحر الأبيض المتوسط في هذا العصر فعجب للثراء العريض والحياة المترفة التي رآها في شرق إفريقية . وحديثه عن كلوا يوحى بأنها من أجمل بقاع العالم وأوفرها بهاء . وكذلك حديثه عن مبسى ومقدشو يعطينا صورة صادقة لمجتمعات مترفة غنية .

(١) على إبراهيم عنه : الماسة الدولية في أعالي ص ٣٤ .

Coupland . p. 26.

(٢)

Coupland : pp. 35—36

(٣)

أصورة الأخرى نستمدّها من رجالة برتغالي معاصر ، رأى هذه البلاد تبلغ الغاية من التطور الاقتصادي في القرن الخامس عشر . هذا الرجالة هو Duarte Barbosa الذي رآه هذه البلاد سنة ١٥٠٠ على وجه التقريب ، وسجل في رحلته ما رآه من اردهار ورحاء . فقال : لم يلق في أقاليم العرب في هذه البلاد حقبة طويلة سبب اشتغالهم بالتجارة مع البلاد الداخلية وكانوا يتجرون في زوارق صغيرة في كلو ، أو ممبسي أو مالنده فيبيعون الملابس القطنية والخيرية ، ويبادلونها بمحصولات البلاد (١) .

ووصف ممبسي وتحدث عن نظافة بيوتها وناسق طرقاتها وملابس رجالتها ونسائها حسب المدهش المتعجب ، كما أعجب واسكوداجاما من قل حينما رأى سلطان مقدشو في ملابسه الفاخرة وحاشيته ، ووصف المدينة . ورأى معوثته إلى مالنده المعجب ، المقام من العاج والذهب والأبسطة الفاخرة والحياة التي يشع منها الترف والجاه .

ولم نشد مدينة من هذه المدن عن هذا الوصف . كلوا والجور الصغرى وممبسي وماوا وبما كلها في مثل هذا المستوى الرفيع . الأمر الذي يدل على أن هذا المجتمع الإسلامي في القرن الخامس عشر قد بلغ قمة التطور الاقتصادي (٢) .

هذا النشاط الاقتصادي ترك أثره في الحياة الاجتماعية . فقد فرضت هذه الحياة على طوائف السكان أن تتعاون لخير المجتمع . كانت طبقات المجتمع كما وصفت في ذلك العصر أربعاً : الاستقراطية العربية صاحبة الكلمة في البلاد ، وطبقة اليهود المهاجرين وكانت تملك أغلب سفن المحيط الهندي ، ومهر اليهود في الشؤون المالية والمصرفية وركروا في أيديهم الحركة التجارية ، ثم طبقة أخرى من السكان حيط من المهاجرين العرب وأهل البلاد الأصليين تتكلم اللغة السواحلية . ثم طبقة العميد الذين كانوا يشترون بالمال ويقومون بالأعمال اليدوية في المزارع والمصنع والمتاجر . هذه الطبقات كلها تعاونت معاً بصورة فريدة (٣) .

هذا النشاط الاقتصادي دفع المشتغلين بالتجارة إلى التوغل في داخل البلاد لجلب العميد . وكان سرب هؤلاء العرب إلى المناطق الداخلية تسريباً سلمياً في أغلب الأحوال ، ولما كانت الإبل لا تستطيع أن تسلك هذه الطرق في مواسم الأمطار ،

(١) ابن بطوطة - ص ١٥٣ .

M L Dames The Book of Duarte Barbosa. (٢)

Coupland - pp 26-28. (٣)

لذلك اعتاد التجار أن يتخذوا لهم مأوى في المناطق الداخلية يقيمون فيها الشهر أو الشهرين يتاجرون ثم يعودون . فأدى هذا إلى نشأة بعض المستقرات الداخلية ، وكانت هذه الصلات التي نشأت غايتها المبادلة التجارية في المحل الأول ، إلا أنها أفضت إلى نشر الإسلام في المناطق الداخلية (١) .

كانت هذه المدن تختلف عن المدن الشمالية ، فهي لم تجد دولة مسيحية تنازعها لقمة العيش ، وتقف لها بالمرصاد ، ولم تكتب في تاريخ الجهاد صفحة موسومة بطابع القروسية ، كآتي كتبها أوفات وعدل وهرر . كانت تود أن تعيش في سلام تتابع نشاطها الاقتصادي . لولا أن وجدت نفسها وقد انقسمت في المعرك الصليبي دون أن تدري

أنها الصليبيون ليس عن طريق البر كما رأينا في الشمال ، إنما عن طريق البحر في ركاب البرتغاليين الذين طهروا في المحيط الهندي . فقد دار ديار حول رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٨٦ .

ولم يكن عمل ديار أقل شأناً من اكتشاف كولومبس للقارة الأمريكية . فقد كان هذا مقدمة لسيطرة الأوربيين على تجارة المحيط الهندي ، وما تلا ذلك من السيطرة الاقتصادية والسياسية .

وفي سنة ١٤٨٧ جاء فاسكو دا جاما متريماً خطوات سلفه دياز ، فدار حول الرأس ووصل إلى المدن الغربية في موزمبيق ومالنده ، ثم شق المحيط إلى قاليقوت ، وعاد إلى لشبونة من نفس الطريق .

ثم عاد البرتغاليون مرة أخرى في ربيع سنة ١٤٩٧ . وبدأ الهجوم الصليبي من الجنوب ، واستغل الفاتحون الصراع التقليدي بين مالنده ومبمبي فأخذوا يغتالون هذه المدن الواحدة في إثر الأخرى . ولم يشهد هذا المسرح الجنوبي إماماً مثل أحمد القرين يوحد الجهود . وبذلكي الخمية في النفوس لمواجهة هذا العدو .

كان ظهور البرتغاليين بداية صراع دموي عنيف استمر أكثر من قرنين (٢) .

Coupland : p. 30.

(١)

(٢) أنظر Ballard : Rulers of the India Ocean. Guillaum, Documents sur L'histoire de l'Afrique Orientale.

ولم تكن البرتغاليون يريدون الاستقرار السلمي إنما كانت أغراضهم صليبية واضحة، هي انقضاء على الإسلام والحصول على أكبر قدر ممكن من ذهب سفالة ، والسيطرة على المحيط الهندي وطرد المسلمين من البحر ، وانقضاء على احتكار المسلمين هذه التجارة

وقد احتارت البرتغال رجالاً أعدوا لهذا العرض ، والمؤرخ البرتغالي Faria Souza في كتابه In the Portuguese Asia يعرف بذلك إذ يقول « كان البرتغاليون ضباط يمتازون بالقسوة والطمع . والحكمة والتعقل في نظرهم كلمات جوفاء . علمهم حب الربح بعيدون من الشعور بالعدالة » .

« كفى أن يقال أنه لم تنج مدينة من هذه المدن المزدهرة من عث الطغاة، أحرقت مدناً خمس مرات . وضعوا السيف في رقاب الناس ، ومن بقي أسروه وأعملوا السيف في كفو . وطردوا أهلها من ديارهم . دمروا مساجد لأمو وبانا وقتلوا الشيوخ ووردوا المعرعات الماهظة ، واستطاعوا في سنوات قلائل بالسيف والتعذيب وإراقة الدم ، أن يقصروا على المؤسسات التجارية التي أنشأها العرب (١) .

وفي خمس الوقت تقريباً خرحت جموع من الزنوج الوازماء من الدخول وأطبقت على السواحية ، وأغاروا على ممسى . هاجموا الناس وأكلوهم في الطرقات .

وفي نفس الوقت رست سفين Colombo de Menezes في ميناء ممسى لتصر بها بالنفوس . وهرب الناس من أكلة الشر ، وألقوا بأنفسهم في البحر ليعتصموا بالسفن الراسية . لكن البرتغاليين حصدهم بالرصاص .

وقد صور منشئ هذه الحروب البرتغالية تصويراً يبين بشاعته بقوله :

“All that remains of their occupation are a few bush grown ruins and, at Mombasa, that grim, shapless mass of frowning rock, Fort Jesus, whose walls could tell such tales of massacre and pillage, rape, and arson, that even the cannibal wasimba would have trembled to commit so blasphemous an irony as to bestow the same of their diety upon so sanguinary a pile”(٢)

Hichens : op. cit p 122.

(١)

Hichens : p. 123.

(٢)

وإذا كانت حركات الجهاد قد انتهت في الشياك إلى ما رأيناه من سيطرة الأجباش وانتهت في الجنوب إلى استتباب النفوذ البرتغالي ، فإن القرن السابع والثامن عشر سيشهد التيار الإسلامي متغلباً على هذه المصائب ، معاوداً نشاطه وجويته من جديد . فقد استجذبت ظروف مكنت الإمارات الإسلامية الجنوبية من التحرر من رقة الاحتلال البرتغالي ، فقد ظهرت قوى بحرية أخرى تنافس البرتغاليين في شرق إفريقيا وفي المحيط الهندي ، وتنتقص من سيادتهم . فقد استدارت سفينة فرنسية حول رأس الرجاء الصالح سنة ١٥١٩ بعد رحلة ديار بنحو ثلاث وأربعين سنة .

كما بدأت أول سفينة الإنجليز تدخل هذا الميدان سنة ١٥٨٠ ، وظهرت أول سفن هولانده سنة ١٥٩٠ . واستطاع لنكسر الانجليز سنة ١٥٩٠ أن يصل إلى الهند ، وتأسست شركة الهند الشرقية ، وبدأت كل من إنجلترا وهولانده ترسلان السفن التجارية المسلحة لتنتشر في اشرق الأقصى من البحر الأحمر إلى الفلبين .

وكانت هذه التطورات مما مهد السبيل للانتقاص من السيادة البرتغالية بل أدت للقضاء عليهم ، فلم تبق لهم إلا جوا ومالقه . وطردها من هرمز سنة ١٦٦٢ .

وأخذ الانجليز يملكون لأنفسهم ، استولوا على مورينيوس سنة ١٦٤٤ وسيلان سنة ١٦٥١ . وفي منتصف القرن الثامن عشر فقد البرتغاليون مستعمراتهم وشركاتهم في الشرق كله من الخليج الفارسي وسواحل الهند وأرخبيل الملايو وركزوا اهتمامهم في جزر الهند الشرقية .

والمسلمون من أهل البلاد لم يستسلموا لهذا الخطر البرتغالي إنما بدأوا يستردون الأرض التي فقدوها ، فقامت منذ سنة ١٥٨٣ سلطنة عربية في المناطق الشمالية البعيدة عن النفوذ البرتغالي ، وبدأت ممبسى تقاوم هذا الاحتلال ، وظهر عامل جديد لم يكن في الحسبان فقد طهر العثمانيون في القرن السادس عشر ، وبدأوا يثبتون أركان سيادتهم على البحر الأحمر وينفسون البرتغاليين .

وكان ظهور الأسطول التركي سنة ١٥٨٠ مما شدد عزائم المناصلين المسلمين (١) ، وقوبلت هذه السفن بحماس شديد في كل مدينة زارتها ، وبدأت المدن الإسلامية تعلن

الثورة وتخرج عن طاعة فيليب الثاني ملك البرتغال ، وتدخل في طاعة السلطان العثماني .

وأرسل صاحب ممبسي يستصرخ العثمانيين بإرسال حامية تركية ، ولكن العثمانيين لم يقدموا على المغامرة في هذا الميدان الجنوبي . فلم يرسلوا الحامية الموعودة . إنما استدعى البرتغاليون السجلات من أجرا ومالئده وعاود المسلمون الاستنجاد بالعثمانيين وتعهدوا بأن يمولوا الحملة وأن ينفقوا عليها . وجاء القائد التركي إلى ممبسي مرة أخرى ، لكن حاققت به الهزيمة وقبر هذا الأمل في نفوس المجاهدين .

لكن ظهر في ميدان الجهاد الإسلامي شعب في آخر . فقد تحرر العمانيون سنة ١٦٥٠ في عهد الإمام سلطان بن سيف . وطرّدوا البرتغاليين من مسقط ومن الساحل العمري الجنوبي . وأرسلت ممبسي إلى العثمانيين تستصرخهم .

ودخل العمانيون في ميدان الجهاد في الجنوب سنة ١٦٥٢ . واستطاعت هذه القوة القصية أن تهزم البرتغاليين في زنجبار . وفي سنة ١٦٦٠ استولى الأسطول العثماني على ممبسي . وفي سنة ١٦٦٩ في آخر أيام سلطان بن سيف دخلوا موزمبيق (١) . وظل العمانيون يحملون على المقاومة في عهد سيف بن سلطان ، وهزم البرتغاليون سادة الأمم هزيمة ساحقة عند ممبسي ، وفي سنة ١٧٤٠ استطاع الإمام أحمد بن سعيد أن يحرر المسلمين في شرق إفريقية نهائياً (٢) .

وكأن هذا التحرر من الكابوس الذي جثم على صدر المسلمين نحو قرنين كان نديراً باطلاقة عظيمة للنفود الإسلامي . فقد عاودت الحركة الإسلامية نشاطها . وبدأ المسلمون بعرضون ما فاتهم تحقيقه في السنوات الماضية .

وبدأ الإسلام يتوغل توغلاً حقيقياً إلى الداخل ، وبدأ الدعاة ينشرون الإسلام في موزمبيق وسفالة . ونفذ الإسلام إلى نياسلاند ، ولا زال بها حتى اليوم نحو ربع مليون من المسلمون .

وبعد اختفاء الخطر البرتغالي تعمق المسلمون في توغلهم الداخلي . فنفذوا إلى

هضبة البحيرات ، ودخلوا أوغدة ، دخلها تجار زنجبار سنة ١٨٢٥ ودخل الإسلام كينيا وتنجانيقا .

وفي خلال القرن الثامن عشر أنشئت المساجد في القرى الواقعة على طول الطرق التجارية الموصلة إلى بحيرات نياسا وتنجانيقا . وأدرك التسرب الإسلامى حدود الكنفو ويذكر هتشنز أنه لا تكاد تخلو قرية في قلب هذه المنطقة من مسجد للمسلمين (١) .

وأحرز الإسلام تقدماً مماثلاً في المناطق الإسلامية إلى الشمال من مقدشو ، وإذا كان السيف لم يفلح في قهر المقاومة الحبشية ، فإن الإسلام نفذ إلى قلب الحبشة طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر بوسائل أخرى .

وقلب الإسلام الهزيمة إلى نصر . وحقق من النجاح ما لم يحققه المعارك التي ظل المسلمون يخوضونها أكثر من أربعة قرون . فقد بدأت الحبشة بعد قصاتها على أحد القرين تدفع ثمن أطماعها الصليبية ، ومخائفها للغربيين من البرتغاليين

إذ بدأ النموذ الأوربي يتسرب إلى بلاد الحبشة على نطاق واسع . ودخل الجزويت في أثر سفراء البرتغال ، وبدأت الكاثوليكية الوافدة تهدد اليعقوبية الحبشية بعد أن تضاعف نفوذ هؤلاء المبشرين .

وبدأوا يستغلون النصر الذي أحرره في التدخل في الشؤون الدينية والسياسية ، وسخط الأحباش وبلغ السخط برعاتهم حداً جعلهم يفضلون أن يخضعوا للمسلمين ، وأن هذا الخضوع في نظرهم أفضل من وقوعهم في قبضة البرتغاليين .

وضح هذا السخط في عهد الملك وسيدداس . وبدأ يفكر في محالة المسلمين ، وطلب تأييد القوى الإسلامية في دفع الخطر العربي . وبدأت الحبشة تعود إلى سياسة ما قبل القرن الثالث عشر (٢) : العزلة عن العالم الجارحي ومسالمة المسلمين .

وبدأ هذا الملك معلاً يتصل بملوك اليمن ، اتصل بالإمام المؤيد سنة ١٦٤٠ بطلب أن يتعاونوا لدفع الخطر البرتغالي . كما عاود الاتصال بخليفته المتوكل على الله سنة ١٨٤٧ (٣) .

Ibid, p. 129.

(١)

(٢) أرنولد الدعوة للإسلام ص ١٣٨ - ١٣٠ .

Trimingham : Islam in Ethiopia p 100.

(٣)

ودخل الإسلام إلى هذه البلاد مستظلاً بهذه الناسة. ومتسرباً تسرباً سلمياً واسع
المدى والرحالة Mameol d'Almeida ، الذى عاش فى بلاد الحبشة بين سنتي
١٦٢٤ و ١٦٣٣ يذكر أن المسلمين انتشروا فى طول البلاد وعرضها وأنهم ثلث السكان.

وبدأ الوثنيون غير المتعمقين يقارنون بين المسيحية الحبشية الغارقة فى خضم
الحلقات المذهبية وبين بساطة الاسلام ووضوحه ، وهذا لأن الوثنيين الكارهين
للأحرية الحقدية عليها وجدوا فى الإسلام متنفساً لهم ، فمالوا إليه كرهاً فى الأحرية
وحضارتها .

فقد كانت موسومة بالكبرياء الدينى والعصرى ، فتهيات هؤلاء الأحباش الساخطين
الفرصة للانتماء إلى مجتمع عالمى أوسع ، والتمتع بأخوة إسلامية أكبر مقاماً ، وأوفر
قوة من دوة احشة نفسها ، فضلاً عن بجر الإسلام من العنصرية والطائمية وحو حر
الحسن واللون (٢) .

وبما يدل على عمق انتشار الاسلام واتحاده صورة عيفة أن الأحاس بدأوا يستشعرون
الخطر ، ويحاولون وقف الحركة الاسلامية الزاحفة بتخصيص قرى مستقلة للمسلمين
وأحياء خاصة لهم فى المدن الكبرى (٣) .

وقد اتخذ انتشار الاسلام وسيلة أخرى حملته إلى قلب النفود الحشى وذلك من
طريق هجرات الجلا . كان الجلا هؤلاء فى عصر القرنين حلفاً قليلاً مفكك الأوصال ،
ينتشر فى وادى أوبى وجوبا ، بل ينتشرون حتى الجبال الواقعة إلى الشرق من بحيرة
أبيا . ثم بدأوا يغادرون هذا الوطن منهزين فرصة الفراغ الذى أحدثه خروج
الصوماليين فى ركاب أحمد القرنين ، وبدأوا بهاجرون نحو بلاد الحبشة .

وكان شأنهم شأن البدو دائماً إغارات خاطفة ثم تفهقر خاطف ، وكانت هجراتهم
تتخذ من طريقين : من الجنوب الغربى عبر الممر الواقع بين جبل ولبو وبحيرة أبيا ،
أو عبر وادى جوبا ووبى .

الهجرات الأولى بدأتها قبائل الداوى إذ انقضت على منطقة باترا أموراً وهزمت

Histoire de la haute Ethiopia.

(١)

Trimingham : p. 101.

(٢)

Poncet : a voyage to Ethiopia.

(٣) أنظر

جيش الحبشة (١)، ثم غزوا منطقة بآلى بعد ذلك ، حدث هذا في الوقت الذي هزم فيه القرين وخرحت الحبشة من هذا الصراع منهكة القوى ، وكلما ردهم الأحباش كلما عاودوا الإغارة مرة أخرى واستقر بهم المقام في إقليم بآلى الغنى بمراعيه ومياهه ، ثم دخلوا هرر أيضاً وتعلموا استخدام الخيل بعد احتكاكهم بالصوماليين .

وفي مستهل القرن السابع عشر بدأوا يحتلون السهول الخصبة في شرق إفريقيا ، وبدأ بعضهم ينفذ إلى أمهرة ثم بدأت حموع أخرى تفتح الحبشة عبر نهر وبي . وتدفعوا إلى إمارات السداما في منطقة شوة ولم يستطع الأحباش دفع هذا الخطر الدافق فقد احتلوا ثلث البلاد

لم يندمجوا في السكان الأصليين . بل ظلوا بمعزل عنهم في الناحية الاجتماعية والثقافية وذلك بسبب عنجهية الأحريين وكبريائهم .

ثم بدأ الجلا يتسربون إلى النظام الحشى نفسه : دخلوا كمرتقة في القوات الحبشية ، وسيطروا على البلاط وبلغ فن نمودهم وارتفاع شأنهم أن أم الملك ينسو زوجته من ابنة أحد زعماء الحلا الأقوياء . وفي عهد ابنه وحليفته (١٧٥٥ - ١٧٦٩) غلب أقرباؤه من الجلا على الحياة وولاهم الوظائف الرئيسية في البلاد (٢) .

هؤلاء الجلا المهاجرين بدأوا يدخلون في الإسلام أفواجا ، وكان دخولهم أولا نتيجة حتمية لسياسة الأحباش القائمة على التفرقة العنصرية .

فقد تركهم الأحريون يعيشون بمعزل . لم يحاولوا إدخالهم في المسيحية ، وكان هذا الدين وقف عليهم وحدهم . بل بدأت الدولة تجعل الفلاشة والسداما والجلا والشانقلا (٤) عناصر معدة عن الحياة مضطهدة ، ثم أضافوا إليهم المسلمين .

وبدأ المسلمون يحتكون بالخلا في الأسواق . وبدأ الجلا يحسون بمعارضة

(١) Budge, Vol. II, pp. 603—613.

(٢) Cerulli, M.R.A.L. Sér vi. vol. VI, 1931

(٣) Trimingham : Islam in Ethiopia p 105

(٤) Trimingham . 102.

الإسلام للمسيحية في الحبشة ، ويدافع كرههم للأعرجين ونعصبهم . مالوا إلى الإسلام ودخلوا فيه (١) .

والوسيلة الأخرى أن سياسة المسألة التي ثابت . إليها الحبشة فتحت الطريق أمام التجار المسلمين وأمام الدعاة المتخذين زى التجار . وبدأ التجار ينشطون على وجه الخصوص في جنوب غرب الحبشة ، حيث كان المهاجرون من الجلا قد احتلوا ممالك سدامة وكونوا ست إمارات في هذه المنطقة .

كما انحدر التجار المسلمون إلى هذه الجهات من السودان ومن جنوب شرق إفريقيا . كانوا يجمعون بين التجارة والدعوة إلى الإسلام . وقد وجدوا ترحيباً صلباً من أمراء الجلا هؤلاء . فتحوا لهم الأسواق ، وجلبوا لهم ما يحتاجون من سلع . واستقر بعضهم في البلاد . واتخذوا زوجات من الجلا .

عن طريق هذه الصلات الاجتماعية والاقتصادية دخل هؤلاء الأمراء في الإسلام في منتصف القرن التاسع عشر ونعمهم شعب الجلا (٢) . وتسرب الإسلام إلى زعماء الجلا في قلب المصبة الحبشية نفسها ، وكان هؤلاء الزعماء قد وثبوا إلى أرفع المناصب واتخذوا مناصبهم هذه وسيلة للدفع بالحركة الإسلامية إلى الأمام .

من هؤلاء زعماء الرأس على الذي كانت له لسيادة على المناطق الوسطى والشمالية الغربية في بلاد الحبشة ، واستغل هذا النفوذ الواسع لتشجيع المسلمين ، ويقال أنه أحب أن يجي تقاليد الإمام أحمد بن إبراهيم ، فجعل قبره مثابة للناس يحجون إليه . ويقال إن هذا الزعيم الحبشى قد أدخل في الإسلام ثلث سكان البلاد التي تولى حكمها .

وفي نفس هذا العصر تقريباً انتشر الإسلام بين القبائل المسيحية في أرتيرية . وقد بلغ انتشار الإسلام حدا جعل الكردينال Massarian (٣) الذي قضى في البلاد ردحا طويلا من الزمن يقول أنه لو تمحض المجتمع الإسلامى عن ظهور قرين آخر لدحات البلاد كلها في الإسلام .

Budge, II. p. 627.

(١)

Trimingham : p. 109.

(٢)

Budge, vol. II, p. 508.

(٣)

الثقافة العربية :

والثقافة العربية في هذا الدور تأثرت بموقع المدن الإسلامية وطبيعة الحياة فيها ، وبالجهد المستمر الذي اضطلعت به ، فالمدن التي قامت على الشاطئ الشرقي لإفريقية كانت مدناً تجارية قبل كل شيء ، تشتغل بالنقل التجاري بين إفريقية ، وبين أسواق الاستهلاك في العالم كله . وكانت هذه المدن على علاقة وثيقة بالعالم الإسلامي كله ، علاقة ببلاد اليمن ، وعلاقة بمصر .

هذا الاتصال المستمر بالعالم الإسلامي . ترك أثره في الحياة الثقافية في البلاد فقد رحلت إليها جميع الفرق والمداهب التي عرفتها الحياة الإسلامية نزحت إليها الزيدية . ونزحت إليها الإباضية . وتوعدت المداهب بتنوع طوائف الراحلين والمهاجرين . وكثر الراحلون من أهل شرق إفريقية إلى بلاد اليمن وجزيرة العرب عامة .

كما كان فقهاء اليمن وعلماءها أكثر المسلمين ومود إلى هذه الجهات ، طبعوا الحياة بطابعهم ، وأثروا في الحركة الإسلامية تأثيراً واضحاً . وقد رأينا فقهاء الحجاز واليمن ينتشرون في سلطنة عدل وفي إمارة همدان يحضون على الجهاد ويحرضون عليه .

وكان لمسلمي شرق إفريقية صلة بمصر أيضاً . اتصوا بها اقتصادياً وثقافياً ، كان تجار مصر يختلفون إلى أسواق الحبشة وتجار مدن إفريقية الإسلامية يختلفون إلى مصر . وكان المسلمون الراغبون في الاستزادة من العلم يفتدون إلى مصر للالتحاق بالأزهر . وقد أنشئ لهم بهذا المعهد رواق لأهل ديلم ، ورواق للجبرتية .

وبرز من هؤلاء العلماء الوافدين إلى مصر طائفة من العلماء أمثال الشيخ الامام الزيلعي فخر الدين عثمان بن علي شارح الكنز المتوفى سنة ٧٤٢ هـ (سنة ١٣٤٢ م) والمحدث الزيلعي جمال بن عبد الله بن يوسف بن محمد المتوفى سنة ٧٦٢ هـ ، والعارف بالله الشيخ علي الجبرتي الذي اعتقد السلطان قابتنای في صلاحه وولايته وتوفي سنة ٨٩٩ هـ (١٤٩٣ م) (١) .

(١) يوسف أحمد : الاسلام في الحبشة ص ٦٨

وكان هؤلاء المشتغولون بالعلم يعودون إلى بلادهم لمتابعة نشاطهم العامي ولا يبعد أن يكون مصر من فقهاء مصر وعلمائها قد رحلوا إلى مدن شرق إفريقيا وأقاموا فيها . ومن مخطوطة السدي زار مقدشو في القرن الرابع عشر يشير إلى أحد الفقهاء المشاهير في هذه المدينة واسمه ابن البرهان المصري الأصل (١) .

وبدا كتب مصر قد تركت أثراً واضحاً في حياة نصباري الحبشة فلا بد أنها تركت أثراً أشد عمداً في حياة المسلمين من تلك البلاد ، هؤلاء المسلمون الذين كرس سلاطين المسلمين أنفسهم لحمايتهم والدفاع عنهم ، وكانت علاقتهم بملوك الحبشة متأثرة بمقام هؤلاء المسلمون من خير أو شر .

وقد كانت صيغة وحدة في الماد الإسلامي الواقعة شمال مقدشو أثرها فيما ساعدها من وحدة . فقد كان هؤلاء المسلمين في نضال وجهاد مستعدين ، حموهم من أعدائهم وقتلهم كله وحياتهم كلها .

هذا طابع من ثقافة بطابع ديني عميق ، فقد سيطر الفقهاء ورجال الدين على حياة المسلمين . وتحكموا فيها ، وكانوا من وراء حركات الجهاد التي اضطلع بها سلاطين مصر أو الأمراء الأئمة الدين طهروا في هذه البلاد منذ القرن الخامس عشر . كان هؤلاء الفقهاء يشتركون القتال ويحرضون عليه ، اشتركوا في جهاد سلاطين مصر وجهاد الأمير محفوظ والجراد آمون ، وجهاد الإمام أحمد بن إبراهيم .

وكان هؤلاء الأمراء والسلاطين يأثمرون بأمر هؤلاء الفقهاء ويتلقون منهم التوجيه والإرشاد وقد بظغت الحياة الإسلامية في هذه الجهات في القرن الخامس عشر بلوب دس لا يستطيع أن يعلله التعليل الصحيح .

وقد أشير في تقريرى إلى هذا الطابع المتزمت بقوله « . . . وهم يتشددون في ديانتهم تشدداً رائداً ويعودون من حالهم من مسير الملك أشد عداوة (٢) » ، كما لاحظ محافظتهم على دسهم إلى حد المغالاة ، وأن الإشارات القليلة التي وردت في كتاب عرب فقيه أو مصر رد مخطوطة أو العمري تشير إلى اضطلاع الأمراء والسلاطين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

بل مضى بعضهم إلى أبعد من هذا ، فالجريدة أبون أبطل المختور (١) واللب والرقص بالطبول ، وكذلك فعل كل من أتى بعده . فهل هذا اللون من الحياة الدينية مرده إلى حركات حنبلية انتقلت من بلاد العرب في ركاب التجار والفقهاء ؟ أم يرد ذلك إلى تأثير بعض نزعات الخوارج من الأباضية ؟

وقد انتشر الاباضيون في كثير من مدن شرق إفريقيا ؟ أو أن الخطر الملح من عدوان الأحباش ولد في نفوس المسلمين هذه الشدة في التمسك بأهداب الدين متمسكاً للرمق وصوباً للتراث الإسلامي من الضياع ؟ أم يرد هذا إلى طبيعة الشعوب حديثة عهد بالإسلام . فقد دخل الأعمار والصوماليون في الإسلام في عصر متأخر ، فاتسم دحولهم فيه بهذه الحركة الإسلامية العميقة

إذن غلب الطابع الديني على الثقافة الإسلامية في هذه البلاد فالعمرى يذكر أن مدن شرق إفريقيا لها الجوامع والمساجد وتقام بها الخطب والجمع والجماعات ، وعند أهلها محافظة على الدين : إلا أنه لا تعرف عندهم مدرسة ولا خانقاه ولا رباط ولا زاوية . . . فيهم الزهاد والأبرار والفقهاء والعلماء (٢) .

هذه الحقائق كلها تحدد لنا هدف الحركة التعليمية في هذه البلاد وطاوعها إذ ليس من شك في أن انتشار الإسلام كان مصحوباً بنشاط تعميمي واضح .

كلما انتشر الإسلام في مكان خف إليه الفقهاء وأقاموا الكتائب لتحفيظ القرآن وتعميم الدين . لذلك كان دخول الأحباش في الدين الإسلامي واستحاثهم لهذه الحركة التعليمية سبباً في ارتفاع مستواهم الثقافي .

وقد نقل السير نوماس أرنولد عن ريبيل (٣) . أنه كثيراً ما لاحظ أثناء نقله في بلاد الحبشة أن الوظائف التي تتطلب خبرة خاصة ومستوى ثقافياً معيناً لا يشغلها إلا المسلمون .

ويعال ريبيل ذلك بقوله إن المسلمين أعلا دمة وأوفر نشاطاً وأرفع مستوى . فقد ألزم كل مسلم تعليم أبنائه القرآن والكتابة اوقت الذي كن فيه في أثناء المسيحيين لا يتعلمون إلا إذا أرادوا الانتظام في سلك الكهوت .

(٢) الفلقشتي - ٣٢٤٥

(١) عرب فقيه ص ٦ .

(٣) أرنولد : الدمرة إلى الاسلام ص ١٣٩ - ١٤٠ .

انتشر هذا النوع من التعاليم في جميع أرجاء شرق إفريقية ، في المناطق الساحلية وفي الداخل أيضاً . ولكن يبدو أن التعليم لم يكن يتجاوز هذا المستوى .

فلم تشهد البلاد كما يقول المصري ظهور نوع من المدارس مثل التي ظهرت في مصر أو في غيرها من البلاد الإسلامية . ويبدو أن سهولة الرحلة بين هذه المدن وبين مختلف الأمصار الإسلامية جعلتهم ينشدون هذا النوع من العلم في مدارس اليمن أو الحجاز أو مصر .

ويبدو أن الحياة الثقافية في السلطنات التي انتشرت من متمدن صوب الجنوب كانت أكثر ازدهاراً منها في مدن الشمال ، فقد عاشت هذه المدن عيشة رخاء وطمأنينة منذ نشأتها الأولى حتى بداية الانحلال البرتغالي في أواخر القرن الخامس عشر .

لم تشهد هذا الجهاد العنيف من أجل البقاء الذي شهدته المدن الشمالية ولم تكن مدن الجنوب مجرد أسواق للتجارة إنما حمل المهاجرون إليها من العرب والفرس حبهم للأدب والشعر وميلهم للثقافة .

ويبدو أن المحنة البرتغالية ، وما أعقبتها من تحرر وإطلاق قد أنتجت نهضة أدبية شاملة وصلت إلى غايتها في القرن الثامن عشر . هذه المحنة لم تقض على العقيدة الإسلامية إنما صقلتها ، وانتشرت الحمية الدينية في كل مكان .

هذا التحمس الماثق للدين بعد عصر محنة ينمثل في الهزيمة التي ألحقها السيد عيد روس الشيخ على من أهل لامو (١) ؛ فيها تصوف وعمق ونزعة دينية عميقة ، وانطعت هذه الحرية في أغاني العصر وأنشيده وقصصه وتجلت هذه النهضة في مؤلفات السيد عبد الله بن علي ، وفي كتاب له يسمى الانكشاف (٢) .

وكان هذا السمر يقرأ في المدن الجنوبية كلها ، في الساحل وأماكن العادة . وامتدت هذه النهضة إلى الأدب الشعبي السواحلي ، وظهر في هذا الميدان شاعر من

Hichens : op. cit. p 123.

(١)

(٢) هذا الكتاب ترجمة منشور ومشر بلندن سنة ١٩٣٩ .

أهل الجنزوب اسمه مويكاكا ابن حاج الغساني ، بلغ في هذا الإنتاج الأدنى كبراً من التقوى (١) .

الإسلام في شرق إفريقيا في القرن التاسع عشر

وكان لا بد أن يستجيب الوطن الإسلامي في شرق إفريقيا للتطورات الهامة التي تجاوزت أصدائها في العالم الإسلامي في إفريقيا على الخصوص : هذه التطورات التي رأيناها تمتد إلى مصر والمغرب وغرب إفريقيا وسودان وادي النيل . كان لا بد أن يتجاوب المسلمون في شرق إفريقيا مع الوطن الإسلامي الأكبر . فهم جزء من هذا الوطن .

ولم تكن أحوال شرق إفريقيا في ذلك العصر نمهد لأن تبتثق حركات الإصلاح والتطور من داخل هذا الوطن نفسه ، فقد أحنقت حركات الجهاد التي رأيناها تشتعل طوال العصر الماضي .

وخرج المسلمون من هذه المعارك وقد أنهكت مواردهم واستنزفت قوتهم ، وأضعف الأجبان جميع الإمارات الإسلامية بساطاتهم . وتخلصوا من الحكم البرتغالي بعد أن تعاونوا معه ، وأوقفوا نشاط العثمانيين في شرق إفريقيا . وعانى المسلمون في الإمارات الجنوبية من الاحتلال البرتغالي الشيء الكثير .

ولم يكن يتبها لهم أن يتخلصوا من هذا الخطر الداهم . لولا ظهور القوى الحرة الكبرى في المحيط الهندي وإضعافها التمدد البرتغالي .

ثم تقدم العمانيون لانتقاد إخوانهم في الدين لذلك قصت هذه الظروف أن يستجيب هذا الوطن للحركات الإصلاحية التي ظهرت في العالم الإسلامي القريب . وكان طبعاً أن تمتد هذه التطورات إلى شرق إفريقيا . وأن تؤثر في حياة المسلمين هناك .

هذه التطورات التي أثرت في أحوال المسلمين في شرق إفريقيا هي : امتداد النشاط الصوفي الذي مسنه يد الإصلاح في القرن التاسع عشر ، امتداده إلى شرق إفريقيا ليساهم في تدعيم الحركة الإسلامية . وفي شر الإسلام في هذه البلاد ،

وظهور المصريين بعد فتح السودان واقتراهم من حلود الحبشة ؛ وتدخلهم في شرق إفريقيا ؛ ثم ظهور السيد سعيد وتوحيده مسقط وزنجبار (١٨٠٦ - ١٨٥٦) .

بدأت الطرق الصوفية تدخل شرق إفريقيا قبل بداية القرن التاسع عشر بوقت طويل لم تنسرب إلى البلاد قبل القرن الرابع عشر ، فقد لاحظ العمرى (١) الذي كتب عن هذه البلاد بين سنتي (١٣٣٢ - ١٣٣٧) أنه ليست بها ربط ولا زاوية ولا خانقاه .

ولكن يبدو أن الطرق الصوفية بدأت تنسرب إلى البلاد بعد ذلك ؛ تسربت القادرية مع المهاجرين اليمنيين أو الحضارمة ، وأخذت تنتشر في مصوع وزيلع ومقدشو ، ودخلت إلى هرر أصلاً على يد الشريف أبي بكر عبد الله العيدروس الذي توفي بعدن سنة ٩٠٩ هـ (١٥٠٣ م) (٢) ، فأصبحت الطريقة الرسمية في إقليم هرر حتى إذا كان القرن التاسع عشر ، ونشطت الطرق الصوفية وتجددت امتد هذا النشاط إلى شرق إفريقيا .

استأنفت القادرية نشاطها العلمي والديني . أنشأت المدارس في البلاد واضطلعت بنشر الإسلام . وانتشر أنواعها بين الجلا .

وفي جنوب عرب الحبشة كان نشاطها قد تركز في المناطق الساحلية حتى سنة ١٨١٩ ، غير أن النشاط امتد إلى المناطق الداخلية . وتسربت إلى مدينة براوه سنة ١٩٤٠ وانتشرت بعد ذلك في بلاد الصومال انتشاراً واسعاً ، ولها زوايا كثيرة في أرترية ومصوع وأسمرة وأغلب المدن الكبرى .

ثم تسربت الطريقة الأحمدية التي أسسها السيد أحمد بن إدريس القاسمي هذه الطريقة التي أصبحت في حركات الإحياء التي شهدتها القرن التاسع عشر ولم يكن القاسمي صوفياً محضاً . وما كان مصلحاً يستهدى تعاليم الوهابية ويتأثر بها ، فجرد الصوفية من كثير من دعائها ونادى بالاعتماد على الكتاب والسنة فهي طريق السالكين . وقد لقيت تعاليمه هذه معارضة عنيفة من علماء مكة . فاضطر إلى أن يهاجر إلى

(١) هلا عن المفسدى ص ٥٥ ص ٢٢٤ .

Trimingham : Islam in Ethiopia 234.

(٢)

عسير حيث مات بها سنة ١٨٣٧، ولكن آراؤه في الإصلاح لم تمت بموته ، إنما امتدت إلى شرق إفريقيا . دخلت الصومال سنة ١٨٧٠ ، ولقيت نجاحاً منقطع النظير خصوصاً في منطقة الشبيلي وقد لقيت استجابة سريعة من الصوماليين ، فقد صادفت تعاليمها صدى في نفوسهم ، واقد لعبت دوراً كبيراً في رفع مستوى الثقافة الإسلامية في بلاد الصومال (١) .

والحنمية التي ظهرت في السودان متأثرة بتقاليد ابن إدريس ، وانتشرت على يد محمد عثمان الأمير غني ، انتشرت بين بني عامر في شرق إفريقيا سنة ١٨١٧ ، وحملها ابنه الحسن إلى مدينة سواكن ، واستجاب لها الخلافة والحجاب ، وأنشئت مدينة الحنمية في كسلا ، واكتسبت الكثير من الأنصار راودت المحلصين للإسلام من سلاطين الماليك فحالت امكانيات عصرهم دون تحقيقها .

بمعنى أن اهتمام مصر الإسلامية بشرق إفريقيا لم يعد اهتماماً سلبياً إنما اهتماماً إيجابياً له شأنه وله أثره في توجيه الحياة الإسلامية في هذه الآفاق ، وبعث الروح في القوى الإسلامية التي استنزفت دماءها في قرون الكفاح وعهود الاضطهاد .

كان الامتداد المصري استمراراً للامتداد العثماني ، الذي أوقف نفوذ البرتغاليين وحقق للمسلمين السيادة البحرية من السويس شمالاً حتى مصيق عدن جنوباً ، رغم أن الأحاش استطاعوا أن يهادنوا القوة العثمانية وبحولوا دون تدفقها إلى إفريقيا .

غير أن العثمانيين ظل لهم نفوذ إسمي على الأقل على منطقة سواكن ومصوع . فقد كان نواب أركيكو من أهل البلاد الأصليين في الحقيقة يخضعون لباشا جدة العثماني ، كما كان حكم مصوع خالصاً لباشا الحجاز ، وكان نواب أركيكو هؤلاء المعينون من قبل باشا جدة يتولون أمر القائل التي تعيش في الأراضي المنخفضة الممتدة بين ساحل البحر الأحمر الغربي ، وكان لهم حق فرض الضرائب على القوافل التي تدخل أرض الحبشة (٢) .

غير أن البعث الذي تدفق في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر ثم

Trimingham : pp. 242-243.

(١)

Plowden : Travels in abyssinia p. 3

(٢)

امتد إلى السودان بعد فتحه كان مؤذناً بإحراج هذا النفوذ العثماني من الجمود إلى الحركة . ومعيداً لعهد التوسع الإسلامي القديم .^(١)

وكان ثور عهد محمد علي بمشكلة الحر الأحمر على أثر قيام الثورة الوهابية التي عرصب النفوذ العثماني في الحجاز للصياح واستنجد السلطان بوالى مصر لإخماد هذه الحركة . واستطاع إبراهيم بن محمد علي أن يحقق الآمال التي عقدها السلطان فكرياً بإعطائه ناشوية حدة في يوليو سنة ١٨٢٠ (١) .

ولما كانت هذه الناشوية تشمل سـ كـ ومصوع فقد أصبح إبراهيم يلقب بمنصرف حده وحش . وأصبح مصر رأس جسر في المنطقة الحامة ، وكانت منروعات محمد علي تهدف إلى تحقيق عرضين .

الفرص الأول أن تصبح هذه السيادة الاسمية على مصوع وسواكن سيادة حقيقية وأن تستند بباية أركيكو التي كثرت لانتكاد نسل من طمع الأحباش وعدوانهم بقوة عسكرية مصرية حقيقية . فأرسل سنة ١٨٢١ جيشاً استطاع أن يحتل مصوع ويحقق الشطر الأول من الخطة . وفي نفس الوقت تعمد الجيوش المصرية إلى إقلاق الحشدة ومواجهتها من العرب . بذلك تصبح هذه البلاد محصورة بين هذه القوات التي تأخذ من الشمال والعرب .

وعلى ما يريد أن يجرده هذه السياسة من أهدافها الإسلامية الواضحة بأن يدعى أن سياسة محمد علي تلك لم تكن تهدف إلا إلى الرغبة في بسط نفوذه الشخصي على مناطق تابعة للعثمانيين . أو الانتقام من الأحباش الذين آووا نمر وعصلوه وإما يعتقد أن هذه السياسة كانت تطوى على أهداف إسلامية واضحة . وإنما تعبير صادق عن حلام مصر الإسلامية تعاضدة القوى الإسلامية في شرق إفريقيا مع صده واقعه .

وفقدت القوات المصرية فعلاً تشدد القصر على سبدرات سنة ١٨٢٣ (٢) ، ورحل و بـ مصر إلى سـ دـ وطاف بمنطقة الحدود الحشوية . ثم عمدت جيوشه

(١) محمد إواد شلا . مصر وسيادة على السودان من ٢٢ - ٢٤ .

Sennar Chronicle, Mac-Michael Arabs in the Sudan, vol. II, (١٢)

إلى مهاجمة الحدود الحشوية عند القلايات . وإلقاء الذعر والفوضى بمنطقة جندار وقيل أن نجالفاً تم بين الرأس على زعيم الجلا المسلم ، وبين القوات المصرية للقيام بعمل مشترك (١) .

على كل حال لم تتحقق هذه الأهداف ، فقد كان الباب العالي يرتعد خوفاً من هذه القوة النامية في حجره . فلم يوافق على احتلال مصوع ، واضطر المصريون إلى إخلائها ، وعادت هذه البلاد إلى سابق عهدها من الصعف والتبادل في ظل السيادة العثمانية الاسمية .

وبدأ الأقباش يعاودون الاعتداء على منطقة أركيكور من جديد . وكان العثمانيون أحسوا بهداحة ما ارتكبه فوافقوا في سبتمبر سنة ١٨٤٦ على تأجير مياه سواكن ومصوع لمحمد علي مدى حياته ، بعد أن أنهكت قوته وأنشج بالجراح (٢) ثم بدأ نفوذ مصر الإسلامية يعاود الظهور مرة أخرى بصورة أقوى وأشد في النصف الأخير من القرن التاسع عشر . وذلك بإحياء الخطة القديمة ثم التوسع فيها بقليل الإمكان .

حاولت مصر أن تتولى تدعيم السيادة في منطقة البحر الأحمر بأن يتنازل العثمانيون لمصر عن سواكن ومصوع ، وكان الباب العالي الذي أفلقته أطماع بيودور وسياسته حريصاً على تحقيق ما أراداه المصريون . فأصدر في ٣ مايو سنة ١٨٦٥ فرماناً بمنح باشا مصر حكمه قائمقامي مصوع وسواكن وملحقاتها في ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ .

وصدر فرمان الوراثة الصلبة بمنح اسماعيل حكومة وراثية في مصر وجميع الملحقات التابعة لها في سواكن ومصوع . وكانت ملحقات سواكن ومصوع تمتد من الشمال في رأس علة إلى رهبطة في الجنوب عند باب المنذب (٣)

وظهر النفوذ المصري في هذه الجهات واضحاً قوياً متجاوزاً مع شعور المسلمين

(١) Mengin . Histoire de l'Egypte sous le gouvernement de Mohamed Aly, III, pp 97 — 98.

(٢) شكرى : مصر والسيادة على السودان في ص ٢ .

(٣) حرار ص ٧٨ .

المنتشرة مدتهم على ساحل إفريقيا الشرق بتجلى في الرحلة التي قام بها جعفر باشا مظهر وزيارته أهم الموانئ وتخصيص الرؤاتب لشيخ القبائل ، وإبحاره إلى شاطئ الصومال في أغسطس سنة ١٨٦٧ . ودعوة قبائل الصومال إلى الدخول في طاعة مصر .

وكان أهل البلاد من المسلمين يرون في ظهور المسلمين في أرضهم إحياء لماضيهم المشرق ، وكأنها حملة إسلامية قد خفت لنعبتهم والأخذ بيدهم ، وإدراك المصريين لأهمية هذه البلاد وعمق شعورهم الإسلامي وترحيبها بالنفوذ المصري بتجلى في التقرير الذي وضعه جعفر مظهر وقدمه للخديو مبيناً إمكانية مد مصر من السويس شمالاً حتى رأس غور دافري جنوباً (١) .

وسارعت مصر إلى تثبيت هذه السيادة بعد الحملة التأديبية التي أرسلتها إنجلترا إلى الحبشة سنة ١٨٦٧ ، فعينت عبد القادر باشا حاكماً على سواحل إفريقيا في نوفمبر سنة ١٨٦٧ . وأرسلت تعزيزات إقليمية المصرية .

وظهور الأسطول المصري في خليج عدن (٢) ، واستقبله المسلمون أحر استقبال حتى أن كل قبائل الصومال حتى رأس حافون أرسلت تطالب برابات عثمانية .

وكتب السلطان عبد الله بن السلطان سالم القادري إلى مصر يدخل في طاعتها ، وكان زعيم الدناقل إدريس بن حسن يتقاضى من الحكومة المصرية راتباً شهرياً .

وظهرت مصر بين مسلمي شرق إفريقيا في ثوب المنقذ ، فنحت الإعانات للعلماء والشيخ والفراء وأصلحت بين القبائل وألفت بين القلوب (٣) .

وبدت مصر كأنها تريد إحياء الجهاد الإسلامي الذي استهله أحمد القرين في القرن السادس عشر ، إذ أرادت أن تحكم الدائرة حول الحبشة لينم عزها وتطويقها فعين منزهر في ١٦ أبريل سنة ١٨٧١ حاكماً لمصوع ، وضم إليه إقليم بوغوص بين الناقة ومصوع . وتطلعت مصر إلى إقحام الخمسين ، وأرادت أن تسط

(١) Shoukry : Khedive Ismail p. 240.

(٢) حرار مصر ١١٤-١١٥ .

(٣) Trimingham : Islam in Ethiopia pp. 120-121

نفوذها على شمال الحبشة كله (١) ، وأن تعد قاعدة صالحة للهجوم على الحبشة من الشمال .

وفي فبراير سنة ١٨٧٣ عينت مصر مترنجير مديراً لعموم شرق السودان ومحافظة لسواحل البحر الأحمر من سواكن إلى زهيدة بما في ذلك بوغوص والتاكة ، ثم مضت مصر خطوة أبعد فقد حصلت على ميناء زيلع من الدولة العثمانية ، وقد تنازلت عنها مقابل جزية سنوية تدفعها مصر ، واستخدمت زيلع قاعدة للتسرب إلى منطقة هرر .

ودخلت مصر هرر فعلا في ١١ أكتوبر سنة ١٨٧٥ ، واستطاعت أن تبسط سيادتها على ساحل البحر الأحمر ، بل مضى النفوذ المصري إلى مصب نهر الجب . وبعد أن أتمت مصر تطويق الحبشة على هذا النحو عمدت إلى مهاجمتها بعد أن أعادت تنظيم الجيش المصري مستعينة بالضباط الأمريكان الذين سرحوا من الخدمة في بلادهم .

وأعدت لتحقيق ذلك حملتين : الأولى يقودها الكولونيل اندروب السويلى والثانية يقودها مترنجير ، كانت الخطة المتفق عليها أن يقع الهجوم من الشمال بينما يقوم مترنجير والنجاشي سنليك بمهاجمة الحبشة من الجنوب .

وقد فشلت هذه الخطة وهزمت القوات المصرية . وعاود المصريون الهجوم بقيادة راتب باشا فلم يوفقوا ، وبذلك نجحت الحبشة هذه المرة كما نجحت من قبل حين قتل أحمد القرين وأخفقت جهوده (٢) .

غير أن مصر ظلت تحتفظ بنفوذها على ساحل الصومال حتى رأس حافون وثبتت أركان هذه السيادة حين وافقت إنجلترا في مارس سنة ١٨٧٧ على امتداد السيادة المصرية على هذا النحو .

وامتداد النفوذ المصري إلى شرق إفريقيا كان سيتمخض عن توثيق العلاقات الثقافية بين مصر وهذه البلاد ودفع الحركة الإسلامية إلى الإمام لولا الأحداث

Sabry : Le Sudan Egyptien p. 132.

(١)

Trimingham : Islam in Ethiopia p. 121

(٢)

(م ٢٩ - الإسلام في إفريقيا)

التي أدت إلى احتلال مصر ، واشتعال ثورة المهديّة وانسحاب المصريين من شرق إفريقية .

وكما نأثر المسلمون في شرق إفريقية بظهور قوة مصر وامتداد نفوذها إلى السودان وتطلعها إلى البحر الأحمر وسواحل الصومال . كذلك قدر للمدني الواقعة إلى الجنوب من مقدشو أن تتعرض لتدخل آخر ، بشد أزري المسلمين وبيعث الحياة في الحركة الإسلامية .

فقد استطاع سلطان مسقط سعيد بن سلطان بعد أن تولى الإمامة أن يتخلص من متاعبه جميعها ، من القنائل لبدوية التي كانت لا تكف عن الإغارة على أطراف مسقط ، ومن قراصنة الخليج الفارسي الذين كانوا يربصون بتجارته الدوائر ، من النفوذ الوهابي الذي كان يريد أن يمتد صوب الحبوب ، ثم النزاع المتصل بين الفرنسيين والإنجليز الذي قد يجر في ذبوله عمان في أية لحظة .

تخلص من هذه المتاعب جميعها سنة ١٨٢٤ ، وأصبح سيد عمان دون منازع واسترعى هذا الحاكم الشاب انتباه العالم الإسلامي لمناحه في حوض هذا المعترك السياسي (١) . وما كاد يتم له ذلك حتى تجاوزت آماله شاطئ عمان . وأخذ يتطلع إلى شرق إفريقية الغني بثروته ونخارته .

كان أئمة عمان منذ مشاركتهم في طرد البرتغاليين قد احتفظوا بنفوذ اسمي في كلوا ومافيا ومما ورنجار (٢) . ولم يكن هذا النفوذ يمتد صوب الشمال فقد كان حكام ممبسي يحتفظون باستقلالهم غير أن السيد سعيد كان يريد أن يجعل هذه السيادة حقيقة واقعة ، ولم يتم له ذلك إلا ما خضاع ممبسي سنة ١٨٣٠ .

ثم انبسط نفوذه العملي على المدن الشرقية كلها . فقرر أن ينقل حاضرتة إلى زنجبار سنة ١٨٤٠ (٣) . وأصبحت زنجبار حاضرة توحد بين عمان وبين شرق إفريقية في إطار سياسي واحد لم يستطع أهل البلاد أنفسهم أن يحققوا مثل هذه الوحدة فلم تتحقق الا على يد هذا السلطان العماني القوي .

وكان هذا التوحيد بداية مرحلة مزدهرة في تاريخ الاسلام في هذا الجزء من افريقية

Couplaud : East Africa pp. 108-102

(١)

Ibid :p. 218.

(٢)

Werner : Zanzibar, Encyclopaedia of Islam

(٣)

وبرر السيد سعيد بين أئمة المصلحين الذين حفل بهم التاريخ الإسلامي في القرن التاسع عشر . واختط لنفسه سياسة نجحت إلى أبعد الحدود ، فمدت نفوذه ، وزادت من ثروته ، ونسرت لهذه أسباب الطمأنينة والرخاء .

وكانت إصلاحاته اقتصادية وسياسية معاً ، ففي الناحية الاقتصادية نجده يشجع هجرة الهنود إلى شرق افريقية في أوسع نطاق ، هاجر الهنود بخبرتهم ورموس أموالهم وأسهموا في النهضة الاقتصادية للبلاد (١) ثم يراه يعمل على استغلال ثروة زنجبار نفسها بالقيام بمشروعات زراعية .

توسع في زراعة القرنفل إلى أبعد الحدود وأصبح من أهم السلع التي تصدر من الشرق للغرب . وأصبحت مزارع القرنفل في أواخر أيام سعيد تغل نحو سبعة ملايين من الأروطال ، ثم عمد إلى البحث عن أسواق جديدة للتصدير غير الأسواق التقليدية في المحيط الهندي وشرق آسيا .

أراد أن يفتح أسواق أوروبا ، فرحب بالتجار الأوروبيين والأمريكيين فعقد معاهدة مع الولايات المتحدة سنة ١٨٣٢ ، ومع بريطانيا سنة ١٨٣٩ ، ومع فرنسا سنة ١٨٤٣ . وسمح بإنشاء قنصليات للدول الأوروبية . وفي السنة التي مات فيها كانت أوروبا تسهلك أكثر من ثلث منتحات إفريقيا (٢) .

وقد أثرت هذه السياسة فتضاعفت تجارة مدن شرق افريقية . ففي سنة ١٨٥٦ دخلت ميناء زنجبار أكثر من ٦٠ سفينة أوروبية وأمريكية ، وبلغ ثمن ما صدر من البضائع ١٤٦,٦٦٦ جنياً ، وبلغت الرسوم الجمركية المحصلة نحو ٢٢ ألف جنيه ، وقد أغراء هذا باحتكار التجارة ، وبدأت سفنه الخاصة ترناد موانئ أوربا (٣) .

واقترنت هذه الإصلاحات الاقتصادية بإصلاحات أخرى سياسية من تنظيم الإدارة والقضاء والتوحيد بين طبقات المجتمع وإنشاء فرقة من الجند المرتزة من أهل البلاد ولم يكن سعيد يعرف حدوداً سياسية ، فقد بسط نفوذه شمالاً حتى حدود الحبشة وجنوباً حتى موزمبيق بل امتد نفوذه إلى جزيرة مدغشقر بعد أن نزع ملكتها .

Coupland, pp. 302 303

(١)

Coupland, p. 314.

(٢)

Ibid, p 315.

(٣)

وأصبح السيد سعيد من أقوى الحكام المسلمين المعاصرين ، وأكثرهم ثروة وأبعدهم صيتاً ، وفي ركاب هذا الثراء العريض نمت الثقافة الإسلامية وازدهرت وازداد التوغل الإسلامى انطلاقاً صوب الداخل .

وكان من الممكن أن تعمل العوامل الثلاثة التي أشرت إليها على الهوض بالحياة الإسلامية ونشر الإسلام في أجزاء كثيرة من القارة والمضي بالنهضة الأدبية إلى أقصى مدى ممكن ، لو لم تتمخض أحداث السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر عن القضاء على هذه القوى أو إضعافها :

انتصر الأتراك وأكسوا انتصارهم بإخضاع ما بقي من القوى الإسلامية واستبعد النفوذ المصري ،

وبدأ الاستعمار البريطاني والفرنسي والإيطالي بثبت أقدامه في هذه البلاد ، وخضعت سلطنة زنجبار للنفوذ البريطاني ، وبدأ هذا الوطن الإسلامى يعاني من نفس الأدواء التي شهدتها الأقطار الإسلامية الأخرى .

نم بحمد الله وتوفيقه



المراجعـع

أولا - المراجع العربية

- أبو بكر خالد عمريا . قوتا السنغالية .
ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ليدن ١٨٦٦ - ١٨٧٤ .
الإدريسى محمد بن عبد العزيز الشريف الفاوي .
المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس - ليدن ١٨٩٦ .
أدسس : الإسلام والتوحيد . تعريب عباس محمود . القاهرة ١٩٣٢ .
أرنولد . الدعوة إلى الإسلام الطبعة الثانية . القاهرة ١٩٥٧ .
أحمد عورت عبد الكريم : العلاقات بين الشرق العربي وأوروبا بين القرنين السادس عشر والسابع عشر
دراسات في تاريخ الهبة الحديثة جامعة الدول العربية .
أحمد نطمي السيد : قتائل العرب في مصر . القاهرة ١٩٣٥ .
مارتولد الحضارة الإسلامية القاهرة ١٩٤٥ .
بتلر : فتح العرب لمصر . القاهرة ١٩٣٢ .
ابن بطوطة : الرحلة . القاهرة ١٢٨٧ هـ .
البكري : أبو عبيد الله بن عبد العزيز .
المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب . دى سلان . الجزائر ١٨٥٧ .
البلادري : كتاب فتوح البلدان . ليدن ١٨٦٦ .
تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان نشره هوداس . باريس ١٨٩٩ .
تريتون : اندمة في الإسلام .
التونسي : محمد بن عمر : تشجيد الأذهان بسير بلاد العرب والسودان .
حامم توارينغ فاس . طبع بمدينة بالرم سنة ١٨٧٨ .
الجزناني : أبو الحسن علي :

- زهرة الآس في بناء مدينة فاس . تلمسان ١٩٢٢ .
- حامد عمار : علاقات الدولة المملوكية بالدول الإفريقية . رسالة غير مطبوعة .
- حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين . القاهرة ١٩٥٧ .
- ابن حوقل : أبو القاسم محمد :
- المسالك والممالك .
- ابن خرداذبة : كتاب المسالك والممالك . المجلد السادس من مجموعة المكتبة الجغرافية ، لندن ١٨٩٩ .
- ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر . المجلد السادس بولاق ١٢٢٠ هـ .
- ابن خلكان : وفيات الأعيان . جزان ، بولاق ١٢٨٣ .
- اللباغ : عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصاري : معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، ٤ أجزاء ، تونس ١٢٢٠ هـ
- الدمشقي شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي طالب .
- نخلة الدهر في عجائب البر والبحر ، بطربورغ ١٨٢٠ .
- ابن أبي دبنار : المونس في أخبار إفريقية وتونس ، ١٢٨٦ هـ .
- وفاعة الظهاوي : مناهج الألباب المصرية .
- ابن أبي ررع : أبو الحسن علي بن عبد الله ؛
- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس . أو بسالة ١٨٤٢ .
- زكي المحاسي : بواعث الحياة الأدبية والفكرية في النهضة العربية الحاضرة دراسات في تاريخ النهضة العربية الحديثة . جامعة الدول العربية .
- السعدى : عبد الرحمن بن عبد الله بن عامر :
- تاريخ السودان . نشره وعلق عليه هوداس . باريس ١٨٩٨
- سيده إسماعيل كاشف : مصر في فجر الإسلام ، القاهرة ١٩٤٨ .
- مصر في عهد الأخشيدين . القاهرة ١٩٥٠ .
- الشاطر بصيلي عد اجليل : معالم تاريخ سودان وادي النيل ، القاهرة ١٩٥٥
- شكري فيصل المجتمعات الإسلامية في القرن الأول ، القاهرة ١٩٥٢ .

شيبو فرج بن حمد الباقري - خير لامو .

ترجمة Hichens

Univ. Witwaterstand press, Johannesburg, 1939

صلاح العقاد : المغرب العربي ، جزءان .

عمارة : تاريخ اليمن نشر وترجمة كاي سنة ١٨٩٢ .

ابن عبد الحكم : فتوح مصر . لندن ١٩٢٠ .

عبد الرحمن بن زيدان - إتحاف أعلام الناس بجمال حاضر مكناس ،
٥ أجزاء ، الرباط ١٩٢٩ .

عبد العزيز عبد المجيد - التربية في السودان والأمس النفسية والاجتماعية التي
قامت عليها ، ٣ أجزاء القاهرة ١٩٤٩ .

عبد النبي خلف الله - مستقبل افريقيا السياسي .

عبد اللطيف حمزة : الحركة في مصر في العصر الأيوبي والمملوكي ،
القاهرة ١٩٤٧ .

عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية في السودان ، القاهرة ١٩٥٢ .
بين الحبشة العرب .

ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب . والجزء الأول والثاني والثالث ،
لندن ١٨٤٨ - ١٨٥٠ وباريس ١٩٣٠ .

عرب فقية : شهاب الدين بن أحمد عبد القادر .

فتوح الحبشة : نشرة رينيه باسيه ، باريس ١٨٩٧ .

القافندي : صبح الأعشى ، القاهرة ١٩١٥ .

الكندى الولاة والقضاة ، بيروت ١٩٠٧ .

المالكى : رياض النفوس نشره وعلق عليه حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥١ .

أبو المحاسن بن تغري بردى : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة .

محمد بديع شريف : النهضة الفكرية والسياسية في القرن التاسع عشر ،

دراسات في النهضة العربية الحديثة - جامعة الدول العربية .

محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي . القاهرة ١٩٥٧ .

محمد حبيب أحمد : نهضة الشعوب الإسلامية في العصر الحديث ، القاهرة ١٩٥٣ .

محمد صيف الله بن محمد الجعل : كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان - القاهرة ١٢٢٤ هـ .

محمد عرض محمد : السودان الشمالي سكانه وقبائله - القاهرة ١٩٥١ .

محمد مؤاد شكرى : مصر والسيادة على السودان .

محمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطمية - القاهرة ١٩٥٠ .

أدب مصر الإسلامية (عصر الولاة) .

محمد مصطفى ريادة : مصر والحروب الصليبية

عبي الدين الزنبارى : السلوى في أخبار كلوا

ترجمة . J.R.A.S. 1865, S.A. Strong

محمود كعت التنبكى : تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجبوش وأكابر

الناس ترجمة هواديس ودى لافوس . باريس ١٩١٦

المراكشى : عبي الدين أبو محمد عبد الواحد التميمي

المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٤٢ .

المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ٨ أجزاء طبعة

Barbier de Mynard باريس - ١٨٦٠ ١٨٧٤ .

المسعودى : التنبه والإشراف . الجزء الثانى من المكتبة الجغرافية - ليدن

١٨٩٣ - ١٨٩٤ .

مصطفى مسعد : الإسلام والنوبة في العصور الوسطى - القاهرة ١٩٦٠

المقدسى : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم . ليدن ١٨٧٧

المقريزى : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار . حرران مولاى

١٢٧٠ هـ .

- المقرىزى : السلوك لمعرفة دول الملوك . الجزء الأول والثانى ، نشرة
الدكتور زيادة القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٤٢ .
- المقرىزى : البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب . جوتنجن
١٨٤٧ :
- المقرىزى : الأعلام بأخبار من أرض الحبشة من ملوك الإسلام . نشره
الدكتور رنك .
- مكى شبيكة : السودان فى القرآن . القاهرة ١٩٤٧ .
- مؤنس حسين : فتح العرب للمغرب . القاهرة ١٩٤٧ .
- سجلاء عز الدين : العالم العربى .
- نسيم مقار : أحوال السودان الاقتصادية قبيل الفتح المصرى رسالة غير مطبوعة
- نعوم شقيرة : تاريخ السودان القديم والحديث - القاهرة ١٩٥٦ .
- هوبير ديشان . البيانات فى أفريقيا السوداء - القاهرة ١٩٥٦
- الواقدى : فتوح الشام .
- يوسف أحمد . الإسلام فى الحبشة - القاهرة ١٩٣٥ .



ثانيا : المراجع الاوربية

- | | |
|-------------------|---|
| Allan (B. M.) | Gordon and the Sudan, 1931. |
| Anderson (J N P.) | Islamic law in Africa, London 1954. |
| André (R.) | L'Islam Noire, Paris 1924. |
| Arkell (A.J.) | Fung Origins, S.N.R. Vol. XV. p. 201—250. |
| Arkell (A.J.) | Fung Correspondence, vol, XXXIII p. 181—192 |
| Arkell (A.J.) | King Badi was not granting land S.N R vol. XV
pp 248—250. |
| Arkell (A.J.) | More about Fung origins, vol XXVII pp. 37—47 |
| Ballard (A) | Rulers of the Indian ocean, London 1927. |
| Barth | Travels and discoveries in North and Central
Africa in the Years 7809—1855, London 1858
8 vols. |
| Basset (R.) | Les Inscription de l'île de Dahlak. |
| Becker | Darfur, Ency. of Islam |
| Blake (J W) | European beginnings in West Africa, Longmans
1937 |
| Blunt | Secret History of the British occupation of
Egypt. |
| Blyden | Christianity, Islam and the Negro race |
| Bovill (F.W.) | Caravans of the old Sahara, Oxford 1933 |
| Browne | Travels in Africa, Egypt and Syria. |
| Bruce (J.) | Travels to discover the Sources of the Nile
Edinburgh, 1805 |
| Budge (E.A.W.) | A History of Ethiopia, London 1918, 2 vols |
| Burchardt (J.) | Travels in Nubia, London 1819. |
| Burns (A) | A History of Nigiria, London 1955. |
| Buxton (D.) | Travels in Ethioipia, London 1950 |
| Campbell (A.) | The heart of Africa, New York 1954. |
| Carpenter (G.W) | The Role of Christianity and Islam in Contem-
porary Africa, to day. |
| Cary (J) | Britain and West Africa, London 1946 |

- Cerulli (E.) : Il Sultanato dello Shoa nel secolo XIII R. S. E. I, 1941.
- Cerulli (E.) : Somaliland, Encyc. of Islam.
- Chataway (J.A.) : Fung origins, vol. XVII p. 111—117 S.N.R.
- Chataway (J.A.) : Note on the history of the Fung vol. XIII, p. 247—250.
- Clark (W.T.) : Manners, Customs and beliefs of the Northern Beja, S. N. R. XXI.
- Cloeman (J.S.) : The Emergence of African Political parties, Africa to day.
- Colson (E.) : Native Cultural and Social patterns in Contemporary Africa, Africa to day
- Conolly (R.L.) : Africa's Strategic significance, africa to day
- Cooley (W D.) : The Negroland of the Arabs, London 1841
- Coupland (A.) : The British Anti-Slavery Movement, 1833
- Coupland (A.) : East Africa and its invaders, London 1883.
- Craster (E.) : Pemba the Spice Island of Zanzibar, London 1913
- Crawford (O.G S) : The Fung Kingdom of Sennar, 1951
- Dale (G) : The Peoples of Zanzibar.
- Dames (M L) : The Book of Duarte Barbosa
- De La Chapelle (F.) : Esquisse d'une histoire de Sahara occidental, Hesperis, année 1930 T XI
- De la Fosse : Chronique du Fouta Senegalais, revue du Monde Musulman, Tome 25, 1913
- De la Fosse : Haut Senegal — Niger — Paris 1912
- De la Fosse : Senegal Encyc. of Islam.
- De La Roncière : La decouverte de l'Afrique en Moyen age
- Demombynes (G.) : Masalik El absar Fi Mamalik el Amsar, Paris 1927
- Doman (M.H) : The Kilwa Civilisation and the Kilwa ruins; T. N. R 1938.
- Dubois (F) : Tombouctou la Mystérieuse, Paris 1899
- Du Mas-Latrie (M L) : Traité des paix et de Commerce et documents divers Concernant les relations des Chrétiens avec les arabes de l'Afrique Sept Paris 1866.

- Elles (R.J.) : The Kingdom of Tegal, vol. XVIII p. 138.
- Fage : An introduction to the History of West Africa.
Combridge 1955.
- Fagnan (E.) : L'Afrique Septentrionale au XIIe. S. de Nolre
ère (Constantine 1900).
- Faria Y. Souza : In the Portuguese Asia, 1705.
- Flury (S.) : The Kufic inscriptions of the Kisimkazi Mosque.
J. R. A. S. 1922.
- Gautier (E.F.) : Les Siècles obscurs du Maghreb, Paris 1927.
- Gesse (R.) : Seven Years in the Sudan, London 1892.
- Gibb : Modern trends in Islam, Chicago 1945.
- Groves : The Planting of Christianity in Africa, Vol. I,
London 1946.
- Von Grunebaum : Unity and variety in Muslim Civilisation.
- Guidi : Abyssinia, Encyc. of Islam.
- Guillain (M.) : Documents sur l'histoire de l'Afrique orientale,
Pairs 1880
- Gunther (J.) : Inside Africa
- Henderson (K.) : Fung origins vol. XXXII, pp. 174—175. vol.
XXXIV, pp 315—316.
- Henry (P.) : The European Heritage, Africa to day.
- Hersokovits (J.) : The African Cultural beakground in the Mode-
rn scene, africa to day.
- Hichens (W.) : Islam in East africa, Islam to day.
- Hichens : Divani ya Muyaka bin Haji al-Ghassani (Joh-
annesburg) 1940.
- Hichens : Utendi wa Mwana Kuponu, Medstead, 1934.
- Hichens : As-Seyyid abdallah Bin ali's al'Inkishaf, Lon-
don 1939.
- Hillelson (S.) : The Anglo-Egyptian Sudan, Islam to day.
- Hogben (S.J.) : The Muhammedan Emirates of Nigeria, Oxford,
1930.
- Hollings worth (L.W) : A Short history of the East Coast of africa.,
London 1951
- Holt P.M.) : Mahdiya, S. N R. vol. XXXIII p. 182—186.

- Hourani : Arab sea-faring in the Indian ocean.
- Howard : West African explorers, London 1951.
- Huntingford (G.W.) : East African Background, London 1950.
- Ingrams (W.H.) : Zanzibar, London 1931.
- Jackson : Osman Digna.
- João de Barros : Decadas da Asia (Lisbon and Madrid 1563—1615).
- Kammerer (A.) : Le Mer rouge, l'Abyssinie et l'Arabie depuis l'antiquité, Cairo 1939.
- Kettie (J.S.) : The Partition of Africa, 1895.
- Lane-Poole : History of Egypt in the middle ages, London 1951.
- Latourette (R.S.) : History of the expansion of christianity, 1938.
- Littmann : Adal, Encyc. of Islam.
- Littmann : Harar, Encyc. of Islam.
- Longrigg (S.H.) : A Short history of Eritrea, London 1945.
- Lady Lugard : A Tropical dependency, Nisbet 1905.
- Lumb (S.) : Leaders of africa, London 1952.
- Lyne (R.N.) : Zanzibar, London 1905.
- Mac-Michael (H.) : A History of the Arabs in the Sudan, Cambridge 1922.
- Morçais (G.) : Les Arabes en berberie du XIe. au XIV, Siècle, Paris 1913.
- Morçais (G.) : Manuel d'art Musulman; l'architecture, Tome II
- Massignon(L.) : Annuaire du monde Musulman; statistique, historique, social et économique, Paris 1955.
- Meek (C.K.) : The Northern tribes of Nigeria, 2 vols, London 1925.
- Mengin : Histoire de l'Egypte sous le gouvernement de Mohammed aly.
- Mitchell (Ph.) : Africa and the West in Historical perspective, Africa to day.
- Molard (J.R.) : Afrique occidentale Française, Paris, 1952.
- Munger (E.) : Geography of Sub-Saharan race relations, Africa to day.

- Nadler (L) : Fung origins S.N.R. vol. XIV pp. 61—66.
- Newman (B.) : *From Morocco to day*, London 1923. (H.O.)
- Nicholson (R.A.) : *Studies in Islamic Mysticism*. (C.A.)
- Niver (C.R.) : *A Short History of Nigeria*, London 1952.
- Oldham (J.H.) : *New hope in africa*, London 1955.
- O'leary de lacy : *The Ethiopian church*, London 1938.
- Oliven (R) : *The Missionary factor in East africa* London 1952.
- Palme : *Travels in Kordfan, 1844*
- Palmer (R) : *The Bronu, Sahara and Sudan*, London 1936
- Palmer (R) : *Islam in the Western Sudan and on the West Coast of africa, Islam to day*
- Paul (A) : *The Beja tribes*, London 1954
- Pearce (F.B.) : *Zanzibar*, London 1920
- Pédler (F.J) : *West Africa*.
- Plowden : *Travels in Abyssinia*.
- Poncet (J.) : *The red sea and Adjacent Countries at the Close of the Seventeenth Century*. London 1949
- Radwan : *Old and New forces in Egyptian education*
- Robertson (J.V.) : *Fung origins*, vol. XVII p 260—265
- Robinson (A.E.) : *The Mamlukes in the Sudan*, vol. V p. 88—94
- Robinson (K.) : *French Africa and the French union, Africa to day*.
- Rodd (F.R.) : *Peoples of the veil* London 1926.
- Rossini : *La Guerra Turco-abissinia del 1578*, Oriende Modemo. Rome. 1923.
- Russell (G.) : *The Effects of Centralization of Education in Modern Egypt*, Cairo 1936.
- Sehoff (W.H.) : *The Periplus of the Erythrean sea* London 1937.
- Shukri (M.F.) : *Khedive Ismail and Slavery in the Sudan* Cairo 1937
- Sitwell (S.) : *Mauritania*, London 1951.
- Spence (C.F.) : *The Portuguese Colony of Mocambique, Cape Town, 1951*
- Lord Stanley and Aldarley : *Narrative of the Portugues Embassy to Abyssinia*, London 1881

- Stroland (C.H.) : The Land of Zing, London 1913.
- Strong (A.S.) : History of Kilwa, J.R.A.S. 1895
- Talbot (P.A.) : Peoples of Southern Nigeria, Oxford 1926.
- Terrasse (H.) : Histoire du Maroc, des origines à l'établissement du Protectorat Française, Casablanca, 1946.
- Trimingham (S.) : The Christian Church and Islam in West Africa, London 1955.
- Trimingham (S.) : Islam in Ethiopia, Oxford 1952.
- Trimingham (S.) : Islam in the Sudan.
Islam in West Africa.
- Tucker : The Eastern Sudanic language, Oxford 1940.
- Turner (L.D.) : The impact of Western education on the African's way of Life, Africa to day.
- Ward : A History of the Gold Coast, 1948
- Welsh (A.) : Africa south of the Sahara, London 1951
- Werner : Zanzibar, Encycl. of Islam.
- Worner : History of Pate, J. R. A. S. 1915.
- Wiet (G.) : L'Egypte Arabe, Hist. de la Nation Egyptienne, Tome IV.
- Wiet (G.) : Sultans Mamloukes, Le Caire, 1938.
- Wiet (G.) : Précis de l'histoire d'Egypte, 2eme Partie.
- Wingate (R.) : Mahdism and the Egyptian Sudan, London 1891.
- Wingate (R.) : Besiege and fall of Khartoum, S. N. R. vol. XIII.
- Wyndham (H.A.) : The Atlantic and Slavery, Oxford 1935

محتويات الكتاب

صفحة

الباب الاول

طبيعة انتشار الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا

٧ - ٧٨

٧ - ١٣

أهمية إفريقيا للعالم الإسلامى

١٣ - ٣٠

إنتشار الثقافة العربية

٣١ - ٤٥

إنتشار العقيدة الإسلامية

٤٥ - ٥٣

إنتشار اللغة العربية

٥٣ - ٦٥

وسائل إنتشار الإسلام

٦٥ - ٧٧

طبيعة القارة وأثرها في إنتشار الإسلام

الباب الثانى

إنتشار الاسلام والثقافة العربية

في مصر والمغرب

٨١ - ١٩٥

٨١ - ٩٢

الفتح العربى لمصر والمغرب

٩٣ - ١٤٠

إنتشار الإسلام والثقافة العربية في مصر

١٤١ - ١٧١

إنتشار الاسلام والثقافة في بلاد المغرب

١٧١ - ١٩٥

دور مصر وبلاد المغرب في إنتشار الإسلام في إفريقيا

صفحة

الباب الثالث

إنتشار الإسلام والثقافة العربية في غرب إفريقيا

١٩٩ - ٢٧٥

٢١٧ - ٢٠٠

٢٥٤ - ٢١٧

دور التكوين

دور الأزدهار

٢٢٥ - ٢٢٠

سلطنة ملي

٢٢٦ - ٢٢١

سلطنة الشنقي

٢٣٣ - ٢٣٢

إمارات الحوصة

٢٣٩ - ٢٣٣

سلطنة كانم وبرنو

٢٥٤ - ٢٣٩

طابع الإسلام والثقافة العربية

٢٧٤ - ٢٥٤

غرب إفريقيا في القرن التاسع عشر

الباب الرابع

إنتشار الإسلام والثقافة العربية

في السودان وادى النيل

٢٧٧ - ٣٧٢

٣٠٠ - ٢٧٧

دور التكوين

٣٤٢ - ٣٠٠

دور الأزدهار

٣١٠ - ٣٠٢

الخصر العربي الوافد على السودان

٣٢٨ - ٣١٠

السلطنات الإسلامية

٣٤٣ - ٣٢٩

طابع الحضارة الإسلامية

٣٧٢ - ٣٤٤

سودان وادى النيل في القرن التاسع عشر

صفحة

الباب الخامس
إنتشار الاسلام والثقافة العربية
في بلاد الحبشة وشرق افريقيا

٣٧٥ — ٤٥٢

٣٧٧ — ٣٩٩

٤٠٠ — ٤٤٣

٤٤٣ — ٤٥٢

دور التكوين

دور الأزدهار

شرق افريقيا في القرن التاسع عشر

٧٧٥٠ \ ٧٧٥٠ \ ٧٧٥٠ \ ٧٧٥٠ \ ٧٧٥٠ \ ٧٧٥٠

٧٧٥٠ \ ٧٧٥٠ \ ٧٧٥٠ \ ٧٧٥٠ \ ٧٧٥٠ \ ٧٧٥٠

دم الاباح بدار الكتب ٤٧١٧ / ١٩٨٦
الترقيم للنسول ١ - ٢٣٤ - ١٠ - ٩٧٧